وداع فلسطين

يتحدث عن:

أعلام عصره

الجزء الثاني

دار القلم
دمشق

وداع فلسطين

يتحدث عن:

أعلام عصره

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

حقوق الطبع محفوظة

تطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

وديع فلسطين

يتحدّث عن:

أعلام عصره

الجزء الثاني

دار القلم
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

عبد الله كنّون

في المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، يتوافد أعضاؤه العاملون والمراسلون من البلدان العربية والأجنبية للمشاركة في أعماله التي تستغرق أسبوعين، وهي فرصة أهتبلها لمقابلة منْ أعرف من المجمعيين، ولا سيّما لأن معظمهم ممّن عَلَت سنُّهم، فإنْ حضروا في عام، فقد لا يحضرون في عام تالٍ، إمّا بسبب المرض، أو لأن سيوف المنايا لم تدعهم يفلتون منها، كما أنها فرصة لعقد صلات مع أعضاء جدد حرصوا جميعاً على حضور الجلسة الافتتاحية، وربّما اضطرتهم التزاماتهم إلى العودة من حيث أتوا بعد يوم أو يومين قبل استكمال أعمال المؤتمر.

ويا له من موقفٍ يُورث الرهبة، إذْ يُلفي المرءُ نفسه وسط كل هؤلاء «الخالدين»، وكل منهم قمّة في المعارف في بلاده، وقد التأم شملهم جميعاً في مكان واحد وكأنهم أفراد أسرة واحدة متحابّة، لا تفرّق بين مشرقي أو مغربي أو شمالي أو جنوبي، ولا تتراءى في علاقاتهم أي أزمات قد تكون ناشبة بين بلد هذا وبلد ذاك. فقد جمعهم العلم، وربّما اختلفوا على قضاياه، ولكنّهم على الوداد مقيمون، وعلى الاحترام المتبادل جدّ حريصين.

ولئن لم أكن عضواً في مجمع القاهرة، فإن عضويتي في مجمعي دمشق والأردن هي شفيعي إذا ما تطفلت على هذا الحشد السنويّ، وجُلّ مرادي هو أن أجدّد العهد لمن عرفت من الأصدقاء، وأن أقترب من مجمعيين غيرهم لم تسبق لي بهم واشجة.

التقيت في هذا الجمع من سنوات بعلامة المغرب عبد الله كنّون وهو يطوف في القاعة الملحقة بقاعة الاجتماع الرئيسية في جامعة الدول العربية (حيث كان مجمع القاهرة يعقد مؤتمره السنوي قبل انتقاله إلى مقره الجديد). وبمجرّد أن قدّمني إليه صديقي الدكتور عدنان الخطيب (١٩١٤ ـ ١٩٩٥) الأمين العام لمجمع

دمشق، رحّب بي هاشّاً باشّاً بما أشعرني بأنني لستُ غريباً عنه. كان يرتدي زيّه المغربي الأبيض، ويغطّي رأسه بشملةٍ بيضاء من الحرير، ويرسل لحيةً مُشَّذبة، ويتكلم بلكنة مغربية غالبة، وكان إلى القِصَرِ أميل منه إلى الطول، لا يعرف غلاظ العوينات يستعين بها على القراءة، على الرغم من أنه قضى أكثر من ستّين حولاً في القراءة والكتابة، وهي كفيلة بإجهاد بصره. على أن هذا اللقاء العارض أبقى الصلة بيننا شكلية، تقتصر على التحيّة كلّما التقينا ولا تجاوزها. إلى أن كنت ذات يوم في بيتي، ففوجئت بوفدٍ من المجمعين أتاني زائراً، يتقدمهم صديقي الدكتور عدنان الخطيب، ومن جملتهم رئيس مجمع دمشق الدكتور حسني سبح (١٩٠٠ ـ ١٩٨٦) والعلامة العراقي الشيخ محمد بهجة الأثري (١٩٠٤ ـ ١٩٩٦) والعلّامة عبد الله كنون وفقيه الأردن الشيخ إبراهيم القطّان (١٩١٦ ـ ١٩٨٤) والعلامة العراقي إبراهيم السامرائي، (١٩٢٠ ـ ٢٠٠١). فقد رغبوا في زيارة جاري العلامة محمود محمد شاكر (١٩٠٩ ـ ١٩٩٧)، ورجوني أن أدلّهم على بيته، ففعلت. ومنذ ذلك الوقت، زالت الغربة بيني وبين كنون، وصار الودّ بيننا يتّسم بقدر أوفر من الحرارة وعمق الأُلفة، لا سيما وقد جمعتنا صفة الزمالة في مجمعي دمشق والأردن.

عاش عبد الله كنّون حياةً طويلة عريضة لم يعرف فيها إلّا رسالتين:

رسالة الخدمة الوطنية أدّاها في الوظائف التي أُسندت إليه، وآخرها وظيفة الحاكم العربيّ الأول لمدينة طنجة ذات الوضع الدولي، وعلى يديه صُفِّي هذا الوضع وأعيدت إلى الوطن الأم في عام ١٩٥٧ لتخضع في جميع أمورها لقانون الدولة وحده.

وأما الرسالة الثانية، فهي رسالة العلم، وقد أدّاها معلّماً ومديراً للمعاهد وناشراً لصحف «لسان الدين» و«الميثاق» و«الاعتصام»، وعاكفاً على التأليف والبحث العلمي حتى ترك وراءه نحو مئة مصنّف بين مؤلّفٍ ومحقق. وبفضل واسع علمه، سعت إليه عضويات المجامع والهيئات العلمية كمجامع القاهرة ودمشق وبغداد والأردن والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية في عمّان، والمجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، ومجمع البحوث الإسلامية في القاهرة، ورابطة علماء المغرب، والمجلس الأعلى للتعليم ولجنة الأبحاث العلمية في الرباط، ومجلس الدستور، والأكاديمية المغربية، كما تولى

منصب وزير العدلية في تطوان، ومنح درجة الدكتوارة الفخرية في الآداب من جامعة مدريد.

أما المؤتمرت العلمية التي شارك فيها في البلاد العربية والخارج، فلا يكاد المرء يُحصيها، وأما بحوثه المنشورة في المجلات الأدبية والعلمية على الصعيد العربي فقد بلغت المئات.

ولد عبد الله كنون في فاس في السابع والعشرين من أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨، وما إن بلغ السادسة من عمره حتى انتقلت أسرته إلى طنجة، وفيها تلقى تعليمه الأولي على مشايخ المدينة، ثم استكمله بالالتحاق بجامعة القرويين في فاس. ولكن عصاميته وطموحه أبَيَا عليه أن يقنع بهذا القدر من التعليم النظامي، فعكف على تثقيف نفسه بمطالعة النفائس من كتب التراث في المكتبة المتوارثة من الأجداد، وعلّم نفسه اللغتين الفرنسية والإسبانية، وشارك في تعزيز النهضة العلمية في المغرب، وأنشأ مدرسةً حرّة للبنات إيماناً منه بأن تعليم الأنثى يجعل منها أمّاً صالحة ومواطنه نافعة.

نظم شعراً وهو ما زال في الخامسة عشرة من عمره، ووضع كتاباً مدرسياً وهو في السادسة عشرة، وشرع منذ شبابه الأوّل يمدّ الجسور من مغربه إلى المشرق العربي، فيوافي المجلات الأدبية المصرية ومجلات المجامع بآثاره، ويتصّل بأعلام الفكر هنا وهناك، ويشارك المشرق العربي في اهتماماته وقضاياه، كرثائه للشاعر أحمد شوقي (١٨٦٨ ـ ١٩٣٢) أو كتعليقاته على معجم «المنجد» للويس معلوف (١٨٧٦ ـ ١٩٤٦) الذي ظهرت طبعته الأولى في عام ١٩٠٨، حيث نبّه إلى كثيرٍ من الأوهام التي وقعت فيه وفي قسم الأعلام الملحق به. وعمل مثله العلامة الأردني روكس بن زائد العزيزي، أطال الله بقاءه، والشيخ إبراهيم القطّان بكتابه الضخم «عثرات المنجد في الأدب والعلوم والأعلام»، ومحمد عبد الغني حسن (١٩٠٧ ـ ١٩٨٥) الذي نبّه في فصول نشرها إلى ما وقع من تحريف في أعلام المنجد. ويقتضينا الإنصاف أن نذكر أن ناشري هذا المعجم انتفعوا بكل هذه الملاحظات في طبعاته التالية.

وأيقن عبد الله كنّون أن خير سبيل لتعريف المشرق العربي بالمغرب وأعلامه هو بالترجمة للنابغين من مواطنيه، فأصدر كتاب «النبوغ المغربي في الأدب

العربي» في ثلاثة أجزاء أغرت بترجمته إلى اللغة الإسبانية. وقد وصف الأمير شكيب أرسلان (١٨٦٩ ـ ١٩٤٦) هذ الكتاب بقوله إنه «خلاصة منخولة وزبدة ممخوضة». كما أصدر ثلاثين كتاباً في سلسلة «ذكريات مشاهير رجال المغرب» مثل الشريف الإدريسي وعبد الواحد المراكشي والوزير ابن إدريس وأبي القاسم الزياتي وعبد العزيز العشتالي، ووضع مصنفاً عدّه مدخلاً إلى تاريخ المغرب.

وتواصلت مؤلفات عبد الله كنون فكان منها «المنتخب في شعر ابن زاكور» و«التعاشيب» وهو مجموعة مقالات أدبية ونقدية، و«واحة الفكر»، و«خل وبقل»، و«شرح مقصورة المكودي»، و«أدب الفقهاء»، و«مجلة لقمان» وهو دراسة في سيرة لقمان الحكيم، و«أمراؤنا الشعراء»، و«ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث».

كما حقق طائفة غير قليلة من كتب التراث منها «شرح الشمقمقية» للشاعر المغربي ابن الونان، و«قواعد الإسلام» للقاضي عياض، و«عجالة المبتدي وفضالة المنتهي في النسب» لأبي بكر الحازمي الهمذاني (ولعلّه الكتاب الوحيد الذي نشره كنون خارج المغرب عن طريق مجمع القاهرة) و«الأنوار السنية» لابن جُزيّ، و«شرح الأربعين الطيبة» للحافظ البزارالي، و«ترتيب أحاديث الشهاب» لابن الحسن القلعي، و«تلقين الولد الصغير» لعبد الحق الإشبيلي. وأصدر في شبابه ديوان «لوحات شعرية» ثم أتبعه بديوان «إيقاعات الهموم»، وهناك ديوان ثالث ما زال مخطوطاً، كما أن له طائفة من الكتب الدينية.

وقد نبّه زميله الأديب التونسي أبو القاسم محمد كرّو، شفاه الله وعافاه، إلى أن شاعر تونس «أبو القاسم الشابي» (١٩٠٩ ـ ١٩٣٤) أعدّ في عام ١٩٣٠ محاضرة عن شعراء الشباب في المغرب العربي تناول فيها شعر كنون ـ وكان كلاهما في العشرين من عمره غير أن غياب الجمهور عن المحاضرة حال دون إلقائها، وبقيت غير منشورة إلى أن نشرها كروّ لأول مرة عام ١٩٩٤.

كان عبد الله كنون يقتني خزانة عامرة بالكتب، ورث قسماً كبيراً منها من أبيه وجدّه، ثم أضاف إليها حصيلة جهده الخاص حتّى صارت عُمدةً بين المكتبات الخاصة. وخشي كنون أن تتعرّض خزانته للعبث بعد وفاته، ولا سيما لأنه لم ينجب، فقرر قبل خمس سنين من وفاته في التاسع من تموز (يوليو) ١٩٨٩ وقف المكتبة على مدينة طنجة التي عاش فيها معظم عمره، وكانت له فيها

أياد بيض منذ ما كان والياً عليها وأعادها إلى التراب الوطني بعدما كانت تتمتع بنظام دولي كمدينة حرة خارجة عن سلطان الدولة المغربية. وهكذا أصبحت المكتبة مفتوحة للباحثين من أبناء الشعب، يتولّى الإشراف عليها مصطفى الريسوني وعبد الصمد العشّاب (وهما ابنا شقيقة كنون) وكانا يلازمانه طول الوقت.

قال عنه زميله المجمعي الدكتور عبد الهادي التازي، مدّ الله في عمره: «إذا كان الأستاذ كنّون درج من غير عُقب، فإنه مع ذلك ترك جمهوراً كبيراً من الأبناء الروحيين الذين يرددّون صداه في كل مكان، وهذه لا تقدّر بثمن».

ووصفه عبد الكريم غلّاب، أطال الله بقاءه، وهو زميله في الأكاديمية المغربية بقوله: «إذا كان كنون يغضب للعلم، فإنه كان يغضب لكرامة العلماء، ولذلك كان موقفه دائماً في كل المناصب التي شغلها، وبعضها مناصب غير علمية، يعتبر نفسه ممثلاً للعلماء، فلا يقبل أن يعتبر إدرايا أو وزيراً حينما عين وزيراً في الشمال أو عاملاً على طنجة ـ كان العالم الذي يلي المنصب، ولم يكن الإداري الذي يمارس مسؤوليته في جبّة العالم. أعتقد أنه لم يقبل المنصبيْن إلّا ليكون لسان العلماء في الوزارة أو العمالة. وحينما لم يتفق العالم فيه مع الإداري، ترك المنصب الإداري ليتفرغ لمركز العالم».

وقال الدكتور عدنان الخطيب: إن وفاة كنون كانت «فاجعة ألمّت بالمسلمين... فقد انتضى قلمه الجريء وسخّر لسانه البليغ للدفاع عن مصالح العالم الإسلامي المشروعة، ولتأييد حقوقه المهضومة، وللذبّ عن كيانه، وردّ افتراءات أعدائه.... كانت وفاته كارثة حاقت بالعالم العربي لكونه من علماء العربية العميقي الثقافة.... كان سيفاً مصلتاً على أعداء العربية، ولساناً صارماً ينافح عن الفصحى، ويقارع خصومها، ظاهرةً كانت خصومتهم أو خافية».

ولا غرو أن تهبّ الهيئات العلمية العربية للإشادة بعبد الله كنون بعدما غيّبه الردى، فأبّنه مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وأقامت الجمعية المغربية للتضامن الإسلامي بالتعاون مع جمعية البوغاز «أياماً دراسية» حول شخصية كنون وفكره على مدى ثلاثة أيام في قصر مرشان بطنجة شارك فيها نحو أربعين متحدثاً عدا مشاركة المجامع والهيئات العلمية العربية. ودارت دراسات المتحدثين حول ثلاثة

محاور هي «عبد الله كنون مفكراً وباحثاً»، و«عبد الله كنون مؤرخاً وأديباً»، و«عبد الله كنون المربي والداعية والوطني»، ولا أدري هل جمعت هذه الدراسات في كتاب مطبوع أو بقيت مطوية؟

وفي عام ١٩٩٨ مضت تسعون سنة على ميلاد عبد الله كنون، ولعلّ في التذكير بفضل هذا العالم الكبير ما يزيد من الاهتمام بعلماء المغرب الراحلين كعلّال الفاسي (١٩١٠ ـ ١٩٧٤) وعبد الحي الكتاني (ت١٩٦٢) ومحمد الفاسي (ت١٩٩١) ومحمد عزيز الحبّابي (١٩٢١ ـ ١٩٩٣) وكلهم مفخرة لهذا البلد الساهر على تراث العربية في خزائن كتبه العامرة بكنوز الضاد.

❁ ❁ ❁

عبد الله يوركي حلّاق

لو كانت المدن تتكلم وسُئلت مدينة حلب لسورية: مَنْ هم أعلامك من المفكّرين؟ فلعلّها كانت تجيب بقولها: الأمير مصطفى الشهابي (١٨٩٣ ـ ١٩٦٨) محافظها الذي لا تُنسى آثاره في النهوض بالمدينة عمرانياً وحضارياً وثقافياً، والشاعر عمر أبو ريشة (١٩٠٨ ـ ١٩٩٠) الذي ملأ الدنيا غناءً، وتضاءل لقبُه كسفيرٍ أمام لقبه كشاعر، والدكتور سامي الدهان (١٩١٢ ـ ١٩٧١) الذي كانت له يدٌ طولى في تحقيق المخطوطات ونشرها، والأديب الصحافي سامي الكيالي (١٨٩٨ ـ ١٩٧٣) صاحب مجلة «الحديث» التي طبّقت شهرتها الآفاق، والشاعر الأديب عبد الله يوركي حلّاق (١٩١١ ـ ١٩٩٦)، ولا تنس فتح الله الصقّال (١٨٩٣ ـ ١٩٧٠) صاحب المبرّات الخيرية، ومؤلّف الكتب الضخام في القانون والرحلات والمذكرات.

وحديثنا اليوم عن عبد الله يوركي حلّاق ابن حلب البار والمتيّم بحبّها حتّى أصدر عنها كتابيْن هما «حلبيّات»، و«الحلبيون في المهجر» وهو الدائب منذ عام ١٩٣١ وإلى هذا اليوم على إصدار مجلّته الأدبية الشهرية الفاخرة «الضاد» التي باتت من القلّة القليلة من المجلّات الأدبية التي يصدرها أفراد. ومن هذه القلة ـ على سبيل المثال ـ مجلة «الثقافة» السورية لمدحة عكاش، ومجلة «المنهل» السعودية لنبيه الأنصاري، ومجلة «الآداب» للدكتور سهيل إدريس في لبنان، ومجلة «نداء» للدكتور شكري محمد عيّاد في مصر. أما سائر المجلات الأدبية في المعمور العربي فهي تصدر إمّا عن حكومات أو عن هيئات كالمجامع اللغوية واتحادات الكتاب والشركات والمؤسسات الثقافية وما إليها.

وبعدما عشنا عصراً طويلاً كانت فيه المجلّات الأدبية من عمل الأفراد كمجلّة «الرسالة» لأحمد حسن الزيات، ومجلة «المقتطف» لصرّوف ونمر ومكاريوس، ومجلة «الكاتب المصري» لطه حسين، ومجلة «الكتاب» لعادل

الغضبان، و«مجلة علم النفس» للدكور يوسف مراد، ومجلة «الثقافة» المصرية لأحمد أمين، ومجلة «الفصول» لمحمد زكي عبد القادر، و«مجلّتي» لأحمد الصاوي محمد في مصر ومجلة «الفكر» التونسية لمحمد مزالي والبشير بن سلامة، ومجلة «الأديب» في لبنان لألبير أديب... بعد هذا العصر، صارت الغالبية العظمى من المجلات الأدبية من صنع الحكومات وتمويلها وتوجيه سياساتها.

ولكن عبد الله يوركي حلّاق تحمّل بمفرده الأعباء المالية والإدارية والتحريرية الخاصة بمجلة «الضاد» حتى باتت ذات شهرة واسعة في الوطن والمهاجر، وأضاف إلى هذه الأعباء إدارته لتحرير مجلة «الكلمة» الصادرة عن مؤسسة الكلمة الخيرية في حلب.

عرفت عبد الله يوركي حلاق من زيارةٍ خاطفة قام بها لمصر في الخمسينيات، وكان واسطة التعارف صديقنا المشترك عادل الغضبان (١٩٠٨ ـ ١٩٧٣) وهو بدوره حلبيّ الأصول، وتغنّى بحلب في كثير من شعره حيث قال:

نُثِرَتْ على جَنَبائِكِ الشَّهْبُ فَدُعِيتِ بالشَّهْبَاءِ يا حَلَبُ

فكانت لنا جلسات مشتركة ضمّت عدداً من أدباء تلك الأيام: الشاعر محمد مصطفى الماحي (١٨٩٥ ـ ١٩٧٦) والأديب الشاعر محمد عبد الغني حسن (١٩٠٧ ـ ١٩٨٥) والأستاذ الجامعي بدار العلوم عمر الدسوقي.

وفي ١٨ تموز (يوليو) ١٩٦٥ اختير عبد الله يوركي حلّاق عضواً في مجلس الأمة الاتحادي، وهو المجلس الذي أُنشئ في القاهرة أيّام الوحدة المصرية السورية. فاقتضته تبعاته أن يقيم في العاصمة المصرية فتراتٍ طويلة للمشاركة في أعمال هذا المجلس. وطوال مدة إقامته بيننا، لم نكن نفترق، لأنه انتهز هذه الفرصة لعقد الصلات مع أكبر عددٍ من الأدباء في مصر، وكم سعيتُ معه لتقديمه إليهم، ومنهم أحمد حسن الزيات (١٨٨٥ ـ ١٩٦٨) والشاعر محمود أبو الوفا (١٩٠١ ـ ١٩٩١) والشاعر حسن كامل الصيرفي (١٩٠٨ ـ ١٩٨٤) والشاعر أحمد رامي (١٨٩٢ ـ ١٩٨١) والناقد مصطفى عبد اللطيف السحرتي (١٩٠٢ ـ ١٩٨٣) والشاعر صالح جودت (١٩١٢ ـ ١٩٧٦) والدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، أطال الله بقاءه، وما شئتَ من أسماء بقيت، وإنْ كانت المقاديرَ قد طوت حياة أصحابها.

وكنتُ في خلال ذلك أمتّع النفس بصحبة هذا الرَّاوية الفريد الذي لا يكفّ عن سرد الحكايات والنوادر الأدبية، ولا يملّ من الاستشهاد بأعذب الشعر، قديمه وحديثه، وحافظته تسعفه لإنشاد عشرات من القصائد، هذا إلى جانب شخصيته الأنيسة، ورقّته المعهودة، وروحه المرحة، ودماثة خلقه، وعفّة لسانه.

ومن طريف «تجاربه» في القاهرة أنه كان يحمل معه حقيبة يدٍ تضمّ مقالاتٍ وقصائد تلقّاها من أصحابها لنشرها في «الضاد» ومن جملتها مقالة لي عن الشاعر عبد الرحمن شكري (١٨٨٦ ـ ١٩٥٨) أستاذ العقاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤) والمازني (١٨٩٠ ـ ١٩٤٩)، فطمع نشّال محترف في هذه الحقيبة متوهّماً أنها تحتوي على بدر المال، ولم يلبث بخفّة يده أن خطف الحقيبة واختفى. وهكذا ضاعت ثمرات العقول الأدبية، وخاب فأل النشّال إذْ كان يطلب الذهب لا الأدب!.

ونجح عبد الله يوركي حلّاق في جعل مجلّته شبيهةً بالمنتدى الأدبي، بما كان ينشرها فيها من المطارحات والمساجلات الشعرية والنثرية، وبما كان يتدفّق عليه في بريده الأدبي من المهاجر. ولعلّ بريد «الضاد» كان أضخم بريد في مدينة حلب الشهباء كلها.

قضى الحلّاق كل عمره رهين الشعر والأدب، فإن رفع القلم عن الطرس، فالكتاب بيده يطالعه، وإنْ أمَّ محفلاً، كان الشعر رسوله المبين من منابره. وكان يعيش وسط مكتبة ضخمة اقتناها وعُني بتجليد مفرداتها وشدّد حراسته عليها حتى لا تنفرط حبّاتُها بالاستعارة أو الاستيلاء. وبسبب علاقاته الوثيقة بكل أعلام عصره في الدنيا العربية والمهاجر، استطاع أن يقتني كتباً ودواوين مطبوعة في أمريكة والبرازيل والأرجنتين وفنزويلا وشيلي والإكوادور، ولعلّها باتت من النوادر بعدما غاب هذا الجيل من الروّاد.

ولد عبد الله يوركي حلاق في حلب في ١٣ حزيران (يونيو) ١٩١١ في دار الموسيقار الكبير الراحل سامي الشوّا الذي كان يلقّب بأمير الكمان، وتلقّى دراسته في مدارس حلب وعرف بشغفه باللغة العربية وتراثها، ونال دبلوماً في الصحافة. اشتغل بعد ذلك بالتدريس في الشهباء، ولكنّه لم يلبث أن أدرك أن التدريس مهنة جاحدة تستهلك العمر وتحول بينه وبين مستقبله في دنيا الأدب عامة والشعر خاصة، فانصرف عن التدريس وشارك يوسف عبد الله شلحت في تأسيس

مجلة «الضاد» التي أربى عمرها اليوم على ٧٠ عاماً، وجعل من هذه المجلة وعاءً راقياً للأدب بذوقه الرفيع وثقافته الواسعة واتصالاته المتراحبة، وشارك في الحياة الفكرية والأدبية في حلب بشعره وخطبه، وانضم إلى عددٍ من الجمعيات الاجتماعية والإنسانية والثقافية ومنها اتحاد الكتاب العرب، وجمعية العاديات في حلب، واتحاد الجمعيات الخيرية، واتحاد الصحافيين، كما شارك في مؤتمرات في داخل سورية وخارجها.

ولم يكتفِ بإصدار مجلة «الضاد» وحدها، بل أصدر إلى جانبها عدداً من الكتب الأدبية منها «منهل الورّاد في علم الانتقاد» وهو من أوائل كتب النقد الأدبي للعلامة قسطاكي الحمصي (١٨٥٨ ـ ١٩٤١) ومنها مجموعة أقاصيص للأديب اللبناني كرم ملحم كرم (١٩٠٣ ـ ١٩٥٩) عنوانها «قطاف العناقيد»، ومنها كتاب للأديب العراقي وحيد الدين بهاء الدين عنونه «شخصيات من الأدب المعاصر» وغيرها من الكتب.

وللحلّاق أربعة دواوين منشورة هي «خيوط الغمام» و«حصاد الذكريات» و«عصير الحرمان» و«أسديّات»، أما دراساته الأدبية فمنها «من أعلام العرب في القومية والأدب» و«عشت مع هؤلاء الأعلام» و«قطاف الخمسين» و«الزفرات» ورواية «المنذر ملك الحيرة»، وكان يقول إن لديه ٣٠ مؤلفاً مخطوطاً كان يأمل أن يمتدّ به العمر لنشرها في حياته.

وتهيأت لعبد الله يوركي حلّاق زيارات واسعة في البلدان العربية وأوربة والأمريكتيْن، وكانت شهرتُه تسبقه إلى هناك فيلقى من أسباب التكريم ما هو أهل له.

وفي ١١ تموز (يوليو) ١٩٨٥ اجتمعت كلمة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة حلب وجمعية العاديات واتحاد الكتّاب العرب على إقامة حفل لتكريم عبد الله يوركي حلاق على مدرّج كلية الطب بجامعة حلب برعاية محافظ المدينة، وتبارى عمداء الكليات وأساتذة الجامعات والأدباء والشعراء في الثناء بالخير على الحلاق، وقلّدته وزيرة الثقافة الدكتور نجاح العطار وسام الاستحقاق السوري من الطبقة الأولى، وكان قد مُنح من قبل وسام «القدس» ووسام «مار أفرام السرياني» من طبقة فارس.

وكانت أمنيته أن يُتوَّج كفاحُه الأدبي باختياره عضواً في مجمع اللغة العربية، بعدما اختير عضواً في لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للآداب في دمشق، ولكنّها أمنية بقيت بلا تحقيق.

بدأت صحة عبد الله يوركي حلاق تتداعى منذ ما فقد ابنه البكر جورج الذي توفي فجأة وهو يصطاف على سواحل البحر الأسود في الأراضي الروسية، وفقد بعد ذلك زوجته ورفيقة دربه، ثم أُصيب بداء «پاركنسون» ـ أو اهتزاز اليد ـ فتعذّر عليه أن يكتب شيئاً بيمناه، واضطر إلى الإملاء، كما تكالبت عليه أمراض الشيخوخة التي ألزمته بيته.

وعندما زرتُ دمشق في عام ١٩٩٥ للمشاركة في احتفالات مجمع اللغة العربية بعيدة الماسي، كلّف ابنه رياض بمهاتفتي ودعوتي للنزول في ضيافته قائلاً إنه يقيم بمفرده في بيت من ست غرف، وإنني بوصفي آخر الباقين على قيد الحياة من أصدقائه في مصر سأكون سلوى له في استعادة الذكريات، ولكن ظروفي لم تسمح بتلبية هذه الدعوة الكريمة، ولو لتوديع هذا الصديق الحميم.

على أن عبد الله الحلاق كان يدرك أنه سيضطر ذات يوم إلى التخلّي عن الإشراف على مجلته الحبيبة «الضاد» فأشرك ابنه رياض، وهو أمين سر جمعية العاديات في حلب، في إدارة المجلة ومواصلة رسالتها، فأصدر عدداً خاصاً عن النوادر والفكاهات. وكان عبد الله حلاق قد قام بتخليد ذكرى أبناء حلب: سامي الدهان وسامي الكيالي وعادل الغضبان وأصدر لكل منهم عدداً خاصاً.

ويعتبر كتاباه «عشت مع هؤلاء الأعلام» و«من أعلام العرب في القومية والأدب» من أمتع كتب السير والانطباعات الشخصية والتي لا يستغني عنها باحث في الأدب المعاصر؛ لأن عبد الله حلّاق تناول فيها بأسلوبه العربي المبين وروحه العربية الأصيلة سير عشرات من الأعلام الذين عرفهم وتواصل معهم في الأقطار العربية: فمن سورية تناول بدوي الجبل (محمد سليمان الأحمد) وعمر أبا ريشة، وسامي الكيّالي، وسامي الدهّان، وفارس الخوري، وفتح الله الصقال ومن لبنان شبلي الملّاط، والأخطل الصغير (بشارة الخوري) وكرم ملحم كرم، وعيسى إسكندر المعلوف ومن المهجر ميخائيل نعيمة، وإيليا أبو ماضي، وأمين الريحاني، وجورج صيدح، وإلياس فرحات، والشاعر القروي رشيد سليم

الخوري، وفوزي المعلوف، ومن العراق الشاعر حافظ جميل، ومن مصر صالح جودت، وأحمد حسن الزيات، ومحمد عبد الغني حسن، وعادل الغضبان، وخليل مطران، وأحمد رامي، وأم كلثوم، وعلي محمود طه، ومي زيادة، ومن الكويت الشاعر أحمد السقّاف، ومن فلسطين عارف باشا العارف ومحمد العدناني، ومن الأردن البدوي الملثم يعقوب العودات، فأنصف في أشخاصهم أجيالاً من حملة مشاعل النور والعرفان.

ويتميّز شعر عبد الله حلّاق بالجزالة الأسلوبية والرّقة في المعاني وباجتناب الألفاظ المهجورة أو الدارجة. ودواوينه تضمّ شعراً عائلياً نظمه في أفراد أسرته، وشعراً أملته عليه المناسبات المختلفة من وطنية واجتماعية وخيرية، وشعراً يندرج في باب الإخوانيات، ولكنّ له شعراً كثيراً يعبّر فيه عن عاطفته وآرائه ودافق مشاعره. وقد يعيب عليه النقّاد استغراقه في المناسبات، وردّه عليهم إن الشاعر لا ينفصل عن عصره وأحداثه، وهو ينفعل بكل ما تضطرب به الحياة من أحداث تحرّك كوامنه، فكيف يلتزم الصمت ونفسه جيّاشة بكل هذه الانفعالات التي لا تجد لها متنفساً إلّا في الشعر؟

وما زلتُ أذكر أنني كنت في زيارة الشاعر خليل مطران (١٨٧٢ ـ ١٩٤٩) قبل وفاته بفترة قصيرة، وكانت أمراض الشيخوخة قد حطمّته تحطيماً. وبينما كنت أُصغي إلى حديثه وأنا مُشفق عليه من عناء الكلام، دخل وفد من إحدى الجمعيات الخيرية ليطلب من الشاعر ـ وهو في مرحلة الانحلال البدنيّ ـ نظم قصيدةٍ تُلقى في حفل يُقام لتأبين واحدٍ من أصدقائه من رجال الدين. فوعدهم خليل مطران بإعداد القصيدة وإرسالها إلى الجمعية الخيرية قبل موعد حفل التأبين. ولمّا انصرف الوفد قال لي خليل مطران: «كيف أرفض هذا الطلب، وقد كان الفقيد صديقاً لي؟ أنا أعرف أن نقاد الشعر في مُقبل الأيام سَيَنْعَوْنَ عليَّ نظم قصائد المناسبات، ولكن كيف للشاعر أن يتحلّل من علاقاته الاجتماعية والشخصية؟ فليقل النّقاد ما يعجبهم، ولكنني لن أتخلّى عن طبيعتي الإنسانية». لستُ في مقام الدفاع عن شعر المناسبات، ولكنني أسوق كلام شاعر الأقطار العربية لتفسير وجهة نظر الشعراء. وبعد أيام، أعطاني خليل مطران القصيدة لتوصيلها إلى طالبيها، ولعلّها كانت آخر ما نظمه في حياته.

ولعلّ آخر ما نظمه عبد الله الحلاق هو قصيدته في تهنئة حفيده عبد الله

رياض حلّاق بزفافه في التاسع من تموز (يوليو) ١٩٩٥. وكان الحلّاق يتعصّب للشعر الذي يطرد على النسق الخليلي من وزنٍ وقافيةٍ وبحور، ويرفض كل ما عداه باعتباره يندرج تحت أسماء ومسميّات أخرى. وعلى مدى العمر الذي عاصرتُه من حياة «الضاد» لم أقرأ فيها قصيدةً واحدةً شذّت عن النمط العروضي القُحّ. بل لقد هجا الشعراء الخارجين على بحور الخليل في كثيرٍ من شعره.

وإذا كان عبد الله يوركي حلاق مات عن ثلاثين كتاباً مخطوطاً، فحرامٌ أن تظلّ هذه الكتب محجوبةً عن القرّاء، وليت ابنيْه رياض وملاك يرتّبان أمر نشرها سواء أصدرت عن دار «الضاد» أم عن ناشرين حكوميين أو مستقلّين.

❁ ❁ ❁

الذائد عن حُرمَاتِ الضاد

في مقولةٍ للسيد المسيح: «دَعْ الموتى يدفنون موتاهم»، وبمفهوم المخالفة نقول: دع الأحياء يعظّمون أحياءهم. وعبد الله يوركي حلاق هو من هؤلاء الأحياء الذين خلّدهم شعرهم ونثرُهم وسيرتُهم وعطاؤهم فلا يعرف الموت، بل لقد كُتب له الخلودُ، شأنُه في هذا شأن العباقرة الذين عاشوا للأدب والفكر والفن والعلم فحفظتْ لنا الأيام سِيَرَهُمْ، وخلدوا خلوداً لا تمحوه صُروفُ الدهر مهما تعاقبت الأيام.

فالحلاق الشاعر والكاتب والصحافي والمؤرخ والإنسان باقٍ بيننا وإنْ غابت عنا صورتُه البشرية. ومَنْ أنفق ستيّن عاماً من عمره الرخيّ يَمْحُضْ الضادَ أغلى دُرَرِهَا لا تتنكرُ له الضاد ولا الناطقون بها، لا اليوم، ولا الغد.

ونحن الآن في محضر مُنتدى من منتديات الحلّاق الأدبية التي طالما عقدها في حلب وفي كل الشام وفي مصر وفي ديارات العرب المختلفة،بل في الأمريكتين ودول الغرب. فحيثما حلّ، استحال مجلسُهُ على الفور إلى ندوةٍ للمطارحات الأدبية والشعرية والفكرية، هو محورُهَا وعميدُها الصائلُ الجائلُ في كل ميدان، بما تكامل له من غزير العلم وسعةِ الاطلاع وقوةِ الذاكرة وحلاوةِ الحديث.

إلى القاهرة جاءنا غير مرّة، وهو في كل مرّةٍ يحمل للأدب سِفَارَةً حتّى وإنْ تأبط حقيبة السياسة عضواً في البرلمان الاتحادي. فَصِفَةُ الأدب فيه هي الصفة الغالبة، وبفضلها عقد صداقاتٍ واسعة مع جمهرةٍ من أدباء مصر الكبار كخليل مطران، وأحمد حسن الزيّات، والشاعر عزيز أباظة، والشاعر محمد عبد الغني حسن، والشاعر محمد مصطفى الماحي، والشاعر أحمد رامي، والشاعر صالح جودت، والأديب عمر الدسوقي، والشاعر حسن كامل الصيرفي، والشاعر محمود أبي الوفا، والشاعر عبد الله شمس الدين، والشاعرة شريفة فتحي،

والشاعر العوضي الوكيل، ناهيك بعادل الغضبان ابنِ حلب البكر وأميرٍ من أمراء شعرائها.

كنّا طوال مدة إقامته في القاهرة ننتقل معه من ندوةٍ إلى ندوة، ومن مجلسٍ أدبي إلى مجلس أدبي، ومن حلقةٍ شعرية إلى حلقة سواها. فالأدب بمعناه الشامل هو شُغْلُهُ الشاغل، والسَّفارةُ الأدبية هي رسالتُه، والعكاظياتُ المنصوبةُ هي كعبته، ولا بدّ لكل هذا من أن يصبّ في مجلة «الضاد» وهي الوعاءُ الجليلُ لحصيلةِ كل هذه اللقاءات والمنتديات والمطارحات. وقد سألني في إحدى رسائله الأخيرة عمّن بقي على قيد الحياة من أصدقائنا المشتركين، فقلت له ـ وكأنني أُعاني يُتْماً أدبيّاً ـ لم يبق إلّاي، إذْ خلا الطريق وأَوْحَشَتْ مسارِبُهُ، والذاهبون لم يُستخلفوا، ولا تركوا في دنيا الأدب أبناء ولا أحفاداً.

وكان من مألوف عادة الحلاق أن يرصد الأماكنُ ذات التاريخ الأدبي، فيسألني: أين كان يقيم إبراهيم عبد القادر المازني؟ وأين بيت الأديبة مي زيادة؟ وأين عاش سلامة موسى؟ وأين مقرّ مجلة «المقتطف»؟ وأين كانت تقع عيادة الشاعر الدكتور إبراهيم ناجي؟ وأين دُفن خليل مطران؟ وأين أقام الشاعر أحمد زكي أبو شادي في الثغر ثم في القاهرة؟ وأين ثوى أنطون الجميّل باشا؟ وكنتُ في رفقته أَشْبَهَ بدليل السائح، يدلّه على عناوين الأدباء، وعلى الأماكن التي عاشوا فيها، أو كانت لهم فيها آثار أقدام.

وكان بحكم متابعته للحياة الفكرية في مصر يعرف أن أدباء الريادة كانوا يلتقون في أماكن عامة اكتسبت شُهرةً جاوزت مصر، مثل مقهى متاتيا والپاريزيانا وبار اللواء وبار الأنجلو واسبلندد بار ومقهى الفيشاوي ومقهى سولت، فكان يسألني عن مصائرها، ويحرص على استكشاف ما اندرس منها وما بقي منها مغالباً أحداث الأيام. وسألني ذات مرة عن مشرب الساقوا الذي أشار إليه طه حسين في كتاب «الأيام» ونظم أبياتاً حوله انتقاماً من المشايخ الذين جعلوه يسقط في امتحان العالمية، حيث قال:

رَعَىٰ اللهُ الـمَـشَـايِـخَ إذ تَـوَافَـوا إلـى سَـاقْـوَايَ فـي يَـوْمِ الـخَـمِـيْـس

. . . إلى آخره

فقد كان، بحسب تعبيره، يريد أن يعيش العصر بناسِه وأحداثِه ومعالِمه،

ولا غرو أن يتخّذ لكتاب من كتبه عنوان «عشت مع هؤلاء» تأكيداً منه بأنه لم يعرف هؤلاء الأعلام معرفة سطحيةً أو عارضة، وإنّما عاش معهم وعاشرهم وماشاهم وكان، لولا التواضعُ، نِدّاً لهم وصِنْواً.

وكان من الطبيعي أن تكون مجلة «الضاد» مرآةً لعصرٍ كامل عاشه منشئوها الحلّاق بكل أيامه ولياليه، مُسهماً فيه بشخصه وبمشاركته وبقلمه وبشعره، وهو عصر اتّسع فشمل ديار العرب جميعاً، وعبر المحيط إلى المهاجر السحيقة في الأمريكيتين.

كان المؤرخ الكبير الدكتور فيليب حتّي الأستاذُ بجامعة برنستن الأمريكية يقول لي في رسائله إنه يتابع ما أكتب في مجلة «الضاد» مع أنني كنت في ذلك الوقت أكتب في مجلّاتٍ أدبيةٍ كثيرة، فخصّ «الضاد» وحدها بهذه اللفتة. ولا غَرْوَ أن يكون الدكتور حتّي وأمثالهُ من قراء «الضاد»، لأنها مجلةٌ احترمت قارئها وحفلت بكل جميل من فرائد النثر والشعر. ولا غَرْوَ كذلك أن تُصبح «الضاد» مرجعاً من أهم مراجع الأدب المهجري بفضل ما نُشر فيها من فصولٍ بأقلام المهجريين وعنهم، ومن قصائد خصوا بها المجلة أو اختارها الحلّاق من دواوينهم المنشورة. وأعرف عدداً من طلاب الدراساتِ العليا وجدوا في مجلة «الضاد» مرجعاً لا يُضاهى في الأدب المهجري حتى العصر الحديث بفضل ما تنشره المجلة من فصول بأقلام المهجريين وعنهم في الشعر أو في النثر.

بل إن عبد الله يوركي حلّاق، غيرةً منه على مصير الأدب المهجري، تعهّد بنشر دواوين الشاعر إلياس فرحات بعد وفاته، لولا أن ضخامة العمل نبّهته إلى الواقع الأليم للشعر في يومنا الحاضر من ناحية، وإلى التكلفة الباهظة من ناحية أخرى....

وقد أكرمني الله فعرفتُ عدداً غير قليل من المهجريين بالمراسلة، وعرفت بالمشافهة الشاعر القروي رشيد سليم الخوري، وجورج صيدح، وإلياس فرحات، ونظير زيتون، وفيليب حتّي، وعبد المسيح حدّاد، وموسى كُريِّم، فتكرّر في أحاديثهم معي اسم الحلاق واسم مجلة «الضاد» بعباراتٍ تنمّ على إكبارٍ وتقدير، ولا سيما لأن إشراف الحلّاق إشرافاً شخصياً مباشراً على مجلته برّأها منه أغاليط الطباعة، التي فشت فُشُوّاً مُفزِعاً حتّى في المجلّات التي تنتسبُ إلى الأدب.

وكانت لعبد الله يوركي حلاق فضيلةٌ محمودةٌ تضاف إلى فضائله الكُثْر، ألا وهي عقد الصلات بين الأدباء بفضل علاقاته الواسعة هنا وهناك. رغبَ محبٌّ للأدب في الولايات المتحدة، هو عبدو علّام، في الاتصال بي، فكان الحلّاق سبيله في الحصول على عنواني. وبفضل الحلاق تواصلتُ مع الأريحيّ النبيل فتح الله الصّقال والشاعر الأديب رشاد علي أديب وغيرهما.

وإذا كانت حلب قد أنجبت لسورية رجالاً ماجدين، في طليعتهم عبد الله يوركي حلاق، فهي قد أهدتنا في مصر رجالاً مرموقين صاروا جزءاً من بُنيتها الوطنية من أمثال الشاعر عادل الغضبان والمؤرّخ القانوني عزيز خانكي بك ووزير المالية الأسبق يوسف سابا باشا الذي ما زال اسمه يُطلق على حيٍّ كبير من أحياء الثغر السكندري، ورجال الاقتصاد والصناعة مثل الدكتور يوسف نحاس بك وثابت ثابت وآل توتونجي وفرانسو تاجر والناشر عيسى البابي الحلبي، وما أشرتُ إلّا إلى بعضٍ منهم. بل إن مجمع اللغة العربية في القاهرة ضمّ إلى عضويّته علماء من حلب مثل الدكتور سامي الدهّان، وصاحب مجلة «الحديث» سامي الكيّالي. فنحن في مصر نعرف لهؤلاء الحلبيين أقدارَهم، إذْ جاءوا إلينا بكل الفضائل والمآثر المعهودة عن حلب والتي يمثلها عبد الله يوركي حلّاق خير تمثيل، والتي تتراءى جوانِبُها المُشرِّفةُ المضيئةُ في صفحات مجلة «الضاد».

ولئن عُرِفَ عبد الله يوركي حلاق بحماسته لحلب وغيرته عليها، فقد بقي دائماً صافي العروبة مؤمناً بها، مبشّراً بمستقبلها، رافعاً أعلامها، مترفّعاً عن جميع صغائرها، متجاوزاً جميع تخومِها المصطنعة، مؤكّداً بشعره ونثره أنه لسان صادق من ألسنتها، وجنديٌّ شاكي السلاح من جنودها الذائدين عن حياضها. ولهذا وسعت مجلتُه لكل قلمٍ عربي صادق، وسجّلت صفحاتُها كل فكرٍ للعروبة بانٍ، سواء انتسب إلى التراثَ العريق أو إلى العصر الحديث.

وهو في سبيل دفاعه عن أصول لغته وعروبته قد رفض جميع الأشكالِ الشعريةِ التي تنبو عن عمود الشعر الخليلي اعتقاداً منه بأن الترخّصَ في القيم ـ ولو كانت قيماً شعرية ـ لن يلبث أن يُفضيَ إلى ترخّصٍ في كل ما عداها من القيم التي رافقت العرب على مدى التاريخ، وباتت مناقبَ مأثورةً عنهم، وثوابتَ اشمخرّتْ عليها النهضة العربية في أعظم عصورها.

وليس يُعيينا أن نرصد في مسيرة حياة عبد الله يوركي حلاق هذا الاتّساق الشامل في جميع مراحل عمره، فهو يمضي في خطٍ مستقيم لا يحيد عنه، ولا يتلّون بألوان «الموضة» كلّما وفد جديد منها. فقد اختار لنفسه منهاجاً من النقاء زان شخصيّتَه وكتاباتِه المنظومةَ والمنثورة. لا بأس من حديث الحبّ، ولكنّه حبٌّ لا يتبذّلُ، ولا يتوسّلُ بألفاظ السوقة. لا بأس من الحديث في العقائد، ولكنّه حديثٌ يتّسم بالتسامح ويجافي كل تعصّب. لا بأس من الفكاهة، ولكنها الفكاهة المستملحة التي لا تخدش المشاعر أو تستثير الغرائر. لا بأس من الحديث عن الذات، ولكنَّه حديثٌ لا يُغلفه غرور أو عنهجية. لا بأس من النقد، ولكنّه نقد يوجّه ولا يُجرِّح، ويختصم دون أن يُخلف عداواتٍ.

لقد كان الحلاق رجلاً تجسّدت فيه حكمة «الوسط الذهبي» التي دعا إليها الفلاسفة في يوم غابر، ولهذا اتّسع قلبه لمودّات حميمة مع كثيرين، وتراحب تفكيره لتقبّل فنونَ القول جميعاً ولاستيعاب حتّى ما اختلف وإيّاه من آراء.

عاش قانعاً بعمله الأدبيّ، يؤدّيه من خلال «الضاد» بباهظ التضحيات، لا تُغريه الوظائف منذ ما هجرها من سنوات بعيدة، ولا هو يسعى إلى منصب يُباعد بينه وبين رسالته الأدبية. صحيح أنه ارتجى أن يُتوَّجَ جهادُه الأدبيُّ بعضويات المجامع، ولكن تنكّبها إياه لم يورثه غُصّة. فقد قال كلمته ومشى، تاركاً وراءه سيرةً من أعطر السير.

❁ ❁ ❁

عبد المسيح حدّاد

للعلاقات الشخصية بين الأدباء أهمية كبرى في استجلاء طبيعة كل شخصية أدبية، وفي رسم أي صورة حيّةٍ لأديبٍ ما، فليس السماع كالمشافهة والاقتراب الحميم من الرجال الذين دخلوا تاريخ الأدب ولو من أضيق أبوابه، ولا سيما لأن حظوظ الأدباء تتفاوت، فمنهم مَنْ تطير شهرته ربما بأكثر ممّا يستحق، ومنهم من تتواضع منزلته على استحقاقه لأرفع المنازل وأسماها.

وكان صديقنا الدكتور أحمد زكي أبو شادي (١٨٩٢ ـ ١٩٥٥) رائد جماعة أپولو من أوسع الأدباء تواصلاً مع غيره من الأدباء في الشرق والغرب، كما كان من أكثرهم حرصاً على عقد الصداقات بين المشتغلين بالأدب. وبفضله تواصلتُ شخصياً مع كثيرين من الأدباء حتّى في مصر، ولولا وساطته وتزكيته لما تهيأت لي أسباب هذه المعرفة.

ومن جملة الذين أورثني أبو شادي صداقتهم الأديب الصحافي المهجري عبد المسيح حدّاد، الذي لم يكد يظفر بعنواني من أبي شادي حتى صار يوافيني بانتظام بأعداد جريدته «السائح» دون أن يتقاضاني بدل اشتراك، واستمررتْ أتلقى هذه الجريدة بدأبٍ وانتظام ـ ما عدا ما ضاع في الطريق بإهمال من البريد ـ إلى أن اسودّت في عيني عبد المسيح حداد صورةُ صحافة المهجر ومستقبل الأدب العربي فيه لغياب جلّ أعلامه، فباع الجريدة بيعة وكس بتعبير البحتري.

وعندما زرت نيويورك في عام ١٩٥٥، وكان أبو شادي قد توفي قبل زيارتي بثلاثة أشهر، هاتفني عبد المسيح حدّاد، فتبادلنا العزاء في صديقنا المشترك، ودعاني لزيارة مكتبه الكائن في عمارة إمبيرستيت التي كانت إذ ذاك أعلى ناطحة سحاب في الولايات المتحدة. ولكنني لم أكن أملك وقتي، وتضاربت مواعيدي مع مواعيده، وعجزت عن زيارته، وإنْ كان هو حرص على موافاتي بأعداد «السائح» على الفندق الذي كنت أقيم فيه، كما كان يواليني بالسؤال هاتفياً طوال مدة إقامتي.

وبقيت بعد عودتي إلى القاهرة موصول الأسباب بعبد المسيح حداد بالمرسالة ثم بالمتابعة الدؤوبة لجريدة «السائح» التي كانت لها اهتمامات أدبية واضحة، بل كانت تعطي الأولوية في النشر لكبار أدباء المهجر، وهو ما كنت أفتقده في بعض الصحف المهجرية الأخرى التي كانت عنايتها تنصرف في المقام الأول إلى متابعة أخبار المشتغلين بالتجارة والأعمال الحرة بل «بالدفّانين» - وهم الحانوتية في قاموسنا المصري! فتسجّل أخبار أعراسهم ومواليدهم ووفياتهم للحصول على إعلانات ترفد مالية الصحف.

ولم ألتق بعبد المسيح حداد إلّا في القاهرة عام ١٩٦٠، وكانت حكومة سورية قد دعته لزيارتها بعد ٥٣ سنة من الهجرة، فأمضى خمسة أشهر في الشام، وانتهز هذه الفرة فعرّج على لبنان حيث اجتمع بزميله في «الرابطة القلمية» ميخائيل نعيمة (١٨٨٩ - ١٩٨٨) ومرّ بالقاهرة حيث أمضى أسبوعين قبل أن يعود مع زوجته السيدة حفيظة إلى نيويورك.

ولم أكن عند لقائي الأول بعبد المسيح حداد قد رأيت صورةً له، فظننته ممشوق القوام مثل نعيمة أو جبران خليل جبران (١٨٨٣ - ١٩٣١) أو الدكتور فيليب حتّي (١٨٨٦ - ١٩٧٨)، وحسبت أن الحياة الأمريكية قد «أمركته» في مظهره الخارجي وفي أسلوبه في الحديث. ولكنّني ألفيته محافظاً على ملامحه السورية القديمة، قصير القامة، بدين التكوين، تزحف الصلعة على رأسه، وهو ضاحك المحيّا دائماً، يلقاك بحرارة المشاعر، ويعانقك عناقاً عربياً صادقاً، ويحادثك دُون تكلّف وبشيء من الفكاهة. وهكذا ينفذ المرء إلى قلبه من أول لقاء.

ولئن كانت هذه هي أول زيارة يقوم بها للقاهرة، وفيها من المزارات السياحية ما يُغري باستئثارها بكل برامجه، إلّا أنه كان أشدّ حرصاً على الالتقاء بالأدباء المصريين، وهو ما سعيت إلى تحقيقه له ولا سيما لأن خبر وصوله لم يصادف اهتماماً من الصحف. وكنّا في جلساتنا معه شديدي الشوق لسماع ذكرياته عن أدباء المهجر الشمالي الكبار الذين زاملهم وعاشرهم ونادمهم وكان موضع سرّهم وثقتهم بفضل شخصيته الانبساطية المحبّبة.

والصحافي الوحيد الذي اهتم بخبر هذه الزيارة هو حبيب جاماتي (١٨٨٧ -

١٩٦٨) المحرر بصحف «دار الهلال» الذي نشر كلمةً عن زيارة عبد المسيح حداد تمنّى فيها أن يسجّل الزائر خواطره عن رحلته إلى الوطن في كتاب لعل عنوانه يكون «انطباعات مغترب» فاستجاب حدّاد لهذا الاقتراح وعكف بمجرد عودته إلى نيويورك على وضع الكتاب وبنفس هذا العنوان، وأصدرته وزارة الثقافة والإرشاد القومي السورية في عام ١٩٦٢ قبل وفاته التي وقعت في ١٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٣ بسنةٍ واحدة.

كان عبد المسيح حدّاد يقول عن نفسه إنه صحافي يعشق الأدب، ولهذا وجّه كل جهده وعنايته إلى جريدة «السائح» التي أصدرها في نيويورك وعمره اثنان وعشرون عاماً، وحمل أول أعدادها تاريخ ٢٣ نيسان (إبريل) ١٩١٢. وكان حدّاد محررّها وناشرها ومنضدّ حروفها ومدير إدارتها، تماماً مثل زميله الصحافي المهجري الدكتور ألفونس جميل شوريز صاحب جريدة «الإصلاح» وهو من أصلٍ آشوري عراقي.

وظل عبد المسيح حداد يتابع إصدار «السائح» على مدى ٤٥ عاماً إلى أن تنازل عنها بالبيع إلى الصحافي راجي ضاهر صاحب جريدة «البيان» في عام ١٩٥٧، فقرّر إدماج «السائح» في جريدته، ونصّ في عقد البيع على أن يكتب عبد المسيح حدّاد في هذه الجريدة.

وعلى مدى عمر جريدة «السائح» حفلت أعدادها بمقالاتٍ لكل أعلام المهجر الشمالي: مخائيل نعيمة، وجبران خليل جبران، وندرة حداد (١٨٨١ ـ ١٩٥٠) شقيق عبد المسيح حداد، ونسيب عريضة (١٨٨٧ ـ ١٩٤٦) وأمين الريحاني (١٨٧٦ ـ ١٩٤٠) وإيليا أبو ماضي (١٨٨٩ ـ ١٩٥٧) ورشيد أيوب (١٨٧١ ـ ١٩٤١) وأحمد زكي أبو شادي وغيرهم. وكان عبد المسيح حداد يحرّر بنفسه باباً منتظماً عنوانه «ألحان وأشجان» عدا تعليقاته السياسية والاجتماعية والأدبية على الحياة في المهجر الشمالي.

وهناك عددان ممتازان من «السائح» أصدرهما عبد المسيح حداد في عامي ١٩٢٥ و١٩٢٧ طُبعا طبعة فاخرة، وزيّنا بلوحات فنية من ريشة جبران، وذُيلّ كل مقال بصورة زنكوغرافية لتوقيع صاحبه.

ولد عبد المسيح حداد في حمص بسورية في عام ١٨٩٠ وتعلّم في مدارسها

تعليماً متوسطاً حتّى إذا بلغ السادسة عشرة من عمره، انضمّ إلى شقيقه الأكبر ندرة حداد الذي سبقه إلى مهجره في الولايات المتحدة، وإلى شقيقته التي تزوجها الشاعر نسيب عريضة. وعقب وصوله إلى المهجر الأمريكي في عام ١٩٠٧ التحق ببعض المدارس الأمريكية لتعلّم اللغة الإنكليزية، ثم جرّب حظه في التجارة فلم يفلح، ومن ثمّ قرر إصدار جريدة «السائح» وكان رأس ماله ـ على حدّ تعبيره ـ «نشاط مَنْ لا مال لديه، وتجاوباً مع نفسي التي حفزتني على الإقدام على هذه المغامرة التي أصبحت بعد أول عددٍ من الجريدة معركةً متسلسلةٍ متواصلة في ميدان الأدب العصري والوطنية الحرة».

وعندما ارتأى عشرةٌ من أدباء المهجر تأسيس رابطة أطلقوا عليها اسم «الرابطة القلمية» وأطلقوا على أعضائها اسم «عمّال الرابطة»، انضمّ إليهم عبد المسيح حداد كعضوٍ مؤسس، فكان أصغر «العمال» سنّاً، ووصفه أبو شادي بأنه «كان روح الرابطة القلمية... كما كان ولا يزال يُدعى مارك توين العرب في أمريكة لذكائه الخارق وروحه الفكهة».

أما أعضاء الرابطة القلمية المرموقون، فهم ميخائيل نعيمة، وجبران خليل جبران، وإيليا أبو ماضي، ورشيد أيوب، وندرة حداد، ونسيب عريضة، وعبد المسيح حداد، وهناك ثلاثة أعضاء لم ينالوا من الشهرة أو المنزلة الأدبية إلّا أدنى الحظوظ؛ وهم إلياس عطا الله، ووديع باحوط، ووليم كاتسفليس.

وفي عام ١٩٢١ أصدرت الرابطة مجلداً يحمل عنوان «مجموعة الرابطة القلمية لسنة ١٩٢١» أسهم في تحرير مادته جميع عمّال الرابطة، وكان المفروض أن تصدر مجموعات أخرى، ولكن ذلك لم يحدث. وبقيت الرابطة نفسها تواصل أنشطتها إلى أن انحلّت بعد وفاة جبران في عام ١٩٣١.

وكان عمّال الرابطة ينشرون آثارهم في بادئ الأمر في مجلة «الفنون» لنسيب عريضة، ولكنها لم تعمّر إلّا قليلاً، فتحوّل العمال إلى «السائح» ينشرون فيها آثارهم.

وفي عام ١٩٢١ أصدر عبد المسيح حداد كتابه الموسوم «حكايات المهجر»، الذي روى فيه صوراً من الحياة اليومية للشوام المهاجرين إلى أمريكة منقولة من الواقع الذي عرفه وعاناه، ووصف البساطة الريفية التي لازمت هذه

العائلات منذ هجرتها من الكورة اللبنانية أو السورية إلى أن استقرت بنفس عاداتها ونواميسها في قلب «الدردور» الأمريكي، بتعبير نعيمة. واستخدم حدّاد في رسم هذه الصور اللهجات الشامية العامية، ولم يراع في سرد هذه الحكايات أياً من الأصول المرعية في كتابة الأقاصيص، ولهذا لم يسلم حدّاد من انتقادات الأكاديميين كالدكتور عبد الكريم الأشتر الذي قال في كتابه «النثر المهجري في أدب الرابطة القلمية» عن هذه الحكايات: «إن نسيجها من لغةٍ ووصف وحوار خفيف يتفق مع تناول الحكاية على مستوى صحفي عارض، وقد يلجأ الكاتب أحياناً إلى التعابير العامية ليدمجنا في الجوّ الذي تمّت فيه الوقائع، ويقربّنا من تصوّر الشخصيات، ولكنّه يتورط كثيراً في الركاكة والابتذال».

وعندما قرأ عبد المسيح حداد هذه العبارات لم يكتم غضبه، وصارحني بأنه لم يزعم بأنه كاتب قصة، ولهذا عَنْوَنَ كتابه «بحكايات». وقال: إن من الظلم تطبيق مقاييس الأقصوصة الأكاديمية على هذا العمل، وهو لم يَدَّع بأنه من أعلام الروائيين.

فأوضحتُ له أن الدكتور الأشتر استدرك على نقده بأن قال: «وينبغي أن نسجّل لعبد المسيح ـ على كل حال ـ تفرّده بكتابة هذه الحكايات، وسبقه في تسجيل هذه الظواهر».

وكانت للحدّاد محاولات شعرية، ولكنّه كان يدرك أن موهبته الشعرية محدودة.

وعندما زار الحداد سورية سئل عن شعوره بزيارة الوطن بعد هجرته الممتدّة فقال: «إن شعوري يعدل شعور من استطاع أن يستنزل كوكباً من السماء إلى جيبه». وعندما أصدر كتابه «أنطباعات مغترب في سورية»، والذي اعتبره رسالة موجهة منه إلى زملائه في المهجر الأمريكي، سجّل في خاتمته قوله: «هذه هي انطباعاتي . . . . خذوها عنّي وادرسوها واذكروا معي أن الأمل وطيد بارتقاء أمّة العرب في جميع طرق الاجتماع والعمران. فقد حررّتها الحياة لتحرّر في تاريخ العصر الدولي خير الصفحات، وتعيد الماضي السعيد، وتضيف إليه من نفسها كل مزيد يجعلها محترمة من قريب وبعيد، ومرموقة بعيون الإعجاب والتأييد. . . خذوها مني كلمةً وجدانية صادقة تعرّفكم بعد اليوم بوطن آبائكم كما هو حالاً،

يتوكأ على علم أبنائه وإخلاصهم ووطنيتهم وشغفهم باستعلاء وطنهم في جميع حلبات العمران».

وكان عبد المسيح حداد يعتزم إصدار كتاب ثانٍ بعنوان «انطباعات مغترب في مصر» وجزءٍ ثان من «حكايات المهجر»، كما كان يأمل أن يجمع مقالاته الأدبية التي نشرها في جريدته في ٤٥ عاماً والتي نشرها في صحف مهجرية أخرى، ولكن الموت زاره وهو يتسامر بين مجموعة من أصدقائه ففاضت روحه فجأة تماماً كما حدث لشقيقه الشاعر ندرة حداد الذي توفي فجأة قبله بثلاثة عشر عاماً.

زار عبد المسيح حداد أمريكة الجنوبية في عام ١٩٤٩ حيث اجتمع بالأدباء المهاجرين هناك وكان موضوع تكريم حيثما حلّ.

وقد رزقه الله بولدٍ وبنت. أما الولد فهو المهندس جرير حدّاد الذي كان من أوائل المتخصصين في الكمبيوتر، وكان أبوه يقول عنه إنه اخترع أجهزة الكمبيوتر التي تستخدمها الحكومة الاتحادية الأمريكية في ضبط ميزانياتها وحساباتها. وأما البنت فقد أسماها ليلى، وهو اسم عربي على الرغم من أنها جهلت هي وشقيقها اللغة العربية.

وقياماً بواجب الوفاء لهذا المهجري الكبير أقمنا له حفل تأبين في رابطة الأدب الحديث في الخامس من آذار (مارس) ١٩٦٣ شارك فيه الأديب الفلسطيني الدكتور كامل السوافيري، والمؤرخ محمود الشرقاوي، والصحافي أسعد حسني، والدكتور محمد عبد المنعم خفاجي عميد الرابطة، والأديب التونسي/الليبي محمد العيساوي الجمنّي الشتوي، وكنت من جملتهم. وحاولنا بذلك أن نتدارك تقصيراً ترتّب على وجازة زيارته لمصر وغفلة المجتمع الأدبي عنه.

وكان الشاعر محمد عبد الغني حسن (١٩٠٧ ـ ١٩٨٥) قد حاول تدارك هذا التقصير، فوجّه إلى عبد المسيح حدّاد أبياتاً قال فيها:

عَـلِـمْـتُ الآنَ أنَّـكَ بَـيْـنَ أَهْـلٍ ... فَـجِـئْـتُ أَمُـدُّ مِـنْ شـوقٍ ذِراعِـي
فَـإِنَّ الـسَّـائِـحَ الـجَـوَّالَ فِـكْـرٌ ... تُـوَثِّـقُـنَـا بِـهِ أَقْـوَى الـدَّوَاعِـي
عَـرَفْـنَـاه ـ الـغَـدَاةَ ـ عـلى افـتِـراقٍ ... وَنَعْرِفُهُ ـ العَشِيَّ ـ على اجْتِمَاعِ
أَمُـدُّ يَـدِي إِلَـيْـكَ وَلَـسْـتُ أَدْرِي ... أَلِـتَّـسْـلِـيْـمِ، أَمْ هـيَ لِـلْـوَدَاعِ؟

❁ ❁ ❁

كلمة في رثاء عبد المسيح حداد

وأحسرتاه على عبد المسيح حداد وعلى الأدب المهجري من بعده.

فقد هوى في الميدان فرقد تاسع من الفراقد العشرة التي حملت لواء «الرابطة القلمية» في الأندلس الأمريكية الشمالية، ولم يبق من جبران خليل جبران، وإيليا أبي ماضي، وندره حداد، ونسيب عريضة، ورشيد أيوب، ووليم كاتسفليس، ووديع باحوط، وإلياس عطا الله، وعبد المسيح حداد إلّا عاشرهم ميخائيل نعيمة، مد الله في عمره، وزاد قريحته خصباً على خصب، ونفع به الضاد والفكر العربي نفعاً جزيلاً، وهو قد لحق بهم في ٢٩ فبراير ١٩٨٨.

عرفت عبد المسيح حداد أول ما عرفته من رسائل أستاذنا الدكتور أحمد زكي أبي شادي، التي كان يواليني بها من نيويورك، ثم عرفته من جريدته «السائح» التي كانت أعدادها تنتهي إلي بانتظام، ثم عرفت صوته حين هاتفني عندما زرت الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٥٥ مرحباً بمقدمي. وقد سعيت يومها للقائه غير مرة في مكتبه المطل على أعلى ناطحة للسحاب في العالم (أمبير ستيت بلدنج) في النهج الخامس في نيويورك فلم أوفق إلى ذلك لتشابه ساعات العمل عند كلينا، ثم عرفته معرفة وثقى في زيارته للقاهرة في عام ١٩٦٠، واتصل بيننا بعد ذلك حبل المودة والمراسلة حتى يوم وفاته في التاسع عشر من يناير ١٩٦٣.

ومن غريب الاتفاق ـ وهو ما يدعوه رجال العلم بالتلباثية ـ أنني كنت في الضاحية أقرأ كتابه الأخير «انطباعات مغترب». وكان صديقنا محمد عبد الغني حسن يقرأ عين الكتاب في ضاحية أخرى، وكان شاعرنا الكبير المغترب في باريس جورج صيدح يقرأ هذا الكتاب عينه عندما أتانا نبأ ارتحال عبد المسيح حداد عن دنيانا، فعشنا معه على البعد وهو يلفظ آخر أنفاسه بين زوجته الوفية الحبيبة السيدة الجليلة «حفيظة» ونجليه اللامعين جرير وليلى.

ولد عبد المسيح حداد في حمص عام ١٨٩٠ والتحق ببعض معاهدها ومعاهد الناصرة، فلما صار ابن سبعة عشر ربيعاً هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليلحق بشقيقه الشاعر ندرة حداد الذي سبقه إلى هناك بعشرة أعوام. وحاول التجارة، شأن أغلب المغتربين الماهرين، فلم يفلح، ثم انصرف إلى الكتابة في صحف أمريكة. ولا سيما في مجلة «الفنون» التي كان يصدرها نسيب عريضة (١٨٨٧ ـ ١٩٤٦) ولم يطل بها الأجل. فلما توقفت تلك المجلة الراقية عن الصدور، أزمع أن يصدر جريدة «السائح»، وكان يومها في الثانية والعشرين من عمره، وتوالى منذ عام ١٩١٢ صدورها مرتين أسبوعياً، وكان هو محررها وناشرها ومنضد حروفها ومدر إدارتها وكل شيء فيها.

ولما تألفت «الرابطة القلمية» في إبريل ١٩٢٠ ائتلف أعضاؤها (وكانوا يسمون أنفسهم «عمالها») على التحرير في جريدة «السائح» وفي أعدادها السنوية الأدبية الممتازة، وظلت تلك الجريدة ملتقى لقرائح أبناء المهجر الشمالي إلى أن حجبها صاحبها في عام ١٩٥٧ بعدما تبين أن دولة المهجر تؤذن بزوال، وأن اللسان العربي في بلاد المسيسبي قد استعجم واستبهم وانعقد، على أسف منه وأسى.

وصفه أستاذنا المرحوم الدكتور أحمد زكي أبو شادي «بأنه أعرق أساطين الأدب المهجري». ووصفه في مناسبة أخرى بقوله: «وعبد المسيح حداد ناقد نزيه وأديب أصيل مبدع». وقال عنه في مرة تالية: «كان عبد المسيح مؤسس تلك الرابطة الفذة أصغر أعضائها سناً، ولكنه كان أنشطهم ومن المعهم تفكيراً وأقواهم أصالة. وكان ولا يزال يدعى مارك توين العرب في أمريكة لذكائه الخارق وروحه الفكهة الحلوة النيرة التي يتذوقها الكثيرون في باب «ألحان وأشجان» بجريدة «السائح». لا تزال مجموعة الرابطة القلمية التي صدرت في سنة ١٩٢١ والسائح الممتاز الذي صدر في عامي ١٩٢٥ و١٩٢٧ من المراجع الهامة عن روح الرابطة القلمية، وهي الروح التي تقمصتها شخصية عبد المسيح حداد».

ووصف جورج صيدح آثار عبد المسيح حداد بأنها «تمثل هرماً أدبياً بناه عبد المسيح بجده وفنه ووطنيته ومحبته لكل ما هو عربي».

وقال فيه صفيه وابن خؤولته نظير زيتون (١٨٩٦ ـ ١٩٦٧) ـ وهو الذي نعاه

إلي ـ «يندر أن تلقى بين الأدباء نظير عبد المسيح وفاء وتسامياً وتحرراً. وهو صوفي النزعة، إنساني الشرعة، يبذل في سبيل الآخرين ما لا يبذل بعضه في سبيل نفسه. هذا الشهيد الحي قضي عليه أن يحمل رسالة الأدب الحي إلى جانب رسالة الصحافة الشريفة ورسالة أمته، بعدما رأى رفاقه الميامين يتساقطون نجماً إثر نجم، فما جدف ولا تذمر، بل تابع سيره بشوش الوجه رضي النفس».

وقال عنه البدوي الملثم يعقوب العودات (١٩١٠ ـ ١٩٧١) «هل في دولة المنثور أبرع من عبد المسيح حداد. . .؟».

ولم يكن أولئك جميعاً مغالين في تقدير عبد المسيح حداد ولا مغلبين مناقبه الخلقية على مآثرة الأدبية. ذلك بأن عبد المسيح حداد كان على دين الرابطة القلمية حفيظاً، تلك الرابطة التي شاء ناظمو عقدها أن يجعلوا منها ثورة على الجمود والتقليد، وإن يجعلوا «الأدب العربي معرضاً للفكر الحي وللقلب الحساس وللقريحة الحرة، لا معرضاً للسفسطة المزركشة والثرثرة الرنانة والهذيان اللغوي». وكان حظ عبد المسيح حداد في الرابطة كتابة الحكايات المهجرية تسجيلاً للحياة الفريدة التي عاشها المهجريون في أول عهدهم بالهجرة، وتمثيلاً للأمنيات التي جالت في أذهانهم قبيل الهجرة وبعدها، وتصويراً لأسباب التكيف التي لجأوا إليها وهم يلمون ببلد جديد. كما كان حظه عقد مقالات الصدر في «السائح» داعياً فيها إلى كل معنى عربي كريم، في الأدب أو في الفن أو في الاجتماع أو في القومية. كذلك كان من نصيبه نشر نتاج عمال الرابطة في جريدته وفي أعدادها السنوية الخاصة ـ وهي ثروة أدبية عظيمة باقية ـ وفي كتاب «مجموعة الرابطة القلمية» الذي صدر منه جزء واحد له فيه فصلان، وكان الأمل منعقداً على إصدار أجزاء متصلة منه، ولكن ذلك الأمل كان خايباً.

ولقد ظهر لعبد المسيح حداد كتابان: كتاب «حكايات المهجر» وقد نفدت طبعته منذ صدوره عام ١٩٢١، وكان في عزمه ـ على ما أسر إلي ـ أن يعيد طبعه بعد أن يضيف إليه فصولاً جديدة تعزز حكاياته الواحدة والثلاثين، وكتاب «انطباعات مغترب» الذي استعار عنوانه من صديقنا حبيب جاماتي (١٨٨٧ ـ ١٩٦٨) ودون فيه خواطره بعد رحلته إلى الوطن الأم في عام ١٩٦٠، تلك الرحلة التي جاءت بعد ثلاث وخمسين سنة كاملة من هجرته. ولئن عز علي الاطلاع على حكايات حداد المهجرية، في ما خلا ما نشره منها في «مجموعة الرابطة

القلمية»، فلقد وجدت طلاوة وحلاوة كبيرتين في مطالعة انطباعاته التي تكاد تكون في مجموعها ملحمة منثورة في التغني بأمجاد الوطن وفي الابتهاج برؤية محرزاته في ميادين الرقي المختلفة. وقد أوجز عبد المسيح حداد الصدى الذي انطبع في وجدانه من الرحلة في عبارة مخلدة البلاغة قال فيها إن شعوره بزيارة الوطن يعدل شعور من استطاع أن يستنزل كوكباً من السماء إلى جيبه.

ولكن عبد المسيح حداد المطوي أزخر كثيراً من عبد المسيح حداد المنشور، على وفرة ما كتبه في «السائح» وغير «السائح». فلقد حدثني في مجالسي معه ثم في رسائله أحاديث مسهبة عن زملائه أعضاء الرابطة القلمية وغيرهم من أهل المهجر الذين كان موضع ثقتهم وملاذهم في ساعات الحرج، وله عن جبران ذكريات حميمات، وله مثلها عن شقيقه ندرة، وعن نسيب عريضة، ورشيد أيوب، وإيليا أبي ماضي، وأمين الريحاني، وأحمد زكي أبي شادي، وفيليب حتي المؤرخ الكبير، والمكرزلين نعوم وسلوم، والدكتور جورج خير الله العلامة المؤرخ وغيرهم وغيرهم، ولا أدري هل أمهله العمر لتدوين هذه الذكريات العزيزات ـ على ما أفضى به إلي ـ أو ذهبت معه إلى عالم النسيان المؤبد.

وكان عبد المسيح حداد إلى ذلك شاعراً، وإن لم تعرف عنه الشاعرية كشقيقه ندرة. ومن شعره في دمقراطية الدستور الذي نظمه عام ١٩٥٠ قوله:

إيَّاكِ يا جَمْعِيَّةَ التَّأْسِيْسِ ... أَنْ تؤخَذِي بالشَّيْخِ والقِسِّيْسِ
لا خيرَ في الدّستورِ يوضَعُ رأسُه ... بعمامةٍ بَيْضَاءَ أو قَلْنُوْسِ

وإنشاده:

يقولُ النَّاسُ: ذا أمرٌ عَسِيرٌ ... وليسَ على الهَوَىٰ أمرٌ عَسِيْرُ
إذا رَغِبَ الهَوَىٰ في رَبْطِ قَلْبٍ ... فلا بَرٌّ يَرُدُّ ولا بُحُوْرُ
وذا سِرُّ الحَيَاةِ، وكُلُّ فَرْدٍ ... لِسِرِّ حَيَاتِهِ أَعْمَىٰ يَسِيْرُ

كما كان من المشتغلين بنقد الآثار الأدبية، ومن المسهمين في كل نشاط ثقافي عربي عرفته القارة الأمريكية الشمالية. فمن ذلك مشاركته في حفل تكريم خليل مطران الذي أقامته الجاليات العربية في الولايات المتحدة عام ١٩٤٧، واشتراكه في حفل تكريم الدكتور أحمد زكي أبي شادي في فندق والدورف

أستوريا في نيويورك عام ١٩٥٠، واتصاله المستمر بوفود العرب في الأمم المتحدة، وعضويته في مجلس إدارة الرابطة الدولية لحقوق الإنسان، وهلم جرا.

ومجموعات «السائح» ثروة قومية أجزلها عبد المسيح حداد لمواطنيه وبني عشيرته سنوات ذرفت على نصف قرن. فلما احتجبت «السائح» حول مكتبها إلى منتدى عربي يخدم جميع قصاده من أبناء العروبة ويقوم بالترجمة من العربية وإليها، كما نقل قلمه إلى جريدة «البيان» لصاحبها الأستاذ راجي ظاهر، وهي الجريدة التي آلت إليها مطبعة «السائح»، وإلى جريدة «الإصلاح» لصاحبها صديقنا الدكتور الفونس جميل شوريز (المعروف بأبي فيليب) ليؤدي الرسالة التي تطوع لحملها وهو فتى غض الإهاب ومات في الذياد عنها والمنافحة عن مثُلها العليا. ولم يرم حداد قلمه إلا بعدما رماه الموت بسهامه فأصاب.

وقد ورد في بعض المباحث التي اطَّلعنا عليها نقد لعبد المسيح حداد، فقال الدكتور عبد الكريم الاشتر: إنه «أغرق في عمله الصحفي فلم يلتفت إلى صياغته الصورة على الإطلاق، ولم يعاود النظر فيها، فوقعت بذلك عنده في ضعف مازها من صور التعبير لدى كتاب الرابطة الآخرين». وفي ظننا إن هذا النقد غير حصيف ولا فيه نصفة، لأن بلاغة عبد المسيح حداد في ارتجاله، فلم يكن يكتب بالقلم بل كان ينضد مقالاته من الذهن مباشرة على حروف الطابعة، كما أنه كان أدبي المنهج والأسلوب مشرق الديباجة سليمها حتى في فصوله السياسية الدارجة.

وإذا كان عبد المسيح حداد في حاجة إلى شهادة فوق ما أسلفنا من شهادات، فلنتدبر مقالة جورج صيدح عنه: «يكفي أن تتصفح العدد السنوي الممتاز للسائح وتقرأ أسماء المشتركين في تحريره لتعلم إلى أي مستوى رفيع نهضت الصحافة العربية في نيويورك بفضل صاحب «السائح».

ولنصغ إلى شهادة جديدة من أبي شادي جاء فيها: «ولكن ثمة كتاباً اشتهروا في عالم الصحافة وهم جد متمكنين من الأدب الخلاق، نذكر منهم على سبيل المثال في المهجر عبد المسيح حداد. . . .». فاشتغال عبد المسيح حداد بالصحافة رفع مستواها إلى سدة الأدب ولم ينحط بمستوى الأدب إلى ما دون الصحافة.

وعزيز علي أن أرثي عبد المسيح حداد الأديب الصحفي المفكر العظيم، وهو الرجل الذي أحببته على البعد والقرب، وصافيته الوداد، وناجيته في مراسلات مرسلات، وكان لي نعم الخل والصفي والخدن والقرين. وعندي من ذوب قلبه الذي صبّه في رسائله ما يزيدني وقوفاً على سريرة نفسه الأريحية ونبل عواطفه وعراقة خلقه وهيامه بالأدب والأدباء والعروبة والضاد.

وإذا كنت ما فتئت أردد مع صديقي العظيم الراحل خليل مطران:

عندي الحائلان دونَ رفيعِ القَدْرِ ... مِـنْ قِـلَّـةٍ ومَـنْ إِقْـلَالِ
لا لَعَمْرِي، إنّي كثيرٌ بِإِخْوَانِي ... ومـا مُـوْسِـرُ لَـهُ رَأْسُ مَـالِـي

فما أغبنني أن أفقد بذهاب عبد المسيح حداد جزءاً ثميناً من رأس مالي. وأخشى أن يجيء اليوم الذي أشهر فيه إفلاسي، فهو يوم أتعجل منيتي قبل أن أطالع صبحه.

رعى الله أيامك يا عبد المسيح، وبورك عمرك الخلاق الوهاب، وإلى مثوى الخالدين ومنزل البررة المجاهدين المؤمنين.

❁ ❁ ❁

عثمان أمين

كنت حديث عهد بالعمل في الصحافة عندما كلفني رئيس تحرير الجريدة التي أعمل بها حضور حفل في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) بمناسبة إنشاء «الجمعية الفلسفية المصرية». وتوجهت إلى مقر الحفل دون أن أتوقع مقابلة ولو شخص واحد يعرفني في هذا الجمع الذي ضم أساتذة الفلسفة وطلابها، ومؤكد أنهم استنكروا وجودي بينهم لولا أن الصفة الصحافية كانت كفيلةً بإحاطتي بجوٍ ودّي لم أكن أتوقعه.

وبدأ الحفل بكلمة ألقاها الدكتور عثمان أمين السكرتير العام للجمعية قال فيها: إن المشتغلين بالفلسفة رأوا أن يزيلوا رهبة الفلسفة من النفوس، ويجعلوها محببّة إلى الأذهان، وذلك بتقديم الفلسفة إلى الناس في أسلوب مبّسط وسائغ وجذاب، يفتح باب الفلسفة على مصراعيه لجمهور المثقفين.

وقال: إن الجمعية الفلسفية المصرية قد أنشئت في حضن الجامعة لتؤدّي هذه الرسالة بالرياسة الفخرية للشيخ مصطفى عبد الرزاق باشا رئيس قسم الفلسفة بالكلية، وبالرياسة العملية للدكتور علي عبد الواحد وافي (١٩٠١ ـ ١٩٩١) الأستاذ بالجامعة، وإن من مشروعات الجمعية إصدار سلسلة من الكتب الفلسفية الشهرية تعميماً لرسالتها. وبعد الحفل فوجئت بوجود زميلي في الجريدة محيي الدين رضا (وهو ابن شقيق الشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة «المنار») الذي قدمّني أولاً إلى الدكتور عثمان أمين ثم إلى الشيخ مصطفى عبد الرزاق (١٨٨٥ ـ ١٩٤٧) الذي رحبّ بي بتواضع وودّ كريمين، واتّصلت بيننا بعد ذلك المودّات حتى عندما أصبح وزيراً للأوقاف ثم شيخاً للجامع الأزهر، وهو الوحيد في كل التاريخ الذي تنازل عن رتبة الباشوية التي كانت تثير لعاب الكثيرين اعتقاداً منه بأن لقب «الإمام الأكبر» أسمى من هذه الرتبة الدنيوية شرفاً.

وعند صدور الكتاب الأول في سلسلة «مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية»

وكان موضوعه «فيلسوف العرب والمعلم الثاني» من تأليف الشيخ مصطفى عبد الرزاق، زارني الدكتور عثمان أمين في مكتبي ليقدّم إليّ نسخة منه، وتكررّت زياراته الشهرية ليقدم لي ما ظهر من مؤلفات في هذه السلسلة التي لم تعمّر ـ مع الأسف ـ طويلاً، وإنْ كان الدكتور عثمان أمين استقلّ بعد ذلك بإصدار سلسلة أخرى عنوانها «نفائس الفلسفة الغربية».

وكانت تدهشني حيوية عثمان أمين وحماسته للفلسفة، وانصرافه بِجُمْعِ قواه إلى الإحاطة بكل آثار الفلاسفة في العالم الإسلامي وفي الغرب، وكانت له قدرة فذّة على هضم جميع هذه الفلسفات واستصفاء جوهرها وبسطها في كتبه ومقالاته بأسلوب ناصع الديباجة ميسّر الفهم، يطعّمه دائماً بالحكم والأقوال المأثورة وباستشهادات شعرية.

لم أره، وهو صاحب الوجه المشرب بحمرةٍ شبه أوربية، وصاحب الجسم الذي يميل إلى الامتلاء دون بدانة وإلى القصر دون عيب، إلّا وهو يحمل أسفاراً في ذهابه وإيابه، حتى إذا ما استقرّ في بيته أو مكتبه في الجامعة، استغرقته المطالعة باللغات العربية والإنكليزية والإفرنسية بما يشبه الهَوَس. فقد اختار لنفسه طريق الفلسفة، واشرأبّت نفسه إلى الحياة المُثلَى الفضلى التي دعا إليها الفلاسفة، وأخذ نفسه بمنهاج يجمع بين تواضع العلماء وترفّع الفلاسفة، وهو ما عبّر عنه في باكورة حياته بقوله: «إنني متردد حيران بين (المثل الأعلى) الذي أتوخّاه لحياتي وتصّرفاتي، وبين (الواقعية) الغليظة والسوقية البليدة التي تصرخ من حولي». وحياة عثمان أمين نموذج جميل للرجل صاحب الرسالة الذي نذر نفسه لأدائها على مدى العمر، فقصر آماله وأحلامه في الحياة على ميدانين، هما التعليم الجامعي والتأليف في موضوع تخصصه، وازورّ عن المناصب الإدارية، فلم يشغل أياً منها باستثناء رياسته لقسم الفلسفة في جامعته.

ولد عثمان أمين في قرية مزغونة لأسرة ريفية في عام ١٩٠٨، وهي قرية تتبع محافظة الجيزة. ولمّا بلغ سنّ الصِّبا أدخله أبوه كتّاب القرية، فهرب منه بعد ساعة واحدة «فراراً من المدرّس حين أراد أن يغتصب ما كان معي من فطائر وحلوى!» حسب قوله. وهنا قرر أبوه أن يعلّمه بنفسه، ولكنه ارتأى أن من الأفضل إلحاقه بمدرسة أهلية في القرية، ثم نقله إلى مدرسة في القاهرة وظلّ ينتقل بين مدارسها ومدارس محافظة الجيزة إلى أن وصل إلى المرحلة الثانوية،

فألحقه أبوه بمدرسة السعيدية بالقاهرة وهي مدرسة عريقة ما زالت تواصل أداء مهمتها التعليمية.

وبعد انتهائه من الدراسة الثانوية عمل مدرساً في مدينة العياط، ولكنه سئم تدريس التلاميذ، وتاقت نفسه إلى متابعة الدراسة الجامعية، فالتحق بالجامعة المصرية وكانت وقتها تعجّ بكبار الأساتذة المربّين من مصريين ومستعربين، فانفتحت شهيته للعلوم ينهل منها بغير حساب، دون أن يقنع بتخصصه الفلسفي، وقرأ زبدة الآداب الغربية، وتعمق في دراسة الآداب العربية، وكان وهو طالب يكتب فصولاً في جريدة «السياسة الأسبوعية» للدكتور محمد حسين هيكل (١٨٨٨ ـ ١٩٥٦) بعنون «سوانح الشباب» يطرح فيها قضايا أخلاقية وإنسانية بأسلوب أنضجته سعة مُطالعاته.

وعندما تخرج من الجامعة في عام ١٩٣٠ عمل في التدريس الجامعي بعض الوقت، ولكنه لم يلبث أن شدّ الرحال إلى باريس حيث قضى ثماني سنين في جامعة السوربون متفقّهاً في الفلسفة، واختار لأطروحته الجامعية موضوع «فلسفة الإمام محمد عبده» الذين فُتن به منذ ما طالع تفسيره «لجزء عم»في مكتبة والده التي لم تكن تضم إلّا أربعة كتب، هو أحدها.

وبعودته من باريس عمل في سلك التدريس الجامعي متدرّجاً إلى أعلى مناصبه، وانتدب للتدريس في جامعات مصرية وعربية وغربية وفي الباكستان، وانتخب عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة في عام ١٩٧٤. وخطبت ودّه الجامعات الأجنبية، فرحّب بدعواتها إنْ توافقت مع كرامته، وأباها إنْ انتقصت منها. وفي هذا يقول صديقه الطبيب محمود دياب «أرسل له الدكتور كيسنغر وزير خارجية أمريكة السابق حين كان أستاذاً مساعداً بإحدى الجامعات الأمريكية (هارفرْد) دعوةً لحضور إحدى الندوات بأمريكة، وذهب إلى السفارة الأمريكية بالقاهرة، وشعر بأن القنصل لم يقابله بالاحترام الكافي، فأرسل يعتذر إلى الدكتور كيسنغر من عدم الذهاب. وبعد سنة أرسل إليه كيسنغر دعوةً جديدة وقال له: ستجد أن الأمور قد تغيّرت، وأرجو حضورك، فذهب ووجد أن القنصل قد نُقل، وأنهم قدموا له الاحترام اللازم وسافر إلى هناك. وكان هناك صهيونيون، وعرف كيف ينتصر عليهم بأدلّته ومنطقه وحجته. وحدث نفس الشيء مع السفارة الروسية في القاهرة. فلقد أرسلت إليه روسية دعوةً لحضور

مؤتمر الفارابي، وذهب إلى السفارة ولم تعجبه المقابلة، فأرسل يعتذر».

وقد خبرتُ من أخلاقه هذا الترفّع الذي جعله يعيش في شبه قوقعة، متأملاً الدنيا والناس بمنظوره الفلسفي، ومُراده أن يخرج على الناس بفلسفة جديدة يصوغ فيها كل حصيلة عمره من **معاقرة كتب الفلسفة ومنادمة الفلاسفة**.

وفي عام ١٩٦٤ أخرج كتابه الرائد «الجوانية» وهي الفلسفة التي انتهت إلى تفصيلها اجتهاداتُه بعد نحو أربعين عاماً من الاشتغال بالفلسفة. وفي ملّته واعتقاده أن «فلسفة الجوانية هي فلسفة تنظر إلى المخبر ولا تقف عند المظهر، وتلتمس الباطن دون أن تقنع بالظاهر، وتفحص عن الداخل بعد ملاحظة الخارج، وتلتفت دائماً إلى المعنى وإلى القيمة وإلى الروح وراء اللفظ والحسّ والظواهر، وتستكنه الجوهر من وراء الأعراض، وتبحث عن الماهية من وراء المظاهر. فالجوانية هي الضمير».

وبسبب الإعجاب المتبادل بين عثمان أمين وعباس محمود العقاد (١٨٩٩ ـ ١٩٦٤) طبّق عثمان أمين نظرية الجوانية على العقاد واعتبره «جوانياً» لاهتمامه بالروح، وسعيه إلى الأصالة، وتعبيره الجميل عن الشعور الصادق وأدب النفس. بل لقد أخرج كتاباً عن العقاد عنوانه «نظرات في فكر العقاد».

وقد حاولتُ حصر مؤلفات الدكتور عثمان أمين، فأعياني البحث بسبب كثرتها، وتواتر صدورها، وهي تندرج تحت أربع فئات، هي كتب مؤلفة، وكتب مترجمة، وكتب محققة، وكتب باللغات الأجنبية.

فمن كتبه المؤلفة «رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده» و«شخصيات ومذاهب فلسفية» و«محاولات فلسفية» و«الفلسفة الرواقية» و«ديكارت» و«شيلر» و«روّاد الوعي الإنساني في الشرق الإسلامي» و«دروس للشباب في سيرة الأستاذ الإمام» و«نحو جامعات أفضل» و«فلسفة اللغة العربية» و«روّاد المثالية في الفلسفة الغربية» و«في اللغة والفكر».

أما الكتب المترجمة فمنها «التأملات في الفلسفة الأولى» لديكارت و«مبادئ الفلسفة لديكارت» و«دفاع عن العلم» لألبير مايه و«مشروع السلام الدائم» للفيلسوف كانوا و«مستقبل الإنسانية» لكارل ياسبرز و«في الفلسفة والشعر» لمارتن هيدجر و«فلسفة كانط» لإميل بوترو.

وحقق الدكتور عثمان أمين كتاب «إحصاء العلوم» للفارابي، وقد حققه كذلك العلّامة العراقي محمد رضا الشبيبي (١٨٨٨ ـ ١٩٦٥) وكتاب «تلخيص ما بعد الطبيعة» لابن رشد.

وأصدر باللغة الفرنسية أطروحة الدكتوراه عن الإمام محمد عبده، وكتاباً آخر عن علوم المفكرين المسلمين، وباللغة الإنكليزية كتاباً أطلق فيه الأضواء على الفلسفة الإسلامية.

وتكالبت الأمراض على الدكتور عثمان أمين وهو يدنو من السبعين فعاودته الذبحة الصدرية وارتفع ضغط الدم عنده وضعف بصره وقل سمعه وأصيب بالفالج وتوفي في السابع عشر من أيار (مايو) ١٩٧٨.

ورثاه صديقه (وبلديّاته) الدكتور إبراهيم بيومي مدكور (١٩٠٢ ـ ١٩٩٥) رئيس مجمع القاهرة بقوله: إنه «يعد بحق من بُناة الفكر الفلسفي المصري المعاصر، كوّن رعيلاً مرموقاً من الباحثين والدارسين، وزوّد المكتبة العربية بزادٍ وفير سيبقى على الدهر».

زرتُ الدكتور عثمان أمين للمرة الأخيرة مع صديق الطرفين الشاعر الأديب محمد عبد الغني حسن (١٩٠٧ ـ ١٩٨٥) فاستقبلنا في بيته بحي أساتذة الجامعة، وكان ذلك بعد عامين من صدور كتابه المشتمل على فلسفته «الجوانية»، فألفيناه ما زال شديد التأثر من الأسلوب الهزلي الذي استقبلت به، هذه النظرية الفلسفية الطازجة. إذ حمل عليه بعض الكتّاب لأنه اختار لفلسفته اسماً عامياً، وهو الجوانية في مقابل البرانّية العاميّة بدورها[1]. وتندّر منهم مَنْ شاء أن يتندّر قائلين: هذا من تهافت الفلاسفة وإفلاسهم. وهم لو قرأوا كتابه بإنعام نظر لرأوا فيه عملاً شامخاً أفنى عثمان أمين عمره في تشييد صرحه دون أن ينتقص من العلم ـ كما أُثر عن بعض الفلاسفة ـ ودون أن يُجافي العقائد الدينية التي عدّها جزءاً من صميم مذهبه الجديد. فقلت له وأنا أحاول التسرية عنه: اعتبر هؤلاء النقاد برانيين، وأرح نفسك. (ونحن نطلق على العملة الزائفة صفة «البراني»)، في حين قال عبد الغني: ستعرف الناس قيمة نظريتك الجوانية ذات يوم، فتستوي في كتاب

---

(١) الجوَّاني والبَرَّاني من العامي الفصيح (الناشر).

المعرفة الخالد مع نظريات الغزالي وابن سينا والفارابي وابن رشد وغيرهم من الفلاسفة العرب المشهود لهم حتّى من علماء الغرب.

بقي الدكتور عثمان أمين يعاني من حالة نفسية عنيفة بسبب الاستخفاف بجهده الذي ابتغى به وجه النفع العام، ولم يخرج من هذا الجوّ السوداويّ. إلا عندما انتخب عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٧٤ فكان هذا أكبر تكريم حظي به في حياته، فسخّر كل جهده لخدمة قضايا المجمع مشاركاً في جميع مؤتمراته ولجانه، ولا سيما لجنة الفلسفة، ولم يتخلف عن مجالس زملائه المجمعيين العلماء إلّا بعدما اشتدت عليه وطأة المرض. والغريب أنه انسحب من الدنيا في وقت عقمت فيه المودّات حتّى إن مجلة «الهلال» خلت من كلمة وفاءٍ له في عهد محررها الدكتور حسين مؤنس زميل عثمان أمين في الجامعة!

❁ ❁ ❁

عجاج نويهض

يحار المرء من أين يبدأ إذا ما انتوى الكتابة عن رجل في مثل ضخامة عجاج نويهض. فهو البحر من أي النواحي أتيته، وذلك لتنوّع اهتماماته، وتفرّد شخصيته، وانشغاله الدائم بهموم أمتّه وثقافتها وفكرها وتراثها وقيمها وآمالها. لكَ إنْ شئت أن تعدّه أديباً مترسّلاً، أو مؤرّخاً أميناً، أو شاعراً مجيداً، أو مترجماً بارعاً، أو عالماً فقيهاً بصيراً، أو صحفياً ذا رسالة، أو مناضلاً من مناضلي الحركة العربية الشاملة، التي استهدفت استقلال العرب ومنعتهم ويقظتهم واجتماع شملهم تحت راية عربية خفّاقة.

لقد كان عجاج نويهض أمّةٌ في رجل، وكانت له على مدى تاريخه الطويل منذ ولادته في رأس المتن بلبنان في القسم الأخير من العقد الأخير من القرن الماضي، وحتّى وفاته في بيروت في الخامس والعشرين من حزيران (يونيو) ١٩٨٢ يدٌ طولى في كل مأربٍ من مآرب الثقافة والعلم والوطنية والدين، وكان في كل عمره المرجع الثقة، والمشير الصادق، والمحور الذي تدور حوله المحاور النهضوية، بل كان ذاكرة الأمّة التي لا تخون ولا تمين ولا تكذب أهلها.

كنتُ أسمع بعجاج نويهض منذ ما تفتح وعيي على الحياة العربية المعاصرة بفضل الصحافة من ناحية، وبفضل الاهتمامات الفكرية من ناحية أخرى، وكنت أراه قمّةً لا تُبلغ من أمثال أعاظم رجال العروبة: الأمير شكيب أرسلان (١٨٦٩ ـ ١٩٤٦)، ومحمد عزة دروزة (١٨٨٨ ـ ١٩٨٤)، ومحمد كرد علي (١٨٧٦ ـ ١٩٥٣)، وخير الدين الزركلي (١٨٩٣ ـ ١٩٧٦)، والأمير مصطفى الشهابي (١٨٩٣ ـ ١٩٦٨)، وعادل زعيتر (١٨٩٧ ـ ١٩٥٧)، ومحب الدين الخطيب (١٨٨٧ ـ ١٩٦٩)، ومحمد رشيد رضا (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥)، وفارس الخوري (١٨٧٩ ـ ١٩٦٢)، وعبد الرحمن عزام (١٨٩٣ ـ ١٩٧٦)، ومحمد علي الطاهر

(١٨٩٦ ـ ١٩٧٤)، وأضرابهم من الرجال الكبار الكبار الذين نذروا أنفسهم لقضايا العرب، وإنْ تفاوتت حظوظهم من المشاركة فيها. ولم يجُلْ بخاطري أبداً أن تنشأ بيني وبينه صلة، ناهيك عن أن تتطور هذه الصلة إلى صداقةٍ حميمة استمرّت عبر المراسلات على مدى أكثر من خمسة عشر عاماً.

ذلك أن صديقي الشاعر المهجري جورج صيدح (١٨٩٣ ـ ١٩٧٨) المقيم في باريس أشار عليَّ بأن أهدي نسخاً من كتابي «قضايا الفكر في الأدب المعاصر» إلى طائفة من أصدقائه ومنهم عجاج نويهض الساكن رأس المتن، فاستجبت لرغبته، وطِيّرت نسخة من الكتاب إلى كل منهم وفي ظنّي أن مصير الكتاب سيكون كمصير أخوات له بعثت بها إلى سدنة الضاد هنا وهناك فلم أتلق من عبارات الشكر إلا أقلّ القليل. وكأنّما كان عجاج نويهض يتربّص لهذه البادرة من جانبي، إذْ سرعان ما أغرقني برسائله المغموسة بمداد الودّ والتقدير، والرسالة الواحدة تقع في عشرين صفحة أو أكثر، يليها ملحق من خمس صفحات أو نحوها، ثم ذيل من صفحتين أو ثلاث، عدا هوامش تملأ فراغات الرسالة من فوق ومن تحت وعلى الجانبين، ثم يسوق أعذاره لأن الرسالة قصرت عن استيعاب كل ما أراد قوله، واعداً باستدراك ذلك في رسائل مقبلة! وهو في رسائله يمتاح من ذكريات الماضي، أو يعلّق على الأحداث الجارية، أو يعقّب على مطالعات جديدة، أو ينقل أخباراً أدبية، أو يسجّل ما يعتمل في صدره من خواطر ومشاعر بعبارات مسجوعة أو منثورة، متدفقاً تدفق السيل العرم. ولو كانت هناك جوائز تُرصد لطوال الرسائل، لحصد عجاج نويهض جميع هذه الجوائز دون منازع. ولعلّه في هذا الترسّل والتبسّط قد حاكى صديقه وأستاذه ومثله الأعلى أمير البيان شكيب أرسلان الذي ملأ الدنيا كلاماً مفيداً، سواء وهو في الوطن أو في رحلاته الواسعة، أو في منفاه الاختياري في سويسرة.

كان عجاج نويهض بدوره من الرعيل الرائد الذي آمن بأن الوطن العربي رقعة واحدة منبسطة تصدق عليها تسمية «المنتجع الفسيح» التي أطلقها عليها الشاعر الحجازي محمد حسن عوّاد (١٩٠٠ ـ ١٩٨٠)، فلا تقوم بينها حواجز أو تخوم اصطنعتها دول الاستعمار، أو الأهواء والمطامع، أو النعرات الضيقة. ولهذا نراه ينتقل من لبنان إلى سورية للإقامة والعمل، ثم يتوجه إلى فلسطين لنفس الغاية، ومنها إلى شرق الأردن، ولو طاوعته ظروفه لقصد العراق. وكان له تردّد

دائم على مصر لطبع كتبه، وكأنما اتخذ من قول الشاعر محمود أبي الوفا (١٩٠١ ـ ١٩٧٩) شعاراً له، وهو:

وَطَنِي هُوَ الفُصْحَى، فَكُلُّ بِلَادِهَا فِيْ مَصْرَ أَوْ في الشَّامِ هُنَّ بِلَادِي
هَـذا هُـوَ الـوَطَـنُ الَّـذِيْ أَحْـيَـا لَـهُ وَلَـهُ أُوَالِـي صَـادِقـاً وأُعَـادِي

أنجز في وطنه لبنان الدراسة الابتدائية والثانوية في مدارس في رأس المتن وبرمانة وسوق الغرب، وهي دراسة كانت لفرط جديّتها وصرامتها تصلح دعامةً قوية لبدء الحياة العملية. ويقول عجاج نويهض في مذكراته: إنه مدين لثلاثةٍ من الأساتذة الذين أخذ عنهم العربية وهم المعلّم طانيوس قرطاس في رأس المتن، والمعلّم نجيب شمعون في برمانة، والمعلّم نجيب حتّي في سوق الغرب، «فلا أنسى فضل هؤلاء ما دمت حيّاً».

ومن طريف ما أورده عجاج نويهض في مذكراته أن المعلم طانيوس كان يملك في المدرسة مكتبةً، والمكتبة كناية عن صناديق خشبية جعل منها صندوقاً كبيراً وجعل إحدى الواجهات باباً له مفتاح بسلسلة، ويبقى المفتاح بسلسلة معلّقاً بجيب المعلم طانيوس. وتفتح المكتبة في وقت ما خارج أوقات الدرس، فيأتي الطلاب بعضهم لشراء الكتب المدرسية، والدفاتر وأقلام الرصاص، وبعضهم للفرجة. «وكان منظر هذه المكتبة بنظري من أروع ما رأيت».

ولم ير عجاج حاجة إلى الاستزادة من التحصيل العلمي إلّا عندما أنشأت حكومة فلسطين مدرسةً للحقوق، فالتحق بها، وظفر بشهادتها في عام ١٩٢٥ وبفضلها اشتغل بالمحاماة في فلسطين بين عامي ١٩٤٥ و١٩٤٧.

كانت الحرب العالمية الأولى مشتعلة الأوار عندما عوّل عجاج نويهض على النزوح إلى دمشق طلباً للعمل، وهناك اهتدى إلى وظيفة كأمين لصندوق الإعاشة (أو التموين بلغة هذه الأيام) وكان من جملة مسؤولياته ترجمة المراسلات التي تجري بين مديرية الإعاشة ومركز القيادة البريطانية المسؤول عنها. وبانتهاء الحرب في عام ١٩١٩ انسحب البريطانيون من سورية، وحُلّت مديرية الإعاشة، فاستعان به ساطع الحصري (١٨٨٠ ـ ١٩٦٨) للعمل في مكتب للترجمة كان يديره في العاصمة السورية. وفي هذا الوقت اشترك مع صديقه عبد الله النجار في إصدار مجلة علمية أدبية شهرية عنوانها «القلم»، ظهر عددها الأول في تموز (يوليو)

١٩١٩، فكان ذلك أوّل عهده بإصدارالصحف، إذ أصدر فيما بعد مجلة أسبوعية سياسية في القدس عنونها «العرب» ابتداء من ٢٧ آب (أغسطس) ١٩٣٢ وحتى ٢٨ نيسان (إبريل) ١٩٣٤ وبلغ جملة ما صدر منها ٧٦ عدداً.

عاد ساطع الحصري فطلب منه أن يقوم بتدريس اللغة الإنكليزية في المدرسة السلطانية بدمشق، ولكنه كان يعتقد أن مجاله الأوسع هو في القدس، فسافر إليها، وعمل فيها كاتباً في مالية فلسطين. واتفق أثناء تردّده على إحدى المكتبات أن قرأ في مجلة إنكليزية عرضاً لكتاب جديد صدر في لندن ونيويورك في وقت واحد عنوانه The New World of Islam بقلم الدكتور لوثروب ستودارد Lothrop Stoddard فبعث في طلب نسخة من لندن، وأعجبه موضوعه فعّول على ترجمته إلى اللغة العربية بعدما حصل على حقوق الترجمة من ناشري طبعتيه الإنكليزية والأميركية. ولما فرغ من ترجمته، رجا صديقه الأمير شكيب أرسلان أن يكتب مقدّمة له، ولكن الأمير آثر بعد الإطلاع على الكتاب أن يكتب تعليقات على موضوعاته، فتحوّل الكتاب بتعليقات الأمير الأرسلاني إلى أربعة مجلدات ضمن جزءين مجموع صفحاتهما ١٥٨٨ صفحة، وصار المتن لمؤلفه ستودارد يمثل الخمس، أما الأخماس الأربعة الباقية فهي للأمير شكيب. وطبع الكتاب في القاهرة، فكان فاتحةً للكتب التي أصدرها عجاج نويهض بعد ذلك، وهي «بروتوكولات حكماء صهيون» ويقع في أربعة أجزاء يضمها مجلدان، و«نفاق اليهود» وهو مترجم عن مارتن لوثر، و«فتح القدس» و«رجال من فلسطين» و«أبو جعفر المنصور وعروبة لبنان». وجاء من بعده العلامة محمد جميل بيهم (١٨٨٧ ـ ١٩٧٨) فوقف كتاباً برأسه على موضوع عروبة لبنان. وبعد وفاة عجاج نويهض، أشرفت كريمته بيان نويهض الحوت على نشر «مذكرات عجاج نويهض: ستون عاماً مع القافلة العربية». وهي مذكرات كان أملاها على كريمته، واستكملتها من واقع أوراقه المخطوطة وفصوله المنشورة مع تعليقات كاشفة أوردتها الباحثة.

عمل عجاج نويهض في فلسطين ثم في الأردن في وظائف شتى، فعاون سماحة الحاج محمد أمين الحسيني مفتي القدس (١٨٩٧ ـ ١٩٧٤) في المجلس الإسلامي الأعلى، وأشرف على إنشاء دار الأيتام الإسلامية في القدس، وهو مشروع ظلّ يرعاه طويلاً، وأشرف على القسم العربي من دار الإذاعة الفلسطينية بين عامي ١٩٤٠ و١٩٤٤ ودعا كثيرين من أعلام المفكرين العرب لإلقاء

محاضرات في هذه الإذاعة جمعت بعد ذلك في كتاب عنوانه «حديث الإذاعة». ثم عمل مساعداً لرئيس الديوان الملكي الهاشمي في عمان ومراقباً للإذاعة والصحافة والنشر في القدس ورام الله ومديراً للمطبوعات. وفي خلال كل ذلك كان عجاج نويهض مشاركاً في جميع الحركات التحرّرية والاستقلالية التي نشطت بل بلغت ذروتها في فترة ما بين الحربين العالميتين، كما شارك في عدد من المؤتمرات التي عقدت في العواصم العربية المختلفة، ولم يسلم من الاعتقال والنفي إلى أريحا وصرفند.

وبقي في الأردن حتى خريف عام ١٩٥٩ عندما عاد إلى رأس المتن نهائياً. وكان قد تزوج من السيدة جمال سليم شقيقة المجاهد العربي الشهيد فؤاد سليم (١٨٩٤ ـ ١٩٢٥) وكانت بدورها شاعرة وروائية، إذ أصدرت طائفةً من الروايات الوطنية هي «مواكب الشهداء حول الحرم» و«غربة في الوطن» و«عرس في الجنة» وهناك رواية مخطوطة عنوانها «عندما تلتئم الجراح».

وفي عام ١٩٧٩ اختير عجاج نويهض عضواً مؤازراً في المجمع العلمي العراقي.

ومنذ عودته إلى رأس المتن انصرف انصرافاً تاماً إلى تسجيل المعالم التاريخية والوطنية للعمر الطويل الذي أنفقه في سبيل أمّته، وتحوّل إلى ما يمكن وصفه «بذاكرة الأمّة» وتحوّل بيته إلى ما يشبه كعبة القصّاد من أعلام العرب، أدباء وسياسيين، واستفاضت كتاباته في الصحف والمجلات المحلية والعربية وفي المهاجر النائية، ونصّب من نفسه مدافعاً عن كل قضية وطنية أو إنسانية أو أدبية، وما أكثر ما صحّح من أغاليط الكتّاب ونبّه إلى الهفوات، وأنصف العاملين الذين انسحبت عليهم بُسُط النسيان، أو تحالفت عليهم أسباب الجحود، وكتب في هذا نثراً وشعراً كثيرين. ولكن كان أكبر أسباب كمده أنه حاول منذ عودته إلى مسقط رأسه استرداد الجنسية اللبنانية (لأنه كان يحمل جواز سفر أردنياً) ورد الاعتبار إليه، فلم تفلح جميع محاولاته في استخلاص حقّه من بين أنياب البيروقراطية الآمرة.

وكان عجاج نويهض قد هيأ لنفسه ضريحاً في حديقة بيته في رأس المتن، ولكن وفاته حلّت وهو في بيروت التي تشتعل فيها نيران الحرب الأهلية، فبقي

جثمانه أياماً في المستشفى إلى أن أمكن تهريبه إلى الجبل حيث وسد في مرقده الأبدي. وقد رثته زوجته بقصيدة ضافية، ولحقت به في عام ١٩٩٤ أي بعد وفاته باثني عشر عاماً.

ولأن عجاج نويهض عاش في القدس نحو ثلاثين عاماً ولم يغادرها إلّا بعد النكبة، فقد حوّل بيته إلى ما يشبه دار الكتب الوطنية، إذ تضخمت مقتنياته من الكتب، وتعاظمت مجموعاته من الصحف والمجلات، عدا المراسلات التي كان ينضّدها في أضابير هو بها ضنين، ولكن هذا كلّه «ذهب إلى اليهود» بعبارته التي كان يكرّرها دائماً وهو جدّ حزين على ضياع كل هذا التراث الذي جمع فرائده. وعندما عكف على تسجيل ذكرياته عن الحركة الأدبية في فلسطين ورجالها لنشرها في فصول منجّمة في جريدة «الأنوار» لأنه هو وصاحبها سعيد فريحة (١٩٠٥ ـ ١٩٧٨) من مدينة رأس المتن التي عُرفت بصناعة الحرير، اعتمد في تحبير هذه الفصول على الذاكرة، فأورد سير الأدباء والصحافيين وآثارهم وتواريخ صدورها من واقع الذاكرة لا المذكرات.

ومَنْ يطالع كتاب «رجال من فلسطين» الذي اندرجت فيه هذه الفصول فيما بعد، تدهشه هذه الإحاطة الوافية بالحياة الفكرية في فلسطين في الحقبة التي سبقت كارثة عام ١٩٤٨.

وعندما أصدر ترجمته لكتاب «بروتوكولات حكماء صهيون» فوجئ بإدعاءات من محمد خليفة التونسي (المتوفى في الكويت في ١١ كانون الثاني/يناير ١٩٨٨) بأن ترجمة عجاج منقولة من ترجمته. وإن إلقاء نظرة سريعة على حجم الترجمتين ليؤكد أن التونسي ترجم مختصراً للبروتوكولات في حين ترجم عجاج نويهض نصها الكامل. وما حاجة عجاج إلى النقل أو حتى الاقتباس، وهو من شهدت له آثاره بالتضلّع من الترجمة منذ شبابه الأول. ومع ذلك، فقد تأثر عجاج ـ صاحب الأخلاقيات الصارمة ـ من هذا الاتهام الذي تدحضه أي مقارنة عادلة بين النصيْن. وهذه شهادة أوردها بضمير خالص على الرغم من أنني كنت صديقاً للطرفين. وأبت على عجاج نويهض أخلاقياته في أن يتناول قضية هذه السرقة المزعومة في مذكراته التي أملاها لتنشر بعد وفاته.

وقد أوصى عجاج نويهض بأن تؤول مكتبته في رأس المتن إلى الثورة

الفلسطينية «لتكون بمثابة زكاةٍ عمَّا فاتني من جهاد بالنفس والروح، بغير القلم والصحافة والتأليف» ووجه رسالةً إلى الرئيس ياسر عرفات يوصيه بالعمل ـ بعد إنقاذ الأقصى المبارك والقدس بمحاولة استنقاذ مكتبته الخاصة ومكتبات خليل بيدس (١٨٧٤ ـ ١٩٤٩)، وعادل جبر (١٨٨٥ ـ ١٩٥٣)، وخليل السكاكيني (١٨٧٨ ـ ١٩٥٣) التي نقلت إلى الجامعة العبرية لتتألف من مجموعها مكتبة ضخمة لفلسطين المحرّرة.

هذا ووعدت كريمته بيان في ثنايا مذكرات أبيها المنشورة أن تُخرج إلى النور الآثار المخطوطة لعجاج نويهض التي لم يتأت له نشرها في حياته، فهي تلقي أضواء كاشفة على رعيل بعد رعيل من العاملين في الحياة العامة، من رجال فكر وأدب وسياسة وجهاد ودين.

❁ ❁ ❁

عدنان الخطيب

في الرابع والعشرين من شهر أيلول/ سبتمبر ١٩٩٥، نعى مجمع اللغة العربية بدمشق أمينه العام الدكتور عدنان الخطيب بعد ٣٥ عاماً من عضويته العاملة التي بدأت في عام ١٩٦٠ فصار أقدم أعضائه، وكان يشغل كذلك منصب الأمين العام المساعد لاتحاد المجامع العلمية العربية، فضلاً عن عضويته العاملة في مجمع القاهرة وعضويته كمراسل في مجامع العراق والأردن والهند. وكان الخطيب قد أعدّ كلمةً لإلقائها في احتفالات المجمع الدمشقي بانقضاء خمسة وسبعين عاماً على إنشائه، وهي التي أقيمت بين ٢٦ و٢٨ من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٥، كما كان عاكفاً على إعداد كتابٍ عن تاريخ المجمع منذ إنشائه يكون أشملَ وأحدثَ من الكتاب الذي أصدره في عام ١٩٥٦ أحمد الفُتَيِّح الأمين العام لوزارة المعارف السورية بعنوان «تاريخ المجمع العلمي العربي» ـ وهو الاسم القديم لمجمع اللغة العربية بدمشق ـ ولكن القدر لم يمهل الخطيب للمشاركة بنفسه في هذه المناسبة الفريدة التي أُقيمت احتفالاً بالمجمع الذي أُطلق عليه اسم «أبي المجامع العربية»، إذْ كان أسبق المجامع العربية إلى الظهور على يدي العلّامة محمد كُرد علي (١٨٧٦ ـ ١٩٥٣) رئيسه الأول.

وكان من التقاليد المجمعية الراسخة ألّا يُنتخب لعضوية المجامع إلّا مَنْ طعنوا في السنّ، وبلغوا من العمر أرذله، لأنهم هم الذين أكسبهم طولُ التمرسّ بفنون الضاد وآدابها أهليةً قاطعةً لهذه العضوية. أما الشباب أو حتى الكهول، فلا محلّ لهم في المجامع، لأنهم ما برحوا دون مراتب التأهيل، وأمامهم سنواتٌ طوال حتّى تكتمل لهم أدواتهم المجمعية. ولكن العلّامة الأمير مصطفى الشهابي (١٨٩٣ ـ ١٩٦٨) الرئيس الثالث للمجمع بعد العلامة خليل مردم بك (١٨٩٥ ـ ١٩٥٩) رأى أن في تطعيم المجمع بالشباب الناضج مغنماً مؤكّداً، ولا سيما لأنهم ناشطون في مجالاتٍ تَقْعُدُ عنها هِمَمُ الشيوخ، كالمشاركة في المؤتمرات العلمية والاضطلاع بأعباء المجمع الإدارية، وهلّم جرّا، فشجّع على انتخاب

ثلاثة من الشباب المرموقين لعضوية المجمع فيما يُشبه خُطوةً ثوريّةً، وهم الدكتور عدنان الخطيب (١٩١٤ ـ ١٩٩٥) الذي لم يلبث أن انتخب نائباً للرئيس ثم أميناً عاماً، والدكتور شكري فيصل (١٩١٨ ـ ١٩٨٥) الذي آلت إليه أمانة المجمع والدكتور سامي الدهان (١٩١٢ ـ ١٩٧١)، وكانت أعمارهم إذ ذاك دون الخمسين.

وكنتُ على صلةٍ وثيقة بالأمير مصطفى الشهابي منذ ما قدّمني إليه صاحبُ «المقتطف والمقطم» الدكتور فارس نمر باشا (١٨٥٦ ـ ١٩٥١) في عام ١٩٤٩ أو نحوه، وهي صلة توثقت بعدما اختير الأمير الشهابي سفيراً في القاهرة، وشرع في عقد الصلات بين المشتغلين بالنشاط الفكري، وما أكْثَرَ ما جمعنا في السفارة السورية برجال الأدب ورسل الثقافة من مصر ومن الأقطار العربية المختلفة، بل إنه اختار أديباً مرموقاً ليكون المستشار الثقافي لسورية في مصر في عهده، وهو الدكتور زكي المحاسني (١٩٠٩ ـ ١٩٧٢).

وانتهز الأمير الشهابي فرصة سفر الدكتور عدنان الخطيب من دمشق إلى القاهرة في مهمّة تتعلّق بتوحيد القوانين في عهد الوحدة المصرية السورية، فرغب في تعريف أحدنا بالآخر، وكلّف الخطيب الاتصال بي، فاجتمعنا في الفندق، وكأنَّ بيننا قديم صداقات. وقد عززّتْ هذه الصداقةَ المراسلاتُ الدؤوبةُ واللقاءاتُ السنويةُ بمناسبة انعقاد المؤتمر العام لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، فعرفتُ من صرامة خلقه وصفاء سريرته ووفاء ودّه وسخاء عاطفته ما حبّبني فيه وربطني معه بأوثق العرب.

ولد عدنان الخطيب في حي القيمرية بدمشق في الثامن من آذار/مارس ١٩١٤، وكان والده الشيخ عبد القادر الخطيب الحسني من رجال الدين المشهود لهم بعراقة الأرومة، وكان خطيباً للمسجد الأموي ومديراً لأوقاف دمشق. واتجّه عدنان إلى دراسة الحقوق، فظفر من جامعة بغداد بإجازة الحقوق مع مرتبة الشرف الأولى عام ١٩٤٢ وظفر من نفس الجامعة وفي السنة عينها بإجازة العلوم المالية والإدارية. ثم استكمل دراساته الحقوقية في جامعة باريس وظفر منها بالدكتوراه في عام ١٩٤٧.

اشتغل عدنان الخطيب بالمحاماة في دمشق عامين قبل أن يقع عليه الاختيار

للانضمام إلى سلك القضاء، وظلّ يتدرج في معارج القضاء حتى رأس محكمة القضاء الإداري، ثم أصبح رئيساً لمجلس الدولة إلى أن تقاعد بدرجة وزير. وعندما تحوّل من المحاماة إلى القضاء منحته نقابة المحامين بدمشق شهادة وصفته فيها بأنه «محامي شرف». وفي هذه الأثناء درّس المواد القانونية في كليتي الشريعة والحقوق بجامعة دمشق وفي معهد البحوث والدراسات العربية التابع للجامعة العربية في القاهرة، واختير مقرّراً للجنة القانون والعلوم السياسية في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية. وكلّفته منظمة المؤتمر الإسلامي وضع مشروع النظام الأساسي لمحكمة العدل الإسلامية الدولية.

كان طبيعياً بحكم النشأة القانونية للدكتور عدنان الخطيب أن ينصرف إلى تأليف الكتب القانونية، فوضع في ذلك ثمانية كتب عن القانون الجنائي والقانون الإداري، ولكنّه أضاف إليها كتاباً نفيساً عن لغة القانون في البلاد العربية كان استهلالاً لعنايته باللغة وآدابها في فترة مبكّرة، إذْ صدر عام ١٩٥٢، كما أصدر كتاباً عن «شرعة حقوق الإنسان في الإسلام».

وبمجرد انضمام عدنان الخطيب إلى عضوية المجامع، استغرقته المآرب المجمعية، فوضع ثلاثة كتب عن المعجم العربي وكتاباً عن المجمعيين في خمسين عاماً، وكتاباً عن العيد الذهبي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة. كما أصدر بحثاً عن الأرقام العربية والخلط الذي يقع بينها وبين الأرقام الهندية. ولم يلبث أن اضطلع، بدافع من الوفاء لسدنة الضاد، بنشر سلسلةٍ من الكتب عن المجمعيين الراحلين مثل الشيخ طاهر الجزائري (١٨٥٢ ـ ١٩٢٠) ومحمد كرد علي، والشاعر محمد سليمان الأحمد الملقّب، ببدوي الجبل (١٩٠٣ ـ ١٩٨٢)، والدكتور شكري فيصل، والدكتور عمر فروخ (١٩٠٦ ـ ١٩٨٧)، وعارف النكدي (١٨٨٧ ـ ١٩٧٥)، ومحمد عبد الغني حسن (١٩٠٧ ـ ١٩٨٥)، والعلامة المغربي عبد الله كنون (١٩٠٨ ـ ١٩٩٠)، والدكتور أحمد زكي (١٨٩٤ ـ ١٩٧٥)، وأحمد حسن الزيات (١٨٨٥ ـ ١٩٦٨) وسواهم.

ومن تقاليد المجامع المستقرّة «تسكين» العضو الجديد المنتخب مكان عضو راحل دون اشتراط توافر نفس التخصص في السلف والخلف. وقد كان من رأيي أن يُراعى هذا الاعتبار في «التسكين»، بمعنى أن يحلّ عالم جغرافي محل عالم

جغرافي، ويخلف عالم في الكيمياء عالماً راحلاً تخصص في الكيمياء. ولكن هذا العرف ليس مُتّبعاً في المجامع العربية. وعند وفاة العلامة عبد القادر المغربي تلميذ جمال الدين الأفغاني ونائب رئيس المجمع (١٨٦٧ ـ ١٩٥٦) اختير الدكتور عدنان الخطيب ليحلّ محله. وفي حفل استقبال الخطيب حيّاه الأمير جعفر الحسني (١٨٩٥ ـ ١٩٧٠) الذي كان أميناً للمجمع بعقد مقارنةٍ، أو على الأصح موازاةٍ، بينه وبين سلفه المغربي فقال: «حلّ الدكتور الخطيب محلَّ المرحوم الشيخ المغربي، مع ما بين السلف والخلف من تباين في السن وفي نوع الثقافة. شاب في الخامسة والأربعين يخلف شيخاً في التسعين من عمره، وثقافة مُخضرمة شرقيّة غربيّة في محل ثقافة إسلامية خالصة، ولكن تجمعهما بالرغم من ذلك خصائص مشتركة، فكلاهما من بيت علم ودين وتشريع، نبغ فيه علماءُ ومؤلّفون. وكما جمع الفقيد المغربي بين الأدب والعلوم الدينية، كذلك جمع الدكتور الخطيب بين الأدب والعلوم الحقوقية، ونشد كلاهما إصلاحاً في نطاق ما اختصّ به، وسلكا فيما أقدما عليه سبيلَ المدرسة الفكرية المتحرّرة التي تتجلّى معانيها في كتبهما وبحوثهما. فقد جنّدا قلميهما ومواهبهما لتقويم الانحراف عن محاسن ماضي السلفَ، وحثّا الكتّاب والمؤلفين على الاغتراف من ينابيع تراثنا العربيّ، وعلى الوصل بين ثقافتنا العربية القديمة والثقافة الغربية الحديثة».

كما وصفه صديقه الشاعر بدوي الجبل بقوله: «إنّك يا أخي وسيّدي لتزيّن كرامة الشام بكرامة عبقريتك، وتجمّل تاريخ الشام بجمال ألمعيتك، وتجمع إلى التفرّد بقدسية القضاء التفرّد بقدسية الوفاء وشموخ الإباء. والعلم عندك واسع عميق، ولكنه لا يتكبّر ولا يتعالى لأنه واسع عميق».

كان عدنان الخطيب ضئيل الجسم خفيض الصوت إذا تكلّم، ولا أدري كيف كان يترافع في المحاكم أيام عمله بالمحاماة، وكان يزن كلامه بقسطاس مستقيم، خشية أن تفلت منه لفظة خادشة أو جارحة، وهي خصيصة تنامت فيه من العمل في سلك القضاء. ولكنه مع ذلك لم يكن يعرف كيف يكظم ثورته إذا ما دعاه إلى ذلك داعٍ من الغَيْرَةِ على اللغة وعلى أصائل القيم. وعندما أصدر مجمع القاهرة الطبعة الأولى من «المعجم الوسيط» بإشراف إبراهيم مصطفى (١٨٨٨ ـ ١٩٦٢)، وأحمد حسن الزيات، وحامد عبد القادر (١٨٩٥ ـ ١٩٦٦)، ومحمد علي النجار (١٨٩٥ ـ ١٩٦٥) تسّللت إلى المعجم ألفاظ يُختلف في صواب

إدراجها فيه، إمَّا لأنَّها من الكلام المتداول، أو لأنها فرنجية الأصل، أو لأنها تعريبٌ لا يجوز التعريب فيه، ولم يتمالك الخطيب نفسه إزاء ما لم يَرُقْ له من موادّ المعجم، فاعترض عليها أشد اعتراض في جلسات المجمع، ثم انبرى يستدرك عليها في سلسلة من الفصول اندرجت في مجلة مجمع دمشق، نبّه فيها إلى ما ارتآه مآخذ ومثالب، وقد جمعها بعد ذلك في كتاب عنوانه «المعجم العربي ونظرات في المعجم الوسيط». وقد استهدى مجمعُ القاهرة بهذه الملاحظات عند إصداره الطبعة الثانية المنقحة من هذا المعجم.

كما درج الخطيب في المحاضرات التي كان يلقيها في المؤتمر السنوي لمجمع القاهرة على التنديد بدعوات القائلين بتدريس العلوم باللغات الأعجمية، معتبراً أن في ذلك إقراراً بالعجز عن تعريب العلوم، ومحاولة للانتقاص من قدرة اللغة العربية على استيعاب أبواب المعرفة جميعاً، بما فيها علوم الطب. وليس أدلّ على ذلك من بحثه المعنون «تلك أمّةٌ تقدّس لغتها»، وقد قال فيه: «إن العرب قد أخذوا أنفسهم ـ ويا للأسف ـ بالانتقاص من قدسية اللغة العربية، بل قام نفر من أبنائها بالاشتراك مع عصابة من الناطقين بها استغربت أفكارهم، فاستغربت قلوبهم، فعميت فيهم الأبصار، وأخذوا يدعون إلى العامية. على أنهم اختلفوا في دعواتهم، فبعضهم يدعو إلى اللغة المحكيّة، وبعضهم يدعو إلى الدارجة، وغيرهم إلى النبطية، ومنهم من يدعوك إلى الإبداع بأي شكلٍ شئت، وهناك من يدعو إلى نبذ حروفها، أو فكّ أغلال الإعراب عن أواخر كلماتها...» وانتهى به الأمر إلى وصف أولئك الدعاة بأنهم «مأجورون». ومن هذا نرى أن الحماسة في الذياد عن الضاد قد أخرجت الخطيب عن رزانته المعهودة، فدمغ المترخّصين في اللغة بأنهم «عصابة» و«مأجورون».

عرف الخطيب من باكورة عمره بأن الطريق الصحيح لخدمة أمته العربية هو طريق العلم الجادّ والعدل الصحيح، فازورّ عن الاشتغال بالسياسة، وعصم نفسه عن التمذهب البغيض، وكان همّه وهو في سلك القضاء أن يُرسيَ مبادئ تتناقلها الأجيال من بعده ـ وقد نشر أحكامه في سلسلة سنوية من الكتب عنوانها «مجموعة المبادئ القانونية التي قرّرتها محكمة القضاء الإداري»، كما كان همّة في المشاغل المجمعية أن يعرّف بأنشطتها ويسجّل وقائع مؤتمراتها ولا سيّما لأن المحاضر الرسمية لجلسات المجامع تصدر بعد سنوات وسنوات، كما أن التغطية

الإعلامية للأنشطة المجمعية تتسّم في الأغلب بالسطحية والقصور. وقد نشر الخطيب بانتظام دقيق وقائع مؤتمرات مجمع القاهرة السنوية على مدى ٢٤ عاماً متصلة مع مسردٍ دقيق لجميع المقررات التي اتخذها المجمع في خمسين سنة.

وإن التاريخ العامر بجلائل الأعمال المجمعية التي اضطلع بها الدكتور عدنان الخطيب ليشهد للأمير مصطفى الشهابي ببعد النظر وقوة البصيرة حين اختار هذا الشابّ المُرْتَجَى لعضوية المجمع ليخلف شيخاً في التسعين ويزامل شيوخاً آخرين يسرعون إلى هذه السنّ. فقد برهن الخطيب على أنه مجبول على العمل المجمعي يؤدّيه بكفاءة وإخلاص وتفانٍ وحرصٍ على القيم الفكرية الغوالي التي ما أُنشئت المجامعُ إلّا لتصونها.

أشرتُ مرة في إحدى رسائلي إلى الخطيب إلى كتاب عربي سمعت عن صدوره في موسكو عن العلامة ساطع الحصري (١٨٨٠ ـ ١٩٦٨) عنوانه «ساطع الحصري رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي» من تأليف الباحثة السوفيتية تاتياتا تيخونوفا التي تعمل في معهد الاستشراق بموسكو. فاستنتج أن بي رغبةً في الإطلاع على هذا الكتاب، وبادر بتصويره وموافاتي بنسخةٍ منه من تلقاء نفسه. ولمّا عاتبته على الجهد الذي بذله ـ دون ضرورة ـ في استنساخ هذا الكتاب وإرساله، كان جوابه: «لستُ في حاجةٍ إلّا إلى إشارةٍ من باحث لكي أعمل على خدمته إنْ كان هذا في طوقي. والمهمّة المسندة إلى أمين المجمع هي أن يكون في خدمة المجتمع العلمي كلّه. وإذا كنتَ توهمتَ بأنني خدمتك، فواقع الأمر أنني خدمتُ العلم».

بهذه الروح عمل عدنان الخطيب على إضاءة الطريق أمام الباحثين، ويَسَرَّ عليهم كثيراً من عناء البحث. وكنتُ أراه وهو آتٍ من دمشق في كل عام محمّلاً بالكتب لأصدقائه في مصر يوزّعها عليهم، كل بحسب اهتماماته ورغباته، حتّى ولو تجاوز الوزن المقرّر لنقل الأمتعة جواً. فد كان يعرف أن الكتاب للباحث ليس من أسباب الترف، بل يسبق الضروريات، وما كان يضنّ على طالبِ بكتابٍ، فإنْ كان من نوادر الكتب صوّره وأتاحه لصاحبه.

وكان العلامة محمد كرد علي قد نشر مذكراته في أربعة أجزاء، وكان له في بعض من عرف من المصريين رأي لا يسّر، ممّا أثار نقمتهم، وكان أكثر المعبّرين

عنها الدكتور أحمد أمين (١٨٨٦ ـ ١٩٥٤) في مجلة «الثقافة»، وتراءى هذا الشعور غير الودّي في أعضاء مجمع القاهرة أثناء زيارة كرد علي للمجمع. وبقيت هذه الصورة منطبعة في الأذهان، وهي أن كرد علي يكره المصريين. ولكن عدنان الخطيب تصدّى للدفاع عن الرئيس المجمعي كرد علي فقال: إن المذكرات وإنْ صوّرت حقيقة مشاعر كرد علي إزاء تصرفات بعض المصريين فواقع الأمر أن محمد كرد علي «ألزم نفسه بالدفاع عن مصر العزيزة على قلوب العرب والمسلمين ضد كل من يحاول الانتقاص من مركزها من العالم العربي والإسلامي... وإن الشام انتفع بالنهضة المصرية ـ وهو القطر الشقيق الأصغر لمصر المحبوبة ـ أكثر من عامّة الأقطار العربية، لما بينهما من جوار وأواصر قربى وكثرة أسباب التشابه». وهكذا نجح الخطيب في تبرئة علّامة الشام من تهمةٍ لاحقته طويلاً. وإذا كان الخطيب أنصف أكثر من عشرين مجمعياً بما عقده عليهم من دراساتٍ تتسّم بالوفاء والعرفان، فما أحوجه بعد رحيله إلى من ينصفه بروح من الوفاء والعرفان. وقد تصدّى لهذه المهمة العلامة الدكتور شاكر الفحام رئيس مجمع دمشق إذ وفّاه حقه من الرثاء في كلمة ألقاها باسم مجمع القاهرة في مؤتمره السنوي لعام ١٩٩٦.

❁ ❁ ❁

عزيز أباظة

للأسرة الأباظية انتشار واسع في مصر في جميع الميادين، تجد بينها رجل السياسة ورجل الزراعة ورجل الاقتصاد ورجل القطن والصحافي والأديب والممثل ومهندس الكهرباء ومهندس الاتصالات السلكية واللاسلكية والمشتغل بالتجارة ووكيل السيارات والعسكري وأستاذ الجامعة والناشر ورجل القانون، بل منهم خبيرات في الطهي وفي الآثار. ولعلها أكبر أسرة حظيت بالرتب والألقاب في مصر، فكان بينها باشوات وبكوات يفوق عددهم عدد أصحاب هذه الرتب في أي عائلة أخرى. ولكن لا يُعرف من بينها إلا شاعر واحد هو عزيز أباظة، وكان بدوره يحمل رتبة الباشوية.

ولئن كان عهد عزيز أباظة بالشعر راجعاً إلى فترة الشباب، إلا أنه لم يبرز بقامته الشامخة التي شارفت قامة أحمد شوقي (١٨٦٨ ـ ١٩٣٢) إلا في عام ١٩٥٢ عندما فاجأ المجتمع الأدبي بديوان «أنّات حائرة» الذي وقفه على رثاء زوجته الراحلة، فكان ثاني ديوان في رثاء الزوجة بعد ديوان «من وحي المرأة» للشاعر عبد الرحمن صدقي (١٨٩٧ ـ ١٩٧٣) الذي صدر عام ١٩٤٥ وصدر بعدهما ديوان «حصاد الدمع» للشاعر الدكتور محمد رجب البيومي في عام ١٩٧٩ وكتاب «جَمْدَ الدمع» للعلامة الأردني روكس بن زائد العزيزي أطال الله بقاءهما، وقد صدر كتابه في عام ١٩٨١ وهو مزيج من الشعر والنثر. وقد استقبل ديوان عزيز أباظة استقبالاً احتفالياً من جانب جميع أعلام الفكر: طه حسين (١٨٩٩ ـ ١٩٧٣) وعباس محمود العقاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤) والدكتور أحمد زكي (١٨٩٤ ـ ١٩٧٥) وسيد قطب (١٩٠٦ ـ ١٩٦٦) وأحمد أمين (١٨٨٦ ـ ١٩٥٤) وأحمد حسن الزيات (١٨٨٥ ـ ١٩٦٨).

وعندما التقيت بعزيز أباظة للرة الأولى، وهو في هذا المجد السامق، لم أتخيل أنه يمكن أن يكون قد سمع باسمي من قبل. فالكبار الكبار لا يهتمون بمن

هم دونهم. ومع ذلك سألني، وكان عائداً لتوه من مديرية المنيا التي كان يشغل فيها منصب مدير المديرية (وهو اللقب القديم للمحافظ)، إن كان لي سميّ هناك يطالع مقالاته الأسبوعية بعنوان «سوانح» في جريدة «الإنذار» المحلية، فقلت له: عسى أن تكون راضياً عن هذا السميّ. فقال: ولولا رضائي لما اهتممت بمتابعة سوانحه. فقلت له: إنني هو كاتب هذه المقالات التي أبعث بها للجريدة بالبريد. ثم أضفت أنني لم أحلم أبداً أن يكون من قرائي عزيز أباظة باشا الذي له بفنون الكتابة بَصَرٌ شديد، وله بأساليب النثر والشعر عناية كبرى.

لم تكن هذه هي التحية الوحيدة التي حظيت بها من عزيز أباظة، إذ قرأ لي مقالاً عنوانه «الضاد الحيّة النامية» في «مجلة التربية الحديثة» التي كان يحررها أستاذنا الدكتور أمير بقطر (١٨٩٩ ـ ١٩٦٦) فبعث إلي برسالة تشجيع وإطراء قال فيها: «يسعدني أن أشكرك على الجهد الضخم الذي تبذله من سنوات وسنوات في الدفاع عن هذه اللغة الكريمة وما يُراد أن تُقذف بها من حملات هدامة في شكل العامية تارةً وفي شكل ما يسمّونه بالشعر الحديث تارة أخرى، وإن كنت أرجو شيئاً، فإنما أرجو أن توالي إتحاف أنصار الفصحى بمثل هذه البحوث القيمة». فشكرته على تشجيعه لي، ولا سيما لأن الذين ارتفعت منازلهم في الحياة كثيراً ما يضنّون بالثناء على مَنْ ليسوا من طبقتهم.

كان عزيز أباظة معروفاً بلين الجانب والنأي بنفسه عن خوض المعارك أو المشاركة في جدل عقيم، ولهذا أدهش عارفيه عندما شارك في مناظرة أقيمت في القاعة الشرقية بالجامعة الأميركية في القاهرة في ٩ نيسان (إبريل) ١٩٥٦ ـ وكنت من شهودها ـ حول شعر المهجر، إذ حمل عليه حملة شعواء، إن دلت على شيء فإنما تدل على أنه كان يرتجل الحديث دون إلمام كافٍ بشعر المهجر وبآثار أعلامه، حيث قال: «إن شعر المهجر لم يبلغ أشده، فكيف يمكن أن نذكر شوقي الشاعر المسيطر المبدع ونحن نتحدث عن شعراء المهجر بأساليبهم الضعيفة ولغتهم الركيكة... فشعراء المهجر فيهم رطانة وفي شعرهم خشونة». والغريب أن كلامه هذا جاء بعد محاضرةٍ مستوعبةٍ ألقاها الشاعر المهجري جورج صيدح (١٨٩٣ ـ ١٩٧٨) استشهد فيها بنماذج رائعة من شعر المهجر. فانبرى للرد عليه صيدح نفسه والشاعر المصري محمد عبد الغني حسن (١٩٠٧ ـ ١٩٨٥) والصحافي المصري محمد زكي عبد القادر (١٩٠٩ ـ ١٩٨٢) في حين كتب

عباس محمود العقاد يقول: «إن عزيز أباظة، إن فاته الإنصاف في حملته فلم يفته حسن النية. والمهجريون أكبر من مدرسة لاتساع مذاهبهم ولتنوع طرائقهم ونزعاتهم. لقد وفوا لأوطانهم وللغتهم وأقاموا جماعة عربية كبيرة في البلاد الغربية خلّدتهم هناك وخلّدت معهم الأدب العربي». وترددت أصداء هذه الحملة في مصر حيث سارع الأباظيون إلى الدفاع عن عميدهم، في حين اندفع الأديب المهجري نظير زيتون (١٨٩٦ ـ ١٩٦٧) للذود عن حياض المهجرين فقال: «إن ذنب الأدب المهجري أنه انطلق من قيود التقليد أو المحاكاة والجمود والنسج على المنوال، واستزرى بعض التعابير القديمة التي تفشّى فيها الابتذالُ والمناهج البدويّة البعيدة عن أوضاع الحضارة النامية، وصدف عن النهجية أو الكلاسيكية الباردة المجترة التي لمعت في عصر الطلل والسيف والجمل. ذنب الأدب المهجري أنه دفن بعض الألفاظ والتعابير المحنّطة، واستخرج من كنوز اللغة لآلئها وجواهرها الحافلة بالجزالة والطلاقة والجرس الموسيقي واللمعان والطرافة والسلاسة».

وبعدما إنجاب غُبار هذه المعركة، استصوبتُ أن أتدارك ما استشعرته من قلة إلمام عزيز أباظة بالشعر المهجري، فقدمت إليه مجموعة من دواوين كبار الشعراء كنتُ تلقيتها هدية من أصحابها، وكنت واثقاً من أنه بعدما يطلع عليها سيراجع نفسه في أحكامه المعممة الجائرة عن هؤلاء الشعراء. وانتهزت فرصة حوار أجريته معه بتكليفٍ من تلفزيون الظهران، وسألته عمّا إذا كان ما زال يعتقد أن شعر المهجر غريب عن اللغة العربية وبه رطانة أعجمية. فقال: إن في المهجر شعراء كباراً يندرجون ضمن الفحول، ولكن هناك شعراء لم تكتمل لهم أدواتهم وإن كانوا يجتهدون في استكمالها. فكان هذا التصريح من جانب عزيز أباظة آيةً على أن آفة الارتجال وعدم الإطلاع هي التي ورطته في الأحكام التي ساقها.

اختار عزيز أباظة أن يُثري ديوان العرب بمجموعة من المسرحيات الشعرية التاريخية، ربما في محاكاة منه للشاعر أحمد شوقي الذي كان مفتوناً بشعره بصورة عامة وبمسرحياته الشعرية بوجه خاص. ولعل عزيز أباظة تفوَّق على شوقي في «التكنيك» المسرحي، لأن اهتمام شوقي كان منصباً في المقام الأول على الحوار وليس على التفاصيل المتعلقة بالمسرح وبأزياء الممثلين وبتعبيرات وجوههم، فهي أمور تركها شوقي لمخرجي مسرحياته يرتبونها بأنفسهم، في حين

حرص عزيز أباظة على تحديدها بنفسه كما يفعل المحترفون من مؤلفي المسرحيات. فأخرج المسرحيات الشعرية التالية «قيس ولبنى» و«العباسة» و«الناصر» و«غروب الأندلس» و«أوراق الخريف» و«قيصر» و«زهرة» و«شجرة الدر» و«شهريار» و«قافلة النور» إلى جانب «ديوان عزيز أباظة» وديوان «تسابيح قلب» وديوان «إشراقات السيرة الزكية».

وعندما مُثلت مسرحية «العباسة» في دار الأوبرا الملكية أنعم الملك فاروق على عزيز أباظة برتبة الباشوية ودعاه هو والفرقة القومية التي مثلت المسرحية ولجنة القراءة إلى قصر عابدين لتناول الشاي معه. ومُثلت مسرحيات أخرى لعزيز أباظة، صادفت نجاحاً كبيراً وبرهنت على أن الجماهير التي تستهويها في الغالب الأعم المسرحيات السوقية، تستطيب متابعة المسرحيات الشعرية بلغتها الراقية وموضوعها الرصين إذا ما تهيأت لهاأسباب الإخراج على المسارح. ومؤكد أنها لو مثلت اليوم لرفعت من شأن المسرح، واجتذبت إليه الجمهور المثقفين وعشاق الفن الأصيل.

كان عزيز أباظة فارع الطول جميل الصورة فيه كل أمارات الأرستقراطية الشريفة. عاش معظم عمره في وظائف حكومية دون أن «تُقَوْلِبَه» البيروقراطيات المتحكمة فيها، فقد كان بشخصه وبثقافته أكبر من جميع المناصب التي شغلها وهي قمة الجهاز الإداري في مديريات القليوبية والمنيا ومنطقة القناة والبحيرة وأسيوط. ومع ذلك حرص في كل عمره على عدم الاشتغال بالسياسة الحزبية التي هي الطريق السلطانية المفضية إلى مناصب الوزارة، وكان يدرك أن الخلود الأدبي أبقى وأدوم من أي منصب وزاري وإن طال به المقام.

وكان طبيعياً أن يُختار رئيساً لمجلس إدارة مطبعة مصر وكانت في عهده من أرقى المطابع وأتقنها في مصر - ومن أسفٍ أن أبوابها مُغلقة اليوم تنعى من بناها. كما كان طبيعياً أن يُختار عضواً في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ومقرراً للجنة الشعر بعد وفاة العقاد، وأن يُمنح جائزة الدولة التقديرية في عام ١٩٦٥، وأن يُختار عضواً في مجمع اللغة العربية في مصر في عام ١٩٥٩ خلفاً للمستشرق إنو ليتمان الألماني (١٨٧٥ - ١٩٥٨) وعضواً مراسلاً في المجمع العلمي العراقي.

ولد عزيز أباظة في ١٣ آب (أغسطس) ١٨٩٨ في قرية الربعماية بمحافظة الشرقية، وتخرج من مدرسة الحقوق في عام ١٩٢٣، واشتغل بالمحاماة فترةً، انتقل بعدها إلى سلك القضاء. وانتخب عضواً في مجلس النواب ثم عين عضواً في مجلس الشيوخ. ورزئ بوفاة زوجته الأولى في ١٩ حزيران (يونيو) ١٩٤٢ وهي التي رثاها في ديوان «أنات حائرة» وتزوج للمرة الثانية من كريمة إسماعيل صدقي باشا (١٨٧٥ ـ ١٩٤٩) رئيس الوزراء الأسبق.

وكان لعزيز أباظة راوية يحفظ شعره ويلازمه ملازمة الظل هو أنور أحمد (ت١٩٨٤) وكيل وزارة الشؤون الاجتماعية الذي اختير ليمثل دور الزعيم مصطفى كامل باشا (١٨٧٤ ـ ١٩٠٨) في الفيلم السينمائي الذي سجل سيرة حياته، وهو الذي أشرف على طبع «ديوان عزيز أباظة» وكتب مقدمة له، إذ كان عزيز أباظة قد توفي في ١٠ تموز (يوليو) ١٩٧٣. وكان لعزيز أباظة قصيدة مترعة الأبيات نظمها في الملك إدريس السنوسي ملك ليبية وألقاها في محضره، وسمعته ينشدها في المذياع في ذلك الوقت، ولكنها أسقطت من الديوان مع أن قيمتها الأدبية تعلو على أي قيمة سياسية فيها. كما خلا الديوان من قصيدته الطويلة بعنوان «قال صفوان» وفيها أجرى على لسان هذا الحكيم نصائح يهتدى بها في حكم الرعية، وفي التعامل مع الناس، وفي إرساء دعائم العدل، وفي نُشدان الإصلاح، وفي غياث البائسين، وفي قمع الحقد، وفي النأي عن الغلواء، وفي حفظ الود، وفي التحلي بالصدق، وفي الاعتصام بالتواضع، وفي رفع آيات الشكر للخالق. وهي قصيدة أثارت من الرضى مثل ما آثارت من السخط عند نشرها لأول مرة، فالمستكبرون استقبلوها بالنفور في حين استقبلها الخيرون بكل حفاوة.

وكنتُ سألت عزيز أباظة عمّا يصنع الشاعر، فقال: إن الشاعر لا يُصنع بل يولد وقد رُكبت فيه موهبة الشعر فطرياً، ولكن عليه أن يتذوق حلاوة الشعر القديم، ولا سيما شعر المتنبي والبحتري، والشعر الحديث ولا سيما شعر أحمد شوقي لكي يصقل بذلك موهبته ويُنشد شعراً جميلاً لا نظماً سقيماً.

وفي عام ١٩٦٩ أقيم في لبنان حفل لتأبين الشاعر بشارة الخوري (الأخطل الصغير) (١٨٨٥ ـ ١٩٦٨) شارك فيه عزيز أباظة بقصيدة استوحى مطلعها من قصيدة الأخطل في رثاء شوقي الموسومة «في رُبى الخلد» حيث قال الشاعر اللبناني:

قف في رُبَى الخلد واهتف باسم شاعره
فَسُدْرَةُ المنتهى أدنى منابره
إلهةُ الشعر قامتْ عن ميامنه
وربّةُ النثر قامت عن مياسره

فقال عزيز أباظة في رثاء الأخطل:

قف في ربى الخلد واهتف في مقاصره
بشاعر ملأ الدنيا كشاعره
البحتري تهادى عن ميامنه
يختال، والمتنبي عن مياسره

والقصيدتان من البحر والوزن والقافية نفسه ـ والقافية تتكرر هنا وهناك لتقارب اللفتات الشعرية لدى الشاعريْن. وبين الشعراء قُربى وإن تباعد بينهما المكان والزمان وتوالي الحقب.

❁ ❁ ❁

علي أحمد باكثير

«يسمّونك باكثير بينما أنت باقليل!» كانت هذه هي دُعابة المطربة أم كلثوم (ت١٩٧٥) عندما طلبت رؤية مؤلف روايةِ «سلّامة القسّ» قبل تمثيل دور البطولة فيها، إذْ كانت تتصوّر الأديب علي أحمد باكثير ضَخماً كاسمه، فلّما رأته قصير القامة خجولاً، يتعثّر في بداوته، مازحته بهذه العبارة جرياً على مألوف عادتها في التنكيت والمداعْبة. ولعلّ هذه كانت المرّة الأولى والأخيرة التي رأى فيها أم كلثوم رأي العين، بسبب ما تركّب في جِبِلَّتِهِ من إنطوائيةٍ موروثةٍ من أيام البداوة الأولى، فصار يجفو مجتمعات الفنّ ولا يغشاها إلّا وهو يقدّم رجلاً ويؤخّر أخرى، في حين كان غيره من المؤلّفين الروائيين والمسرحيين يحشرون أنفسهم في هذه المجتمعات كيما يتأتّى لرواياتهم ومسرحياتهم أن تعرف طريقها إلى الشاشة العريضة أو الصغيرة أو خشبات المسارح.

كان علي أحمد باكثير يسبح ضدّ التيّار، أو على الأصح أنه كان يفتقر إلى الحسّ الذي يجعله يتوّخى المسايرة والملاينة وتفصيل آثاره وفقاً «للموضة» السائدة. ففي الوقت الذي كانت تطغى فيه العقائد المادية الاشتراكية طغياناً عاصفاً، كان باكثير يؤلّف روايات عن «القرامطة» و«حبل الغسيل» وغيرهما استخفافاً منه بهذه العقائد بجبروتها المخيف. وفي الوقت الذي كان حكم الفرد هو الظاهرة الصارخة في الوطن العربي، كان باكثير يؤلّف مسرحيةً عن «الزعيم الأوحد» عبد الكريم قاسم بكل انعكاساتها وإسقاطاتها على النظم الفاشية القائمة هنا وهناك. وقد أفضَى به هذا المنهج إلى استبعاده من الأنشطة المسرحية، مع استثناءات قليلة كمسرحية «مسمار جحا» التي مُثلت في حينها وكانت تنطوي في قالب فكاهي على سخريةٍ مريرة من الاحتلال البريطاني لمصر.

زار مصر في عام ١٩٦٨ شاعر عراقيّ تربطه بباكثير صداقة، فرغب في تكريمه في مأدبة غداء في جزيرة الشاي بحديقة الحيوان بالقاهرة، ودعا مجموعةً

من أصدقائه للمشاركة في هذه المناسبة، وكنتُ من جملتهم. وفي صباح يوم التكريم هاتفني قائلاً: هلّا مررت عليَّ مبكّراً فنتوجّه سويّةً إلى الحديقة لأنني أريد أن أفضفضَ عمّا في صدري إليك قبل أن يتوافد المدعوون. فرحّبت باقتراحه، ولا سيّما لأنني كنت بدوري راغباً في الفضفضة إليه بما يعتمل في صدري. وعندما انفردنا في الحديقة قال لي، وكأنّه يُفضي إليَّ بشهادته الأخيرة، إذْ لم نلتق بعد ذلك لسفري إلى الخارج بنيّة عدم العودة ولوفاته بُعيد ذلك في العاشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٩، وأسّر إليَّ باكثير وهو يُشعل غليونه قائلاً: «ستكون شاهدي ذات يوم، فلا تكتم الشهادة. تعرف أنني عشت في مصر معظم عمري، وتجنسّت بجنسيتها، وشاركت في الأنشطة التربوية مدرّساً، وفي الأنشطة الثقافية عموماً، ولكنّني بتّ أستشعرُ، ولا سيما في هذه الأيام، بغربةٍ شديدةٍ، ولهذا قررتُ السفر إلى إنكلترة للإقامة والعمل هناك بلا عودة. وأنت تعرف أنني أُجيد اللغة الإنكليزية بحكم دراستي إيّاها في قسم اللغة الإنكليزية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) كما أنني أطلعتُك على بعض مسرحيّاتي التي نقلتها بنفسي إلى اللغة الإنكليزية، وكنت راضياً عنها. وفي نيّتي أن أحاول إقناع أصحاب الفرق المسرحية في لندن بتمثيلها هناك بعدما أعيتني محاولات تمثيلها هنا. كما أن لي صلات ببعض المستشرقين الإنكليز الذين أبدوا استعداداً للاستعانة بي في التدريس الجامعي». وشكا علي أحمد باكثير من «الشُّلل»[1] التي قاطعت جميع أعماله لأنها تستوحي قضايا عربية إسلامية وطنية بدعوى أنها أعمال رجعية، وقال إنه عاجز عن أن يقتحم الدائرة المحكمة بسبب منابته غير المصرية، ولأن طبيعته لا تتسّم بالشراسة المطلوبة لتحقيق هذا الاقتحام، يُضاف إلى هذا أن وظيفته الحكومية في مصلحة الفنون، التي تحوّلت بعد ذلك إلى وزارة الثقافة، لا تهيئ له أسباب العيش الكريم.

وبقدر تعاطفي مع علي أحمد باكثير في كل ما قال، لأنني كنت أتابع كمراقبٍ إو متفرّجٍ الحركة الثقافية في مصر، فقد نصحته بألا يقفز قفزةً في الظلام، بمعنى أنْ يترك عملاً دائماً على أمل أن يجد عملاً بديلاً في بلدٍ غريب. وأشرتُ عليه بأن يُجري اتصالات مبدئيّةٍ بالجهات الثقافية والفنية في العاصمة

(١) كلمة عامية محرفة عن الثلل جمع ثلّة (الناشر).

البريطانية عساه يوفّق إلى عمل أو وعدٍ بعمل قبل الإقدام على الهجرة النهائية. وتواعدنا على أن نلتقي في أي عاصمة من عواصم العالم، إذْ كنتُ بدوري أتأهب للالتحاق بعملٍ في الخارج فراراً من البطالة القاتلة ونُشداناً للكرامة مع الحرية. ومن أسفٍ أننا لم نلتق بعد ذلك لأن عمره اختصر قبل أن يبلغ الستّين.

ولد علي أحمد باكثير في إندونيسية في عام ١٩١٠ لأبوين من حضرموت، وكان الحضارمة تجّاراً نشطين في الشرق الأقصى في ذلك الحين، ورُبما إلى هذا اليوم. وانتقل وهو صغير السن إلى حضرموت حيث تلقّى تعليمه الابتدائي والثانوي، ثم تنقّل في شبه الجزيرة العربية والصومال والحبشة قبل أن يقرّر السفر إلى القاهرة في عام ١٩٣٤ للالتحاق بجامعتها ثم بالمعهد العالي للتربية كي يؤهّل للتدريس. وكان في تقديره أن يعود إلى حضرموت ليخدم بلده في ميدان التعليم، ولكنَّ ظروف الحرب العالمية الثانية حالت دون ذلك. فبقي في مصر، وزاول التدريس بين عامي ١٩٤٠ و١٩٥٥ متنقّلاً بين مدن مختلفة في مصر. ولمّا أُنشئت مصلحة الفنون وعُهد في إدارتها إلى الأديب يحيى حقي (١٩٠٥ ـ ١٩٩٢) الذي حيل بينه وبين استمراره في السلك الدبلوماسي بعد زواجه من سيّدةٍ أجنبية، ضمَّ إليها علي أحمد باكثير ونجيب محفوظ وعبد الحميد جودة السحّار (١٩١٣ ـ ١٩٧٤) وغيرهم من الآدباء الذين كانوا يشغلون وظائف في المصالح الحكومية المختلفة.

تزوّج باكثير في القاهرة للمرة الثانية، وكانت زوجتُه الأولى حضرميّةً تزوجها بعد قصة حب، ولكنها ماتت في شرخ الشباب، فكان هذا من أسباب تعجيله بالخروج من بلاده نشداناً لنسيان هذه التجربة المريرة. ولم يُنجب من زوجته الجديدة، ولكنّه احتضن ابنتها وعاملها وكأنّها ابنةٌ من صُلبه، وبهذا كوّن لنفسه أسرةً هانئةً هو عميدها، ولا سيّما بعدما تزوّجت هذه الابنة في حياته.

واختار باكثير السكنى في حي «منيل الروضة» متنقّلاً من بيت إلى آخر في نفس الحيّ، وذلك منذ أيام التلمذة الجامعية، نظراً لقربه من الجامعة ولأنه حيّ للطبقة المتوسطة أو نصف الشعبية. وبمجرّد وفاته، أقام صاحب البناية التي كان يستأجر فيها شقّةً تطلّ على النيل من زاوية، دعوى طرد على أسرة باكثير، واستصدر فعلاً حكماً بذلك بادر بتنفيذه بالقوة الجبرية، فأُلقيت كتب باكثير وأوراقه ومتعلّقاته خارج البيت، فكانت هذه المعاملة «آخر تحيّة» وجهت إلى باكثير.

نال في شبابه بعض الجوائز الأدبية، كما نال جائزة الدولة التشجيعية عن مسرحية «هاروت وماروت» في عام ١٩٦٢، واختير عضواً في لجنة الشعر ولجنة القصة في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، وشارك في بعض الوفود الأدبية التي توجّهت إلى عواصم مختلفة.

ولئن استأثرتْ المسرحيةُ بمعظم إنتاج باكثير، فقد أصدر عدداً من الروايات، كما أنه كان شاعراً مُجيداً بَثَّ شعره في بعض رواياته مثل «ليلة النهر». ولكن ديوانه، وفيه شعر كثير عن الفترة التي قضاها في المملكة العربية السعودية، لم يُجمع أو يُنشر في حياته، وربّما بعد وفاته. ومواطنه الدكتور محمد أبو بكر حميد معنيٌّ بجمع هذا الشعر.

بدأ ظهور علي أحمد باكثير عندما انضمّ إلى لجنة النشر للجامعيين في عام ١٩٤٣ مع رفاق عمره عبد الحميد جودة السّحار ونجيب محفوظ. وعادل كامل، وقد عرفتُهم في هذه اللجنة في بداياتها، وكانوا ما زالوا شبّاناً يتحسّسون خطواتهم في الحياة الأدبية ورأس مالهم هو الموهبة ثم الإصرار على النجاح. وقد انسحب عادل كامل مبكّراً للتفرّغ لعمله في المحاماة قائلاً: إن الأدب لا يُطعم خبزاً. وبقي الثلاثة الآخرون ثابتين في الميدان على تفاوتٍ في الحظوظ. فنجيب محفوظ ارتقى إلى العالمية بفوزه بجائزة نوبل في الآداب. والسّحار تقلّد وظائف عُليا منها منصب رئيس مجلس إدارة المؤسسة العامة للحراريات، ثم رئيس مجلس إدارة مؤسسة السينما. أمّا علي أحمد باكثير فكان أقلّهم حظاً، وإنْ كان من أوفرهم إنتاجاً. بل إنه بدأ الانتاج حتّى قبل أن يجيء إلى القاهرة بمسرحيته الشعرية «همام أو في بلاد الأحقاف» التي أهداها إلى زوجته الراحلة.

وتدفّق إنتاجه في لجنة النشر للجامعيين وفي خارجها بعد انفضاض سامرها، فأصدر «إخناتون ونفرتيتي» و«الفرعون الموعود» وهما من الأدب الفرعوني و«سلّامة القس» و«إسلاماه» و«سر الحاكم بأمر الله» و«الثائر الأحمر حمدان قرمط» و«قصر الهودج» وهي من التراث الإسلامي، وتنوعت آثاره في موضوعاتها مثل «ليلة النهر» و«روميو وجوليت» و«الدكتور حازم» و«مأساة أوديب» و«السلسلة والغفران» و«إبراهيم باشا» و«جلفدان هانم» و«دار ابن لقمان» و«قطط وفيران» و«شيلوك الجديد» و«سر شهرزاد» و«إله إسرائيل» و«شعب الله المختار» و«مسمار جحا» و«الزعيم الأوحد» و«عودة الفردوس»، وغيرها، فضلاً عن نشره

كتاباً يحوي سيرته الذاتية عنوانه «فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية».

وإذا كان نجيب محفوظ أخذ يحتفي في الأزمنة الأخيرة «بحرافيش» من الأدباء الطالعين، فمن حقنا أن نعتب عليه بسبب قلّة اهتمامه بالتذكير بزملاء النشأة وبداية الطريق. وقد قال الشاعر:

إنَّ الكِرَامَ إِذَا مَا أَيْسَرُوْا ذَكَرُوْا مَنْ كانَ يَأْلَفُهُمْ في المَوْطِنِ الخَشَنِ

فالأحاديث الكثيرة التي صدرت عن نجيب محفوظ بعد ظفره بالنوبلية، والتي أملاها حتّى قبل ذلك تكاد تخلو من أي إشادةٍ بباكثير والسّحار، ودع عنك أن يحاول تقييم آثارهما ولا سيما بعدما صارا في ذمّة التاريخ، وانتفت بذلك الخشية من الميل مع الهوى، مجاملةً أو مناوأةً. وإنْ لم ينل هذا الأديبان الإنصاف الحقّ من رفيق الدرب، فما أشدّه ظُلماً من رجل يملك أن يجاهر بالرأي الصائب، أياً كان.

ومن طريف ما يرويه الشاعر عبد الله بلخير أنّه عندما كان وزيراً للإعلام السعودي زار القاهرة زيارةً رسمية، ورغب وقتها في أن يفاجئ صديقه علي أحمد باكثير بزيارةٍ في بيته. وتوّجه بموكبه إلى حيث يقيم، وكلّف جندياً من جنود حراسته بالصعود إلى الطابق الثالث للتأكد من أن باكثير في بيته. ودقّ الجندي الجرس، وبوغت باكثير وهو يرى هذا الجندي يسأل عنه، فاضطرب اضطراباً شديداً وتوّهم أنه سيساق إلى مصير تاعسٍ! وقبل أن يُفيق من الرعب الذي استولى عليه، وجد بلخير يرتمي عليه معانقاً ومقبّلاً. فقد كان باكثير شديد الحساسية، يسلك في حياته بأمانة وشرف ولا يتحرَّش بأحد، بل يرضى بأن تضيع حقوقه حتّى لا يستعدي الذين اهتضموها. ولهذا فزع عندما رأي الجندي واقفاً بباب بيته يسأل عنه، فهو لم يجترح إثماً، ولا ارتكب جريمةً، ولا اغتال حقّاً، ولا امتدّت يده إلى مال حرام. بل كان عفّ اللسان لا يذكر أحداً بمساءةٍ.

ومن المفارقات في مسلك باكثير، أنه وإنْ كان قد فزع من هذا الطارق لبابه، فإنه لم يخش من الوقوع في شرّ أعماله عندما تطوّع بحمل رسالة من طريد البوليس المجاهد محمد علي الطاهر (١٨٩٦ ـ ١٩٧٤) الذي كان يقيم متخفيّاً في مدينة المنصورة إلى زوجته التي كانت تتلهّف على معرفة أخباره، وكان العَسس يحيطون ببيتها للانقضاض على المجاهد الكبير إذا ما تراءى له أن يعود إلى بيته.

وقد روى المجاهد أبو الحسن قصة هذه الشهامة من جانب باكثير في كتابه «ظلام السجن ـ مذكرات ومفكرات سجين هارب» وكيف أنه أفلح في توصيل هذه الرسالة لإنجاد صديقه، حتّى ولو أصابه من ذلك بلاء كثير، ليس أقلّه الفصل من عمله كمدرّس للغة الإنكليزية في مدرسة الرشاد بالمنصورة، وربّما الترحيل من مصر بعد اتخاذ الإجراءات القانونية ضده.

كان باكثير قيمةً أدبيةً ووطنيةً عظيمةً، فاستطاع أن يكسب صداقات كثيرين من كبار المجاهدين العرب في ذلك الحين حتَّى إن الحبيب بورقيبة بعث برسالةٍ خاصة للسؤال عنه وهو رئيس للجمهورية التونسية. كما أن مكتب ولي عهد المملكة العربية السعودية ـ الأمير سعود ـ وجَّه إليه رسالة تقدير وإطراء لأنه استطاع من خلال الأدب أن يتبنّى قضايا الأمّة العربية، فسخّر الأدب في خدمة الوطنية نثراً وشعراً. ومع ذلك، فالمتتبع لحياته لا يؤوده أن يخرج بنتيجةٍ فاجعة هي أن باكثير عاش في هذا الوطن العربي الذي خدمه بعصارة فكره غريباً، وهي غربةً رجا أن يبرأ منها بهجرةٍ إلى العالم الغربي، لولا أن حياته قُصفت قبل أن يتمّ رسالته.

ابحث اليوم عن آثار باكثير، فلن تجد منها شيئاً في المتناول. وقد طُبعت في مشروع «القراءة للجميع» عشرات من آثار الأدباء الراحلين، فلم يحظ أيٌّ من مؤلفات باكثير بالمشاركة في هذا المهرجان. وفي الوقت الذي تُنشر فيه المجموعات الكاملة لأدباء ما زالوا في بدايات الطريق، فإنَّ أحداً لم يفكّر في إخراج المجموعة الكاملة لباكثير.

وَسُبْحَانَ مَنْ قَسَمَ الحُظُوْظَ فلا عِتَابَ ولا مَلامَه

وحسبُ باكثير فضلاً أنه شيّد بمفرده صرحاً خالداً في الأدب المسرحي العربي، وأن الكلمة الشريفة لن تموت حتّى ولو مات صاحبها.

❁ ❁ ❁

علي أدهم

في لقائي الأول مع علي أدهم في مركبة الترام التي كانت تنقله من بيته في مدينة الجيزة إلى مقر عمله في وزارة المعارف، وكانت تنقلني من منزلي في نفس المدينة إلى معهدي الجامعي، كان علي أدهم منكبّاً على مطالعة كتاب. وعندما التقيت به للمرة الأخيرة بعد ذلك بنحو أربعين عاماً في بيته الذي شيّده نجله المهندس المعماري في حي مصر الجديدة، كان عاكفاً على مطالعة كتاب وسط مكتبته التي تغطي مفرداتها جدران الحجرة وتتكدّس في أركانها. فالكتاب هو الرفيق الدائم لعلي أدهم ـ ومعه السيجارة ـ وهو الذي انقطع له طوال عمره قارئاً ومؤلفاً ومترجماً، وانشغل به عن جميع مباهج الحياة الاجتماعية الأخرى.

كان لقاء الترام فرصة للتعارف بين أديب كبير ذي شهرة عريضة وطالب لا يريد أن يضيّع فرصة الانتقال إلى معهده بمطية الكهرباء، فيقضيها في استذكار دروسه. وبسبب تواتر هذه اللقاءات في مركبة الترام وفي نفس الموعد يومياً، سألني علي أدهم عمّا أقرأ، فقدمت له كتاباً إنجليزياً في الفلسفة هو الذي كنت أستذكر مادّته، ثم تبادلنا حديثاً مقتضباً اكتشفت في أثنائه أن مصاحبي في الرحلة اليومية هو هذا الأديب العالم، وعرف بدوره اسمي ولاحظ اجتهادي.

ومنذ ذلك اللقاء المبكر قابلت علي أدهم في مجالس متعددة، كلها مجالس علم: في دار مجلة «المقتطف» التي صرتُ أعمل فيها، وفي لجنة التأليف والترجمة والنشر التي كانت تصدر مجلة «الثقافة» لمحررها الدكتور أحمد أمين بك (١٨٨٦ ـ ١٩٥٤) وفي وزارة المعارف حيث زرته وكان وقتها مديراً لمكتب وكيل الوزارة محمد رفعت بك (١٨٨٩ ـ ١٩٧٥) ثم الدكتور محمد شفيق غربال بك (١٨٩٤ ـ ١٩٦١) ولم يكن للوزارة إذ ذاك إلّا وكيل واحد، في حين صار لها اليوم وكلاء لا يحصى عددهم، وفي ندوة أستاذنا عباس محمود العقّاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤) في مصر الجديدة، وفي دار المعارف، وفي مقر مجلة «الكتاب العربي»

التي رأس تحريرها. وفي جميع هذه اللقاءات كان الكتاب هو الرفيق الملازم لعلي أدهم، وكانت اهتماماته موسوعية، يقرأ في التاريخ وفي الفلسفة وفي آداب الغرب والأدب العربي، وفي الأندلسيات، وفي فنون القصص، وفي المذاهب السياسية، وفي الشعر والنقد الأدبي، فضلاً عن سير الأعلام. وكان إتقانه للغة الإنجليزية معواناً له على التفقّه في جميع هذه الميادين الفكرية. وإذ كان قد اكتسب من أستاذه الشاعر عبد الرحمن شكري (١٨٨٦ ـ ١٩٥٨) الذي كان يدرّسه التاريخ والجغرافية في المرحلة الثانوية حبّ القراءة، والرغبة الدائبة في الاطلاع، فقد اكتسب من صديقه العقّاد عندما اتصل به بعد ذلك هذه الرؤية الموسوعية والنظرة التحليلية، فضلاً عن الاستقلال باستنباط الآراء وعدم الاقتصار على نقلها بعُجرها وبجرها.

ومع أن العقاد وطه حسين (١٨٨٩ ـ ١٩٧٣) كانا على خصومة مكتومة، كما كانت بين العقاد وعبد الرحمن شكري جفوة، فقد استطاع علي أدهم بشخصيته الرصينة وعلمه الغزير وخلقه النبيل أن يظفر بصداقة ثلاثتهم، ولا أظنّه دخل في خصومة فكرية مع أحد، اللهم إلّا عندما أصدر كتاب «حقيقة الشيوعية» في سلسلة عنوانها «اخترنا لك» كان يشرف عليها الضابط أمين شاكر (ت١٩٩٨) وتصدر عن الدولة بمقدّمة يكتبها الأديب محمد سعيد العريان (١٩٠٥ ـ ١٩٦٤) ويوقعها جمال عبد الناصر. فقد فزعت فصائل اليسار من هذا الكتاب، وبدأت تهاجم مؤلفه علي أدهم، فكان يعلّق على هجومهم قائلاً: لِمَ تهاجمونني ولا تهاجمون صاحب المقدمة الذي بارك الكتاب؟ ومع هذا، فقد نهى علي أدهم نفسه عن الخوض في ملاحاة مع هذه الفصائل، واعتصم بناموسه الأخلاقي الداعي إلى الترفع عن المناقشات البيزنطية، ولا سيما إذا ما اتصلت بالمذاهب، لأن معتنقيها لا يرون الحقيقة إلّا من خلالها، وهم وحدهم على صواب ومَنْ عداهم هم المخطئون.

كان الولاء الأول لعلي أدهم هو للعمل الفكري الذي لم تشغله عنه الوظائف الحكومية المختلفة التي شغلها، سواء في مصلحة الجمارك في الإسكندرية أولاً ثم في القاهرة، أو في وزارة المعارف التي عمل في إدارتها الثقافية ورأس مكتب وكيلها ثم وزيرها (طه حسين). ولم يكن له أي نشاط اجتماعي، ولا انخرط في أي جماعات، ربّما مع استثناء عضويته في لجنة

التأليف والترجمة والنشر. فقد كان بحق راهباً للفكر قابعاً في بيته، فلم يقع عليه الاختيار ليكون عضواً في المجامع العربية المختلفة أو في لجان المجالس العليا للآداب والفنون، ولا ضُمّ اسمه إلى الوفود الأدبية التي كانت تشارك في المؤتمرات الأدبية في مصر أو في العواصم المختلفة، ولا رشح لأي جائزة تمنح باسم الدولة. ولكن عندما شغل زميلنا الصحافي القديم عبد المنعم الصاوي (ت١٩٨٤) وزارة الثقافة والإعلام، سعى إلى استصدار مرسوم بمنح علي أدهم وساماً ثقافياً، وتوجّه بنفسه إلى منزله لتقليده إياه، فكان هذا هو التكريم الوحيد الذي ناله علي أدهم في عمره كلّه الذي نيّف على الثمانين.

وحياة علي أدهم تطرح قضية المعايير التي يُستند إليها في تكريم العاملين في ميادين الثقافة والفكر لأنها معايير تتحيّف في كثير من الأحيان على الذين يعملون في صمت، أما الذين يعملون في صخب وجلبة فترجح كفتهم في هذه المعايير. ومع ذلك، فقد كنت أرى علي أدهم قانعاً بحظوظه في الحياة، راضياً عن نفسه وعمّا قدمه من خدمات للثقافة العامة، ولم آنس منه أبداً شعوراً بالمرارة لأن التقدير تخطّاه وتجاوزه إلى مَنْ هم بمقام تلاميذه، أو لأن العزلة الفكرية التي آثرها لنفسه قد أورثته إحساساً بالاكتئاب. فقد كان يعرف أنه يؤدّي رسالة لا ينتظر عليها مثوبة إلا من تقدير القراء، وأن أكبر مغانمه في الحياة هو أنه عاش بكرامة الرفعاء، وظلّ مرفوع الهامة، يُذكر اسمه محفوفاً بكل إجلال واحترام.

ولكن العمل الجاد الذي ينفع الناس لا يضيع أجره، حتّى وإن كان صاحبه قد ودّع الدنيا، إذ أخرج ابنه الروحي أحمد حسين الطماوي كتاباً جميلاً عنه عنوانه «علي أدهم بين الأدب والتاريخ»، وأقام المجلس الأعلى للثقافة احتفالية لعلي أدهم في عام ١٩٩٨ بمناسبة مرور مئة عام وعام على ميلاده (في ١٨٩٧)، كما سمعت أن طالباً جامعياً نال درجة علمية عن أطروحة عقدها حول علي أدهم. وحسب علي أدهم أنه شهد في حياته ثناءً على نبوغه من الأعلام المعاصرين له كطه حسين، والعقاد، وسيد قطب (١٩٠٦ ـ ١٩٦٦)، والدكتور زكي نجيب محمود (١٩٠٥ ـ ١٩٩٣)، والدكتور توفيق الطويل (١٩٠٩ ـ ١٩٩١) وغيرهم من المنصفين العدول.

ولد علي أدهم في التاسع عشر من حزيران (يونيو) ١٨٩٧ في الإسكندرية لأسرة ذات أصول تركية، والتحق بمدارس الثغر، ثم انتقل منها إلى مدارس

العاصمة إلى أن نال شهادة البكالوريا في ١٩١٦. كان هذا هو كل حظه من الدراسة المنهجية، ولكنه ـ وقد اكتشف حقيقة اهتماماته في سنٍ مبكرة ـ ثقّف نفسه بنفسه في عصاميةٍ محمودة، سواء بمطالعة المجلات الأدبية، ولا سيما مجلة «الهلال» في عهد منشئها جرجي زيدان (١٨٦١ ـ ١٩١٤) أو بغشيان المكتبات العامة للاغتراف من نفائس الكتب في خزائنها. وفي سنّ مبكرة بدأ علي أدهم يكتب في المجلات الأدبية، بادئاً بمجلة «البيان» لصاحبها الشيخ عبد الرحمن البرقوقي، ثم صار يكتب في مجلات أخرى منها «الثقافة» و«المقتطف» و«الكاتب المصري» و«الفكر المعاصر» و«العربي» و«الكتاب العربي» و«قافلة الزيت» وغيرها، كما أشرف على بعض السلاسل. وبفضل إجادته للغة الإنجليزية، كان يُعهد إليه في مراجعة عشرات من الكتب المترجمة في موضوعات شتّى، فكان يقوم بهذه المهمّة بأمانة وبصر. وعندما صدرت الطبعة العربية من مجلة «المختار من ريدرز دايجست» للمرة الأولى في عام ١٩٤٣، استعان محررها فؤاد صرّوف (١٩٠٠ ـ ١٩٨٥) بكبار المترجمين لنقل مادتها، وكان منهم علي أدهم إلى جانب العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني (١٨٩٠ ـ ١٩٤٩) وعبد الرحمن صدقي (١٨٩٦ ـ ١٩٧٣) ويحيى حقي (١٩٠٥ ـ ١٩٩٢) ومَنْ إليهم.

بدأ علي أدهم التأليف منذ عام ١٩٣٨ عندما أصدر كتابه الأول «صقر قريش» وأهدته مجلة «المقتطف» إلى مشتركيها في هذا العام. وتوالت بعد ذلك مصنفاته شاملةً قطاعات عريضة من المعارف. ففي السير والتراجم أصدر إلى جانب «صقر قريش» كتب: «منصور الأندلس» و«غاريبالدي» و«بوذا» و«متزيني» و«المعتمد بن عباد» و«أبو جعفر المنصور» و«عبد الرحمن الناصر» و«شخصيات تاريخية». وفي النقد الأدبي أصدر «على هامش الأدب والنقد» و«النقد والجمال في روسية» و«تلاقي الأكفاء». وفي الدراسات التاريخية أصدر «بعض مؤرخي الإسلام» و«تاريخ التاريخ» و«صور تاريخية» و«الهند والغرب». وفي المباحث الفلسفية والاجتماعية أصدر «نظرات في الحياة والمجتمع» و«العبقرية» و«محاورات رينان» و«لماذا يشقى الإنسان» و«بين الفلسفة والأدب». وفي الدراسات الأدبية أصدر «ألوان من أدب الغرب» و«فصول في الأدب والنقد والتاريخ» و«صور أدبية».

وله في السياسة كتب هي «حقيقة الشيوعية» و«الشيوعية والاشتراكية»

و«الجمعيات السرية» و«المذاهب السياسية المعاصرة» و«الفوضوية». كما ترجم مجموعة من القصص هي «الخطايا السبع» و«ڤيراتا» و«روضات الفردوس» و«صديق الشدّة» و«رينيه» من تأليف شاتوبريان.

يا له من إنتاج حافل زاد على الثلاثين كتاباً أضيفت إليها مؤخراً مجموعة من مقالاته المبثوثة في المجلات أصدرتها هيئة الكتب المصرية، عدا طبعات جديدة من بعض كتبه أصدرها المجلس الأعلى للثقافة عند احتفاله بمئوية علي أدهم.

وهناك ملاحظة تفرض نفسها عند الحديث عن الأدباء، وهي أن أبناءهم ينأون بأنفسهم تماماً عن ميدان الأدب مؤثرين عليه الميادين العملية كالطب والهندسة والزراعة والاقتصاد وما إليها، وهي ظاهرة تصدق على أبناء علي أدهم، وهم بين طبيب ومهندس معماري ومهندس زراعي، كما تصدُق على أدباء آخرين مثل محمد عبد الغني حسن (١٩٠٧ ـ ١٩٨٥) فأبناؤه بين مهندس وطبيب، ومحمد عبد الله عنان (١٨٩٨ ـ ١٩٨٦) فأبناؤه بين طبيب ومهندس، والمحقق محمد أبو الفضل إبراهيم (١٩٠٤ ـ ١٩٨١) وأبناؤه بين طبيب ومهندس ومتخصص بالعلوم. وما أوردت إلّا أمثلة لها أشباه كثيرة في حياتنا، وهي إنْ دلت على شيء فإنما تدل على أن الأبناء يرون من خلال ملاحظتهم لآبائهم الأدباء أن ما يلقوه من معاناة في حياتهم لا يتكافأ مع حظوظهم المادية المتواضعة بالمقارنة بغيرهم من فئات المجتمع، وما دامت المادة هي القيمة العليا في عصرنا، فقد انصرفوا عن هذا الطريق الموحش الشاقّ إلى طرق ممهدة تُفضي إلى النجاح العملي في الحياة.

وعندما توفي علي أدهم في الثامن من كانون الثاني (يناير) ١٩٨١ امتلأت صفحة المناعي بتعزيات لا من الهيئات الأدبية أو الفكرية، بل من شركات السياحة والفنادق التي كانت تشاطر كريمته «آمال» العزاء في والدها لأنها زوجة خبير سياحي كبير.

بل إن عزوف علي أدهم عن الأضواء وتخلّفه عن المشاركة في الندوات التليفزيونية والإذاعية التي تجلب الشهرة، ومجافاته للمنابر العامة، جعلت حتى الجامعيين من أساتذة الجامعة يجهلون شأنه. فقد دعت مذيعة تليفزيونية أستاذاً

جامعياً كبيراً لإجراء حوار معه ـ وكان يُطلق على هذا الأستاذ لقب «المستشار الثقافي» ـ وكان من جملة الأسئلة التي وجهتها إليه سؤال عن رأيه في الأديب علي أدهم. فتلعثم ثم قال: يبدو أن هناك خطأ في السؤال، فلعلّك تقصدين الممثل عادل أدهم! فقالت المذيعة: بل أقصد الأديب عليّ أدهم. فما كان من المستشار الثقافي إلّا أن قال: يبدو أنه أديب مبتدئ؛ لأنني لم أقرأ شيئاً له! وقد أذيع هذا الحوار على الملأ الواسع، «فابتلعه» جمهور المثقفين ولم يحظ بتعليق من أحد، ولا حتّى منّي مع أنني شاهدته بنفسي!.

وكنت سألت علي أدهم عما إذا كانت هناك صلة عائلية بينه وبين اسماعيل أحمد أدهم (١٩١١ ـ ١٩٤٠) وهو أديب كان يعيش في الإسكندرية أسوةً بعلي أدهم وأصدر مجموعة كبيرة من الكتب باللغات العربية والإنجليزية والروسية، وقيل وقتها إن وراء هذا الأديب شبحاً يؤلف له الكتب. فأكد لي على أدهم أن الصلة العائلية منتفية تماماً بينه وبين هذا المستعرب التركي، ثم قال إنه التقى به مرات في الثغر السكندري ولم يكتشف من أحاديثه أي مظاهر للعبقرية أو حتّى لإجادة اللغة الإنجليزية فضلاً عن الروسية. وحاولتُ إقناع علي أدهم بأن يسجل انطباعاته عن هذا الأديب الذي رُمي بالزندقة وعثر على جثمانه ذات صباح منطرحاً على شاطئ البحر في الإسكندرية وقيل وقتها إنه انتحر، وقيل بل قتل، ورجوته أن يلقى أضواء على هذه السيرة المحيَّرة في أدبنا المعاصر، فقال إن رأيه فيه سيء، ومن الأصوب الاحتفاظ به لنفسه.

وفي لقاءاتي الأخيرة مع علي أدهم كان يشكو مرّ الشكوى من أنه لا يجد ناشراً لكتبه. وكان يقول إن هذه المشكلة لم تصادفه وهو في بدايات عمره، ولكنها باتت مستحكمة بعدما استقرت مكانته في عالم التأليف. وهي شكوى سمعتها من محمد عبد الغني حسن ومن الشاعر حسن كامل الصيرفي (١٩٠٨ ـ ١٩٨٤) ومن سواهما. وكنت أعزيّهم جميعاً بقولي إن الكتب باتت تخضع لنواميس السوق، فليس العيب في أعمالٍ يخرجها علي أدهم أو عبد الغني أو الصيرفي، وإنما العيب في العوامل التجارية الطاردة للكتاب الجاد. وقد مات ثلاثتهم وفي جعبة كل منهم مخطوطات تعذّر عليه نشرها في حياته فهل يُقدَّر لها الظهور في غدٍ قريب؟ لعل وعسى إذا تغيرت نواميس السوق.

❁ ❁ ❁

علي الغاياتي

لكم أثارت فضولي تلك الشرفة التي تطل من البناية المملوكة لعائلة بحري الشامية على فناء الجامعة الأمريكية بالقاهرة عندما كنت أطلب العلم فيها بين عامي ١٩٣٨ و١٩٤٢. لقد شذّت هذه الشرفة عن جميع الشرفات، لا في هذه البناية وحدها، بل في عمارات بحري المشمخرة في ميدان الإسماعيلية (التحرير الآن)، لأنها كانت بستاناً من الزهور الجميلة التي يتجدّد رواؤها مع اختلاف فصول السنة، كما كانت تضمّ أقفاصاً من الحمام الزاجل. وكنت ألمح في الحين بعد الحين رجلاً يخرج إلى هذه الشرفة ليروي أُصص الزهر بألوانها الجميلة ويتعهدّها بالتهذيب والتشذيب، كما كان يحنو على أسراب الحمام التي يقتنيها على نحوٍ لا تُخطئه عين. وكم تمنيت لو اكتشفت هوّية هذا الرجل، فلا بدّ أنه شاعر أو فنان أو عاشق للجمال.

وكنت في مَغْدَاي ومراحي، حتّى بعد ما تخرّجت من الجامعة وعملتُ في إدارة التوزيع بجريدة «الأهرام» في مبناها القديم، أمرّ بهذه الشرفة وعلامة استفهام كبيرة تنتصب أمامي، فتزيدني شوقاً إلى معرفة صاحب هذه الجنّة الفيحاء في شرفةٍ ليس لها مثيل في القاهرة كلّها.

وكنّا في إدارة توزيع جريدة الأهرام نوزّع إلى جانب الجريدة نحو أربعين صحيفة ومجلة بلغات شتّى، وكنّا نتلقى كل صباح من المطبعة عيّنات من الصحف والمجلّات التي جرى توزيعها في نفس اليوم، فيستأثُر مدير التوزيع بما يستهويه من هذه العيّنات، ثم يدفع إلى مفتشي التوزيع الثلاثة ـ وأنا أحدهم ـ ببقية الصحف فنتقاسمها في ما بيننا. وكانت من نصيبي جريدةٍ تُدعى «منبر الشرق» بهرتني طباعتها الأنيقة وعباراتها السليمة وخلّوها من الأغاليط، وقرأت على صدرها اسم صاحبها ومحرّرها «علي الغاياتي» وقد اختار للجريدة شعاراً هو:

بِاسْمِ الكِنَانَةِ وَاسْمِ شَعْبٍ نَاهِضٍ لا بِـاسْـمِ أَحْـزَابٍ ولا زُعَـمَـاءِ

كُلٌّ يَزُوْلُ وَيَنْقَضِي إلّا الحِمَى فَوَدِيْعَةُ الآبَاءِ لِلأَبْنَاءِ

أغرتني هذه الجريدة على أن أكتب فيها إشباعاً لهوايتي الأدبية، ولا سيما لأن جميع محاولاتي أنا وزميلي صالح جودت (١٩١٢ ـ ١٩٧٦) الذي كان يعمل في إدارة الإعلانات بالأهرام، للانتقال إلى قسم التحرير باءت بالخذلان. فبعثتُ إلى الغاياتي بمقال سرّني أن أراه منشوراً في العدد التالي مباشرة، ثم أتبعته بثانٍ وثالث ورابع والغاياتي يرحّب بهذه الفصول دون أي معرفة سابقة، ولا سيما لأنني كنت أعتمد على البريد في توجيه رسائلي. ويبدو أن بعض القراء توهّم بأنني محرّر ثابت ولي مكتب في «منبر الشرق»، فأخذوا يبعثون إلى عنوان الجريدة بخطابات ومؤلفات مرقّمة باسمي. فاتصل بي الغاياتي طالباً أن أزوره لكي أتسلّم بريدي. وبعدما استوثقت من عنوانه حملني المصعد إلى باب منزله فاستقبلتني سيدة أجنبية مرحّبة ـ هي زوجته ـ وقادتني إلى غرفة مكتبه. وبعد التحيّات المعتادة وتنسّم عطر الفلّ والياسمين الذي غمر الغرفة سألته: هل أنت صاحب هذه الشرفة ذات الأزهار؟ فقال: نعم ـ ثم رويتُ له حكايتي مع هذه الشرفة الأسطورية، وكيف تحقّقتْ أمنيتي في معرفة صاحبها. فقال لي: لقد عشت في سويسرة نحو ثلاثين عاماً، وأخذت عن السويسريين هواية تربية الزهور، ثم صحبني إلى الشرفة لأرى هذا البستان الرائع عن قرب.

واستمررت أوافي «المنبر» بمقالاتي منذ الأربعينيات وحتى عام ١٩٥٥، وفي هذه الأثناء توثقت صلتي بالغاياتي وأسرته، وصار يناديني ـ قائلاً: «يا ابني»، وعرفت منه ومن جريدته ومن كتابات المؤرّخين ومن ديوان «وطنيتي» الذي أهداني طبعتيْه الثانية والثالثة في حين صودرت طبعته الأولى ـ عرفت تاريخ هذا الرجل الذي عاش عمره كلَّه في ميدان الجهاد دون أن ينال شرف الجهاد أو مثوبته.

ولد علي الغاياتي في دمياط على شاطئ البحر المتوسط في الرابع والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٨٥ والتحق بالمعاهد الأزهرية في المدينة. وعندما اشتدّ عوده غادر دمياط إلى القاهرة شيخاً معمّماً يبحث عن عمل في الصحافة. وكان قد انتسب إلى الحزب الوطني بزعامة مصطفى كامل باشا (١٨٧٤ ـ ١٩٠٨) فعمل في جريدة الحزب «اللواء»، بعدما عمل في مجلة «الجوائب المصرية»

لصاحبها الشاعر خليل مطران (١٨٧٢ ـ ١٩٤٩). وفي عام ١٩١٠ أصدر ديوان «وطنيتي» وهو ديوان من الشعر الثوري، واستكتب الزعيم محمد فريد بك الرئيس الثاني للحزب الوطني (١٨٦٧ ـ ١٩١٩) والشيخ عبد العزيز جاويش (١٨٧٦ ـ ١٩٢٩) مقدّمتين للديوان. وبمجرد صدور الديوان نشر صاحب جريدة «المؤيد» الشيخ علي يوسف باشا (١٨٦٣ ـ ١٩١٣) مقالاً عنه كان تحريضاً للسلطات على الفتك بالديوان وبالشاعر وبكاتبيْ المقدمتيْن. أما علي الغاياتي فاستطاع أن يغادر مصر سراً إلى الآستانة وأمّا محمد فريد بك فحكم عليه بالسجن ستة أشهر، وحكم على الشيخ جاويش بالحبس ٣ أشهر في حين حكم غيابياً على علي الغاياتي بالسجن سنة لأنه «عاب في حق ذات ولي الأمر الخديوي عباس حلمي باشا» (١٨٧٤ ـ ١٩٤٤).

عمل الغاياتي محرراً في إحدى الصحف العربية التي كانت تصدر في الآستانة، ولكنّه لم يلبث أن قرّر السفر إلى جنيف فبلغها في ٣ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٠، وكان إلمامه باللغة الفرنسية وقتها صفراً كبيراً. فلجأ في بادئ الأمر إلى مراسلةِ الصحف المصرية، ولا سيما صحف الحزب الوطني، وعكف على دراسة اللغة الفرنسية دراسةً منهجيةً ساعده على إتقانها أنه خطب سيدة سويسرية هي التي صارت زوجته وأم أولاده. كما أخذ يعلّم اللغة العربية للشبان المصريين والعرب في جنيف ليتمكن من الإنفاق على أسرته الجديدة. وعندما تمكن من اللغة الفرنسية، صار يحرّر في الصحف السويسرية مثل «تريبيون دي جنيف» و«جورنال دي جنيف» و«لا سويس» و«جازيت دي لوزان».

ورأى علي الغاياتي أن صوت الشعوب العربية (وكانت تعرف «بالشعوب الشرقية» في ذلك الوقت) غير مسموع في أوربة، فقرر إصدار جريدة نصف شهرية في جنيف أسماها La Tribune d'Orient ـ أي منبر الشرق ـ وكانت تصدر اعتباراً من ٥ شباط (فبراير) ١٩٢٢ في أربع صفحات، ثلاث منها باللغة الفرنسية، وصفحة باللغة العربية يكتبها بخط يده، ثم يستخرج لها زنكوغرافاً لإمكان طبعها وذلك لانتفاء المطابع العربية في جنيف. وانتظم في إصدار هذه الجريدة حتى ٢٦ أيار (مايو) ١٩٣٧ عندما أخذ يتأهّب للعودة إلى مصر، وكانت الجريدة تحمل شعار «الشرق للشرقيين» وتصف نفسها بأنها «جريدة نصف شهرية أنشئت للدفاع عن حقوق الشرق الناهض».

وكان طبيعياً، وقد أصبح الغاياتي «عُمدةً عربياً» في جنيف، أن يكون مكتبه مقصد العرب المقيميين في أوربة أو العابرين لها، ولا سيما الزعماء العرب الذين كانوا يقصدون جنيف للدفاع عن قضاياهم الوطنية في عصبة الأمم. وكان الغاياتي يتطوّع لمساعدتهم بما اكتسبه من خبرةٍ صحفية، وبما عقده من علاقات واسعة في جنيف، كما فتح صفحات جريدته للدفاع بقلمه أو بأقلام سواه عن قضايا الأمة العربية، وكان من أبرز الكتّاب الدؤوبين في «المنبر» في ذلك العهد الأمير شكيب أرسلان (١٨٦٩ ـ ١٩٤٦).

وفي جنيف، اتّسعت أسرة الغاياتي، حيث رزق بولد واحد أسماه «علي الغاياتي» أيضاً، وبأربع بنات نشأهم جميعاً نشأةً أوربية مع الاجتهاد في تعليمهم الدين واللغة العربية.

وكانت الوفود المصرية الذاهبة إلى عصبة الأمم تنصح الغاياتي بالعودة إلى مصر، ولا سيما لأن حكم محكمة الجنايات الصادر بسجنه قد سقط بمضي المدة القانونية. غير أن الغاياتي كان ـ هو وأسرته ـ قد ألفوا الحياة في جنيف واستقروا فيها استقراراً دائماً، فما الذي يفعله في القاهرة، وليس هناك عمل ينتظره فيها؟ فَمَنَّوَهْ بإسناد مناصب دبلوماسية إليه بمجرد عودته انتفاعاً بخبرته الطويلة.

ولم يلبث أن استبدّ به الحنين إلى مرابع طفولته، وقرّر ـ بعد غياب ٢٧ عاماً أن يعود إلى مصر. ولعلّ من أسباب عودته غير المعلنة رغبته في تزويج بناته من مصريين، وهو ما قد لا يتأتّى لهن في حالة الإقامة الدائمة في جنيف.

وفي ٢٨ حزيران (يونيو) ١٩٣٧ هبط ميناء الإسكندرية ـ ولديه آمال كبار في أن يجد وظائف في انتظاره وتقديراً للأدوار التي اضطلع بها في الخارج. ولكنه تبيّن أن جميع الوعود التي بذلت له قد تبخرّت، ومن ثمّ قرر أن يعيد إصدار «منبر الشرق» كجريدة أسبوعية في القاهرة، صدر عددها الأول في ٦ أيار (مايو) ١٩٣٨ وظلت تصدر بانتظام إلى ١٧ آب (أغسطس) ١٩٥٦ أي قبل وفاته بعشرة أيام لأن الوفاة وقعت في ٢٧ آب (أغسطس).

وفي القاهرة زوّج بناته لرجال مرموقين: الدكتور محمد البهيّ الذي كان وكيلاً للأزهر ثم اختير وزيراً للأوقاف، والدكتور مصطفى الحفناوي المحامي (ت١٩٨٠) الذي كتب رسالته الجامعية في باريس عن قناة السويس وطالب

بتأميمها، فاختير بعد التأميم عضواً في مجلس إدارتها، والشاعر الدكتور مختار الوكيل (١٩١١ ـ ١٩٨٨) الذي تدرج في وظائف الجامعة العربية حتّى صار مستشاراً، والصحافي محمد علي ناصف (ت١٩٩٤) الذي عمل مستشاراً صحفياً في السفارة المصرية بوشنطن.

أما ابنه عليّ، الذي عمل مدرساً في كلية الفنون، فقد لقي حتفه برصاصة طائشة عندما خرج لصيد الطيور مع أصدقائه في صحراء السويس، ولمّا نقلوه إلى مستشفى الشركة الدولية لقناة السويس رفض المسؤولون فيه علاجه قائلين إنه مستشفى خاص بموظفي الشركة وحدهم. وحاولوا نقله إلى مستشفى السويس الحكومي، ولكنه لفظ أنفاسه قبل الوصول إليه. فكانت وفاته فاجعة هزت كيان علي الغاياتي في ابنه الشاب الوحيد الذي خلع عليه اسمه.

وتوالت الفواجع في حياة الغاياتي، إذ كان حفيده زياد مصطفى الحفناوي يلهو بدرّاجته بالقرب من منزل الأسرة، فصدمته سيّارة جعلت مقود الدرّاجة يخترق أحشاءه، فمات على الفور. كما فقد حفيدته الشابة ابنة محمد علي ناصف التي فصل المصعد رأسها عن جسمها فتوفيت في التو واللحظة. ثم فقد أخاه، وكان شديد التعلّق به.

هذه الكوارث جعلت علي الغاياتي يعيد النظر في حياته، فأطلق لحيته وارتدى «كاكولة» أزهرية فوق زيّه الأفرنجي وأحاط طربوشه بعمامة وفتح صفحات جريدته للأقلام المنتمية إلى جماعة الإخوان. ولم يكتف بذلك، بل نشر في جريدته إعلاناً غريباً في إطار على عمودين في الصفحة الأولى جاء فيه ما مؤداه: «إن لنا صديقاً اضطرته ظروف الهجرة إلى الزواج من أجنبية، وهي وإن قامت بواجباتها العائلية خير قيام، إلّا أن به مع ذلك شوقاً إلى الزواج من مصرية تكون على خلق كريم وتؤدّي الفرائض ولا يزيد عمرها على أربعين عاماً». وكان من الواضح للمقربين من الغاياتي أنه يعلن عن نفسه لا عن «صديقه المزعوم»، فقام أحمد حسين (١٩١١ ـ ١٩٨٢) زعيم حزب مصر الفتاة بترشيح سيدة تتوافر فيها كل هذه الصفات، فتزوجها الغاياتي وهو في حدود السبعين من عمره. أما زوجته السويسرية، فجمعت أمتعتها وغادرت المنزل إلى بيت كريمتها حرم محمد علي ناصف وبقيت فيه إلى أن توفيت. فرثاها أحمد حسين بمقال ضافٍ وصفها فيه بأنها «سيّدة عظيمة».

وكان الغاياتي يعرف أنه لن يستطيع الانتظام في إصدار جريدته إلّا إذا كانت له مطبعة خاصة يشرف عليها بنفسه ويضمن بذلك خلو الجريدة من الأغاليط، فأقام لنفسه مطبعة مجاورة لمنزله كان يستقبل في مكتبه فيها أصدقاءه الذين ساندوه في تأدية رسالته بمقالاتهم التي كانوا ينشرونها في المنبر، ومنهم مفتي الديار المصرية الشيخ حسنين مخلوف، والدكتور محمد صلاح الدين باشا وزير الخارجية الأسبق، والمحامي فتحي رضوان الذي شغل منصب وزير الإرشاد القومي، وأحمد حسين زعيم حزب مصر الفتاة، والشيخ أحمد الشرباصي، وحبيب جاماتي، والدكتور حسين مجيب المصري، وكامل كيلاني، ونقولا الحداد، والدكتور مصطفى الحفناوي، ومحمد صبيح، والدكتور مختار الوكيل، ومحمد علي ناصف وغيرهم.

وكان الغاياتي يعتزم نشر ديوان جديد عنوانه «هجرتي» يكون متمماً لديوان «وطنيتي» ولكن هذه الأمنية لم تتحقق في حياته. ولكنّه نشر كتيباً عنوانه «على هامش الحج» بعد أدائه لهذه الفريضة.

وعندما كان الغاياتي في جنيف، كان يراسل جريدة «الجهاد» المصرية لصاحبها محمد توفيق دياب (١٨٨٨ ـ ١٩٦٧)، ولمّا تعثرت الجريدة تخلّف صاحبها عن أداء حقوق المراسلين، وكتب في آخر عددٍ ودّع به قرَّاءه يقول ما مؤداه: «أما الذين لهم في ذمتنا شيء، فإلى ميسرة!» فكان الغاياتي يوالي السؤال على صفحات جريدته: متى تحلّ هذه الميسرة يا صاحب الضياع العريضة؟

وكنت في شهر تموز (يوليو) ١٩٥٦ أعتزم السفر إلى جنيف للعمل مترجماً في نزاع نفطي شجر بين حكومة المملكة العربية السعودية وشركة أرامكو حول اتفاقية عقدت مع أوناسيس لنقل النفط، وتقرّر عرض هذا النزاع على التحكيم الدولي. وقبل سفري بيوم واحد، هاتفني علي الغاياتي قائلاً: أأنت مسافر إلى بلادنا؟ فقلت: أجل. وعاد يقول: هل لي أن أرجوك في خدمة عسى ألّا تكون ثقيلةً عليك؟ فقلت: وما هي؟ قال: تعرف أن شرفة الزهور في بيتي تحتاج إلى سماد، وهو يُباع في الصيدليات في جنيف في علب صغيرة من الصفيح، فهل أطمع في أن تحصل لي على علبتين؟ فرّحبت بهذا الطلب، وبادرت بشراء العلبتين بعد وصولي إلى جنيف مباشرة. وبعد شهر تماماً قرأت في جميع الصحف السويسرية مقالات ضافية تنعى علي الغاياتي وتروي سيرته لأنه كان

معروفاً في الدوائر الدبلوماسية والصحفية والحكومية وغيرها.

وهكذا أجرمتُ في حقّ هذا الصديق ـ على غير إرادتي ـ مرتين، مرّة لأنني لم أحقّق له رجاءه، ومرّة لأنني لم أشارك في تشييع جنازته.

وبعد وفاته، حاول أزواج بناته إعادة إصدار «المنبر» ونشر أوراقه المطوية، بما فيها ديوان «هجرتي»، ولكن زوجته الثانية قابلتهم بالصدّ، فعدلوا عمّا كانوا ينتوون.

وكلّما مررت تحت الشرفة القديمة، ردّدت قول البحتري:

لَـوْ تَـرَاهُ، عَـلِـمْـتَ أنَّ الـلَّـيَـالِـي بَـدَّلَـتْ فِـيْـهِ مَـأْتَـمَـاً بَـعْـدَ عُـرْسِ

❁ ❁ ❁

علي هاشم رشيد

في الثامن من تموز (يوليو) ١٩٩٥ ودّعت غزة ابنها البار شاعر الوطن علي هاشم رشيد الذي كان هو وشقيقه هارون هاشم رشيد من أسبق الشعراء الفلسطينيين ـ بعد جيل إبراهيم طوقان (١٩٠٥ ـ ١٩٤١) وأبي سلمى عبد الكريم الكرمي (١٩٠٩ ـ ١٩٨٠) وعبد الرحيم محمود (١٩١٣ ـ ١٩٤٨) إلى تبنّي الذياد عن القضية الشاملة للوطن قبل النكبة وبعدها، وذلك قبل أن يُولد في دنيا الأدب من باتوا يعرفون «بشعراء المقاومة» الذين اكتسحوا بشهرتهم البازغة من سبقوهم من كبار الرواد.

فالدواوين التي أصدرها علي هاشم رشيد وهي «أغاني العودة» و«شموع على الدرب» و«رسالة إلى غزة» و«الطوفان» و«جراحات فلسطينية» تتابع القضية الفلسطينية في جميع مراحلها، وتعبّر عن رأي الشاعر، بل أحلامه، حتّى وإن لم يساير موقفه مجريات السياسة في أي مرحلة من مراحلها المتعثرة.

ولد علي هاشم رشيد في محلة الزيتون، وهو حي من أحياء غزة في السابع من كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٩ في أسرة كان الشعر العربي يملأ أجواءها، فأبوه راويةٌ من رواة سيرة عنترة بن شدّاد، وأخواه هارون وأكرم شاعران، بل إن أخته سهام شاعرة بدورها. والغريب أننا إذا انتقلنا إلى الجيل التالي، لرأينا أن علياً لم ينجب من البنين والبنات مَنْ ورث عنه موهبة الشعر، إنْ كانت الموهبة تورث. ولعلّ سبب ذلك أن حياة المكابدة الأدبية التي يحياها الأديب دون جزاء يتكافأ مع هذا الجهد هو الذي ينفّر الأبناء من ولوج ميادين الأدب تشبهاً برب الأسرة. وقد عرفتُ كثرة من رجال القلم الذين آثر أبناؤهم التخصص في الميادين العلمية كالطب والهندسة والزراعة وسواها، نائين بأنفسهم عن «شُبهة»الأدب. ومن قبيل التمثيل أذكر بعض مَنْ عرفت من الأدباء الذين لم تنتقل «عدوى» الأدب إلى أبنائهم مثل: محمد عبد الغني حسن (١٩٠٧ ـ ١٩٨٥)، وعلي أدهم (١٨٩٧

ـ ١٩٨١)، ومحمود تيمور (١٨٩٤ ـ ١٩٧٣)، والدكتور محمد صبري السوربوني (١٨٩٠ ـ ١٩٧٨)، والدكتور أحمد الحوفي (١٩١٠ ـ ١٩٨٣)، وأحمد حسن الزيات (١٨٨٥ ـ ١٩٦)، ومحمد أبو الفضل إبراهيم (١٩١٢ ـ ١٩٨١)، وعبد السلام هارون (١٩٠٩ ـ ١٩٨٨)، ومحمد عبد الله عنان (١٨٩٨ ـ ١٩٨٦)، والدكتور كامل السوافيري (١٩١٧ ـ ١٩٩٢)، والقائمة طويلة، وقد اجتزأتُ منها بهذه الأسماء.

تخصّص علي هاشم رشيد في اللغة العربية وآدابها ونال شهادة امتحان المعلمين الأعلى من غزة، ثم اشتغل بالتعليم في المدارس الحكومية في مسقط رأسه، واستطاع على حداثة سنّه أن يبرز في مجتمعه بموهبته الشعرية التي كانت شفيعه إلى المشاركة في المحافل المختلفة والمناسبات المتعددة، فارتقى جميع المنابر العامة في بلده، واحتشد من حوله الأدباء والشعراء، ولا سيّما بعدما أخذ على عاتقه تمثيل مجلة «الأديب» اللبنانية الذائعة الصيت في غزة، فكان يوافيها ـ عن طريقي ـ بعشرات من القصائد والفصول التي يجمعها من مريديه من الأدباء والشعراء بعد تمحيصها، كي تتهيأ لها فرصة الذيوع في العالم العربي والمهاجر من خلال هذه المجلة الفريدة التي عصمت نفسها عن مشاغل السياسة ومناحراتها، فكانت تدخل كل قطر عربي من أوسع الأبواب.

كانت مطامح علي رشيد الأدبية ـ لا المادّية التي ترفّع عنها بل زهد فيها طوال عمره حتّى في فترات الضيق ـ أن يكون مسموع الصوت في دنيا العرب، وأن يكون له جمهور أوسع من قرّاء المجلات الأدبية ودواوين الشعر، وهم بضع مئات. وجاءته الفرصة السانحة في عام ١٩٥٤ عندما زكّته مواهبه لاختياره مشرفاً على «ركن فلسطين» في إذاعة «صوت العرب» المصرية، فانتقل بأسرته إلى القاهرة واستقرّ فيها. ولم يلبث أن رُقيّ إلى رئاسة قسم البرامج والتمثيليات في هذه الإذاعة، ثم أصبح مديراً عاماً لإذاعة «صوت منظمة التحرير الفلسطينية» في هذه الإذاعة عينها. وأتته هذه الفرصة العظيمة، فرغب في أن يُشرك فيها أكبر كوكبةٍ من مواطنية من الشعراء والكتاب والموسيقيين والمطربين والمتحدّثين، فعمرت البرامج الإذاعية بتمثيليات وأناشيد وطنية وتعليقات أدبية وسياسية، وكلها برامج تدور حول القضية الأمّ التي نذر لها نفسه، وسخّر كل عمره لخدمتها. وفي هذه الأثناء شارك في طائفةٍ من مؤتمرات الأدباء، وانتخب رئيساً لاتحاد الكتاب

الفلسطينيين، وعضواً في اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد القومي الفلسطيني لقطاع غزة، وعضواً في المؤتمر الفلسطيني الأول الذي عُقد عام ١٩٦٤ في القدس، وعضواً في المجالس الوطنية الفلسطينية المتتالية، وغير ذلك من المناصب الشرفية التي حمل همومها دون أن يجتني منها أي منفعة ذاتية.

وكنتُ قد حذّرتُ علي هاشم رشيد،حتّى قبل مغادرته غزة، من مزالق السياسة، وقلت له: إننا معاشر الأدباء لا نتقن أساليب الحُواة التي تعبقر فيها أرباب السياسة، ومن الخير التمثّل بقول الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥) في إنزال اللعنات على السياسة، وهي نصيحة ما كان في وسع علي هاشم رشيد أن ينتصح بها وهو غارق في الخضم العاتي للسياسة بحكم وظائفه الإذاعية، فألفىٰ نفسه ذات يوم، في عام ١٩٦٩، بلا عمل بعدما ألغيت جميع وظائفه، وعُطّلت برامجه وانفضّ السامر! وبقي بعد ذلك ما يقرب من ربع قرن بلا عمل، تتوزع حياته بين نوبات من المرض ونوبات غالبة من الشعر لم تكن تفارقه حتّى في ذروة نوبات المرض.

قضى بعد ذلك فترةً قصيرةً من عمره في المملكة العربية السعودية مرافقاً لكريمته بوصفه محرماً، وهي صفة لا ترخّص له بالعمل، فكان يقضي وقته الفارغ الطويل في مساجلاتٍ أدبية وشعرية مع الأدباء والشعراء هناك، خرج منها بديوانٍ كامل عن هذه الحقبة السعودية الخصبة في حياته الشعرية.

وعندما عادت غزة إلى أبنائها، تاقت نفسه بعد غربة وبطالة متطاولتين إلى العودة إلى مسقط رأسه ليكون مثوى جسده، فتقدّم بطلب للزيارة ووفق عليه، وصدر التصريح بها، فسافر في صباح اليوم التالي محمولاً ـ لأنه كان قد أصبح مقعداً ـ حتّى إذا ما بلغ غزة أُقفل باب التصاريح، على ما علمتُ من شقيقه الشاعر هارون هاشم رشيد. ولم تمض على عودته بضعة أسابيع حتّى تحقّقت أمنية عمره، وهي أن يعود إلى ثرى وطنه ويرقد فيه رقدته الأخيرة، ولكأنه كان يتمثل قول الشاعر القروي رشيد سليم الخوري (١٨٨٧ ـ ١٩٨٤):

بِنْتَ العروبة، هَيِّئِي كَفَنِي ... أنا عَائِدٌ لأَمُوْتَ فِي وَطَنِي
مَنْ جَادَ من خَلْفِ البِحَارِ لَهُ ... بالرُّوْحِ، كَيْفَ يَضِنُّ بِالبَدَنِ؟

لم يكن علي هاشم رشيد يعتزّ بصفةٍ قدر اعتزازه بصفة الشاعر، وهي صفة

لازمته في فترات وظائفه القصيرة، وخلصت له في فترات البطالة الطويلة. وكان شاعراً مجيداً حتّى مع الإكثار، إذْ كان له نَفَسٌ طويل وعميق في الشعر، يشهد على هذا ديوانه «على غير موعد» الذي وقفه كلّه على مناجيات مع شاعرتين معاصرتين إحداهما عراقية والأخرى مصرية، وإنْ تفاوتت بينهما المراتب.

وإذا كان الناس يتعاملون في حياتهم أحياناً بلغة الزهور وأحياناً «بلغة الشيكولاته» عند إزجاء الأمنيات إلى مريض أو إلى أمّ رزقت بمولود، فإن علي هاشم رشيد كان يحمّل شعره هذه الرسالة قائلاً إن الزهور تبلى والحلوى تُستنفد أمّا الشعر فيبقى.

أصبتُ مرّةً في إبهام قدمي، فتلقيت على الفور «معلّقة» من معلقات علي هاشم رشيد تحمل أمنياته بسرعة البرء. وانتخبت عضواً مراسلاً في مجمع دمشق، فجاءتني تحية مسبوكة شعراً ومسجلةً على شريط بصوت الشاعر.

وكان قبل أن يقعده المرض ممثلاً دائماً للشعر في كل مناسبة، حتى المناسبات الشخصية، وكأنما كان يتربّص بكل أصدقائه حتّى إذا سنحت سانحةٌ سعيدة أو حزينة كانتَ للشاعر مشاركة فيها بكل ما يضطرب به صدره من زَخَم الشعر. ولم يكن يعنيه النشر، اللهم إلّا إنْ توافرت له الأسباب، ولكن الذي كان يعنيه في المقام الأول هو ألّا يكتم عاطفة جاشت بها ملكته الشعرية، واضطرمت في جوانحه، وحسبه جزاءً أن يتلقاها ولو بضعةٌ من المستمعين في ندوةٍ أدبية مغلقةٍ على روّادها.

بل لقد كان من هوايات علي هاشم رشيد أن يحتفظ في مكتبته بدواوين الشعر مسجّلة بأصوات أصحابها من الشعراء، فكان يستضيف الشعراء في بيته حيث يقوم بتسجيل الديوان كلّه بصوت صاحبه، وطبق هذا الأسلوب على جميع دواوينه اعتقاداً منه بأن نبرة الصوت أصدق تعبيراً من مرصوص الكلام.

وقد تحالف على شعر علي هاشم رشيد سوءُ الحظ، فبعدما كانت قصائده هو وشقيقه الشاعر هارون مقرّرةً على الطلاب ضمن محفوظاتهم في الكتب المدرسية، عَدَتْ عليها عوامل «الإزاحة» فأزاحتها لتحلّ محلّها قصائد أغلبها لموظفين في سلك التعليم! وليت أريحيّا من الناشرين يعكف على إخراج المجموعة الكاملة لشعر علي هاشم رشيد بعدما انطوت صفحة الشاعر، وقد جرى

العرف المعهود عالمياً على ألّا تنشر المجموعة الكاملة لأعمال أديب أو شاعر أو مفكر إلّا بعدما يصمت الأديب، على خلاف ما نعهده اليوم من نشر المجموعات الكاملة لمن لا يزالون في أول الطريق أو منتصفة، بل لقد صدرت مجموعات كاملة لمن كانوا يتلقّون العلم على يدي علي هاشم رشيد. والمخطوط من شعر الشاعر يبلغ أضعاف أضعاف المنشور منه، وفيه تسجيل لأحداث كثيرة بعضها عام وبعضها خاص، ولا يخلو بعضها من مداعبات بين الأصدقاء، وكلّه شعر قمينٌ بالتسجيل، تتراءى فيه صورة الشاعر في جميع أطوار حياته.

ولم يقنع علي هاشم رشيد بالشعر العربي وعاءً لعواطفه وخواطره، بل عكف على ترجمة شعره إلى اللغة الإنكليزية، وأطلعني على كثير من هذه المترجمات، وفيها لا شكّ اجتهاد من ناحيته حتّى وإن أزورّ الذوق الأجنبي عن بعض موضوعاتها. كما عالج القصة تأليفاً وترجمةً، فأصدر مجموعة من الأقاصيص عنوانها «رصيف الدموع» ومجموعة مخطوطة عنوانها «رصاصة فوق القلب» وله مسرحية شعرية مخطوطة عنوانها «فدائيون حتّى النصر» ورواية شعرية مخطوطة عنوانها «المروءة والوفاء» وله مجموعتان مترجمتان هما «السبعة الذين شُنقوا» و«قلب إنسان» لم تُنشرا بعد.

بين مغادرة علي هاشم رشيد للوطن عام ١٩٥٤ وعودته إليه في عام ١٩٩٥ واحد وأربعون عاماً من الغربة الوجدانية القاسية التي احتملها صابراً وهو يجتّر قصائد ديوانه الأول «أغاني العودة»، ومن أسفٍ أن عودته التي طالما تمنّاها وعاش على آمالها جاءت في أرذل العمر وانحلال الجسد، فلم يستطع أن ينظم ديوان العودة الذي وعد بأن تختتم به حياته الشعرية الممتدّة. كان مصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠ ـ ١٩٣٧) يقول عن الشاعر أحمد شوقي (١٨٦٩ ـ ١٩٣٢) إنه «فارغ إلّا من الشعر وفارغ إلّا له» قاصداً بذلك أن شوقياً متفرّغ للشعر لا يشغله عنه شاغل من أمور الحياة الدارجة، وأنه لا يفقه من ثقافات الدنيا إلّا الشعر. وهذا القول يكاد ينطبق على الشاعر علي هاشم رشيد من حيث تفرّغه الكامل للشعر نصف قرن بل يزيد، وإن لم ينطبق عليه من حيث انحصار ثقافته في مجال واحد، إذ إنه كان على إطلاع واسع بآداب الغرب أوحى إليه بأن يترجم بعض آثاره، كما أسلفت.

سألته مرّةً: كيف تجتمع في شخصه صفتان غير متجانستين، هما الصفة الغالبة وهي «شاعر الوطن» والصفة التابعة وهي «شاعر الغزل»؟ وهل يليق بصدّاح الوطنية أن

ينصرف إلى التشبيب بكل سابيةٍ للقلوب؟ فكان جوابه: لا تنس أنني إنسان قبل أن أكون شاعراً، وأن لي قلباً تهزّه المآرب الوطنية العليا كما تفتنه مظاهر الجمال وإماراته في كل حسناء. فإنْ كنت عاشقاً للوطن، فأنا أيضاً عاشق للجمال، ولا تضارب بين هذا وذاك. ثم إن طاقتي الشعرية تتسّع لكل أغراض الشعر، ومنها هذان الغرضان النبيلان. والمهمّ عندي أن أبقى شاعراً مجدداً لا ناظماً. ولا مفتعلاً للشعر، وأن أحافظ على المستوى الذي أُثر عنّي في كل ما أنشده من شعر.

على أن علي هاشم رشيد، برغم صدق بلائه في أداء رسالته الشعرية، وبرغم التضحيات التي ارتضاها على مدى سنوات طويلة، رَاضَ نفسه على احتمال أقداره دون تذمرٍ أو مرارة، وظلّ يُطالع الناس ببسمته المعهودة ووجهه الطلق وقلبه الأبيض، فإذا صادف جحوداً كان ردّ فعله الفوري قوله: «ولا يهمّك»! نعم، فلم يكن يحفل بصنوف الجحود التي كرع مرارتها، ولا سيّما عندما رأى «وسام القدس» يعلّق على عشرات من الصدور إلّا صدره. وعندما أبديت له ملاحظة في هذا الشأن كان جوابه: «إن القدس في قلبي وليس على صدري». وبهذه الروح المتفائلة المتسامحة كان يستقبل صروف الدهر، بل كان يستقبل أمراضه التي ألزمته السير على عكازين في بادئ الأمر، ثم على عكاز مثلث الأضلاع، واستقر في نهاية المطاف على مقعد متحرّك. وكان يحمد ربه لأن الوهن الذي أصاب بدنه لم ينتقص من قواه العقلية أو ملكته الشعرية، وبقي على ما عهده صحبه في الوفاء والمبادرة بالتحية وإزجاء الشعر في المناسبات. وعندما توفي صديقه الشاعر صقر بن سلطان القاسمي في التاسع من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٣ (وهو من مواليد ١٩٢٤) وأقيمت في القاهرة حفلة لتأبينه، تخلّف علي هاشم رشيد بشخصه عن حضورها، ولكنّه لم يتخلّف بشعره إذ بعث بمرثيته لكي يتلوها صديقه رائف المعريّ. فالمرض لا يحول دون الوفاء.

ولا يسعني في ختام هذه الكلمة إلّا الإعراب عن حزني العميق على فقد هذا الصديق بل الأخ النبيل الذي شربت معه أنخاب الصداقة المترعة منذ الأربعينيات. وإن غيابه عن منتدياتنا الأدبية يمثّل فراغاً ضخماً عزيزٌ على غيره ملؤه. فقد كان يستقبل أصدقاءه بالحبّ، ويمتعهم بشعره ونثره وفكاهاته ونوادره، ويمحضهم المودّات كريمة غالية، وكل هذا بتلقائيةٍ طبيعية وتواضع جميل. فقد كان يعرف أنه شاعر كبير، ولكننّا لم نشعر أبداً بأنه يتشامخ علينا بكبره. رحمه الله رحمة واسعة.

عيسى الناعوري

في عام ١٩٥٢ تلقيت خطاباً دورياً من عمّان قال فيه مرسله إنه يعتزم إصدار مجلة أدبية شهرية، وإنه يرحّب بمساهمات الأدباء من جميع الأقطار العربية. وكان اسم صاحب الخطاب معروفاً لي، لأنه كان ينشر فصولاً كثيرة في المجلات الأدبيّة، ولا سيما اللبنانية، ولكنني كنت حتى ذلك الوقت مبتوت الصلة الشخصية به. فكتبت رسالة إلى هذا الأديب الأردني ـ واسمه عيسى الناعوري ـ رحّبت فيها بدعوته للكتابة في مجلته «القلم الجديد» لكنني رجوته إمهالي إلي أن أطلع على أعدادها بعد صدورها للوقوف على مشاربها واتجاهاتها والتثبّت من أنها مجلة خالصة للأدب، بريئة من أي اتجاهات سياسية أو حزبية أو عقائدية علمتنّي تجاربُ الحياة أن أنفر منها.

وفي شهر أيلول (سبتمبر) ١٩٥٢ صدر العدد الأول من «القلم الجديد» حاملاً رسالة أدبية طموحاً، ولكن طباعة المجلة المتواضعة وَشَتْ بقلة الموارد التي يُنفق منها على إخراجها، فهي من قبل ومن بعد جهدٌ فردي، والناعوري لا يستعين في إصدار المجلة إلّا بنفسه، فليس لديه مساعدون أو أجهزة تلاحق المطبعة، وتراجع التجارب، وتشتري ورق الطباعة، وتشرف على التوزيع والاشتراكات والحسابات، وما إلى ذلك من الأمور التحريرية والإدارية. ولكن المستوى الأدبي للمجلة كان يُغري بالاستجابة لدعوة محررها، فوافيته ببضع مقالات نشرها في أعدادها التالية. ولعل أبرز عدديْن صدرا من مجلة «القلم الجديد» هما العدد الخاص الذي وقفه الناعوري على أدب المهجر ـ ولم يكن معظم أدباء المهجر في ذلك الوقت معروفين في الوطن ـ فجاء العدد حاملاً نتاج كثيرين من شعراء المهجر وكتّابه، فكان هذا العمل فتحاً مبيناً في الصحافة الأدبية. أما العدد الخاص الثاني فقد وقفه على الحياة الأدبية في الأردن، ومنه استزدنا متابعةً للأدباء ذلك القطر.

ولكن المجلات الأدبية التي تقوم على الجهد الفردي موعودةٌ بالموت المبكر، فلم يطل عمر «القلم الجديد» عن سنة واحدة، إذ ظهر آخر أعدادها في آب (أغسطس) ١٩٥٣.

وكان من فضل هذه المجلة عليّ أن توثقت صلتي بعيسى الناعوري، فاكتشفت أنه يقوم بحق بدور السفير الأدبي بحكم صلاته الواسعة بأدباء العالم العربي والمهاجر والمستشرقين، كما أنه كان متعدد المواهب: يكتب الدراسات الأدبية والنقدية، وينظم الشعر، ويترجم، ويؤلف الروايات الطويلة، ويعالج أدب الرحلات من واقع أسفاره الكثيرة، ويتناول السير والتراجم، بل لقد سجل سيرته الذاتية في كتاب عنوانه «الشريط الأسود». كما كان كثير المشاركة في المؤتمرات الأدبية في الداخل والخارج، وكانت له زاوية منتظمة في الصحف الأردنية يعالج فيها قضايا الأدب والأدباء.

وكنت أشفق عليه من كل هذا النشاط الذي كان يبذله إلى جانب عمله الحكومي مدرّساً ثم موظفاً في وزارة التربية، وكنت أقول له مازحاً: «لو كنت وزيرك المؤزّر للألزمتك حدود الوظيفة، ولما وافقت على رحلاتك الكثيرة إلى الخارج التي تجيء على حساب عملك». أما ردّه العملي على هذه المداعبة، فهو «إغراقي» ببطاقات من كثير من البلدان التي زارها: الولايات المتحدة وروسية والمجر ويوغسلافية وتايوان والصين وإيطالية وفرنسة وهلم جرا.

لم يكن الناعوري معروفاً في مصر على نطاق واسع مع أنه نشر بعض كتبه في السلسلة الشعبية «اقرأ» الصادرة عن دار المعارف، ولكن حدث أن توافقت زيارة الشاعر القروي رشيد سليم الخوري (١٨٨٧ ـ ١٩٨٤) للقاهرة بدعوة رسمية من حكومة الوحدة (المصرية السورية) مع صدور الطبعة الأولى من كتاب الناعوري «أدب المهجر» عن دار المعارف. ورغبت الدار في الترحيب بالشاعر القروي فأقامت حفلاً لتكريمه في مقرها دعت إليه جمهرةً كبيرة من الأدباء، كنت من جملتهم. ووقف صاحب الدار شفيق متري (ت١٩٩٤) يرحب بالمدعوين، ثم قال: إن الدار يسعدها أن تهدي جميع الحاضرين نسخاً من كتاب «أدب المهجر» للناعوري الصادر تواً من المطبعة، وقام موظفو الدار بتقديم نسخ الكتاب (الذي طبع ثلاث مرات بتوسّع في كل طبعة) إلى الحاضرين الذين حملوه معهم تذكاراً لهذه الأمسية الجميلة التي لم تتكرر بعد ذلك. وعندما وصفتُ أخبار هذا الحفل

للناعوري، سعد به كثيراً وقال: إن كل أدباء مصر يعرفونه الآن بفضل هذه الدعاية التي لم يسع إليها.

تواتر البريد بيني وبين الناعوري، فكان سبيلاً إلى التناجي وتبادل الآراء والتعليق على الأوضاع الأدبية عامة وفي بلدينا بصورة خاصة، وكثيراً ما كان يجد في رسائلي مادةً للتعقيب عليها في زاويته التي كان يحررها في الصحف الأردنية، وهكذا كانت الهموم التي أعبّر عنها في إطار أخوي تتحوَّل إلى هموم عامة يُشرك فيها قراءة.

بعث إليّ مرّة بمخطوطة رواية ألفها عنوانها «ليلة في القطار» راجياً أن أكتب مقدّمة لها، وقال إنها رواية واقعية عاش بنفسه جميع تفاصيلها. فقد كان مسافراً بالقطار الليلي بين مدينتين إيطاليتين، وجاءت راكبة إيطالية لتشاركه المقصورة. وكان طبيعياً أن يتبادلا عبارات التعارف المعتادة، ولكن الراكبة الجريئة بدأت تجرّب معه كل أساليب الإغواء رغبةً في إيقاعه في شراكها. فالرحلة طويلة، والخلوة مكفولة، والإضاءة خافتة والرغبة مشتعلة، ولكن «البطل» أراد أن يلقن هذه الفرنجية درساً في شهامة العربي وأخلاقه، فتأبّى عليها متذكراً أن له في بلاده زوجةً وأولاداً يفرضون عليه التعفّف. ولكن لأن الناعوري أسهب إسهاباً صريحاً في تصوير ما تعرّض له من إغراءات، فقد رجوته إعفائي من كتابة المقدمة المطلوبة. وعندما أهداني نسخة من الرواية المطبوعة سجّل في الإهداء عبارة «أقدم هذه الرواية التي أبى أن يكتب يوماً مقدّمتها لأنها في رأيه جديرة بمطاردة بوليس الآداب لها!».

وكان تعليق الأديب الأردني الدكتور عبد الرحمن ياغي عليها أنها ليست رواية ـ بل «حديث خاص بين اثنين: رجل شرقي وامرأة غربية، ولذلك لا شأن للقراء به. وكان من حقها أن تطبع منها نسختان فقط، واحدة للرجل وواحدة لصاحبته».

وأقول من قبيل الاستطراد: إن الدكتور محمد مندور (١٩٠٧ ـ ١٩٦٥) كان معهوداً إليه في إجازة المسرحيات التي تمثل على مسارح الدولة. وذات يوم، عُرضت عليه مسرحية من تأليف أستاذ جامعي وناقد معروف، فلّما قرأها مندور دوّن عليها عبارة «تحال إلى بوليس الآداب!» فانفجرت بينه وبين هذا الجامعي معارك على صفحات الصحف لم تتوقف إلّا بوفاة مندور.

كان عيسى الناعوري يحسن الظن بجميع أدباء المهجر وشعرائه ويثني عليهم لأنهم حافظوا على الضاد في دنيا لا تعرف إلّا الدال، وأقاموا للأدب المهجري صرحاً لا يقلّ رسوخاً عن أدب الوطن. ولكنه لم يثبت على هذا الرأي عندما أصدر الطبعة الثالثة من كتابه «أدب المهجر» فقسا على كبار الشعراء منهم ووصفهم بالعنترية والنثرية والركاكة. وقال: «إن ممّا يؤسف له أن جورج صيدح (١٨٩٣ ـ ١٩٧٨) ـ مثل القروي وإلياس فرحات (١٨٩٣ ـ ١٩٧٦) ومن بقي من شيوخ المهجر ـ لم يستطع أن يقدّم معنًى جديداً ولا شعراً نابضاً بمثل الحيوية القديمة ولا سيما في وطنياته. ممّا يدل على أن عهد الشعر الجيد عند صيدح قد ذبل وانتهى أمره».

وأعتقد شخصياً أنه كان متعجلاً في إصدار هذا الحكم الجائر، ولهذا لم يدهشني أن يثور عليه هذا الثالوث المهجري، وكان أشرسهم هجوماً على الناعوري الشاعر جورج صيدح الذي نظم قصيدة طويلة في هجائه، أتخيّر منها أخفّ أبياتها وطأة، حيث قال:

قُلْ «لِعِيْسَى» القَدِيْمِ إنِّي مُحِبٌّ ... أَتَعَامَى عَنْ «الجَدِيْدِ» المُرَائِي
مَنْ رَأَوْهُ يُحَقِّرُ الشِّعْرَ قَالُوا ... خُنْفُشَارٌ يُهِيْنُ شِعْرَ الكِسَائِي
لَيْتَ طَرْفِيَّ أُغْمِضَا قَبْلَ يَوْمٍ ... فِيْه بَانَتْ عَدَاوَةُ الأَصْدِقَاء!

وحياة الناعوري المولود في الناعورة بالأردن عام ١٩١٨ لا تخلو من عصامية. فقد كان تعليمه متوسطاً، ولم يدخل أي جامعة. ولكنه اعتمد على نفسه في تثقيف نفسه حتّى أجاد اللغتين الإيطالية والإنكليزية وبات يترجم عنهما ويكتب بهما، واختاره مجمع اللغة العربية عضواً مؤسساً فيه عند إنشائه في عام ١٩٧٦ وشارك في وضع النظام الأساسي للمجمع، وأسندت إليه أمانته العامة. ومنح درجة الدكتوراة الفخرية من جامعة باليرمو، وكذلك من الأكاديمية العالمية للفنون والثقافة في تايبه (فورموزه). واختير عضو شرف في المركز الإيطالي العربي في روما. وكان العضو الأردني التقليدي في جميع مؤتمرات الأدباء العرب وفي غيرها من المؤتمرات الثقافية التي شارك فيها باسم الأردن. بل إن وفاته اقترنت بواحدٍ من هذه المؤتمرات. فقد كنت مدعّواً مثله إلى مهرجان في تونس دعت إليه مجلة «الفكر» بمناسبة احتفالها بمرور ثلاثة عقود على إصدارها، وتواعدنا على

اللقاء هناك، وإنْ كان هو سبقني بيومين ليشارك في ندوة ثلاثية مع المستشرق جاك بيرك (ت١٩٩٥) وصاحب مجلة «الفكر» محمد مزالي. فلّما وصل من عمّان إلى الفندق، هاجمته أزمة قلبية فاضت روحه على إثرها في الرابع من تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٨٥، ولمّا استفسرت عنه بمجرد وصولي إلى المطار في السادس من الشهر، قيل لي إنه أخلف موعده، وللمرة الأولى والأخيرة معي. وارتأى المحتفون وقتها أن يكتموا خبر الوفاة حتّى لا تخيّم سحابة من الحزن على «المتمهرجين».

وكان الناعوري يرى أن البلاد العربية كلها وطن واحد له، فنشر كتبه في مصر والأردن وتونس وسورية ولبنان، ولا أظنني مخطئاً إن قلت: إنه صاحب أكبر رصيد من المؤلفات بين جميع مواطنيه الأردنيين. ففي الأدب الروائي نشر أربع روايات طوال هي «جراح جديدة» و«ليلة في القطار» و«بيت وراء الحدود» و«مارس يحرق معداته»، ونشر مجموعات من الأقاصيص هي «طريق الشوك» و«أقاصيص أردنية» و«بطولات عربية» و«عائد إلى الميدان» و«حكايات جديدة» و«خَلّي السيف يقول» كما ترجم عن الإيطالية روايات «الفهد» و«فونتمارا» و«الرجال والرفض» و«أطفال وعجائز» وترجم كذلك «مختارت من الشعر الإيطالي». أما في السيرة، فقد ألف كتباً عن إيليا أبي ماضي وإلياس فرحات وكتاباً عنوانه «أدباء من الشرق والغرب» وكتيّباً عن الشاعر الإيطالي أيوجينيو مونتالي بمناسبة فوزه بجائزة نوبل، عدا سيرته الذاتية الموسومة «الشريط الأسود».

وفي الشعر أصدر أربعة دواوين هي «الأغاريد» و«أخي الإنسان» و«أناشيدي» و«أناشيد أخرى» أما كتب الدراسات الأدبية فمنها «أدب المهجر» و«مهجريات» و«نحو نقد أدبي معاصر» و«الحركة الشعرية في الضفة الشرقية» و«مع الكتب والناس والحياة» و«دراسات في الآداب الأجنبية» و«دراسات في الأدب الإيطالي» كما شارك في تأليف كتاب «ثقافتنا في خمسين عاماً». وله كتابان في الرحلات هما «في ربوع الأندلس» و«مذكرات بلغارية».

وكان عيسى الناعوري قد أنبأني بأنه سيهدي مكتبته الخاصة إلى مجمع اللغة العربية الأردني، أما مجموعة الرسائل الأدبية التي كان يحتفظ بها وهي آلاف مؤلّفة فلا أدري ما هو مصيرها، وخسارة أن تتعرّض للإهمال.

التقيت مرات بالناعوري خلال أكثر من ثلاثين عاماً من الصداقة الوثيقة، فكان في لقاءائه عفوياً عاطفياً، يُقبل عليك بقلب مفتوح وروح جياشة بالحبّ، تسبقه أريحيّاته، ويمدّ إليك صدراً قبل المصافحة باليدين. لم تترك السنون آثارها على وجهه البشوش على الرغم من الجراحات التي أجريت له، وبقي دائماً ممشوق القامة قوي العارضة شديد الثقة بنفسه ولكن دون تفاخر. صحب القلم كلَّ عمره، ونذر للثقافة كل أيامه، وأنشأ جسوراً من التفاهم بين الغرب والشرق، ولم تنسه قضايا الثقافة قضايا أمّته فشارك فيها شاعراً وأديباً وإنساناً.

❁ ❁ ❁

فارس نمر

في دار «المقتطف والمقطم» التي عملتُ فيها من عام ١٩٤٥ إلى أن أغلقت في نهاية عام ١٩٥٢ عرفتُ صاحبها الدكتور فارس نمر باشا، وكان الوحيد الباقي على قيد الحياة من مؤسسيها الثلاثة: نمر، ويعقوب صروف، وشاهين مكاريوس. وكان قراء الجريدة المسائية اليومية (المقطم) والمجلة العلمية الشهرية (المقتطف) يخاطبون أصحاب الدار في رسائلهم بتوجيهها إلى «حضرات الدكاترة أصحاب المقطم الأغرّ».

وعند بدء عملي في الدار، كان فارس نمر قد بلغ من العمر عتيّاً (٨٩ عاماً) وصار نهباً للأمراض، فقلّ مجيئه إلّا كل بضعة أيام، وكان مع ذلك يتابع من بيته كل كبيرة وصغيرة، وكان سكرتيره يحمل إليَّ منه رسائل يعلق فيها على محاولاتي التحريرية الأولى في الجريدة، أو كان يكتفي بتدوين تعليقاته على هامش الفصل المنشور، مصححاً ما فيه من سهو أو منبّهاً إلى خطأ شائع. وهكذا عرفت فارس نمر برسائله وتعليقاته قبل أن أعرفه بشخصه، وإن كنت في سعيي بين محافل القاهرة ألمحه بقامته القصيرة وجسمه البدين وشاربه الكثّ وطربوشه العتيد يتصدّر صفوف المستمعين إلى المحاضرات العامة، كما كنت أراه بين زملائه في مجمع القاهرة وفي يمينه بوق كبير كبوق الغراموفون يضعه على أذنه ليسمع ما يقوله المتحدثون والمناقشون حرصاً منه على ألّا يفوته شيء بسبب ضعف سمعه.

وكانت جريدة «المقطم» التي استأثرت بمعظم نشاطي، تصدر مساء كل يوم وفي صفحتها الأولى مقال الصدر، بينما بقية المقال تفترش الصفحات الداخلية. وكان يحرّر هذه الفصول خليل تابت باشا (وكان يكتب اسمه بالتاء لا بالثاء)، فهو رئيس تحرير الجريدة منذ عام ١٩٢٢ وإلى عام ١٩٤٥، وكانت الفصول تنشر بغير إمضاء، كما كان العرف السائد في ذلك الوقت. وعندما تخلى خليل تابت لابنه الأكبر كريم تابت باشا عن رياسة تحرير الجريدة اعتباراً من أول آذار/مارس

١٩٤٥، ظلّ يكتب فصوله الافتتاحية ويشرف على التحرير والإدارة إشرافاً عاماً.

على أن خلافاً حاداً شجر بعد ذلك بين خليل تابت ونجله كريم من ناحية وبين بقية أصحاب الجريدة وعلى رأسهم فارس نمر من ناحية أخرى، واستحال الخلاف إلى دعاوي أمام المحاكم طولب فيها بتصفية الدار وتوزيع الحصص بين أصحابها. وعينت المحكمة لجنة ثلاثية برئاسة فكري أباظة باشا نقيب الصحفيين مهمتها حصر أصول الدار والتزاماتها وتحديد أنصبة كل من المالكين، وهي أمور لم تكن تعني المحرّرين والعمال إلّا من حيث القلق على مستقبل الدار وبالتالي مستقبلهم هم. وبسبب هذا الخلاف توقف خليل تابت فجأة عن كتابة مقال الصدر اليومي، وكان بدقة عرضه للقضايا المحلية والعالمية والاقتصادية يكسب الجريدة ثقلاً خاصاً في الحياة العامة وبين قرائها، إذ كان «المقطم» يشتهر بتعليقاته في حين كانت صحف الصباح تُعنى بالأخبار في المقام الأول. وخشي فارس نمر أن تُضار الجريدة في توزيعها ومنزلتها بسبب غياب مقالات خليل تابت ـ وكان صحفياً من الطراز الأول بل والعالمي بمقاييس ذلك العهد ـ إذ إن احتجاب هذه الفصول يجرّد الجريدة من أهم خصائصها، فاستدعاني إلى مكتبه، وطلب منّي أن أشرع من اليوم التالي مباشرة في كتابة مقالات الصدر، قائلاً إنه تابع محاولاتي السابقة، ويراني أهلاً للنهوض بهذه المهمة. واستهولتُ الأمر، وقلت للدكتور نمر (وكان يؤثر أن يخاطب بهذا النعت دون مخاطبته بعبارة «سعادة الباشا»): لقد استشحمت ذا ورم! فأنت تطلب منّي ما لا طاقة لي بأدائه. فبيني وبين خليل باشا خمسون سنة كاملة من سني العمر والتجارب، فكيف تأمل أن أحلّ محلّه؟ فقال الدكتور نمر: هذا أمر وتكليف، وعليك تنفيذه من غدٍ، ولست أقبل أي اعتراض. ولم يكن أمامي إلّا أن أقبل هذا التحدّي الذي جاوز كل قدراتي. صحيح أنني كنت أكتب فصولاً ممهورة بإمضائي في الحين بعد الحين، ولكن دون تقيّد بالتزام يومي ثابت. ومن هنا عوّلت على أن أجرّب حظي في هذا السبيل، واحتشدت بكل قوى تفكيري وجهدي في تحبير مقالي الأول، ولم أجرؤ مع ذلك على نشره في الصفحة الأولى، واخترت له مكاناً مهجوراً في ذيل الصفحة الأخيرة، ومهرته باسمي الصريح حتى لا أظلم خليل تابت إذا ما توهم القرّاء أنه هو كاتب هذا الفصل. ومع الوقت، زالت الرهبة الأولى التي استولت عليّ، ولا سيما بعدما تأهبت لهذه المهمة الجديدة بمطالعة معظم الصحف الهامة

الإنكليزية والأمريكية والإفرنسية، كما كنت أترسّم خطوات خليل تابت الذي كان أول المشّجعين لي بعد مطالعته لهذه الفصول اليومية، وهو ما يشهد لهذا الرجل العظيم بقيم أخلاقية مُثلى.

أما فارس نمر، فقد أبدى استياءه لنشر هذه الفصول في الصفحة الأخيرة، وأمر بإخراجها إلى الصفحة الأولى، فتدرجت في الأمر، ونقلتها إلى صفحة وسطى، وأصبحت بعد ذلك تندرج في الصفحة الأولى وبانتظام وإلى أواسط تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٢ عندما أريد لي أن أكتب ما أنا زاهد فيه.

وهكذا صرتُ موضع ثقة فارس نمر، وكان إذا جاء إلى الجريدة، صعد إلى مكتبي في الطابق الأول متحاملاً على شيخوخته، ومتوكئاً على بعض أعوانه بدعوى أنه لا يريد أن يعطّلني عن أداء عملي فيما لو استدعاني إلى مكتبه في الطابق الأرضي! ولا أذكر أنه تدخّل في مقالاتي إلّا مرّة واحدة عندما رآني أشتط في الحملة على عاهل عربي بسبب مواقفه المستهجنة، فقال لي: لا أطلب منك أن تغيّر رأيك، ولكنني أنصحك بتخفيف حدّة عباراتك ليس إلّا.

ولد فارس نمر بن فارس أبي ناعسة في مدينة حاصبيا اللبنانية (وكانت في ذلك الوقت من أعمال سورية) في السادس من كانون الثاني/ يناير ١٨٥٦. وقد حدّد تاريخ مولده بأنه جاء قبل يوم واحد من عيدالميلاد لدى الشرقيين (٧ كانون الثاني/ يناير) وقبل حرب الستين بأربع سنين. وفي خضم المذابح التي صاحبت هذه الحرب قُتل أبوه، ولم يعثر حتّى على أشلائه. فصحبته والدته مع أخيه نقولا وأخته مريم إلى بيروت حيث أقاموا فترة من الوقت، ثم نزحوا إلى القدس في عام ١٨٦٣ لإلحاق الطفل فارس في مدرسة للراهبات في دير صغير هناك حيث كان يتعلّم اللغتين الإنكليزية والألمانية. وبعد خمس سنين عاد إلى بيروت، وعمل في مخزن تجاري ثم تركه لكي يتابع دراسته الثانوية ثم الجامعية، وكان في هذه الأثناء يقوم بالتدريس في مدرسة البنات البروسية العالية. وفي عام ١٨٧٤ تخرج فارس نمر من الكلية الإنجيلية السورية (جامعة بيروت الأميركية الآن) بدرجة بكالوريوس في العلوم، وعُيّن مساعداً لأستاذه وصاحب الفضل الأكبر عليه المستشرق الأمريكي كرنيليوس فانديك (١٨١٨ ـ ١٨٩٥) في المرصد الفلكي في بيروت. كما عين في الكلية الإنجيلية السورية مدرساً للرياضيات ومساعداً لأستاذ علم الهيئة (أي علم الفلك) حيث قضى في التدريس تسع سنين بين عامي ١٨٧٥ و١٨٨٤.

وفي الكلية التقى بيعقوب صروف (١٨٥٢ ـ ١٩٢٧) الذي سبقه إلى التخرّج وإلى العمل في التدريس، وأصبحا صديقين لا يفترقان. ويصف فارس نمر بداية عهده بصداقة يعقوب صرّوف وزمالته بقوله: «كنا في ساعات فراغنا كثيراً ما نجتمع معاً، فيفضي أحدنا إلى الآخر بما سمع وما رأى وعلم وتعلّم في يومه. فجعلنا نقضي ثلث اليوم في الراحة والنوم، ونخصّ ساعات معدودة بتناول الطعام والرياضة البدنية، وما بقي نقضيه في الاستعداد لواجباتنا التعليمية والدرس والتحصيل لزيادة معارفنا العلمية ولقضاء حاجاتنا الخصوصية بحيث يستغرق ذلك من ١٢ إلى ١٤ ساعة يومياً... ثم جعلنا نطالع ما يتصّل بالكلية من الجرائد والمجلات العلمية الأجنبية على اختلاف أنواعها... حتى صرنا نسابق الآخرين إلى اختطافها حين وصولها لقراءتها قبل أن يفتقدها سوانا. فكان تأثير ذلك فينا أن ولّد بنا الرغبة في إذاعة ما تعيه صدورنا، واشتدّ شوقنا إلى الانتظام في سلك الكتّاب والمؤلفين من قومنا، وإشراك غيرنا معنا من أبناء وطننا ممّا كنّا نحن نستفيد منه. وهذا ما حدا بنا إلى العزم على إنشاء جريدة علمية صناعية شبيهة من وجوه مختلفة بالجرائد الإفرنجية... وكاشفنا أساتذتنا وأصدقاءنا برغبتنا وشدّدوا عزائمنا، ولذلك اعتمدنا في أواخر سنة ١٨٧٥ على أن نصدر في أول الأمر جريدة شهرية قليلة الصفحات رخيصة قيمة الاشتراك ونعرضها على الجمهور على سبيل التجربة لمعرفة مقدار إقباله عليها ـ أقول نصدر «جريدة» ولا أقول «مجلة» لأن الكتّاب لم يكونوا قد اصطلحوا على كلمة «مجلة» للتمييز بينها وبين الجريدة في ذلك الحين. وسمّينا الجريدة «المقتطف» وأصدرنا العدد الأول في أيار/مايو ١٨٧٦ على سبيل المثال، وانتظرنا شهراً بلغ سرورنا فيه مبلغاً عظيماً لأننا وجدنا أن مثالنا وقع موقع القبول عند الجمهور فأقبلوا عليه إقبالاً فاق انتظارنا، فتوكلنا على الله في إصدار مجلتنا بانتظام».

ولعل من الطريف هنا أن نورد الموضوعات التي اشتمل عليها هذا العدد الأول ـ الذي طبع طبعتين لنفاد الطبعة الأولى ـ وهي: عمل الزجاج، وبحث فلكي عن القمر ووصف أراضيه وطبيعته، وآراء المتقدمين فيه، ومقالة عن المكرسكوب، وكلام عن علماء الهيئة عند العرب، ونبذة في اللغة الحميرية والقلم المسند، وأخرى في الصباغ الأحمر المعروف بدم العفريت، وتفصيل عن المطر وأسبابه، ونبذ علمية موجزة في حفظ اللحم والماء من الفساد، وفي

اختراع التلغراف وفي المغنطيس وفي الزلازل وسواها من الموضوعات.

كانت هذه المجلة مدعاة لخشية من جانب السلطان العثماني عبد الحميد، فهو لا يريد للشرق النائم أن يستيقظ نتيجةً لصدور هذه المجلة المستنيرة فيطالب بحريته، فبعث برسله إلى فارس نمر ويعقوب صرّوف يأمرهما بالكفّ عن إصدار المجلة بعدما كانت قد انتشرت شرقاً وغرباً وصارت معروفة في كل بلدٍ يقرأ العربية. فارتأى صاحباها الهجرة إلى الولايات المتحدة لاستئناف كفاحهما العلمي من هناك، وتوقّفا في القاهرة قبل أن يحزما حقائبهما للإبحار إلى نيويورك. فتناهت أخبار وصولهما إلى مصطفى رياض باشا (١٨٣٤ ـ ١٩١١) وزير المعارف المصرية الذي كان من قرّاء المجلة، بل كان من المستفيدين عملياً من موضوعاتها إذ ازدهرت مزارعه الخاصة بعد استخدامه السماد الذي تحدثت عنه المجلة، فاستدعاهما ورحّب باستئناف إصدارهما للمجلة من القاهرة.

وقام فارس نمر ويعقوب صروف، بعد استقرارهما في مصر، بإنشاء مطبعة كاملة للمقتطف ولطبع المطبوعات الخارجية التي ترد على المطبعة. ولكن حوادث ثورة أحمد عرابي باشا (١٨٤١ ـ ١٩١١) أوقعت مصر في أزمة مالية، فتوقّف سيل المطبوعات الخارجية اللازم لتشغيل المطبعة طوال الشهر. فضلاً عن الإيراد المالي لهذا النشاط التجاري ـ فأنشأ شريكهما الثالث شاهين مكاريوس (١٨٥٣ ـ ١٩١٠) مجلة «اللطائف» التي آلت بعده إلى ابنه اسكندر مكاريوس وجعلها مصوّرةً. ثم قرّر الشركاء أن الحلّ الوحيد لتشغيل المطبعة بدون توقف هو بإصدار جريدة يومية اختاروا لها اسم «المقطم» فصدرت في عام ١٨٨٩. وبصدورها قسّم الشركاء العمل بينهم، فاستقل يعقوب صروف بمجلة «المقتطف» واستقل فارس نمر بجريدة «المقطم» واستقل شاهين مكاريوس بالأمور الإدارية والمالية للدار. وهكذا ألفى فارس نمر نفسه في خضم التيارات السياسية التي جلبت عليه كثيراً من المتاعب، وليس أقلّها الحكم عليه بالإعدام غيابياً ثلاث مرّات.. وقد استمرّت جريدة «المقطم» في الصدور دون أن تتعرّض للمصادرة أو التعطيل إلى أن توقفت في منتصف تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٢، أي أنها عمرت ثلاثة وستين عاماً.

وقد سألت فارس نمر عن سرّ تسمية الجريدة بالمقطم فقال: لقد أردنا أن نقول للناس إن جريدة «الأهرام» وإن سبقت المقطم إلى الصدور، إلّا أن المقطم

هو الأصل. فمن حجارته بنيت الأهرام على أيدي الفراعنة.

وفي عام ١٨٩٠ دعت جامعة نيويورك فارس نمر ويعقوب صروف لزيارتها ومنحتهما درجة الدكتوراة الفخرية، فكانت المرة الأولى التي يمنح فيها هذا الشرف لعربيّين.

وقد منح فارس نمر رتبة الباشوية وعيّن عضواً في مجلس الشيوخ، واختير عضواً في مجمع فؤاد الأول للغة العربية عند تأسيسه في عام ١٩١٦، وعضواً مؤسساً في المجمع المصري للثقافة العلمية وانتخب رئيساً له، كما عين عضواً مراسلاً في المجمع العلمي العربي في دمشق.

وترجم عن الإنكليزية كتاب «مبادئ علم الميتورولوجيا أي الظواهر الجوية» كما ترجم مع زميله يعقوب صروف كتاب «سير الأبطال والقدماء العظماء».

وإلى جانب العدد اليومي من «المقطم» أصدر فارس نمر خلال الحرب العالمية الأولى ملاحق للجريدة انتشرت انتشاراً واسعاً لرغبة القراء في متابعة تطورات هذه الحرب. كما أصدر في السودان جريدة يومية باللغتين الإنكليزية والعربية هي جريدة «السودان» وكان يحرّرها خليل تابت قبل استدعائه إلى مصر لتحرير المقطم في عام ١٩٢٢.

تزوج فارس نمر من سيدة أجنبية، وأنجب منها ولداً هو ألبرت بك نمر الذي انصرف إلى الزراعة انصرافاً تاماً، وأربع بنات كانت ألمعهن كيتي نمر التي تزوجت من جورج أنطونيوس (١٨٩٢ ـ ١٩٤٢) مؤلف كتاب Arab Awakening المشهور (وقد ترجم إلى العربية مرتين، مرّة بقلم علي حيدر الركابي، ومرة بقلم الدكتورين إحسان عباس وناصر الدين الأسد). وكان لهذه السيدة الجليلة نشاط اجتماعي واسع في القدس أولاً ثم في بيروت التي انتقلت إليها بعد النكبة ثم في مصر. وهي قطعاً ليست بالصورة القبيحة التي صوّرها لها ناصر الدين النشاشيبي في مقال نشره بعد وفاتها بعنوان «نساء من الشرق ـ ترويض سماحة المفتي» في العدد رقم ٦١١ من مجلة «المستقبل» بتاريخ ٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٨، وكان ينبغي لقلم هذا الكاتب أن يعفّ عن الخوض بهذه الصورة المهينة في حياة سيّدة يعرفها كثيرون من المشتغلين بالحركة الوطنية. وقد رثتها جريدة «التيمس» اللندنية في عددها الصادر بتاريخ ٤ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٤ رثاءً عظيماً بعيد

وفاتها اطلّع عليه كاتب المقال واستشهد بقول الجريدة: «لقد ماتت السيدة التي قضت سنوات عمرها وهي تحاول أن تحفظ لفلسطين ذكرياتها واسمها ووهجها وقضيتها» وهو وصف كان خليقاً بأن يردع هذا الكاتب الفلسطيني عن الولوغ في سير «نساء الشرق» بهذا الأسلوب المزري.

ولقد طالما ألححت على فارس نمر في أن يدوّن مذكراته، بل رجوته أن يمليها عليّ مع اشتراط عدم نشرها إلّا في الوقت المناسب، ولكنه كان يقول لي إن التاريخ مليء بالزيف والأكاذيب، والتاريخ الذي عشته وعاصرته يختلف كل الاختلاف عن التاريخ الذي أطالعه. ولهذا أوثر أن أمضي دون أن أسجّل حرفاً، وحسبي أن الجريدة التي تولّيت أمرها من عام ١٨٨٩ إلى عام ١٩٢٢ قد حَوَتْ كل ما أردت أن أقوله. ثم استطرد قائلاً: لقد بلغت من العمر أرذله (إذ توفي عن ٩٥ عاماً، وقيل إن قلبه كان في جهة اليمين لا اليسار، وهو ما لم أجرؤ على استيضاحه منه) ولم يعد في وسعي إذا نشرتُ مذكراتي أن أردّ على ناقديها، ناهيكَ عن أنني لن أستطيع التعويل على ذاكرتي وحدها، ولا بدّ من الرجوع إلى مجموعات الجريدة لاستظهار مادتي، وهو ما لا قدرة لي عليه في هذه السن العالية.

ولأن فارس نمر قد تعرّض في حياته لحملات عنيفة بسبب تحريره للمقطم، فمن المستصوب أن أنقل ما سجله نمر بقلمه عن مشاعره إزاء هذه الحملات. قال في فصل له عنوانه «بعد ستين عاماً ـ ذكريات عهد الصبا» نشر في عدد أيار/ مايو ١٩٣٦ من مجلة «المقتطف»: «سبحان من قسم الحظوظ، فقد قُسم لي أن أحمل أعباء هذه الجريدة اليومية، وأفقد راحتي ولذّتي وما تميل إليه فطرتي من الاشتغال بالعلم... ولا أتعرض هنا لذكر شيء ممّا لقيت من جراء الاشتغال بالسياسة وخوض معاركها وتفصيل ذلك على مبدأ الاشتغال بالعلم في قول الصدق والانتصار للحق، لا يثنيني عنه إرهاب بوعيد، ولا وعود بمال ورتب ونياشين، وما قاسيت من المتاعب التي كثيراً ما غادرتني أقضي الليالي وأنا أتقلّب على فراش الهموم والغموم من تعاقب الاضطهاد تلو الاضطهاد بسبب الدسائس التي تحاك لنا في الظلام وأنا أكتم خبرها في أعماق صدري... ولذلك بلغ منّي أني كنت أتلقى الحكم عليّ بالإعدام من الناقمين عليّ بسبب سياسة المقطم وأنا صامت حتى ألفتُ الصبر على المكايد، ولم أعد أعبأ بتلك

الأحكام بعدما تكررت عليَّ ثلاثاً بالإعدام، وهي لا تزال محفوظة بين أوراقي ليقرأها من ينتفع بها بعدي، ويترحّم على مصدريها، كما أترحم أنا عليهم اليوم بعدما بلغت من العمر عتياً، ولم يبق أحدٌ منهم حيّاً. فبعضهم مات حتف أنفه، وبعضهم مات غيلةً أو بإنفاذ حكم الإعدام فيه... وما دمت على قيد الحياة فأرجو من فضل ربي أن يمنّ عليّ بالصحة لأعود إلى التحرير في المقتطف في أواخر عمري، اجتناءً للذة التي كنت أتمتع بها في أوائل أمري». ولعلّ من المتاعب التي شكا منها فارس نمر الاعتداءات التي تعرضت لها دار المقطم والمقتطف من المتظاهرين خلال الثورة المصرية لعام ١٩١٩ وما بعدها.

وقدقامت غادة يوسف الخوري بجمع خطب الاحتفالات السنوية للكلية السورية الإنجيلية ومن جملتها خطبة لفارس نمر عنوانها «العلم يعزّز الدعائم الوطنية ويثقف العقول ويهذب الأخلاق» (انظر جريدة «الديار اللبنانية، عدد ٥ حزيران/يونيو ١٩٩٤). وكان ممّا قاله في هذه الخطبة: «إن العلوم ترقّي العقول وترقي البلاد... أتعجب بعد هذا أن لم يقم بيننا مخترع على توالي السنين، وقد كان عدد المخترعات عند الإنكليز خمسة آلاف أو أكثر في سنة ١٨٧٧ وعددها عند الأميركيين ضعفا ذلك... لا تقولنّ عادت إلينا معارف العباسيين ومكاتب الفاطميين وعلوم الأندلسيين. لا يعود العلم حتّى نرى مجامعنا العلمية تبعث الوفود لجمع المعارف، وحتّى يرحل رجالنا في جمع الآثار والأخبار، وحتّى تُشاد عندنا المراصد، وحتى ينفق ذوو السعة على إقامة المعامل، وحتى تقوم في البلاد فئة تنظر في كل اكتشاف واختراع وتصنيف، فتكافئ من يسهر آناء الليل وأطراف النهار ليرقّي الهيئة الاجتماعية، ويعزّز الدعائم الوطنية، ويثقّف العقول، ويهذب الأخلاق. ولا يعود العلم حتى نعرف أن غاية العلم معرفة الحق، وفخر العلماء اجتلاء الحقائق. هاتيك أيام تصدح فيها بلابل العلم في الوطن».

وفي الخامس عشر من كانون الأول/ديسمبر ١٩٥١ اتصلت بي كيتي أنطونيوس نمر وقالت إن أباها يريد أن يراني. فتوجهت إلى داره في ضاحية المعادي حيث نبهتني كيتي إلى ضرورة عدم إطالة الحديث معه لأنه يمرّ بآخر لحظات عمره. وفي غرفة نومه ألفيته يرتدي جلباباً أبيض وينام في فراشه، فأجلسني إلى جواره، وقال لي بكل يقظة فكر: «اسمع يا بني. إنني مُوَلٍّ، فقد انتهى عمري، والمستقبل لك. فدعني أنصحك بأن تتوخى الاعتدال في كل ما

تكتب، وأن تقلب الرأي في كل موضوع تتناوله حتى تكون على بينة من جميع جوانبه، وأن تستطلع آراء كل فريق إذا ما عالجت قضية يتنازعها فريقان، وثابر على احترام قلمك حتى لا يخوض في سير الناس، واستمسك دائماً بالمثل العليا التي درستها في جامعتك، وثابر على الاطلاع والقراءة». فشكرته على نصائحه ودعوت له بالشفاء، ثم انصرفت.

وفي صباح اليوم التالي أنبأتني كريمته بأنه راح في غيبوبة بمجرّد أن ودّعته ولم يفق منها حتى أسلم الروح في فجر التاسع عشر من كانون الأول/ديسمبر ١٩٥١. فأصدرنا «المقطم» مجللاً بالسواد وفي صدره صورة صاحبه الراحل، ونعيته في مقالين، واحد باسم الجريدة والثاني باسمي. وشيّعنا جنازته في يوم عاصف شديد الرياح والأمطار.

وكان من تقاليد مجمع القاهرة أن يقيم حفل تأبين لأعضائه الراحلين يتوافق مع مرور أربعين يوماً أو نحوها على رحيلهم، فأقام المجمع حفلاً في قاعة الجمعية الجغرافية الملكية في يوم ٢٦ كانون الثاني/يناير ١٩٥٢ ـ وهو اليوم الذي احترقت فيه القاهرة وكان القتام يملأ أجواءها بسبب ألسنة النيران المتصاعدة ـ وأبّنه الدكتور أحمد أمين نيابة عن المجمع بكلمة قال فيها: «فحياته العلمية من غير شكّ حياة مملوءة بالجدّ والصدق والإخلاص للمبدأ. وقد اختير عضواً بالمجمع اللغوي في مصر منذ أول إنشائه. وحياته فيه تستدعي الإعجاب: محافظة على الحضور في الموعد، واشتراك في الأعمال. وما أعجبه إذ كنت تراه في المجمع. وقد بلغ نحو المئة. يدخل فيجلس في مكانه المعتاد، ويضع النفير على أذنه ليسمع، حتّى لا يفوته منه كلمة، ويضع المنظار المكبر على عينيه. ثم هو يدقّق في كل كلمة يقرؤها أو يسمعها. وكانت له في المجمع مشاركات في لجان الرياضيات والعلوم الطبيعية والكيميائية وفي لجنة الأصول ولجنة اللهجات ونشر النصوص».

❁ ❁ ❁

الشاعرة فدوى طوقان ورحلاتها الجبلية الثلاث:

الصعبة والأصعب والمنسية

الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان هي ـ دون منازع ـ شاعرة متفوّقة اكتملت لها أدواتها الشعرية من موهبةٍ وإلهام ودراسة ومثابرة على مدى سنوات طويلة قرّرت لها منزلةً رفيعةً في دنيا الشعر العربي بدواوينها الستة التي صدرت منذ عام ١٩٥٢ وحتى الآن وهي: «وحدي مع الأيام» و«وجدتها» و«أعطنا حباً» و«على قمة الدنيا وحيداً» و«أمام الباب المغلق» و«الليل والفرسان» و«تموز والشيء الآخر»، كما صدر لها كتاب نثري عن شقيقها الشاعر إبراهيم طوقان (١٩٠٥ ـ ١٩٤١) عنوانه «أخي إبراهيم» وكذلك سيرتها الذاتية في جزءين عنوان أولهما «رحلة جبلية، رحلة صعبة» وعنوان الثاني «الرحلة الأصعب». ولأن سيرتها الذاتية اعتمدت على الذاكرة وعلى الأوراق المتاحة لها، فقد فاتتها أشياء لها أهميتها من الناحية الأدبية، فقام باستدراكها الأديب الأردني الدكتور يوسف بكار في كتابٍ أسماه «الرحلة المنسية ـ فدوى طوقان وطفولتها الإبداعية: دراسة ونصوص». ونتناول في هذه السطور هذه الرحلات الثلاث التي تتكامل بفضلها صورةُ الشاعرة فدوى طوقان في جميع مراحل حياتها.

الرحلة الصعبة

ولدت فدوى طوقان في مدينة السلط[1] بفلسطين وذلك ـ حسب اعترافها ـ بعد محاولات يائسة من أمها لإجهاض نفسها عندما كانت تحمل فيها. فقد رزقت قبلها بخمسة من الذكور وأنثى وكانت فدوى السابعة في ترتيب الأشقاء، ورزقت بعدها بذكر وأنثيْن فاكتمل عددهم عشرة. وعندما كبرت فدوى سألت أمها عن تاريخ مولدها فأجابتها بقولها: «كنت يومها أطهي (عكوب ـ وهو طعام

---

(١) مدينة السلط تقع في شرقي الأدرن. (الناشر).

فلسطيني)، وهذه هي شهادة ميلادك الوحيدة التي أحملها! لقد أنسيت الشهر والسنة، ولا أذكر إلّا أنني بدأت أشعر بآلام المخاض وأنا أنظف أكواز العكوب من أشواكها»! ثم استدركت قائلة: «أنا أدلّك على مصدرٍ موثوق حيث يمكن التيقن من عام ميلادك. فحين استشهد ابن عمي كامل عسقلان كنت في الشهر السابع من الحمل». وتقول فدوى «لم يبق إلّا أن أستخرج شهادة ميلادي من شاهد قبر! واتفقنا أن تصحبني أمي في اليوم التالي إلى المقبرة الشرقية حيث يرقد هناك ابن عمها الشهيد كامل عسقلان». ويؤكّد الدكتور يوسف بكار أن كامل عسقلان استشهد في عام ١٩١٧ وهو التاريخ الأرجح لميلاد الشاعرة.

استشعرت فدوى طوقان منذ طفولتها المبكرة أنها شخص غير مرغوب فيه في الأسرة، فكانت تعامل بجفاء شديد من والديها بحكم المجتمع المتزمّت الذي كانت مدينة نابلس تعيش فيه. ولئن سمح لفدوى بأن تذهب إلى مدرسة للبنات حيث تعلّقت ببعض زميلاتها وبإحدى مدرّساتها، ووجدت في صحبتهن انفراجة روحية من حالة الانقباض التي كانت تستولي عليها في سجن البيت، فإن سعادتها لم تدم طويلاً، حيث قرر واحدٌ من أشقّائها إبقاءها في المنزل ومنعها من الخروج سواء إلى المدرسة أو إلى أي مكان آخر، اللهمّ إلّا إذا كانت في صحبة سيدات الأسرة أو صديقات موثوق بهن. أما سبب هذه العقوبة الصارمة فهو أن غلاماً في السادسة عشرة من عمره لمح فدوى وهي في طريقها إلى بيت خالتها، فجري نحوها وقدّم لها عود فُلّ. ولكن كانت هناك أعين تتلصص عليها، وهذه قامت بإبلاغ الواقعة إلى شقيقها الشديد التزمت. وتقول فدوى: إنه «دخل عليّ كزوبعة هائجة، وقلت الصدق لأنجو من اللغة الوحيدة التي كان يخاطب بها الآخرين: العنف والضرب بقبضتين حديديتيْن، وكان يتمتع بقوة بدنية كبيرة لفرط ممارسته رياضة حمل الأثقال. أصدر حكم القاضي بالإقامة الجبرية في البيت حتّى يوم مماتي، كما هددني بالقتل إذا أنا تخطيت عتبة المنزل. وخرج من الدار لتأديب الغلام». فقبعت فدوى داخل الحدود الجغرافية التي حدّدها لها شقيقها وهي «ذاهلة مبخوعة لا تكاد تصدّق ما حدث».

ومن مظاهر الاستبداد العائلي التي تعرضت لها الشاعرة أن ابن عمّتها الكبير رآها وهي ترتدي ثوباً جديداً ذات يوم، فقام بتمزيقه على الرغم من أن

الثوب لم يكن يفتقر إلى الحشمة بحال من الأحوال، ولكنّ عيبه الوحيد أنه كان يكسبها مظهراً جميلاً.

وتقول فدوى: «رحت كلّما ازدادت تعاستي من القهر والكبت ازداد شعوراً بفرديّتي وذاتيتي... وكان شعوري بالاغتراب يتكثّف، وبدأ إحساسي باستلاب أحلامي وأمانيَّ وتطلعاتي الطموحة يتّخذ صفةً مرضية».

وكان طبيعياً أن تفكر فدوى في الخلاص من هذا السجن، ولكن كيف؟ لقد فكرت في الانتحار باعتباره الشيء الوحيد الذي تستطيع أن تمارسه من خلال حريتها الشخصية المستلبة. كانت تريد أن تعبّر عن تمردّها على الأهل بالانتحار، فهو الوسيلة الوحيدة المتاحة لها للانتقام من ظلم الأهل. فكانت تدخل المطبخ وبيدها علبة ثقاب وأمامها صفيحة الكاز، ولكنّها كانت تخاف من الألم الجسماني الذي لا تطيق احتماله. وكثيراً ما خطر لها أن تتناول السمّ، ولكن مَنْ يأتيها به؟ ناهيك عن كونه يسبب آلاماً عنيفة قبل الموت. ثم إن فدوى كانت تشفق على أمها من الأحزان المترتبة على الانتحار.

ولكن هذا التردّد بين التمسك بالحياة والتخلّص منها زايلها عندما فقدت كل أمل في الخلاص من سجن البيت. ولم تر مندوحةً من ابتلاع محتويات زجاجة الأسبرين بكاملها فأنقذها من الموت المحقّق طبيب الأسرة.

وإذا كان المحيطون بفدوى طوقان قد أكرهوها على العزلة ـ «وأهلي هم سجني الذي أريد أن أفلت من أبوابه المغلقة» بحسب تعبيرها ـ فقد التمست السلوى في المطالعة، واستهواها الشعر بصورة خاصة، ولا سيما عندما وجدت من شقيقها الشاعر إبراهيم (١٩٠٥ ـ ١٩٤١) تشجيعاً لها وعطفاً عليها وتفهّماً لحالتها، وأصبح إبراهيم ملاذها الوحيد من الهموم المتعاظمة من حولها حيث أصبح إبراهيم ـ بحسب تعبيرها ـ «المصلح النفسي الذي أنقذني من الانهيارات الداخلية».

كانت فدوى قد وصلت إلى سن البلوغ، وهي تصف هذه المرحلة من حياتها بقولها: «لفت نظري تفتّح جسدي. خفت وخجلت، وأربكني نموّ الصدر الذي أصبح الآن ملحوظاً. فكنت أعمل على إخفاء هذا النموّ. ورحت أراقب هذا الأمر كلّه بحياء شديد كما لو كان ارتكاب ذنب مخجل أستحق العقاب من

أجله... ولدى وصولي إلى تلك المرحلة من العمر لم أكن أعرف شيئاً عن الحبّ على الإطلاق، فلم يكن هذا الموضوع ممّا يتناوله أفراد الأسرة على مسمع منّا نحن الصغار».

ولكن، عندما هلّ الربيع، عرفت فدوى هذا الشيء المسمّى حباً، والذي «ظلّ يشرنق حول وجودي إلى ما لا نهاية. هنا جاء جواب السؤال الذي حرّمته عليّ أمّي، جاءني محمولاً على زهرة فل عبقت رائحتها وعلقت بجدران قلبي، وصرت أستحضر ذكرى تلك الحادثة عشرات من الأعوام» وعندما بدأت فدوى تنشر شعرها في مجلة «الرسالة» لمحررها أحمد حسن الزيات (١٨٨٥ ـ ١٩٦٨) تمنّت لو أن الغلام الذي أهداها عود فلّ قرأ هذا الشعر وأدرك أن فتاته شاعرة مشهورة.

وعلى الرغم من حياة الجفاف التي كانت فدوى تعيشها حيث كانت «أنوثتي تئن كالحيوان الجريح في قفصه، لا تجد لها متنفساً مهما كان نوعه» ـ حسب تعبيرها ـ فإن عاطفة الحب لم تغادر خيالها وواقعها، وما أبلغ وصفها للحالة الوجدانية التي أحيت موات عاطفتها حيث قالت: «كانت مراهقتي العاطفية حادّة مشتعلة. نفس مكبوتة تتفتح لأول كلمة حب تأتيها على صفحة رسالة. حب بالمراسلة. كنت أقع في هذا اللون من الحب الخيالي وأغوص فيه.. كنت جائعة إلى شيء غير موجود. ضائعة. وحيدة. لا أملك شيئاً سوى هذا الخيال المشتعل... ظل قلبي حديقةً للحبّ لا تذبل أشجارها أبداً... في لحظات الحب يحسّ الإنسان بإنسانيته تتكثف، يخرج من القطب الجليدي المعزول ويرحل إلى الوهج والإشراق».

وكان بعض الأدباء المصريين ـ ومنهم أنور المعدّاوي (١٩٢٠ ـ ١٩٦٥) والشاعر إبراهيم محمد نجا (ت١٩٧٠) (ولم تذكرهما فدوى بالاسم) يراسلون الشاعرة ويبثّونها لواعجهم ويوقظون مشاعرها دون أن تتسنّى لهم فرصة الالتقاء بها. فلّما تهيأت لفدوى فرصةٌ لزيارة مصر، التقت بهؤلاء الذين كانوا يراسلونها، وكان اللقاء عادياً اقتصر على المصافحة الباردة بلا أي مشاعر. لقد قتل الزمن حرارة العاطفة، وانطوت صفحة دون أن تذرف عليها دمعة.

أمّا رحلة فدوى مع الشعر فقد بدأت في المدرسة عندما كانت تستظهر

المقطوعات الشعرية المقرّرة ضمن المنهج، ثم عندما جاءها شقيقها إبراهيم ذات يوم بقصيدة أسمعها إيّاها، وشرح لها مفرداتها ومعانيها، وطلب منها أن تستظهرها على أن تلقيها عليه غيْباً في المساء. وكان هذا الامتحان سهلاً نجحت فيه فدوى، إذْ ألقت الأبيات من الذاكرة دون أن تلحن أو تتعثّر.

وعندما وقعت فدوى على قصيدة للشاعرة العراقية رباب الكاظمي، وعمرها يقارب عمر فدوى لأنها من مواليد عام ١٩١٨، أعجبت بالقصيدة أيّما إعجاب، فتفجّرت موهبتها الشعرية للمرة الأولى، ووجهت أبياتاً إلى رباب ختمتها بقولها:

يا أَيُّها الشُّعَرَاءُ لا تَقِفُوا أمامَ الشَّاعِرَاتِ

بعد محاولات في نظم الشعر، أزمعت فدوى طوقان أمراً تكتمته عن شقيقها إبراهيم، فنظمت قصيدة بعثت بها بالبريد إلى مجلة لبنانية اسمها «الأمالي» كان يصدرها الدكتور عمر فروّخ (١٩٠٦ ـ ١٩٨٧) بتوقيع «فدوى» دون بقية اسمها، فاحتفت المجلة بها ونشرتها، مما شجع فدوى على إرسال قصيدة ثانية إلى المجلة بتوقيع «دنانير» فلقيت إعجاباً شديداً من أديبيْن كبيْرين هما خليل السكاكيني (١٨٧٨ ـ ١٩٥٣) وأبي سلمى عبد الكريم الكرمي (١٩٠٩ ـ ١٩٨٠).

بعدما اكتشفا أن صاحبة هذا الشعر هي فدوى طوقان، أصبح الطريق ممهّداً أمام فدوى، فقررت النشر في مجال أوسع، واختارت مجلة «الرسالة» القاهرية لنشر قصائدها لأنها كانت مجلة واسعة الانتشار في العالم العربي، كما أن النشر فيها كان يعتبر شهادةً على تميّز الكاتب أو الشاعر. فرحّب محرّرها أحمد حسن الزيات (١٨٨٥ ـ ١٩٦٨) بقصائد فدوى، وأصبح اسمها يندرج على غلاف المجلة بين أسماء كبار الأدباء مثل عباس محمود العقاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤) وعبد الوهاب عزام (١٨٨٤ ـ ١٩٥٩) وغيرهما، وكبار الشعراء كعلي محمود طه (١٩٠٢ ـ ١٩٤٩) ومحمود حسن إسماعيل (١٩١٠ ـ ١٩٧٧) وغيرهما. وبلغ من إعجاب علي محمود طه (شاعر الجندول) بشعر فدوى طوقان أنه أهداها ديوانه «ليالي الملاح التائه» مطرزاً بعبارات تقدير كريمة، وبادأها بالمراسلة ـ فاستجابت الشاعرة لهذه اللفتة من شاعر كبير، وأخذت تكاتبه بانتظام. ولكن عين الأهل الساهرة لم ترض عن هذه المراسلات، فأمرت فدوى بالكفّ عنها، ولم تكتف بذلك، بل مزقت الصفحة التي تحمل عبارة الإهداء من ديوان علي محمود طه!

وحاولت فدوى أن تشرح موقفها للشاعر، ولكنّها لم تتمكن، فمات وهو لا يعرف سبب الجفوة التي حدثت بينه وبين الشاعرة.

وفي عام ١٩٥٢ أجمعت فدوى شجاعتها، وقررت نشر ديوانها الأول «وحدي مع الأيام» في مصر، فاستقبله النقّاد استقبالاً طيّباً، مما شجع فدوى على المضي في الطريق الذي اختطته لنفسها، وهو طريق الشعر الذي تبثه أنينها وآمالها ورؤاها وأمنيات قلبها. وعندما رآها والدها تقتصر على الشعر الرومانسي دون أن تخرج من قوقعته إلى الشعر الحماسي، عاتبها على مسلكها، ورغب إليها في أن تتحوّل إلى الشعر السياسي الذي يخدم قضية بلادها، ولكنّها قالت له إنها كانت دائماً بمنأى عن الحياة السياسية، فكيف يتأتّى لها أن تنفعل بأحداثٍ لم تكن لها بها أي صلة. ثم إن بعض المتشككيّن في شاعرية فدوى كانوا يعتقدون أن أخاها الشاعر إبراهيم هو الذي ينظم لها القصائد فتوقّعها باسمها، فلما مات إبراهيم في عام ١٩٤١ واستمرّت الشاعرة تطلع على الناس بقصائدها، أدرك المتشككون أن فدوى لم تكن تختبيء وراء شبح إبراهيم. ولكن الشاعرة لم تخرج تماماً من القمقم القديم ومن حياة الحريم إلّا عندما زارت إنجلترة في عام ١٩٦٢ تلبية لدعوة واحد من أبناء عمومتها كان يدرس في أكسفورد. وهناك التحقت ببعض المعاهد رغبةً في إتقان اللغة الإنجليزية، وأتيح لها في عطلات نهاية الأسبوع أن تزور المتاحف والمكتبات والآثار، وأن تتريّض في الريف الإنجليزي. والمهم أنها أصبحت سيدة نفسها ليس لأحدٍ عليها سلطان. وقد أسهبت فدوى في وصف حياتها في إنجلترة، وتحدثت بعاطفة قوية عن زميل لها رمزت له بالحرفين الأولين من اسمه A.G فهو الذي رافقها في زيارات المتاحف وفي مشاهدة معالم لندن ومتنزهاتها وقصورها. وكم كانت فدوى تتمنى لو استطالت إقامتها في بريطانية، لولا أن الأحزان كانت تطاردها بما يشبه القدر المحتوم. ذلك أنها تلقت من أسرتها برقية تنعى شقيقها الأصغر الدكتوره نمر طوقان الذي لقي مصرعه مع المليونير اللبناني إميل البستاني في حادث سقوط طائرة البستاني الخاصة بُعيد مغادرتها مطار بيروت في عام ١٩٦٣. وكان الدكتور نمر - وهو طبيب يعمل في جامعة بيروت الأميركية - هو الشقيق المفضل لفدوى بعد وفاة شقيقها إبراهيم. فحزنت عليه أشد الحزن، وعجّلت بالعودة إلى نابلس دون أن تودّع زميلها .A.G.

لقد كانت هذه الرحلة بحق رحلة جبلية صعبة أبدعت فدوى طوقان في وصف تفاصيلها بصدق وأمانة.

الرحلة الأصعب

وإذا كانت الشاعرة قد خصّت الرحلة الصعبة بسيرتها الشخصية وأطوار حياتها منذ ولادتها وحتى استقام عودها، وكان تركيزها الأكبر على الجوانب الذاتية الخالصة من سيرتها، فقد وقفت الرحلة الأصعب على معاناتها في وطنٍ مغتصب وبين قوم إمّا أصبحوا شهداء أو مرشحيّن للشهادة. ولم يكن في وسع الشاعرة أن تعيش بمعزلٍ عن أحداث وطنها، فألقت بنفسها في أتون السياسة، وشغلتها الأحداث المدلهمة عن قضاياها الذاتية. وجاء شعرها في هذه الرحلة معبّراً عن انفعالاتها الوطنية إزاء الأحداث التي ألمّت بأرض الآباء والأجداد. بل لقد وقفت ديواناً كاملاً على الشهيد وائل زعيتر الذي استشهد في عام ١٩٧٢ وهو نجل المترجم الفلسطيني الكبير عادل زعيتر (١٨٩٧ ـ ١٩٥٧).

وهي تصف التحوّل الذي طرأ على حياتها من الذاتية المطلقة إلى المشاعر الجَمْعِيَة بقولها:

«إنها لضرورة قصوى في هذا الزمن التائه أن يتحصن الإنسان العربي بوعي سياسي وعقائدي يحميه من الضياع، وعي تتأكد فيه هويته، ويتكثف شعوره بالانتماء، ومن المؤكد أن أجدر من يتحصن بهذا الوعي السياسي العقائدي هم أصحاب القلم الذين ينطلقون في أداء دورهم النضالي من جبهة الفن والفكر والشعر. فلا بدّ لهؤلاء من اتخاذ موقفٍ من الحياة، وموقع ينطلق منه سلوكهم وأفكارهم وأعمالهم الأدبية. فمثل هذا الموقع ومثل هذا الموقف يضيئان لهم الطريق ويمنحانهم عناصر رؤياهم، ومن خلالهما تنبثق مضامين إنجازاتهم الفكرية والفنية والأدبية».

وبلغ من إنسانية فدوى طوقان أنها باتت تشعر بأنها أم لكل أطفال العالم الذين ولدوا والذين لم يولدوا بعد، وأنها على استعداد دائماً للموت من أجل إنقاذ طفل أياً كان، هذا على الرغم من أنه ليس لها من صُلبها أي أبناء.

وتحدثت الشاعرة في هذا الجزء من سيرتها الذاتية عن دورها في الحياة العامّة ولقائها برجال السياسة وممثلي الصحف وتعرّضها لحملات بسبب قصائدها

التي كانت تلهب المشاعر. وفي النهوض بدورها النضالي قامت بتهريب المطلوبين من الغاصبين، معرّضة نفسها وحياتها للتنكيل بها في حالة اكتشاف مغامرة إيواء مطاردين. وتحدّثت عن معاناة المرأة بسبب الاحتلال، وعن الإذلال الذي تعرضت له وهي واقفة على جسر اللنبي تنتظر السماح لها بالعبور ممّا ألهمها قصيدةً تمنت فيها أن تلتهم أكباد مَنْ أذلّوها، فلم تسلم بعد ذلك من الذين كانوا يسخرون منها بقولهم إنها تشتهي «صحن كبدة»! وبأنها من أكلة لحوم البشر في القرن العشرين!.

وعلى درب النضال التقت الشاعرة فدوى طوقان بزملائها الشعراء محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد وكذلك بالقاص إميل حبيبي.

والرحلة الأصعب هي رحلة الشاعرة بين الخراب الذي حلّ بالمدن، والترويع الذي أُنزل بالناس، والسجون التي اكتظت بنزلائها، والفاتكات التي تحصد الأرواح عشوائياً، والدماء التي سالت والعائلات التي تمزّق شملها والأطفال الذين يتعرضون للأهوال. وتقول فدوى: «إن الأطفال هم نقطة الضعف المركزية عندي. حبّي لهم يبلغ حدّ الوجع... أولئك هم أحباب الله، فهل يتخلى عن حمايتهم؟ كيف السبيل إلى حماية كل الأطفال من معاناة الخوف والجوع والعطش وأهوال الحرب ومآسيها؟ كم يعوزني الإيمان. وكم أنا بحاجة إليه في هذا الوقت العصيب! يا ألله، إني أفزع إليك لأسألك الرحمة بأحبابك».

في فصول متتالية صوّرت الشاعرة الجوانب الإنسانية والخلقية والسياسية للأزمة الخانقة التي ابتليت بها بلادها دون أن تتخلّى في هذا السرد المكثّف عن أسلوبها الأدبي وشاعريتها العفوية وقدرتها الفائقة على استخدام سلاحها الوحيد في معركة الوطن وهو سلاح الكلمة المعبّرة والقصيدة المتفجرة. وما أكبر المفارقة بين فدوى القديمة المنعزلة عن الناس وفدوى الخائضة حلبات النضال.

الرحلة المنسية

رغبةً في استكمال الصورة الأمينة التي رسمتها فدوى طوقان لنفسها في سيرتها الذاتية ذات الجزءين، قام الأديب الأردني الدكتور يوسف بكار باستقصاء ما فات الشاعرةَ تسجيله عن بواكير حياتها الأدبية، فأصدر كتاب «الرحلة المنسية: فدوى طوقان وطفولتها الإبداعية» باعتباره يضمّ الرحلة المنسية التي

سقطت أخبارها من ذاكرة الشاعرة وهي تدوّن سيرة حياتها. وفي هذا الكتاب استقصى الدكتور بكّار الطفولة الشعرية والطفولة النثرية لفدوى فمنذ ما تفتحت موهبتها الشعرية في عام ١٩٢٩ أو عام ١٩٣٠، ومنذ ما عالجت النثر في كتاباتها اعتباراً من عام ١٩٣٩. وإذا كان المعني اللغوي «للطفولة» ينصرف إلى الفترة السابقة على الصبا، فإن المعنى المجازي للطفولة الذي أراده الباحث هو البدايات الأولى للرحلة الأدبية للشاعرة.

وكان لا بدّ للدكتور بكار من الرجوع إلى المجلات القديمة التي نشرت فيها آثار فدوى طوقان مثل «الأمالي» و«مرآة الشرق» وجريدة «فلسطين» ومجلة «الرسالة» المصرية، كما أن بعض المخضرمين من الراصدين لتراث فدوى أمدّوا الدكتور بكار بما كان في حوزتهم من هذه الآثار المبكرة، ومنها ما لم يسبق نشره أو ما أغفلته الشاعرة في دواوينها المنشورة، أو ما أدخلت عليه الشاعرة تنقيحات عند ضمّه إلى دواوينها.

والملاحظة العامة على بواكير فدوى تُنبيء بأنها لم تمرّ فعلاً بمرحلة الطفولة الشعرية أو النثرية، وإنما طالعت الناس منذ بداياتها بشعر صقيل ونثر محبوك، وكان نضجها هو جواز مرورها إلى النشر في المجلات الرصينة، وهو ما يُعزى إلى أن الشاعرة مهّدت لخروجها إلى النور بقراءات موسّعة في كتب الأدب العربي وفي دواوين الشعراء حتّى دانت لها كل إمكانياتها، واقتحمت المجال بكفاءة مقتدرة. ومع ذلك، فإن الشاعرة ـ وهي أعرف الناس بحدودها وبالبيئة الصارمة المحيطة بها ـ استصوبت أن تتخفّى وراء أسماء مستعارة مثل «دنانير» و«المطوقة» أو الاقتصار على اسم فدوى دون لقب الأسرة. وخشية أن تُظن بها الظنون من أصحاب النيّات السيئة، حرصت على أن تشير إلى أن دنانير التي تتستّر وراء اسمها كانت «شريفة عفيفة».

وقد حرص الدكتور بكار ـ وهو باحث أكاديمي مرموق ـ عند إثبات النصوص الشعرية والنثرية المجهولة لفدوى على أن يثبت البحر الشعري الذي نظمت فيه القصيدة، وعلى أن يسجّل في هوامشه الواسعة ملاحظات كاشفة عن ظروف نظم القصيدة أو كتابة المقال النثري، وأن يعرّف بأسماء الأعلام الواردة في ثناياها، وأن يشرح الألفاظ المستخدمة في تضاعيفها، والأهم من ذلك أنه نشر النصوص وفقاً لتسلسلها الزمني مع تحديد سنة النظم أو الكتابة حتى يساعد

القارئ على متابعة التطور الأدبي والفكري والعاطفي للشاعرة.

وحسب القارئ أن يعرف أن القصائد المجهولة المندرجة في «الرحلة المنسية» قد بلغ عددها ثلاثين قصيدة، وأن المقالات المنشورة في الصحف الأدبية والتي لم تجمع في كتاب هي ثماني مقالات عدّا.

ثم إن الباحث الدكتور بكّار قد استصوب ألّا يفاجئ فدوى بنشر كتابه خشية أن تكون لديها تحفظات عليه، فتوخّى إطلاعها على برنامجه في إعداد بحثه، وقامت هي نفسها بتزويده ببعض ما كان ينقصه من شعر البدايات التي كانت محجوبة لديها.

وفي اعتقادي إن الرحلات الجبلية الثلاث لفدوى طوقان تعدّ عملاً فريداً في الأدب العربي بما تميّزت به من صدق الرواية وصراحة المكاشفة وبلاغة التعبير عن خلجات النفس دون ادّعاء أو تفاخر أو ابتذال في الحديث عن النفس. وصفوة ما يقال عن هذا العمل الأدبي أنه عمل مُشبع للروح والوجدان، فضلاً عن أنه تسجيل موضوعي لفترة من التاريخ الاجتماعي والوطني عاشت الشاعرة في بؤرتها، وذاقت حلوها ومرّها، وأضاءت للباحثين جوانب إنسانية تُستخلص من ضجيج الحياة وعجيجها في عصرٍ حافل بما يسرّ وما يسوء.

❁ ❁ ❁

فؤاد بليبل

هذا شاعر ظلمته الحياة الأدبية المعاصرة، فتجاهلته حتّى لم يعد يعرفه أحد من الشعراء أو الأدباء في الحياة الأدبية على الرغم من أن شاعر الأقطار العربية خليل مطران (١٨٧٢ ـ ١٩٤٩) قال عنه: إن الشاعر «مرّ بالحوادث، فآناً يبكي وآناً يضحك وآناً يرضى، وآنا يثور. وبين وحي الرؤية ووحي السماع ما يحرّك في فؤاده الوتر الحسّاس فيردّه شعراً ويصوغ ذلك الشعر بقدر ما تتمكّن فيه الملكة صوغ الماهر الذي كان في طريق العبقرية لو فسح له الأجل».

وقال عنه أحمد حسن الزيات (١٨٨٥ ـ ١٩٦٨) «كان المتصلّون به والقارئون له يعتقدون أنه سيكون له في الشعر الوجداني أثر مذكور بفضل ما وهبه الله من صدق الشعور وصفاء النفس وعذوبة الروح واستكمال الأداة».

وقال عنه الأديب حسن الشريف رئيس تحرير «مجلة الشؤون الاجتماعية» وهو يقدم إحدى قصائده: «هذه المعاني يجلوها الشاعر الفاضل في قصيدته أحسن جلاء، وليس ينقص هذه القصيدة إلّا أن يوضع تحتها اسم أحد أمراء الشعر لتنعت بما هي جديرة به من نعوت، وتضفي عليها صفات التمجيد والتعظيم».

وقال عنه الشاعر محمود غنيم (١٩٠٢ ـ ١٩٧٣) إن الشاعر «امتاز برشاقة الأسلوب وعذوبة الروح والانسجام وحسن الصياغة والديباجة، والانسجام الشعري شيء يدركه الذوق السليم وتحسّه الأذن الموسيقية المرهفة، وهو الذي يقسّم الشعراء قسمين: قسماً يُكتب لشعره الخلود، وآخر يموت شعره بمماته أو يكفنه بيديه في حياته».

ووصفته الأديبة الدكتور نعمات أحمد فؤاد ـ وهي الوحيدة من نقّاد الأدب التي التفتت إليه ـ بقولها عن بعض قصائده: «إن هذه القصائد أطول نفساً وأرهف حسّاً وأشفّ روحاً وأعمق إنسانية ممّا في سائر قصائده».

هذه شهادات ناطقة بأن الشاعر فؤاد بليبل ينتمي بجدارة إلى وادي عبقر حتّى في شعره القليل الذي سمحت به حياته القصيرة إذ مات عن تسعة وعشرين عاماً لم يتهيأ له فيها أن ينشر ديوانه في حياته فنشر غِبَّ وفاته.

ولد فؤاد بليبل في شهر نوفمبر ١٩١١ في كوم حمادة بمحافظة البحيرة في مصر، وجاءت وفاته في ٢٢ مارس ١٩٤١. ولئن ملأ الصحف في حياته المقتضبة بقصائده الغرّ، فإن ديوانه بعنوان «أغاريد ربيع» لم يُنشر إلّا في السنة التالية لوفاته - في عام ١٩٤٢ - بعناية المهندس ميشيل قسطندي، وهو صهر الشاعر.

وحياة فؤاد بليبل، الذي ينتمي إلى أسرة لبنانية من مدينة بكفيا بقضاء كسروان، هي حياة عادية ليس فيها أحداث جسام تسجّل له. فقد تلقّى تعليمه في كل من مصر ولبنان، وزاول التجارة فترة من الوقت في مسقط رأسه كوم حمادة ولكنه زهد بعدها في الأعمال التجارية، واشتغل بالتدريس ثم تركه والتحق بعمل إداري في جريدة «الأهرام» حتى أدركته منيّته.

وعندما التحقتُ بعملي في جريدة «الأهرام» في عام ١٩٤٢ عرفت من زملائه العاملين في الجريدة أنه كان نموذجاً للموظف المثالي من حيث الانضباط وحسن التفاهم مع العاملين معه، وكم كان يتمنّى أن ينتقل إلى قسم التحرير بالجريدة لأنه أقرب إلى اهتاماته وميوله، فحالت دون ذلك النظم الصارمة التي كانت تقيم في الجريدة سدّاً منيعاً بين التحرير والإدارة، وهو ما اعترض سبيلي شخصياً عندما حاولت الانتقال من قسم التوزيع الذي عُيِّنت فيه إلى أقسام التحرير في الجريدة.

عاش فؤاد بليبل عمراً قصيراً، وهو ما كان يستشعره في قرارة نفسه، ولذلك نظم قصيدة نُشرت في جريدة «الأهرام» في يوم وفاته أرهصت بقرب النهاية، قال فيها:

أَنَا! مَنْ أَنَا؟ يا لَلتَّعَاسَةِ! مَنْ أنا؟ شَبَحُ الشَّقَاءْ
بَلْ زَهْرَةٌ فَوَّاحَةٌ عَبَثَتْ بِهَا أَيْدِي القَضَاءْ
عِنْدَ الصَّبَاحِ تَفَتَّحَتْ وَذَوَتْ وَلَمْ يَأْتِ المَسَاءْ
وَطَغَىٰ الفَنَاءُ على الشَّبَابِ، فَنَالَهُ قَبْلَ الفَنَاءْ

كنت في متابعتي للصحف والمجلات الأدبية أقف مبهوراً أمام الشعر الذي

كان ينشر فيها لفؤاد بليبل، سواء في المجلة الشهرية التي كانت تصدرها وزارة الشؤون الاجتماعية، أو في مجلة «الرسالة»، أو في مجلة «الثقافة» أو في مجلة «المقتطف» أو في جريدة «الأهرام» أو جريدة «المقطم»، فشعره ينمّ على قدرة أستاذية في النظم الجيّد، وصورة تنطق بالصدق والواقعية، وعباراته آية في السبك اللغوي، وموسيقاه تنساب في كيان القصيدة كلّه، وهو من قبلُ ومن بعدُ لم يعرف إلّا الشعر الموزون المقفّى الذي منه تألّف ديوان العرب.

وإذ كنت عاكفاً على عملي في جريدة «الأهرام» زارنا شاب يحمل كمية من الكتب ليبيعها للموظفين، ولمّا تبيّنتُ أنه يبيع ديوان «أغاريد ربيع» لفؤاد بليبل بادرت باقتنائه. ومن أسف أن الموظفين الإداريين لم يحفلوا باقتناء ديوان شعر، فانصرف الشاب وهو يقول: إن حصيلة البيع ستؤول إلى أسرة الشاعر التي نكبت بفراقه المفاجئ.

كان فؤاد بليبل يتخيّر في شعره قضايا المستضعفين، فيدافع عنهم بعدما يصوّر غلظة المجتمع في التعامل معهم، فلولا الحاجة لما انحرف الأشقياء، ولولا نوازع الشرّ لدى القادرين لما سقطت براقع الحياء لدى البائسين. ولهذا صرخ في إحدى قصائده قائلاً:

يا ابْنَةَ العَارِ والخَنَا والرَّذَيْلَهْ ... أنا لَوْلَاكَ ما عَرَفْتُ الفَضِيْلَهْ

وخاطب فاجرة في إحدى قصائده بقوله:

أَسَأَلْتِ مَنْ نَبَذُوْكِ نَبْذَ المُنْكَرِ ... كَمْ بَيْنَهُمْ مِنْ فَاجِرٍ مُتَسَتِّرِ؟
الخَيِّرُوْنَ وَهُمْ أَشَرُّ بَنِي الوَرَىٰ ... الأَبْرِياءُ، وَلَيْسَ فِيْهِمْ مِنْ بَرِي
الصَّائِمُونَ المُفْطِرُونَ على الدِّمَا ... الظَّامِئُوْنَ إلى النَّجِيْعِ الأَحْمَرِ
الخَائِنُوْنَ بِكُلِّ عَهْدٍ مُبْرَمٍ ... العَابِثُوْنَ بِكُلِّ ذَاتِ تَخَفُّرِ
المُصْلِحُوْنَ، وَلَيْسَ فِيْهِمْ مُصْلِحٌ ... الطَّاهِرُوْنَ، وَأَيُّهُمْ لَمْ يَفْجُرِ؟

❁ ❁ ❁

أنا لَسْتُ أَعْجَبُ مِنْ فُجُوْرِكِ حَائِراً ... إنِّي لَأَعْجَبُ مِنْكِ إنْ لَمْ تَفْجُرِي!

على شاكلة هذا الوزن يضرب فؤاد بليبل في عددٍ من قصائد ديوانه اليتيم، مبتغياً أن يزيّن الفضيلة للناس، ناشداً أن يرتقي بالإنسانية من طور المادية والأنانية إلى طور المثالية والغيرية. ولكنه، وإنْ لم يتخل عن رسالته، لا يرتطم

في الحياة إلّا بالمثبّطات وخيبات الأمل. فالحياة لا تسلس قيادها دائماً لشاعر مشبوب العاطفة ـ وإن يكن مغلول اليدين ـ ولهذا يستعصم بالأحلام عساها تتحقق في دنيا الواقع.

ولئن دافع فؤاد بليبل عن النساء اللائي أكرهتهن الفاقة على احتراف الرذائل، فقد دافع كذلك عن البائسين الذين جار عليهم الزمن فقارفوا كل المحظورات، ولولاقسوة الحياة وشراهة المجتمع لما مدّ الفقير يده إلى مال غيره، ثم عاقبته العدالة البشرية بالزج في السجون. وهو يقول في قصيدة عنوانها «المنبوذ»:

جَائِعٌ لَفَّهُ الضَّنَىٰ بِرِدائِهِ ... أَيْنَ نَارُ الجَحِيْمِ مِنْ أَحْشَائِهِ؟
لَفَظَتْهُ الحَيَاةُ فَهُوَ شَرِيْدٌ ... يَصِلُ البُؤْسَ صُبْحَهُ بِمَسَائِهِ
شاحِبُ الوَجْهِ نَاحِلُ الجِسْمِ طاوٍ ... تَتَمَشَّىٰ الأَوْصَابُ في أَعْضَائِهِ
وعلى جِسْمِهِ بَقَايَا رِدَاءٍ ... تَتَبَدَّىٰ العِظَامُ مِنْ أَجْزَائِهِ
أَنْكَرَ النَّاسُ ما يُقَاسِي وَقَالُوا ... مُجْرِمٌ يَخْدَعُ الوَرَىٰ بِرِيَائِهِ
عَذَّبُوْهُ بالجُوْعِ ظُلْماً ورَاحُوا ... يُشْبِعُوْنَ الذِئَابَ مِنْ أَشْلائِهِ
أيُّ ذَنْبٍ جَنَاهُ كَيْ تُرْهِقُوهُ ... وَتَكُوْنُ السُّجُوْنُ بَعْضَ جَزَائِهِ؟
لا تكونوا أحقَّ بِالسِّجْنِ مِمَّنْ ... سَاقَهُ ظُلْمُكُمْ إلى ظَلْمَائِهِ!

فإذا انتقل الشاعر إلى عالم الحبّ، والحبّ هو أوّل أسباب الإلهام لدى الشعراء ما كان منه مسعداً أو مشقياً، فإن فؤاد بليبل لا ينفكّ يترنّم به في أحلامه وواقعه، سواء ساعفته الحظوظ أو خذلته، وحسبه أن يخرج من تجربة الحبّ بقصيدة يصوّر فيها آماله ورؤاه وكل عواطفه. ففي قصيدة عنوانها «حلم» قال:

غَرَامٌ، ولٰكِنْ قَصِيْرُ الأَجَلْ ... وحُلْمٌ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَطُلْ
وَفَجْرٌ مِنَ الحُبِّ عَذْبُ القُبَلْ ... مَا كَادَ يُشْرِقُ حَتَّى أَفَلْ
وَلا لاحَ لِلعَيْنِ حتّى اخْتَفَىٰ ... ولا حَلَّ في القَلْبِ حَتَّى ارْتَحَلْ
جَمَالٌ صَبَوْتُ إِلَيْهِ فَلَمَّا ... ظَفَرْتُ بِهِ ضَيَّعَتْهُ القُبَلْ
وحُلْمٌ خَشِيْتُ عَلَيْهِ الفِرَارَ ... فَأَطْبَقْتُ حِرْصاً عَلَيْهِ المُقَلْ
وَأَغْمَضْتُ جَفْنِي عَلىٰ مَشْهَدٍ ... مِنَ الحُبِّ عَذْبِ الرُؤَىٰ والأَمَلْ

فَتَحْتُ عُيُوْنِي فَلَمْ أَرَ مِنْهُ سِوَى أَثَرٍ مُبْهَمٍ مُضْمَحِلْ

كما قال في قصيدة تنتمي إلى تجربة الحب:

لِي مِنَ الوَجْدِ في هواكِ سَجِيَّه وَلَكِ الأَمْرُ فاحْكُمي يا نَجِيَّه
يا عَرُوسَ الخَيالِ، يا فَجْرُ إِلْهَامِي ودُنيا أَحْلامِي الذَّهَبِيَّهْ
يا مَلاكاً مِنْ عَالَمِ الغَيْبَ رَفَّافاً عَلىٰ خَاطِري ونَفْسِي الشَّقِيَّهْ
أنتِ! ما أنتِ غَيْرُ شَبّابَةِ الحُبِّ، وأغنيةِ الهَوى الشِّعْرِيَّهْ
أيُّ سِحْرٍ أَحَبُّ مِنْ سِحْرِ عَيْنَيْكِ وَمِنْ تِلْكُمَ المَجَانِي الشَّهِيَّهْ
أَوْقِدِي مِنْ شُمُوعِ حُبّكِ ما شِئْتِ وَطُوْفِي بِسَاحَةِ القُدْسِيَّهْ
فَاجْعَلي مِنْهُ كَعْبَةَ الفنِّ والشِّعْرِ ورَمْزَ المَحَبَّةِ العُذْرِيّهْ
كَمْ سَلَكْنَا إلى سَنَاكِ سَبِيْلاً وَرَكِبْنَا مِنَ الحَنِيْنِ مَطِيّه
وَتَخِذْنَا مِنَ النَّسِيْمِ رَسُوْلاً وَبَعَثْنَا مِنَ النّجوْمِ تَحِيَّهْ
كَمْ سَخِرْنا مِنَ الهَوَىٰ وَذَوِيهِ فَإذا نَحْنُ فِي الوَرَىٰ سُخْرِيّه
يَتَلَقّى العُشَّاقُ عَنّا دُرُوْسَاً فِي أُصُوْلِ المَحَبَّةِ العُذْرِيّهْ
مَا شَكَوْنَا، وكَيْفَ يَشْكُوْ اللَّيَالِي مَن لَهُ مِثْلَ هذِهِ الشَّاعِرِيّهْ؟

ويعاود الشاعر الحديث عن خيبة أمله في الحبّ، وكأنّه قدرٌ لا فكاك منه. وإذا كان الشاعر الشاب قد أدمن الحب، فإن تجاربه تنتهي بحبوط مخلّفة له السهد والهمّ والألم. ولكنّه يلتمس المعاذير لمن جافته، ويسوق الملامة إلى خداع القلب ولهفة الفؤاد.

وعندما عارضَ الشاعرُ قصيدة الحصري المشهورة «يا ليلُ الصَّبُّ مَتَىٰ غَدُهُ» تحدّث مرة أخرى عن حظوظه الخاسرة في الحب، حيث قال في قصيدة عنوانها «باللهِ عِدِيهِ ولو كذباً».

الحُسْنُ جَمَالُكِ سَيِّدُهُ والسِّحْرُ عُيُوْنُكِ مَوْرِدُهُ
وَالوَحْيُ لَحَاظُكِ مَهْبِطُهُ والحُبُّ فُؤادِي مَعْبَدُهُ
وَحَدِيْثُكِ شِعْرٌ مُبْتَكَرٌ أَطْيَارُ الجَنَّةِ تُنْشِدُهُ
وَكَلامُكِ سِحْرٌ فِي أُذُنِي نَغَمُ الأَوْتَارِ يُرَدِّدُهُ

يـا مَـنْ أَسَـرَتْ قَـلْـبِـي فَـغَـدا يُـشْـقِـيْـهِ الأَسْـرُ ويُـسْـعِـدُهُ
يُـضْـنِـيـهِ الـلَّـيْـلُ ويَـعْـشَـقُـهُ إذْ شَـابَـه عَـيْـنَـكِ أَسْـوَدُهُ
للهِ فـؤادٌ مُـلْـتَـهِـبٌ قَـدْ كـادَ يُـضِـيْءُ تَـوَقُّـدُهُ
هُـوَ يَـأمُـلُ مَـهْـمَـا خَـادَعَـهُ الـمِـقْـدَارُ ومَـاطَـلَـهُ غَـدُهُ
بِـاللهِ عِـدِيْـهِ وَلَـوْ كَـذِبـاً فَـلَـعَـلَّ الـوَعْـدَ يُـبَـرِّدُهُ
وَعَـسـىٰ الآلامُ تُـبَـارِحُـهُ فَـيَـنَـامُ الـلَّـيْـلَ مُـسَـهَّـدُهُ
وَيَـظَـلُّ يُـرَدِّدُ مُـبْـتَـهِـجـاً الـحُـسْـنُ جَـمَـالُـكَ سَـيِّـدُهُ

وكان الشاعر فؤاد بليبل يحسّ دائماً بأنه تعيس الحظ، تحالفت عليه أسباب القنوط، وانحسرت عنه آيات السعادة، حتّى إذا ما خلا إلى نفسه أخذ يشكو ويتحسّر على عمره الذاهب وآماله المضيّعة وأحلامه التي يبددها واقع الحياة.

وقد عبّر عن عذابه في قصيدة عنوانها «خلوة إلى نفسي» حيث قال:

أَيُسْتَسَاغُ عَذَابِي في الوَرَىٰ عَطَشاً والمَاءُ مُنْبَجِسٌ حَوْلِي وأُحْرَمُهُ؟
وَتَسْتَحِلُّ اللَّيَالِيْ أَنْ تُجَشِّمُنِي مَا لا يَهُوْنُ على مِثْلِي تَجَشُّمُهُ؟
كَفَىٰ بِقَلبِي شَقَاءً ما يُسَاوِرُهُ وَحَسْبُهُ أَنَّهُ قَدْ ضَاعَ مُعْظَمُهُ
لَوْلَا بَقِيَّةُ آمَالٍ بِجَانِبِهِ لَقِيْلَ مَاتَ أسىً واللهُ يَرْحَمُهُ
طَغَتْ عَلَيْهِ مِنَ الأَحْزَانِ طَاغِيَةٌ أَوْدَتْ بِهِ وَمَحَتْ ما كانَ يَرْسُمُهُ
وَعَلَّمَتْهُ اللَّيَالِي وَهِيَ مُدْبِرَةٌ مَا لَمْ يَكُنْ زَمَنُ الإِقْبَالِ يَعْلَمُهُ
إنْ لَمْ يَكُنْ لِلْفَتَىٰ في كُلِّ مُنْقَلَبٍ مَنْ نَفْسِهِ عَاصِمٌ، لا شَيْءَ يَعْصِمُهُ
فَلَا القَرِيْبُ بِمَأْمُوْلٍ تَقَرُّبُهُ ولا الكَرِيْمُ بِمَرْجُوٍّ تَكَرُّمُهُ

إن النماذج القليلة التي سبقت في ثنايا هذا المقال تؤكد بلا ريب أن فؤاد بليبل شاعر مجيد، بلغ الذروة وهو ما زال في شرخ الشباب، فكيف لو أمهلته المقادير وأرخت له في العمر. ولأن الشاعر عانى من جحودٍ متطاول وكاد شعره الجميل يدفن معه في قبره، فقد عوّلت على إنصافه والتذكير بفضله إعلاءً لراية الشعر الأصيل، وإن لم تتح لي المقادير التواصل الشخصي معه.

❁ ❁ ❁

فؤاد صرّوف

هو أستاذي الأوّل الذي طالما فزعتُ إليه كلّما أعوزتني نصيحة غالية أو تجهّمت لي الحياة وأنا أؤدّي ضريبة الاستقلال في الرأي ـ على الرغم من أنني لم أبرح أتحلّى بالاعتدال، ولم أعرف لدداً في خصومة أو مُلاحاةً في جدال، ولا انتسبت إلى أي مذهب أيديولوجي وحزب سياسي. وبقيتُ على مدى ما تقضّى من سنوات العمر أرى في فؤاد صرّوف مثلي الأعلى الذي أستوصي باتّباع خطاه، وأشخص إليه حاضراً وغائباً وخالداً في عالم الأرواح، وأعدّ نفسي «تلميذه الروحي» وهو «أبي الروحي» الذي تيتّمتُ بفقده في العشرين من كانون الثاني (يناير) ١٩٨٥، فكانت وفاته صدمةً أصمتني حتّى اليوم، وعقدتْ اللسانَ والقلمَ عن الإتيان برثاءٍ يليق بهذا الإنسان العظيم.

عرفت فؤاد صرّوف للمرة الأولى في عام ١٩٣٩ عندما التحقت بمعهد الصحافة في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وهو معهد شارك فؤاد صرّوف في تأسيسه عام ١٩٣٥ مع أستاذيْن أمريكيين، فكان أوّلَ معهد جامعي يدّرس علوم الصحافة في الشرق الأوسط، وكنتُ بالتالي من أوائل خريجيه، وبتُّ اليوم من أقدمهم. وكان صرّوف يدرّسنا باللغة الإنكليزية موضوعاً عنوانه «العلاقات الدولية منذ معاهدات الصلح بعد الحرب العالمية الأولى» وموضوعاً آخر عن «العالم العربي في عصر الخلافة العثمانية» كما كان يدرّسنا مادة الترجمة، ويشرف على تحرير مجلة «القافلة» التي كان يخرجها طلاب قسم الصحافة باللغتين العربية والإنكليزية للتدرب على الصحافة عملياً.

وِكان صرّوف بأبوّته الحانية واحتضانه للناشئة من الشباب بفهم وتعاطف وحبٍ ورغبة في التشجيع، يستأثر بمجامع القلوب، وكانت شخصيته الآسرة محبّبة من الجميع، فهو هو الأستاذ المعلم، وهو هو الأب العطوف، وهو هو العالم الذي لا يضنّ على أحدٍ بعلمه وتوجيهه وسداد رأيه.

ولئن لم أُفتن بشخصية فؤاد صرّوف في بداية عهدي بالتلمذة الجامعية، لأن حداثة عهدي بالمصطلحات الإنكليزية للسياسة الدولية التي كان «يرطن» بها أقامت حاجزاً من عدم الفهم بيني وبين هذا الأستاذ الصعب، إلّا أن صرّوف لم يلبث بحسن إرشاده وتوجيهه أن استحوذ على كل إعجابي ومحبتي. ولا أظنني أهملتُ بعد ذلك قراءة شيء من كل ما كتبه، سواء في مجلة «المقتطف» أو في سواها من المجلات العلمية والأدبية، أو ما أصدره من كتبٍ ابتداء بـ «نبضات الفؤاد» الذي نشره عام ١٩٢١ وانتهاءً بـ «أوراق علمية» الذي نشره عام ١٩٧٢. بل قرأت ما نشر بعد وفاته في مجلّدين عنوان أولهما «فؤاد صروف: مختارات من إنتاجه الفكري» الذي قدّم له وحققه رضوان مولوي، وعنوان ثانيهما «فؤاد صرّوف: منازل الفضل وأوراق عربية» وقد حققته وقدمت له سلمى مرشاق سليم، وصدر الكتابان بإشراف الدكتور قسطنطين زريق (١٩٠٩ ـ ٢٠٠٠).

ولد فؤاد حنّا صرّوف في مدينة الحدث اللبنانية في ٢٠ من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٠ وتعلّم في المدارس اللبنانية حتّى تخرّج بدرجة بكالوريوس في العلوم من الكلية السورية الإنجيلية، وهو الاسم القديم للجامعة الأميركية في بيروت. وعمل بعد ذلك بالتدريس ثم زاول مهمّة الناظر في المدارس اللبنانية قبل أن يعقد العزم على الانتقال إلى القاهرة في عام ١٩٢٢ ليكون قريباً من عمّه ومثله الأعلى الدكتور يعقوب صرّوف (١٨٥٢ ـ ١٩٢٧) الذي أسس مجلة «المقتطف» مع زميله الدكتور فارس نمر (١٨٥٦ ـ ١٩٥١) في بيروت في عام ١٨٧٦ قبل أن ينقلاها إلى القاهرة في عام ١٨٨٥، واختاره يعقوب صرّوف مساعداً له في تحرير المجلة. ولمّا توفي يعقوب صرّوف في عام ١٩٢٧ أُسندت رياسة تحرير المجلة إلى فؤاد، فبقي يزاول هذا العمل إلى عام ١٩٤٤ عندما انشغل بأعباء إصدار مجلة «المختار من ريدرز دايجست». التي توقفت عام ١٩٤٧. واستعانت به جريدة «الأهرام» بعد ذلك ليكون مستشاراً لها ومحرراً لمقالات الصدر فيها. وكان التقليد المتبع في ذلك الحين أن تصدر مقالات الصدر (أو الافتتاحيات) بغير توقيع ـ ولهذا جمع هذه الفصول في ما بعد، ونشرها في كتابه «موعد مع التاريخ».

عُرض عليه بعد ذلك أن يشغل منصب نائب رئيس الجامعة الأميركية في بيروت للشؤون الجامعية العامة، وأن يكون عضواً في هيئة الدراسات العربية

فيها، فقبل هذا المنصب، وعاد إلى لبنان في عام ١٩٥٢. وفي هذه الأثناء أسندت إليه رياسة تحرير مجلة «الأبحاث» التي تصدر عن الجامعة (من عام ١٩٥٩ إلى عام ١٩٦٦). وعندما احتفلت الجامعة بعيدها المئوي (١٨٦٦ - ١٩٦٦) أُسندت إليه مهمّة الإشراف على المطبوعات التي أصدرتها الجامعة بهذه المناسبة، وأهمّها في نظري المعجم الطبيّ للدكتور يوسف حتي - شقيق الدكتور المؤرخ فيليب حتي - و«فهرس المقتطف» الذي ظهر في ثلاثة أجزاء ضخام بمقدمة للدكتور نبيه أمين فارس (١٩٠١ - ١٩٦٨)، و«تهذيب الأخلاق» لمسكويه وقومه تحقيق الدكتور قسطنطين زريق، و«كتاب العيد» وكتاب «الفكر العربي المعاصر في مئة عام» وغير ذلك من الكتب العربية والإنكليزية والمترجمة، وقد بلغ عددها ٢٤ مجلداً.

وأثناء إقامته في مصر شارك في أنشطة ثقافية واسعة، فكان من مؤسسي المجمع العصري للثقافة العلمية، وهو مجمع أنشئ في عام ١٩٣٠ وضم كبار المشتغلين بالعلم في مصر مثل الدكتور علي مصطفى مشرّفة باشا والدكتور فارس نمر باشا والدكتور أحمد زكي أبو شادي والدكتور علي إبراهيم باشا وحسين سرّي باشا والدكتور خليل عبد الخالق والدكتور مصطفى نظيف وغيرهم، وهدفه نشر الثقافة العلمية بتبسيطها وذلك من خلال إلقاء المحاضرات العامة وعقد مؤتمر سنوي تناقش فيه حركة العلوم الحديثة. وقد انتخب صرّوف نائباً لرئيس هذا المجمع.

واختير صرّوف عضواً في مجلس إدارة «الموسوعة العربية الميسّرة» التي صدرت بإشراف الدكتور شفيق غربال، واختير عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة وعضواً مؤازراً في المجمع العلمي العراقي. وعندما أصدرت دار المعارف سلسلة «إقرأ» الشهرية، اختارته عضواً في اللجنة المشرفة عليها مع الدكتور طه حسين وعباس محمود العقاد وأنطون الجميل باشا.

أمّا في لبنان، فكان من مؤسسي المجلس الوطني للبحوث العلمية، ولجنة مهرجانات بعلبك الدولية، واختير عضواً في مجلس أمناء مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

وتقديراً لكفاءته، اختاره لبنان عضواً في اللجنة الوطنية اللبنانية لليونسكو ثم

رئيساً لها، واختارته هيئة اليونسكو رئيساً لمجلسها التنفيذي بين عامي ١٩٧٢ ـ ١٩٧٤. ومن مُحرزاته في هذا المقام أنه استصدر من المجلس قراراً باعتبار اللغة العربية لغة عمل في منظمة اليونسكو، وكان هو أوّل من تكلّم بها في مؤتمرٍ من مؤتمراتها قبل أن تنتقل «العدوى» إلى الأمم المتحدة التي اتخذت قراراً مماثلاً فصارت اللغة العربية لغة عمل فيها، كما دعا إلى إنشاء «جامعة الأمم المتحدة» وصاغ بنفسه مشروع القرار الخاص بهذه الجامعة والذي اعتمدته اليونسكو، وأصبحت الجامعة حقيقةً ماثلة تتّخذ من طوكيو في اليابان مقراً لها.

ومنحته جامعة الباسفيك في مدينة ستوكتون بولاية كاليفورنية الأمريكية درجة الدكتوراة الفخرية في القانون في عام ١٩٨٨.

كان الاتجاه العلمي هو الاتجاه الغالب عند فؤاد صرّوف، ولكن ذلك لم يحل دون اهتمامه بفروع المعرفة الإنسانية الأخرى. وكنت تراه في مكتبه في «المقتطف» يستقبل أمير الشعراء أحمد شوقي أو مصطفى صادق الرافعي أو عباس محمود العقاد أو طه حسين أو مي أو غيرهم من أعلام الأدب، فيتحدّث معهم حديث العارف المتمكن.

وكان من عادة مجلة «المقتطف» أن تحتجب شهريْن في كل سنة، تعوّض مشتركيها عنهما بتقديم هدية سنوية من مؤلفات يعقوب صروف أو فؤاد صرّوف أو غيرهما. ومن هدايا «المقتطف» التي ألّفها فؤاد صرّوف «أساطين العلم الحديث» و«آفاق العلم الحديث» و«فتوحات العلم الحديث» و«الفتح مستمرّ». وأصدر كتباً أخرى خارج هذه الهدايا منها: «مذبح المريخ» و«النار الخالدة» ـ وقد أهداه إلى ابنته ڤاليري، و«آفاق لا تحد» ـ وقد أهداه إلى قرينته ليلى يواكيم المجدلاني ـ و«العلم الحديث في المجتمع الحديث» و«أوراق علمية» و«عند الباب» و«على الطريق» و«مع الطليعة»، عدا ما ترجمه من كتبٍ أخرى مثل «رؤى العقل» و«جبروت العقل». وقد هيّأ له عمله في «المقتطف» وفي هذه الكتب العلمية أن يسك كثيراً من المصطلحات العلمية التي أورد سيرَهَا في مقالٍ عنوانه «سِيَر ألفاظ عربية مستحدثة» نشره في مجلة «الأبحاث (أيلول/ سبتمبر ١٩٦٣). كما كان من أوائل الذين تناولوا موضوع الذرّة وفلق نواتها والطاقة الذرية المنبعثة منها، وهي النظرية التي تجسدت في القنابل الذرية والطاقة الذرية.

وكان فؤاد صرّوف يعتزّ بعمّه الدكتور يعقوب صرّوف أعظم اعتزاز، ويعدّه أكبر شخصية علمية تأثّر بها. ولا غرو أن يخصّه بكتاب هو صورة من الوفاء الجميل عنوانه «يعقوب صروف العالم الإنسان». وكان هذا الكتاب أصلاً محاضرةً أعدّها فؤاد صروف لإلقائها في اتّحاد العلماء العرب برياسة الدكتور مصطفى نظيف في القاهرة في عام ١٩٥٨، فجاء خصيصاً من بيروت لإلقائها. ولمّا اكتشف أن الحاضرين ـ وكنت شخصياً منهم ـ لا يزيد عددهم على أصابع اليديْن في قاعة دار الحكمة الفسيحة، اقتضب المحاضرة، ثم نشرها كاملةً في هذا الكتاب.

كما كانت مجلة «المقتطف» أقرب شيء إلى قلب فؤاد صرّوف في جميع مراحل حياته، وعزّ عليه كثيراً أن تُطوي آخر صفحة في تاريخها في شهر كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٢ بعدما أكملت ٧٧ عاماً من عمرها الطويل القصير. وعندما انتقل إلى بيروت فكّر في إعادة إصدار المجلة من هناك حيث أسسها صاحباها أصلاً، ففاتح إميل البستاني ـ الذي وصفه صرّوف بأنه «باني المستقبل». وبأنه «حقيقة أعظم من الأسطورة» ـ في ذلك، فرّحب البستاني بمؤازرة المجلّة. وبدأ صرّوف يعدّ العدّة لإعادة إصدار المجلة، وفاتحني في أن أكون يده اليمنى في حالة صدورها، ولكن يبدو أن دراسة الجدوى التي أعدت للمجلة أوضحت أن المشروع غير اقتصادي، فعدل عنه مع الأسف.

وما زال الفراغ الذي تركه احتجاب مجلة «المقتطف» في عام ١٩٥٢، متزامناً مع احتجاب عددٍ من المجلات الأدبية كالرسالة والثقافة والكتاب وعلم النفس والكاتب المصري، أكبر من أن تحتلّه مجلة أخرى. ولكن أثرها الباقي حدا بالباحثة المصرية نادية فرج إلى اختيار مجلة «المقتطف» موضوعاً لأطروحة الدكتوراه التي كانت تعدّها لكلية سانت أنطوني بجامعة أكسفورد بإشراف الدكتور ألبرت حوراني. وبعدما أنجزت الأطروحة وتهيأت لمناقشتها، وقعت صريعة داء اللوكيميا ـ سرطان الدم ـ ولقيت وجه ربها، فكرّمتها الجامعة بمنح اسمها درجة الدكتوراه في سابقةٍ لعلّها الأولى في تاريخ الجامعات.

كما أن شاباً مصرياً أعدّ مؤخراً أطروحة جامعية عن «المقتطف» وأثرها في الفكر المصري وكانت لجنة المناقشة التي أجازتها برياسة عميد أساتذة الصحافة في مصر، الدكتور خليل صابات.

وفي المؤتمر السنوي للجمعية البريطانية لدراسات الشرق الأوسط الذي عقد مؤخراً في جامعة مانشستر ألقت الباحثة داغمار جلاس من جامعة لايبزغ الألمانية دراسة عن ركن «المسائل» في مجلة «المقتطف» ـ على ما جاء في جريدة الحياة بتاريخ ٢٧ من تموز (يوليو) ١٩٩٤.

وفي عام ١٩٦٤ عرضت فكرة إعداد قاموس إنكليزي/عربي حديث يصدر في بيروت بمؤازرة من مؤسسة فورد، وبعون مالي من البلدان العربية، واختير فؤاد صرّوف ليكون مستشاره العام. وكتب إليَّ في حينه عارضاً أن يستعين بي في عمليات تنسيق المعجم ومراجعة تجاربه، فرحبت بذلك. ويبدو أن عرض مؤسسة فورد كان مرهوناً بالدعم العربي، فلمّا امتنع، عُدِل عن فكرة هذا المشروع بعدما صرف فيه فؤاد صروف ثلاث سنين من المشاورات والاتصالات والمراجعات ووضع الخطط اللازمة لإخراج عمل ضخم كان من المتصوّر وقتئذٍ أن يكون أوسع وأشمل وأضخم معجم من شاكلته.

ولفؤاد صرّوف فضل التشيجع لكثير من ناشئة الأدباء والعلماء الذين كان يفتح لهم صدر «المقتطف» وكنت شخصياً من الذين نعموا منه بهذا التشجيع. وكان الشاعر البائس المبتور الساق محمود أبو الوفا ممّن رحّب بهم صرّوف في المقتطف، حتّى إذا رغب الشاعر إلى صرّوف في كتابة مقدمة ديوانه «أنفاس محترقة» سنة ١٩٣٢، رحّب بذلك، وقال عن الشاعر في مقدّمته «إن شعره يتسّم بسماحة القريحة، والشاعر إذْ تتملكه صورةً ما لا يبرح يقلّب فيها النظر حتى تنبثق من عقله الباطن آراء درسها ومثّلها بالتأمل الطويل، يوشّيها بذهب خياله الوهاج، ويطهّرها بنار شعوره فتخرج... في شاعرية شاعر اجتمع فيها التفكير عميقاً صافياً والخيال جريئاً وثّاباً والشعور متأجّجاً صادقاً في ألفاظٍ كأنها في معانيها ومبانيها وجرسها ومواقعها آيات التنزيل».

ولم يكد طه حسين يطّلع على ديوان «أنفاس محترقة» حتّى أصابه بسهام النقد الجائرة، كما سبق له أن فعل مع ديوان الشاعر إبراهيم ناجي، فكتب مقالاً في سلسلة، «أحاديث الأربعاء» التي كان ينشرها قال فيه: «يراه صديقنا فؤاد صرّوف وجماعةٌ غيره من المثقفين شعراً، وأنا آسف أشدّ الأسف لأني لا أراه إلّا نظماً ... ولو أرسلتُ نفسي على سجيتّها لآثرتُ أن لا أعرض لهذا الديوان، ولكن ماذا أصنع وللنقد علينا حقوق وتكاليف» وظلّ طه حسين في كل مقالة

يصف الشاعر «بالناظم» ويعتب على صديقه فؤاد صرّوف لأنه «انتهى من مقدمته إلى أن صاحب الديوان شاعر من غير شك، وأن شعره خليق بالإذاعة والبقاء. وأنا آسف أشدّ الأسف، لا لأني لا أرى رأي الأستاذ ولا أقرّه عليه،بل لأني أعتب على الأستاذ أن يقضي في أمر الشعر والأدب كما يقضي في أمر الطبيعة والرياضة والكيمياء»!.

لم يكد هذا المقال المتّسم بالتحامل الشديد يظهر، حتّى كانت الأديبة مي أوّل الساخطين عليه، فاتصلت هاتفياً بطه حسين وفؤاد صرّوف، ودعتهما إلى زيارتها في منزلها في موعدٍ ضربته لهما. فجاء طه حسين أولاً، وصحبته إلى شرفة الدار ريثما يجيء فؤاد صرّوف. وكان طه حسين يمرُّ بأزمة نفسية بسبب فصله من الجامعة، ولم يكد يتخذ مجلسه حتى أخذ يتأفف ويعيد التأفف من أولئك الذين أبعدوه عن عمادة كلية الآداب. ولمّا تكرّر منه هذا التأفف، رغبت مي في أن تُسريّ عنه، فرددت في مسامعه قول الشاعر:

أُحِبُّ أَضْحَكُ لِلدُّنْيَا فَيَمْنَعُنِي أنْ عَاقَبَتْنِي عَلَىٰ بَعْضِ ابْتِسَامَاتِي

فوجم طه حسين وسألها: ماذا قلتِ؟

فأعادت رواية البيت.

فسألها طه حسين: لمن هذا الشعر الجميل؟ فلم يعرض لي من قبل.

فأجابت: لواحدٍ من الشعراء، والشعراء كثيرون نحفظ شعرهم وننسى أسماءهم.

فألحّ طه حسين في معرفة قائل هذا الشعر الذي راق له وطابت له نفسه.

فقالت مي: إنه لمحمود أبي الوفا، وقد ورد في ديوانه «أنفاس محترقة»!.

فوجم طه حسين، واربدّ وجهه حين سمع اسم الشاعر الذي قسا عليه قسوةً جديدة. وحدّث نفسه قائلاً: ماذا يقول الناس إذا ما نقلت إليهم هذه الواقعة بعدما قرأوا أحكامي القاطعة في هذا «الناظم»؟ سيقولون طبعاً إنني لم أقرأ الديوان. وعندئذٍ طلب من مي أن تكتم هذا عن الناس، ولا سيّما عن أبي الوفا بالذات.

ولكن ميّاً قالت: بشرط ألّا أكتمه عن فؤاد صرّوف صاحب المقدمة.

وفي هذه الأثناء دقّ جرس الباب، وكان صرّوف هو الطارق، وانضمّ إلى مجلس الشرفة. وأخذت ميّ تروي له ما وقع بعدما استأذنت طه حسين في ذلك!.

وأذكر بين عُضادتين، أنني سألت طه حسين في إحدى زياراتي لمنزله عمّا إذا كان قد غيّر آراءه المنشورة عن الشعراء، ومنهم أبو الوفا، فأجابتني بنغمة الواثق: **لم أغير شيئا من آرائي!**.

ومع أن فؤاد صروف ظل يكتب ويكتب، ولم يكن يصادف مشّقةً تُذكر في نشر كتبه، فقد مات عن طائفة من الكتب لم يُقَّدر لها النشر، وهي «منازل الفضل» ويضم فصولاً عن أعلام معاصرين مثل العقاد، والدكتور نبيه أمين فارس، وحسن كامل الصباح، والعالم بيتر مدّور، والفريق أمين المعلوف باشا، والعالم منصور جرداق، والقاضي الدولي فؤاد عمّون، والقاصّ سعيد تقي الدين، وعنبرة سلام الخالدي، وكتاب «أوراق غربية» ويضم دراسات وخواطر مستوحاة من الغرب عن اللورد بيرون، واللورد دانسايني وتوماس هاردي، وڤرجيل، وتوماس كارليل، ودي فيجا، والموسيقار شوبرت، وبرناردشوو سرفانتيس، وفكتور هوغو، كما يضم قصائد مترجمة انتقاها بنفسه. وقد أحسنتْ سلمى مرشاق سليم صنعاً بجمع هذه المخطوطات من بين أوراق صرّوف الخاصة وإصدارها كجزءٍ ثانٍ من كتاب «فؤاد صرّوف» الذي صدر بإشراف الدكتورين قسطنطين زريق وهشام نشابة، والذي حقق جزءه الأول رضوان مولوي ونُشرا عام ١٩٨٩ في بيروت، وهناك مخطوطان آخران ينتظران من يتصدى لنشرهما.

وكان فؤاد صرّوف يقتني خزانة كتب نفيسة تضمّ عشرات الآلاف من الكتب، وقد نقلها معه من القاهرة إلى بيروت حين قرّر الاستقرار فيها. وقد أهدى هذه المكتبة وكلَّ أوراقه الخاصة إلى مكتبة يافث بالجامعة الأميركية في بيروت لتنتفع بها الأجيال الطالعة من شباب المثقفين. وعهدت الجامعة إلى ليندا صدقة ـ التي عملت طويلاً كساعد أيمن لفؤاد صروف ـ في تصنيف هذه الكتب وتبويب الأوراق الخاصة، فضلاً عن قيامها بإعداد ثبت شامل بجميع مؤلفات صرّوف ومقالاته المنشورة في المجلات المختلفة، فكانت خير مَنْ يؤتمن على «تركة» فؤاد صرّوف.

والأسلوب العلمي لفؤاد صرّوف من أنصع الأساليب العربية ومن أضبطها وأجملها وأكثرها سلاسة ونفاذ تعبير. ولا يقلّ أسلوبه باللغة الإنكليزية عن أسلوبه العربي في هذه الخصائص. وعندما تولّى رياسة تحرير مجلة «المختار» حرص على الاستعانة بكبار المترجمين في ذلك الوقت ومنهم عباس محمود العقاد، وإبراهيم المازني، وعلي أدهم، وعبد الرحمن صدقي، ويحيى حقي، وعلي ذو الفقار صبري (الذي كان متخصصاً في المصطلحات العسكرية). كما استعان بالعلّامة محمود محمد شاكر ليكون مديراً عاماً للتحرير حرصاً منه على ضبط لغة المجلة بحيث تزول عنها جميع آثار العجمة.

وفي عام ١٩٤٣ أصدر فؤاد صرّوف كتابين عن رجلي الحرب العظمى الثانية، ونستن تشرشل، وفرنكلن دلانو روزفلت، وبرغم ظروف الحرب وانشغال روزفلت بأعبائها الثقال حتّى أدركته منيّته قبل انتهائها، فقد وجّه بنفسه رسالة شكر إلى فؤاد صرّوف نشرتها جريدة الأهرام في ١٠ آب (أغسطس) ١٩٤٣ جاء فيها:

«وإني مع عظيم تقديري لاهتمامكم بسيرتي، أجد من بواعث الاغتباط ـ بوصفي أمريكياً ـ أن يُنشر هذا الكتاب بالعربية عن رجل أمريكي، فإن الشعوب لا تتعارف إلّا بتبادل الحقائق، ولذلك أرجو أن يكون لقومك من هذا الكتاب النفيس وسيلةً لازدياد معرفتهم ببلادي وقومي، فنحن الأمريكيين نحرص على أن تعرف الشعوب كلّ ما يمكن أن يعرف عنّا وعن المبادئ التي نُمثّلها. فإنَّ في وسعها، بفضل هذه المعرفة، وبفضل تقديرها لولائنا الشديد للحرية، أن تعلم تمام العلم لماذا صحّت عزائمنا وعزائم الأمم الأخرى المحبّة للحرية على السير في هذا النضال العظيم المؤدّي إلى النصر، لكي نكفل للإنسانية حريّتها».

ومن مظاهر التكريم الأخرى التي أُسبغت على فؤاد صروف منحه وسام الاستحقاق اللبناني المذهّب، ووسام الأرز الوطني من رتبة قومندور، ووسام الاستحقاق السوري من الطبقة الممتازة، ووسام الأرز الوطني من رتبة ضابط كبير، ووسام الأرز الوطني من رتبة الوشاح الأكبر، ووسام الاستقلال من رتبة وشاح من المملكة الأردنية الهاشمية، والمدلّاة الذهبية لليونسكو، وجائزة أصدقاء الكتاب اللبناني، وجائزة أصدقاء الكتاب في العالم.

وأقول كمصريّ تابع عن قرب خدمات فؤاد صرّوف التي أسداها إلى العلم

والثقافة في مصر ابتداءً من عام ١٩٢٢ حتّى عام ١٩٥٢: إنني أفتقد بين آيات التكريم التي توالت على فؤاد صرّوف، آيةً ولو رمزية في مصر.

ولفؤاد صروف ابنة وحيدة هي ڤاليري صرّوف التي اختارت الفن المسرحي مسيرة عُمْرٍ ومنهاج حياة وأقامت - وما زالت تقيم - في لندن، وتمثّل على مسارحها الكلاسيكيات الشهيرة لشكسبير وسواه من أعلام المسرح مشتركةً في ذلك مع كبار الممثلين مثل السرلورنس أوليفييه. وقد شاركت مؤخراً في أمسية للشعر والموسيقى أقيمت في قاعة «ليتون هاوس» في لندن فألقت نصاً جبرانياً من كتاب «يسوع ابن الإنسان» عنوانه «مريم المجدلية»، على ما روت جريدة «الحياة» في عددها الصادر في ٢٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٩٣ حيث وصف جاد الحاج جوّ الحفل بقوله: إنه كان «بالغ اللياقة والمودة والدقة والشفافية، وعبّر عن ذلك تصفيق الجمهور وإعجابه وترحيبه بالظاهرة التي طالب كثيرون باستمرارها وجعلها تقليداً من أوجه النشاط الثقافي المتعدّد المفروض تواجده من منطق عربي». ولا عجب، فهذه العبقرية الفنية المتمثّلة في ڤاليري صروف هي ثمرة العبقرية الفكرية المتمثلة في أبيها فؤاد صروف.

وفي الأشهر الأخيرة من عام ١٩٨٤ زلّت قدم الدكتور فؤاد صروف، فهوى مرتطماً بالأرض على ظهره، وأصيب بكسور انصرف الأطباء إلى علاجها دون أن يفطنوا إلى أن الرأس قد ارتطم بالأرض ارتطاماً عنيفاً، وأن نزيفاً حدث في المخ لم تظهر أعراضه في حينها، فلّما ظهرت استعصت على العلاج. فقضى بضعة أسابيع في شبه غيبوبة في مستشفى الجامعة الأميركية إلى أن أدركته رحمة السماء التي كان يترجّاها بسبب الآلام التي كانت تنتابه، فمات عن ٨٥ عاماً وثلاثين يوماً في ٢٠ يناير ١٩٨٥.

❁ ❁ ❁

فيليب حتّي

في حياتنا الفكرية قمم شامخة لم يكن يدور في خلدي أن أتواصل معها أو أن تقوم بيني وبينها أدنى وشائج. ومن هذه القمم المؤرخ الدكتور فيليب حتّي أكبر مرجع أكاديميّ موثق لتاريخ العرب والشرق الأوسط في لغات الأعاجم، وأستاذ الأساتيذ في جامعة برنستن الأميركية، إذ تخرج على يديه عشرات من الباحثين الأميركيين والعرب الذين تخصصوا في تاريخ الأمة العربية وتراثها منذ فجر التاريخ. ولم أحلم أبداً أن أقترب من «الإمبراطورية الأكاديمية» ـ إنَّ جاز هذا التعبير ـ لهذا الأستاذ العظيم الذي تعرفه المجامع والموسوعات والجامعات، فضلاً عن الباحثين في ربوع العالم كلّه بعدما ترجمت مصنفاته الضخام إلى معظم لغات العالم الحيّة.

ولكن الأحلام والرؤى كثيراً ما تتحقّق بما يشبه المعجزة، إذْ وجدت في بريدي حوالي عام ١٩٥٠ مطبوعاتٍ كثيرة مرسلة من جامعة برنستن ومعها بطاقة تحيّة من الدكتور فيليب حتّي. وكانت تلك المطبوعات تمثل فصولاً مُستلّةً من دوائر المعارف العالمية فيها ما كتبه الدكتور حتّي عن العرب والإسلام والعلماء والمفكرين العرب في هذه الموسوعات. ولمّا كتبت إليه شاكراً ما بادأني به من فضل، ومستوضحاً كيفية «اكتشافه» لي ووقوفه على عنواني، أجابني برجوع البريد ـ ولم يتخلّف مرةً واحدة عن الردّ على أي رسالة من رسائلي ـ بأن صديقنا المشترك الدكتور «أحمد زكي أبو شادي» (١٨٩٢ ـ ١٩٥٥) هو الذي دلّه على عنواني ويسّر عليه الاتصال بي. ثم رجاني الدكتور حتّي أن أتحرّي ما عدّه جريمةً فكرية، وهي أن أستاذاً مصرياً في كلية دار العلوم قام بترجمة كتابه الباذخ «تاريخ العرب» المطوّل إلى اللغة العربية بغير أن يستأذن المؤلّف أو الناشر مع إغفال حقوق التأليف المعنوية والمادية. ولمّا تحريت الأمر تبيّنت أن الترجمة قد صدرت فعلاً، ولكنّني نبهت الدكتور حتي إلى أن مصر لم توقع اتفاقية بيرن الخاصة بحماية حقوق التأليف، وأن كل الآثار الغربية تعتبر كلأً مُباحاً للمترجمين

بلا ضابط، وأن حقوق التأليف ليست لها أي حماية قانونية. ثم قلت له: إن الملاحقة القضائية لمترجم كتابه لن تُجدي لانتفاء الجريمة طبقاً للقوانين السائدة في مصر، وإن الاعتبار الأهم بالنسبة لمؤلّف الكتاب هو أن يكون المترجم أميناً وأن تجيء الترجمة مطابقة للأصل الفرنجي. ومنذ ذلك الوقت اتصل بيننا الودّ، وصار يوافيني بكل مؤلفاته بمجرّد صدورها. قانعاً منّي بكلمة شكر لأنني كنت إذْ ذاك في سنوات الإزاحة من العمل الصحفي.

وفي المرة الأولى التي زار فيها الدكتور فيليب حتّي مصر، وكان قادماً من لبنان بعدما شفي من كسرٍ في ذراعه، رغب في الاتصال بي، فوافيته في الفندق الذي كان ينزل فيه مع زوجته اللبنانية الأصل «ماري جورج»، وكان معنا في هذا اللقاء البروفسير كريزويل (١٨٨٠ ـ ١٩٧٤) مؤلّف الكتب الضخام في الفنون والعمارة الإسلامية.

وإذا كان العرب يقولون: «من ألّف فقد استهدف» فقد استهدف الدكتور فيليب حتّي ولانتقادات جائرة من بعض الكتّاب العرب الذين اتهموه بأنه يؤرّخ للعرب على مزاج قرائه الغربيين وليس إنصافاً للعرب. وانتهزت فرصة هذا اللقاء لأسأله رأيه في هذه الانتقادات فقال: إن هؤلاء الناقدين يريدون منّي أن أكون رجل دعاية وليس مؤرخاً. فرجل الدعاية يؤوّل التاريخ على مزاجه، وقد يحوّل الهزائم إلى انتصارات، وقد يفلسف الفساد فيعدّه من آيات الإصلاح. ولكن المؤرخ الأمين يسجّل التاريخ بموضوعيةٍ كاملة، ويتجرّد من العواطف والأهواء.

واستطرد الدكتور حتّي فقال: «صحيح أنني عربيّ، وأن من أمنياتي أن أسجّل للعرب تاريخاً مشرقاً، ولكن ما حيلتي إذا ما كانت حقائق التاريخ مفجعةً وفي غير مصلحة العرب؟ وقارئي، وهو في الأغلب من الأكاديميين، لن يحترمني إذا رآني أكتب دعايةً لا تاريخاً، وأتناول الوقائع التاريخية وفقاً لأهواء أو نزعات، وإذا ما تبين أنني أعمل بالتزيين والتحسين والتزويق لصورةٍ قد تكون قاتمة في التاريخ. ولا تنس أنني أستاذ جامعي في المقام الأوّل، وهذا المنصب يقضي على صاحبه بأن يتّسم بالصرامة التامة في إيراد حقائق التاريخ. صحيح أن الوقائع قد تُحمل على أكثر من تأويلٍ واحد، ولكن تعدد الروايات يساعد المؤرخ الموضوعي على استخلاص الحقيقة المجرّدة منتزعةً من وسط الأهواء».

وأكّد لي الدكتور حتّي أنه قرأ كل كتب المؤرخين العرب قبل أن يخطّ حرفاً واحداً في كتبه، لأنه لا يؤلف التاريخ من بنات أفكاره بل من الأسانيد التي يعوّل عليها، ومن كتابات المؤرخين الذين عاصروا الوقائع وسجلوها من وجهة نظرهم.

وسألت الدكتور حتّي عن الذين يكتبون التاريخ المعاصر، سواء على هيئة مذكرات أو على هيئة شهادات على عصرٍ عاشوه، فقال إنه كمؤرخ لا يستطيع إهدار هذه الكتابات، ولكنه يطالعها بروحٍ انتقاديةً، ويضعها على المحكّ، ويقارنها بنظيراتها من الكتابات حول نفس الفترة، ولن يستعصي عليه بعد ذلك أن يرصد الحقيقة التائهة في هذه الكتابات. وقال إنه أخذ نفسه باجتناب التأريخ للحاضر لأنه كثير المزالق، ولم يتناول وقائع التاريخ المعاصر إلّا عَرَضاً في كتابه «الشرق الأدنى في التاريخ: حكاية خمسة آلاف سنة».

وسألت الدكتور حتّي كيف بدأت صلته بالتأليف، ولماذا اختار أن يؤلف كتبه عن تاريخ العرب باللغة الإنكليزية وليس باللغة العربية؟ فقال إن من أوائل الكتب التي أصدرها كتاب «الاعتبار» لأسامة بن منقذ، وقد قام بتحقيقه ونشره باللغة العربية طبعاً. إلّا أن اشتغاله بتدريس التاريخ في الجامعات الأميركية جعله يستشعر ما هنالك من نقص شديد في المراجع الإنكليزية عن تاريخ العرب، فسعى إلى تدارك هذا النقص بما أخرجه من نفائس الكتب، وأهمها «تاريخ العرب» المطوّل الذي ترجمه إلى العربية إدوار جرجي والدكتور جبرائيل جبور، وكتاب «تاريخ سورية ولبنان وفلسطين» الذي ترجمه إلى العربية الدكتور جورج حدّاد وعبد الكريم رافق والدكتور كمال اليازجي وراجع الترجمة الدكتورة جبرائيل جبور، وكتاب «لبنان في التاريخ» الذي ترجمه الدكتور أنيس فريحة وراجعه الدكتور نقولا زيادة، وكتاب «صانعو التاريخ العربي» الذي ترجمه الدكتور أنيس فريحة وراجع ترجمته الدكتور محمود زايد، وكتاب «الشرق الأدنى في التاريخ» وكتاب «الإسلام والغرب» وغيرها. وقال إن معظم هذه الكتب ترجم إلى نحو ٢٠ لغة عالمية، وما كان هذا ليتحقّق لو أنه ألفها باللغة العربية، ومع ذلك، فقد باتت كل هذه الكتب مُتاحةً للقارئ العربي بفضل الترجمة التي اضطلع بها هؤلاء المترجمون الأفذاذ.

ولد فيليب خوري حتّي في شملان بلبنان في الرابع والعشرين من حزيران (يونيو) ١٨٨٦ ودرس في جامعة بيروت الأميركية التي تخرج منها عام ١٩٠٨، ثم

سافر إلى الولايات المتحدة في عام ١٩١٣ لمتابعة دراساته العليا فظفر بدرجة الدكتوراه من جامعة كولمبية في عام ١٩١٥، وعرضت عليه الجامعة أن يعمل معيداً فيها فرحّب بعرضها وبقي يقوم بالتدريس إلى عام ١٩١٩ عندما قرر العودة إلى بيروت للعمل أستاذاً للتاريخ في جامعة بيروت الأميركية. وفي عام ١٩٢٥ قرر الهجرة إلى الولايات المتحدة، فاختارته جامعة برنستن أستاذاً للتاريخ العربي والآداب السامية، وإليه يرجع الفضل في إنشاء قسم لهذه العلوم في الجامعة تخرج منه أساتذة كبار مثل نبيه أمين فارس (١٩٠٦ ـ ١٩٦٨) وبايلي وايندر، وبطرس عبد الملك، وإدوار جرجي، وجورج المقدسي. وانتدب أستاذاً زائراً في جامعة هارڤرد الأمريكية وفي جامعة سان باولو في البرازيل. واختير عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية بدمشق، وفي الجمعية الهندية العربية في بمباي، وأسس الجمعية السورية التعليمية في أمريكة ورأسها، وشارك في تحرير صحف المهجر الشمالي. وبفضله أنشيء المعهد البرازيلي للثقافة العربية وكرسي للغة العربية في جامعة سان باولو.

ومنح في عام ١٩٥٣ وسام الشرف اللبناني، ثم وسام الأرز اللبناني في عام ١٩٥٦، ومنحته الحكومة السورية وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى، كما منح عدداً من درجات الدكتوراه الفخرية من جامعات العالم. وأهدته مصر وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى.

وبفضله احتفت مكتبة جامعة برنستن بالمخطوطات والمؤلفات العربية والسامية، وبعضها نادر، كما أشرف على عشرات من أطروحات الماجستير والدكتوراه.

وفي عام ١٩٦٠ صدر عنه كتاب تكريمي حرّر مادته زملاؤه وطلابه اعترافاً بفضله عليهم وعلى تراث العرب التاريخي. وقررت جامعة برنستن إنشاء منحة دراسية باسمه تقدم لأنبغ طلاب التاريخ.

وللدكتور فيليب حتي ابنة واحدة اسمها ڤيولا ـ التي ألّفت كتاباً عن لبنان: الشعب والأرض ـ وقد زوّجها إلى أوفى تلاميذه ريتشارد بايلي وايندر الذي خلفه في جامعة برنستن، وورث عنه ذخيرةً تاريخية من الكتب التي تتناول التاريخ العربي. وقد سمعت أن مكتبة بايلي وايندر آلت إلى المملكة العربية السعودية لتكون نفائسها في متناول الباحثين.

توفي الدكتور فيليب حتّي في الرابع والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٨ عن اثنين وتسعين عاماً. ويبدو أن حبّ العلم أصيل في أسرة حتّي، لأن شقيقه الطبيب يوسف حتي هو صاحب «معجم حتّي الطبي» باللغتين الإنكليزية والعربية مع مسرد باللغة العربية، وقد صدرت طبعته الأولى ضمن منشورات العيد المئوي لجامعة بيروت الأميركية.

كان الدكتور حتي دقيق الحجم طلق المحيا وإن كان قليل الابتسام. يستقبلك بتواضع جميل وكأنه ندٌّ لك مع ما قد يكون بينك وبينه من برزخ سحيق من الفوارق الفكرية. يشعرك من أول لقاء بأنه صديق لك، ويظلّ اسمك عالقاً في ذهنه مع ترادف الأيام. عُرف بالترفع الخلقي وباستقامة حياته في الجامعة وخارجها. قال لي في إحدى رسائله إنه يتطوّع للقيام بأعمال كثيرة خدمة للعلم أو للنشاط العربي في الولايات المتحدة، ولكن زوجته كانت ترى في هذا تبديداً لطاقته قائلة له إن أسرته أولى بهذا النشاط، كما أن حقوقه التي يتنازل عنها طوعاً هي حقوق أسرته التي كان ينبغي أن يحرص عليها.

وصفه الشاعر جورج صيدح (١٨٩٣ ـ ١٩٧٨) بأنه «العالم التاريخي الأشهر وأنه كان ولم يزل حجة العرب في العالم الجديد. يناظر ويحاضر ويكتب عن قضيتهم منذ أربعين عاماً. وقد نقشت الحكومة الأميركية اسمه على حائط المعرض العالمي في نيويورك بين اثني عشر اسماً لعظماء الرجال الذين أتحفوا الديمقراطية بآثار ذات شأن».

وقال عنه رصيفه وصنوه فيلسوف التاريخ المعاصر الدكتور قسطنطين زريق، (١٩٠٩ ـ ٢٠٠٠) «تميَّز الدكتور حتّي بوضوح التفكير وسلامة التعبير محاضراً وخطيباً في المحافل العلمية والأدبية. ونشر، إلى جانب مؤلفاته العديدة، طائفةً كبيرة من المقالات والأبحاث، نثرها في المجلات العلمية في الغرب وفي دوائر المعارف الكبرى، ومعظمها يدور على مآثر الحضارة العربية، وبذلك سبق الإعلام العربي إلى التعريف بالعرب والإسلام والحضارة العربية والإسلامية منذ الثلاثينات من هذا القرن، كما كان من أشدّ المدافعين عن الحق العربي في فلسطين، إذ كثيراً ما دحض أقوال الأساتذة الصهيونيين، وفنّد دعاواهم بالحجج التاريخية، وتحمّل من أذاهم ما لا يعرفه إلّا المقرّبون إليه. وكان بيته مَحَجَّةً للعديدين من العلماء والأساتذة من لبنانين وعرب، ومحطة لكبار الزوار، يستفتونه

في القضايا التي تهمهم ويفيدون من خبرته وعلمه». وأضاف قوله: «تمّت للدكتور حتّي شخصية غنية برزت من عدة نواح، أهمها الباحث والمؤلف والمربي والعالم النفساني... أما حتّي الإنسان فلا أطهر ولا أنبل».

وقال عنه نجيب العقيقي (١٩١٦ ـ ١٩٨١) في سياق حديثه عن الاستشراق والمستشرقين: «لقد جمع الدكتور حتّي في مؤلفاته ستة آلاف سنة من التاريخ العربي، وعُني بالناس في حياتهم وأديانهم ولغاتهم وثقافاتهم واقتصادياتهم ومجتمعاتهم كأساس لتنوع وتطور حضاراتهم.... وإليه يعزى الفضل في إصدار أول كتاب عربي نشرته جامعة برنستن عن تاريخ مكتبتها. كما أسهم في تحرير دائرة المعارف الإسلامية، ودائرة المعارف البريطانية، وعين محرراً استشارياً للإسلام في دائرة المعارف الأميركية، ومحرراً استشارياً ليكولام، ومحرراً استشارياً لمعجم وبستر ودائرة المعارف للعلوم الاجتماعية، وعضواً في هيئة المحررين للندوات في لجنة جاريت للمخطوطات الشرقية».

رجلٌ هذا بعض فضله جعلني أردّد بعد لقائي الوحيد معه قول الشاعر:

وَتَحْسَبُ أَنَّكَ جِرْمٌ صَغِيْرٌ ... وَفِيْكَ انْطَوَىٰ العَالَمُ الأَكْبَرُ

❁ ❁ ❁

قدري حافظ طوقان

لم تبهرني شخصية قدري حافظ طوقان عندما قابلته للمرة الأولى في عام ١٩٤٨ ـ أي منذ أكثر من نصف قرنٍ ـ فقد كان منكوش الشعر، قصير القامة، واضح التوتر والانفعال، قليل الحفاوة بهندامه، حاسماً باتراً في كلامه، فلا يتيح لأحدٍ أن ينازعه في الحجج التي يسوقها لثقته التامة في أن كل ما يصدر عنه قولاً إنما هو كالمعادلات الرياضية التي لا تخطئ. وقد عزوت هذا التوتر وذاك الانفعال إلى النكبة النكباء التي حلّت بوطنه وزلزلت جنبات العالم العربي كله، إذ كنّا وقتها في شهر تشرين الأول (أكتوبر) أي بعد خمسة أشهر من كارثة فلسطين عندما هبط القاهرة قدري حافظ طوقان للمشاركة في مؤتمر علمي، وكان من عادته ـ حسب تعبيره ـ أن يحجّ إلى دار مجلة «المقتطف» كلّما زار القاهرة لأنها المجلة التي احتضنت آثاره العلمية منذ عام ١٩٣٠، أي بعد سنةٍ واحدةٍ من تخرّجه بدرجة بكالوريوس في العلوم الرياضية من جامعة بيروت الأميركية، وهي المجلة التي استكتبته فصلاً في كتاب «نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية» بالمشاركة مع الدكاترة زكي محمد حسن، وعبد الوهاب عزّام، وإسماعيل أحمد أدهم، والأستاذ إسماعيل مظهر لتقديمه كهديّة المقتطف السنوية لقرّائها في عام ١٩٣٨، وهي المجلة التي احتفت بكتابه الباذخ الرائد «تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك» فنشرته في عام ١٩٤١ لتقديمه هديةً إلى قرائها في تلك السنة. وكنت وقتها من العاملين في «دار المقتطف والمقطم» وكانت غرفتي ملاصقةً للغرفة الوحيدة التي تحتلّها مجلة «المقتطف»، فكان طبيعياً أن ألتقي بقدري حافظ طوقان في زياراته المتكرّرة للمجلة حيث أهداني كتابه «بين العلم والأدب» الصادر عن مكتبة فلسطين العلمية بالقدس في عام ١٩٤٥ وكذلك محاضرته المنشورة عن «الأسلوب العلمي عند العرب» التي ألقاها في كلية الهندسة بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة الآن) عام ١٩٤٦ بوصفها المحاضرة السابعة في سلسلة محاضرات ابن الهيثم التذكارية.

ولكن الطابع الجادّ الذي بَادَهَني في قدري حافظ طوقان سرعان ما تكشّف عن روح مرحة، فإذا الكلفة مرفوعة، وإذا المشَاعر الودّية غالبة، وإذا الأخوات مبذولة بغير تحفظ. على أن استغراقه في المباحث العلمية ومهامّ التدريس وانشغاله بهموم أمّته وحرصه على المشاركة في المؤتمرات العلمية العربية والأوربية أنسته أن يلتفت إلى حياته الخاصة، فقضى عمره بغير زواج، وعاش في مدينته نابلس كالناسك في محراب، مختصراً كل حياته في القراءة والكتابة، مُزوراً عن الأنشطة الاجتماعية التي لا يرى منها جدوى، ولكن إنْ ناداه داعي الوطن لبّى دعوته. فانتخب عضواً في البرلمان الأردني مرتين، واختير وزيراً للخارجية في الأردن في عام ١٩٦٤. كما أن التزامه بالمباحث العلمية لم يحل دون تفكيره في مستقبل أمّته بعد كارثة فلسطين، فوضع كتاباً عنوانه «وعي المستقبل» رسم فيه للعرب أسلوباً للعيش يخرجهم من وهدة الهزيمة، ووضع كتاباً آخر عنوانه «بعد النكبة» أكّد فيه على «أن العلم والأسلوب العلمي والحرمان (من مظاهر الترف) والإيمان بحق الحياة هي الأركان التي يقوم عليها الخلاص والكرامة والكيان الوطني. وهذا ما يجب أن يتفهّمه العرب ويؤمنوا به ويعملوا على تحقيقه في سائر الديار والأمصار».

صدرت بعد النكبة طائفةٌ من الكتب التي تعتبر نقداً للذات، ومحاولةً لاستخلاص العبر من هذه الداهية الدهياء، فأصدر الدكتور قسطنطين زريق كتاب «معنى النكبة»، وأصدر عارف العارف كتاب «النكبة»، وأصدر نمر الخطيب كتاب «من أثر النكبة» بل ذهب الدكتور صالح الأشتر إلى تبيان أثر النكبة في الشعر فأخرج كتابه «في شعر النكبة»، ولم يتخلّف قدري حافظ طوقان عن الإدلاء بدلوه في هذه السلسلة من كتب النكبة، ولا سيما لأنها تمسّ وطنه في الصميم.

كان قدري حافظ طوقان من أوائل الذين نبّهوا إلى فضل العرب في تطوير العلوم وإنهاضها، فاعتُمدت كتبه كمراجع موثوق بها في تاريخ العلوم العربية وفي الموسوعات مثل «موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين» التي وقف على إعدادها ونشرها الدكتور رؤوف سلامة موسى. ولا غرو، فقد آمن قدري طوقان بأن رسالته الأولى في الحياة هي التعريف بآثار العلماء العرب، وبما كان لكثيرين منهم من سبقٍ في الاهتداء إلى النظريات العلمية وفي الكشوف الخاصة بالفلك وهندسة الكون. ولا عجب أن يكون هذا العالم المتنسّك في نابلس ـ وما هي

بحاضرةٍ أو عاصمة كبرى ـ كسباً للمجامع والهيئات العلمية، فاختير رئيساً للجمعية الأردنية للعلوم، وللاتحاد العلمي الأردني، ونائباً لرئيس الاتحاد العلمي العربي بالقاهرة، ومستشاراً للدراسات العربية في معهد آسية في نيويورك، وعضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق (مجمع اللغة العربية بدمشق الآن)، وفي مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وفي المجمع العلمي لدول البحر المتوسط بإيطالية، وفي جمعيات العلوم الرياضية في أميركة وإنكلترة، وفي المجلس الأعلى للتعليم في الأردن، وفي مجلس أمناء الجامعة الأردنية، وفي اللجنة القومية لليونسكو في الأردن. وكانت له مشاركات في أكثر من ٢٠ مؤتمراً علمياً في عواصم العالم المختلفة، ومُنح أوسمةً رفيعة من مصر والأردن والمغرب، كما منحته جامعة البنجاب الباكستانية درجة الدكتوراه الفخرية في عام ١٩٦٥.

ولد قدري حافظ طوقان في مدينة نابلس في عام ١٩١٠ ودرس في مدارسها حتى استكمل دراسته العليا في بيروت وعاد في عام ١٩٢٩ ليعمل مدرّساً في كلية النجاح الوطنية في نابلس، وعُيِّن مديراً لها بعد استقالة مديرها السابق في عام ١٩٥٠. وقد تحولّت كلية النجاح في ما بعد إلى جامعة، وليتهم أطلقوا عليها اسم قدري حافظ طوقان، لأنه بذل في سبيل النهوض بها ودعم مناهجها وتعزيز مرافقها وإغناء مكتبتها همّةً امتدت على مدى العمر كله.

وشارك قدري حافظ طوقان في الحركات الوطنية في فلسطين وفي المظاهرات التي نُظِّمت والمؤتمرات السياسية التي انعقدت ممّا عرّضه للنفي تسعة أشهر في الحفير وصرفند.

وعندما قابلت الشاعرة فدوى طوقان للمرة الأولى في شهر أيار (مايو) ١٩٩٧ في باريس، وكانت وقتها تشارك في مهرجان الربيع الفلسطيني الذي أقامه معهد العالم العربي، وقلت لها إنني كنت صديقاً لابن عمها قدري حافظ طوقان، ارتفعت قامتي في نظرها، لأن قدري حافظ طوقان مفخرة لأسرته وعلى الصعيدين المحلي والقومي.

وكنت سألت قدري حافظ طوقان: هل كان اختياره في عام ١٩٦٤ وزيراً لخارجية الأردن وضعاً للرجل المناسب في المكان المناسب؟ أَوَ لَمَ يكن منصب وزير المعارف أو الثقافة هو الأحقّ بشغله؟ فأجاب بقوله إنه لم يسع إلى

المنصب، وإنما جاءه المنصب كتكليف قوميّ، فلم يشأ أن يتقاعس عن النهوض به، ولا سيما لأن الوزارة تعدّ امتداداً طبيعيّاً لمن انتخب مرتين عضواً في البرلمان الأردني. وقال إن توليه مقاليد وزارة الخارجية هيّأ له فرصة إصلاح كل ما أفسدته السياسة بين الدول العربية، فقام بإعادة ما انقطع من علاقات، وتعزيز ما تراخى منها، وجَعَلَ وَكْدَهُ وَهَمَّهُ أن تكون العلاقات الرسمية بين الدول العربية والأردن على أعلى مستوى وأطيبه. وقال إنه بتحقيق هذه الغاية لم تعد له مطامع في المناصب الوزارية، فتركها بكل طقوسها البروتوكولية الشكلية وبكل مناوراتها اللولبية لكي يتفرّغ لكتبه وأوراقه. ثم استدرك قائلاً: أيهما أنفع لبلادي وأمة العرب؟ أن أشغل منصباً إدارياً كوزير للمعارف أو الثقافة، أو أن أُخرج ذخيرةً من المؤلفات العلمية التي تذكّر بماضي العرب المجيد، وتحدو الهمم إلى مستقبل أمجد وأبعد إشراقاً؟ تأمّل لائحة كتبي حيث أضفت إلى المكتبة العربية (عدا ما سلفت الإشارة إليه) المؤلفات التالية: مقام العقل عند العرب، والعلوم عند العرب والمسلمين، والأسلوب العلمي عند العرب، وأثر العرب في تقدم علم الفلك، وابن حمزة والتمهيد إلى اللوغاريتمات، والعلوم عند العرب، والخالدون العرب، والروح العلمية عند العرب والمسلمين، وحيوية العقل العربي في نقد الفكر اليوناني، وأبو الريحان البيروني، والكون العجيب، والعيون في العلم، وبين البقاء والفناء، والنزعة العلمية في التراث العربي، ونشاط العرب العلمي (مع آخرين)، وجمال الدين الأفغاني. ثم قال: إن وزير المعارف أو الثقافة يستطيع أن يرسم سياسة عامة لوزارته، ولكن هل يستطيع أن يُخرج لأمّته مثل هذا القدر من المؤلفات، وهي مصنفات توخيّت في كتابتها منهاج التبسيط حتى لا تستعضل قراءتها على طالب علم؟ ولا تَنْسَ ما كتبته من عشرات من المقالات العلمية في المجلات الثقافية ولا ما ألقيته من محاضرات علمية من منابر كثيرة.

ولو قد مُدّ في عمر قدري حافظ طوقان لأغنى الضاد بمزيد من مؤلفاته العلمية ولكن الأقدار لم تمهله إلّا واحداً وستين عاماً، إذْ توفي في بيروت في السادس والعشرين من شباط (فبراير) ١٩٧١ وهو يعالج من أزمة صحيّة أصابته قبل أن يركب الطائرة متوجهاً إلى القاهرة للمشاركة في المؤتمر السنوي لمجمعها.

ولعلّ من أكبر العلماء الذين عرفتهم مصر الدكتور علي مصطفى مشرفة باشا

(١٨٩٨ ـ ١٩٥٠) الذي تتلمذ على العلامة ألبرت أينشتاين (١٨٧٩ ـ ١٩٥٥) صاحب نظرية النسبية، وصار مشرّفة يعرف بأينشتاين المصري. وقد احتفى مشرفة بكتاب «تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك» لقدري حافظ طوقان فكتب في تقديمه للكتاب يقول: «ليس بغريب أن تتوافق خواطري مع خواطر طوقان، إذ بيننا صلة قوية، هي صلة الثقافة العربية التي يجري دمها في عروق المصري والشامي والعراقي والمراكشي على السواء... وقد قرأت الكتاب فوجدته قد جمع بين الدقة العلمية واللذة الفكرية... وإنني أهيب بكل ناطق بالضاد أن يقرأ هذا الكتاب وأن يمعن النظر فيه وأن يتشبّع بروحه... إنني أشعر وأنا أكتب هذه الكلمة أن عصراً جديداً قد بدأ في الشرق يشبه عصر النهضة في أوربة. فكما أن الأوربيين عندما أفاقوا من قرونهم الوسطى عمدوا إلى إحياء ما فيهم فبعثوا الثقافة الإغريقية وجعلوا منها أساساً لنهضتهم، كذلك نحن في الشرق قد هدانا وحي السليقة إلى منابع عظمتنا، فرجعنا إلى ماضينا ليكون قاعدةً لصرح تقدّمنا».

وفي ١٥ شباط (فبراير) ١٩٧٢ أقام مجمع اللغة العربية في القاهرة حفلاً لتأبين قدري حافظ طوقان تحدّث فيه زكي المهندس (١٨٨٧ ـ ١٩٧٦) نائب رئيس المجمع فقال: «إن الفقيد كان من رجال العلم القلائل الذين اجتمعت لهم دقة العالم وخيال الأديب، وعهدنا بكثير من رجال العلم أنهم لا يحفلون بالأدب ولا يقيمون له وزناً في حياتهم... كان عالماً أديباً وأديباً عالماً. وإذا كان العلم يمثّل العقل الإنساني في أعمق صوره، فإن الأدب يمثل العاطفة الإنسانية في أنبل صورها ومظاهرها».

ورثاه عالم النبات الدكتور عبد الحليم منتصر (١٩٠٨ ـ ١٩٩٢) بقوله إنه: «كان خيرسفير علمي للفكر العربي في الدول الأجنبية... إن فقيدنا العظيم ليدعو الأمة العربية إلى الأخذ بالروح العلمية التي تجلّت في التراث العربي عند العلماء العرب والمسلمين، تلك الروح التي تمجّد العقل وتدعو إلى التجربة والتجديد واحترام الأمانة العلمية والإخلاص للحق والحقيقة وتقديس حرية الفكر، والانعتاق من أغلال التقليد، وتدفع إلى التطور، وبذلك يدفع المجتمع العربي إلى التقدم المستمر والنمو المتواصل، وتحول دون تعطيل العقل وتجميده، فينطلق متحرّكاً خلّاقاً مُنتجاً في سائر ميادين الحياة».

وعندما اختار مجمع القاهرة الدكتور ناصر الدين الأسد، أطال الله بقاءه،

خلفاً لقدري حافظ طوقان في عضوية المجمع، خاطب زملاءه المجمعين بقوله: «أشفقت على نفسي الإشفاق كلّه أن أخلف في مجمعكم عضواً كان لاسمه من الدويّ في أقطار وطننا العربيّ وفي بعض الهيئات العلمية الأجنبية ما يجعله أكبر من كلمة يقولها فيه مثلي. وهل في بلادنا العربية بين مثقفيها وعلمائها وأدبائها من لم يسمع باسم قدري حافظ طوقان، ومن لم يقرأ له بعض نتاجه العلمي؟».

وأشار الدكتور الأسد إلى أن لقدري حافظ طوقان خصائص أساسية في كل إنجازاته تتمثّل في عنايته المتصلة بالتعريف بتراث العرب العلمي في شتّى ميادينه، وخاصة في الرياضيات والفلك، ودعوته الدائبة إلى وصل حاضرنا بماضينا الزاهر، والسعي إلى تبسيط المعرفة العلمية وتقريبها إلى عقول الناشئة، وحرصه على إشاعة المعرفة العلمية وجعلها جزءاً من ثقافة المرء العامة ومن تكوينه العقلي والخلقي وأسلوبه في التفكير». وأشاد الدكتور الأسد بجهود قدري حافظ طوقان في سكّ المصطلحات العلمية السائغة بما يتفق مع فلسفة اللغة العربية.

وإلى جانب هذه الشهادات العربية الناطقة بفضل قدري حافظ طوقان، فقد حظي بتقدير العلّامة الأميركي جورج سارطون صاحب الكتاب العمدة «تاريخ العلم» الذي لا يقل انصافاً للعلماء العرب والمسلمين عن كتاب «تراث الإسلام» للمستشرقيْن شاخت وبوزورث.

❁ ❁ ❁

قرياقص ميخائيل

عمدة في لندن من صعيد مصر

كنت ما زلت حديث عهدٍ بالعمل في الصحافة، أتلّمس طريقي في دروبها الشاسعة، وأحاول الإلمام بأخبار السابقين من أعلامها، والتعرّف بكبار العاملين في ميدانها، عندما أقبل على مكتبي في جريدة «المقطم» رجل قصير بدين، في يسراه عكازة، غاضت عيناه، وشاب شعر رأسه، وقال لي بلهجة صعيدية محبّبة وبروح ودّية رقيقة «أنا قرياقص ميخائيل، فهل تسمح لي بأن أجلس معك قليلاً للتعارف؟» فرحّبت به وأنا أُسائل نفسي: «مَنْ يكون هذا القرياقص ميخائيل، وأية جامعة تجمعني به؟» وبسبب عفويته وعذوبة شخصيته، لم أملك إلّا أن أُعير له أذناً صاغية، فقال: «إنني زميل لك، أعمل بالصحافة في لندن حيث أعيش منذ خمسين عاماً متطوّعاً لخدمة القضية المصرية وقضايا العرب جميعاً». ثم أخرج من حافظته كتيّباً عنوانه «جهاد شاب وطني» ألّفه عنه توفيق حبيب (١٨٧٩ ـ ١٩٤١)، وهو «الصحفي العجوز» الذي كان يحرّر في جريدة «الأهرام» عموداً يومياً بعنوان «على الهامش»، كما أخرج مجموعةً من الكتيبات المطبوعة باللغة الإنجليزية عنوانها «نشرة مصرية» Egyptian Journal ومجموعة أخرى عنوانها «تذكارات» Souvenirs ومجموعة ثالثة عنوانها رسائل دورية Circulars صادرة عن مكتب الأنباء والاستعلامات المصري في لندن المنشأ في عام ١٩١٠ وهو ـ كما جاء في عنوان الرسائل «أقدم مكتب مصري مستقلّ في العالم المتحضر». ثم قال: «لن أزعجك بالحديث عن نفسي، وستعرف من أنا عندما تطالع هذه الكتيبات التي أهديك إياها». وانصرف معتذراً عن إضاعة وقتي، ومبدياً اغتباطه بالتعرف بصحفي شاب تابع ما كان ينشره من مقالات الصدر في الجريدة المسائية العتيقة «المقطم» سواء وهو في لندن أو بعد وصوله إلى القاهرة. ووعد بأن يزورني في اليوم التالي لمزيد من التعارف.

وعكفت في المساء على مطالعة هذه الكتيبات، فبهرتني شخصية هذا الرجل الذي خرج من أعماق الصعيد وهو شاب لم يظفر بأي دراسة عليا، وجعل من لندن مستقرّه، ونصّب نفسه محامياً متطوعاً عن قضايا أمّته. فإذا قرأ مقالاً في جريدة إنجليزية ينكرفيه كاتبه على مصر حقّها في الاستقلال ردّ عليه مفنّداً حججه. وإذا سمع تصريحاً لسياسي بريطاني ضد مصر، تصدّى له بالرد والمحاجّة. وقد أعانه على ذلك تمرسّه بالتقاليد الغربية التي أكسبته من المصداقية ما جعل منه لساناً خليقاً بالاحترام في أدغال الصحافة البريطانية زمن الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس!.

في مدينة المراغة، مركز سوهاج، محافظة جرجا، ولد قرياقص ميخائيل عام ١٨٨٧ في أسرة قبطية. ولمّا بلغ سنّ التلقين، ألحقه أبوه في مدرسة بسطابك في سوهاج، وكانت من أكبرالمدارس وقتها، وانتقل منها بعد ذلك إلى كلية الأمريكان في أسيوط، ثم التحق بمدرسة الأقباط الكبرى بالقاهرة حيث أتمّ المرحلة الثانوية وعمره ١٦ عاماً.

وكان وهو طالب مولعاً بقراءة الصحف ومتابعة أخبار الجهاد الوطني في سبيل الاستقلال. فلّما عين مدرساً في مدرسة أهلية في بلدة ميت يشّار بمحافظة الشرقية ـ وصار بعد ذلك ناظراً لها ـ أخذ يراسل جريدة «إجبشيان جازيت» وصحيفتي «المؤيد» للشيخ علي يوسف و«الوطن» لجندي إبراهيم.

ولكنه برم بالتعليم، وازورّ عن ميدانه بعد أربع سنين، واتّخذ من الإسكندرية مقراً له في عام ١٩٠٨، وفيها تتلمذ على يدي أستاذ إرلندي، قرأ عليه طائفةً من كتب الأدب الإنجليزي، ودرّبه على الكتابة باللغة الإنجليزية. وفي الثغر، أنشأ «المكتب المصري للأخبار والاستعلامات» وفتح له في عام ١٩١٠ فرعاً في لندن.

وكان المعتمد البريطاني في مصر السر إلدون غورست (١٨٦١ ـ ١٩١١) قد استخفّ بالحركة الاستقلالية المصرية، فانبرى له قرياقص ميخائيل يردّ عليه بمقال بعث به من الإسكندرية إلى جريدة التيمس اللندنية، ولكن الجريدة ردّته إليه معتذرة من عدم نشره. فبعث بنفس المقال إلى جريدة بريطانية أخرى هي «پول مول جازيت» التي نشرته في مكان بارز من صفحاتها، ممّا شجع قرياقص

ميخائيل على مكاتبة الصحف البريطانية، بل شجعه على السفر إلى لندن والإقامة فيها حتى يناوئ الاستعمار البريطاني في عقر داره.

واستكمالاً لأدواته، التحق بكنجز كوليج وبغيرها من المعاهد البريطانية التي تسمح بدراسات حرّة، حيث درس القانون الدولي وقوانين النشر والصحافة والقانون الإنجليزي وتاريخ الشرق الأدنى وتاريخ أصل الشعوب ومبادئ الفلسفة والمنطق وعلم النفس وتاريخ الاقتصاد والمال. والتحق بمعهد الصحفيين في لندن رغبةً في الحصول منه على «دبلوم في الصحافة»، ولكن المعهد أباه عليه بسبب نشاطه السياسي. كما أن «نادي الصحافة بلندن» أنكر عليه عضويته لنفس هذا السبب.

ورغبةً من قرياقص ميخائيل في الاستقرار المالي، أنشأ في لندن مكتبة الأسد الأحمر Red Lion للتعامل في الكتب القديمة، ووقع في أثناء ذلك على مستندات قوامها ٨٠٠ مستند عن أيام الخديوي إسماعيل، وكثير منها بخط الخديوي نفسه أو بخط ابنه الأمير إبراهيم حلمي. فلما انتهى خبرها إلى الملك فؤاد، أصدر أمره بشرائها، ولا سيما لأنها تُميط اللثام عن الخطط الواسعة النطاق التي كانت تدبّر لعزل الخديوي توفيق وإعادة أبيه إلى دست الحكم.

وعندما أُعلن في الصحف البريطانية عن بيع متروكات المحامي الإنجليزي برودلي ـ الذي دافع عن أحمد عرابي باشا عام ١٨٨٢ وألف كتاباً بالإنجليزية عنوانه «محاكمة عرابي باشا والعفو عنه» The Trial and Pardon of Orabi pasha، دخل قرياقص ميخائيل المزاد العلني واشترى هذه الأوراق ثم أودعها خزانةً في البنك حتّى لا تتعرّض لمكروه، وبقيت في حيازته إلى أن آلت بعد ذلك إلى الحكومة المصرية.

وكان من عادة قرياقص ميخائيل عند اقتنائه أي كتاب عن مصر أن يفتح صفحة المراجع. فإذا تبيّن أن فيها مرجعاً لم يسبق له اقتناؤه، سواء أكان كتاباً أم مجلة، طاف بالمكتبات البريطانية بحثاً عنه. وإنْ لم يهتد إلى ضالته، نشر إعلاناً مأجوراً في الصحف مبدياً فيه رغبته في شراء هذا المرجع. وكثيراً ما كان يتلقى رسائل ممّن يقتنون هذا المرجع من أي صقع من أصقاع الإمبراطورية البريطانية سواء أكانوا في روديسية أم في جنوب إفريقية أم في الهند أم في أستراليا أم

كندة، فيبادر إلى شراء المرجع المطلوب منهم. ومع الوقت صارت لديه مكتبة فريدة عامرة بالمؤلفات الإنجليزية القديمة والحديثة عن مصر، وظل يحتفظ بها ويحرص عليها وينمّيها إلى أن علت سنّه وضعف بصره وخشي عليها من التبديد في المستقبل، ولا سيما لأنه لم يتزوج، ولم يكن له إلا ابن تبنّاه قرياقص بعد وفاة أبيه المصري وكان ثمرة حبّ بين هذا المصري وسيدة إنجليزية، فلّما نشبت الحرب العالمية الثانية جندته الحكومة البريطانية ولقي علي التوني - وهذا هو اسمه - مصرعه فيها. وعندما علم الدكتور طه حسين بأمر هذه المكتبة، أوعز وهو وزير للمعارف باقتنائها، وضمّت إلى دار الكتب المصرية.

وكان قرياقص ميخائيل يشترك في وكالاتٍ لقصاصات الصحف البريطانية، توافيه في كل يوم بكل ما ينشر عن مصر في جميع صحف الجزيرة البريطانية، فيستعين بها في إعداد ردوده على افتراءاتها. ولمّا تقدمت به السنّ لم يقطع اشتراكه فيها، بل صار يوافيني بها بانتظام لأستعين بها في عملي الصحفي.

وكانت حركة الزعيم سعد زغلول باشا قد اختارته وكيلاً لها في بريطانية، فكثّف من نشاطه السياسي أثناء الثورة المصرية عام ١٩١٩، ممّا أوغر عليه صدر السلطات البريطانية التي بادرت باعتقاله، وبعد أربعة أيام رحّلته إلى مصر حيث كان ينتظره اتهام جديد مُلفَّق بأنه عضو في «جماعة الانتقام» وهي جهاز سريّ يأتمر بأوامر سعد زغلول باشا ويضم ٢٨ شخصاً، وهدفه خلع السلطان واغتيال الإنجليز وقلب نظام الحكم. وكان على رأس المتهمين في هذه القضية عبد الرحمن فهمي بك - مدير بني سويف السابق - وإبراهيم عبد الهادي باشا الذي تولى عدة وزارات ورأس الوزارة فيما بعد، وتوفيق صليب الذي صار في وقت لاحق مديراً للمطبوعات والصحفي حامد المليجي. (وفي مذكرات سعد زغلول التي نشرها مصطفى أمين في ١٩ أغسطس ١٩٦٣ بجريدة «الأخبار» حديث عن هذا الجهاز السري).

وقد نُظرت هذه القضية أمام محكمة عسكرية بريطانية، واستمرت ثلاثة أشهر - عدا نحو عامين قضاهما المتهمون رهن الاعتقال - وانتهت بتبرئة قرياقص ميخائيل، وإنْ كان الجنرال البريطاني الذي رأس المحكمة خاطبه بقوله: «إن المحكمة قررت بعد تردد شديد الإفراج عنك». (وقد أملى قرياقص ميخائيل عليَّ مذكراته حول هذه القضية، وما زلت أحتفظ بها دون أن تسنح فرصة لنشرها).

وبعد تبرئته عاد إلى لندن ليمارس نشاطه المتعدّد الجوانب كصحفي يراسل عدداً من الصحف المصرية، وكمدير لشركة قرياقص ميخائيل المحدودة للتجارة والاستيراد، فاستقرت أوضاعه المالية، واقتنى بيتاً واسعاً صار قِبْلَةً للمصريين الذي يزورون بريطانية، بل استضاف فيه الإمبراطور هيلاسلاسي إمبراطور الحبشة عندما لجأ إلى بريطانية هرباً من الغزو الإيطالي لبلاده، والأمير سعود بن عبد العزيز ولي عهد المملكة العربية السعودية (وملكها فيمابعد) والخديو المخلوع عباس حلمي الثاني، وسماحة الحاج محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين الأكبر وغيرهم. وكان يضع سيّارته بسائقها تحت تصرّف كبار المصريين والعرب الزائرين لبريطانية، وكأنه وكيل أعمال متطوع لكل من يقصد بيته، فهو عمدة صعيدي، وبيته هو «دوّار العمدة»، وموائده تقدم عليها الأطعمة المصرية بعدما صارت مدبّرة بيته الإنجليزية تتقن صنعها بإشرافه. وقد مازحه صديقه مجد الدين حفني ناصف بمقطوعة زجلية قال فيها:

أَخُوْ كُلِّ مَصْرِي لَازِمْ لَهُ قَرِيْب ... وضَامِنْ وشَاهِدْ وتَحْتِ الطَّلَبْ
مُعَلِّم، مُتَرْجِمْ، مُؤَلِّفْ، أُدِيْب ... ومَكْتَبْ مُخَدَّم، وبَيَاعْ كُتُبْ
وِدَهْ كُلُّه رَاجِعْ يا ابْنِ الحَلَالْ ... لِأَكْلِ «المُلُوْحَة» وعيْش الضُرَهْ
مَنِيْش قادِرْ أَفَسِّرْ وُجُوْد الاحْتِلال ... دا حِتَّةْ صَعِيْدِي فَتَحَ (لُنْدَرَه)[1]!

وظل قرياقص ميخائيل محافظاً على صعيديته في لهجته وفي مسلكه اليومي، حتّى في أسفاره، وقد رأيته يجمع أشياءه في «قُفّة» وهو يهم بركوب الطائرة عائداً من القاهرة إلى لندن.

واقتنى قرياقص ميخائيل حديقةً على نهر التايمز مجهزة بمرسى للزوارق والسفن الصغيرة وبحمام سباحة، فتنازل عنها للحكومة المصرية لتكون منتدى للطلبة المصريين الذين يدرسون في بريطانية.

ولكن هاله أن الحكومة في ذلك الوقت خشيت من أن «يتجمهر» الطلبة المصريون في هذه الحديقة ويمارسوا نشاطاً سياسياً غير مرغوب فيه، وتخاذلت عن تسلم الحديقة وتركتها للإهمال، فاضطر قرياقص إلى استردادها. وكان يملك

---

(١) لندرة: لندن.

إلى جوارها مسكناً رغب في التنازل عنه لتحويله إلى بيت للطالبات المصريات اللائي كن يدرسن في إنجلترة، فعدل عن ذلك بعد تجربته الفاشلة مع الحديقة.

وفي عام ١٩٥٠ أذاعت وكالات الأنباء العالمية أن حكومة الحبشة (إثيوبية) تتفاوض مع شركة أمريكية على بناء خَزان على بحيرة تانا، وخافت مصر أن تترتب على هذا المشروع نتائج خطيرة تحيق بمشروعاتها في الري والزراعة، ولا سيما لأن مصر كانت في ذلك الوقت بلداً زراعياً في حين كانت الصناعة في مهدها. وتذكر وزير الأشغال عثمان محرم باشا أنه التقى في بيت قرياقص ميخائيل في لندن بإمبراطور الحبشة، وأنس وقتها ما كان بين الاثنين من مودّات وثيقة. فأبرق إلى قرياقص داعياً إياه إلى المجيء إلى القاهرة للاشتراك في مناقشات حول مشروع خزان تانا معه ومع وزير الخارجية الدكتور محمد صلاح الدين باشا. فلبى قرياقص دعوة عثمان محرم باشا الذي كلّفه بعد ذلك السفر إلى أديس أبابا لبحث الموضوع مع صديقه الإمبراطور الذي رحب بقرياقص ترحيباً كبيراً، وأكد له أن حكومة بلاده ستولي آراء مصر بشأن مشروع خزان تانا كل عناية وتقدير وأصدر أوامره إلى الوزراء المختصين بدراسة كل ما يتلقونه من بيانات واقتراحات من حكومة مصر. ولم يكتف الإمبراطور بذلك، بل وجّه خطاباً إلى عثمان محرم باشا أشاد فيه بما قدّمته مصر من مساعدات أدبية ومادية للحبشة في حربها مع إيطالية الفاشية، وقال إن بلاده لن تتصرف بمفردها في مشروع الخزان.

وقد سئل قرياقص عن المحن التي مرت بحياته فقال إنه اعتقل مرتين، وحوكم مرة في تهمة تآمرية عقوبتها الإعدام، ونجا من الغرق ثلاث مرات، وهبطت طائرته هبوطاً اضطرارياً مرتين، ودُسّ له السم مرتين من جانب «أصدقاء».

وفي شهر سبتمبر ١٩٥٦ أصيب قرياقص ميخائيل بفالج، فبعث إلى جميع أصدقائه ببطاقة مطبوعة ينبئهم فيها بمرضه وعجزه عن الردّ على رسائلهم، واعداً بالكتابة بعد إبلاله من هذه الوعكة. ولكن المنيّة أنشبت فيه أظفارها، وآن لجثمانه أن يستريح في ثرى مصر بعد نقله إليها بالطائرة.

وليس أدلّ على الشخصية الفريدة التي كان ينعم بها قرياقص ميخائيل من أن

رجلي دين أحدهما قبطي والآخر مسلم رثياه في جريدة «الأهرام» بعد وفاته.

ففي ٢ أكتوبر ١٩٥٦ كتب القس الدكتور إبراهيم سعيد رئيس طائفة الأقباط الإنجيليين مقالاً في «الأهرام» قال فيه: «في الواقع كان قرياقص سراً من أقدس الأسرار، ولغزاً بين الرجال، إذ كان بسيطاً غاية البساطة في مظهره، عميقاً غاية العمق في تفكيره وجوهره، وكان يبدو للصغار وديعاً كالحمل، ولكنه اشتهر بين الكبار بعزّة النفس... لقد فهم آداب الإنجليز، وأدرك ما خفي من عاداتهم وما استتر، لكنه ظلّ محتفظاً بطابعه المصري الصعيدي الصميم، حريصاً كل الحرص على لهجته الصعيدية الفخمة، معتزّاً بالمراغة مسقط رأسه... جعل من بيته مقصد كل مصري مغترب في لندن، وقبلة أنظار أعضاء البعثات، فكان يستضيفهم على اختلاف درجاتهم ودياناتهم... وكان الكل ينادونه «بأنكل ميكل».

وأضاف القس إبراهيم سعيد قوله: «وإن نسيت، لن أنسى يوماً تصدّي فيه للورد بيفربروك ملك الصحافة السكسونية، فذكرت إحدى الجرائد الناطقة بلسانه خبراً غير صحيح عن مصر، فتحداه صديقنا قرياقص تحدياً جريئاً حتى أرغمه على الاعتذار. ومتى علمنا أن اللورد بيفربروك تحدى يوماً سراي بكنجهام، أدركنا ما له من سطوة ونفوذ. غير أن قرياقص علّمه كيف يحترم المصري وكيف يرعى الحق في الكلام عن مصر».

وفي يوم ٧ أكتوبر ١٩٥٦ نشر فضيلة الشيخ أبو الوفا المراغي مدير المكتبة الأزهرية (وبلدياته) مقالاً في نفس الجريدة قال فيه: «كان قرياقص في الرعيل الأول من رجال مصر الأحرار الذين أسهموا في الجهاد في فجر نهضتها، واشترك مع سعد زغلول وإخوانه في الحركة الوطنية، ووقف قلمه وجهوده على الدفاع عن قضيتها في صحف لندن وصحف مصر، وأشاد الخطباء من المسلمين والأقباط على منبر الأزهر إذ ذاك بمساعيه وجهوده... ومن آيات نُبله وإنصافه أنه تزعم ـ وهو قبطي ـ حملة للدفاع عن الإسلام وعن الأزهر ضد بعض الإنكليز في الجرائد الإنكليزية، واستطاع بسلوكه النبيل أن يحتل مكاناً ممتازاً في المجتمع الإنكليزي».

هذه ملامح من شخصية هذا الرجل الفذّ الذي يصدق فيه قول الشاعر القروي رشيد سليم الخوري أنه «حامل فوق همّه همّ شعبه».

❁ ❁ ❁

كامل السوافيري

في البدء كان هاتف، وكان الختامُ أيضاً حديثَ هاتف. وبين المهاتفة الأولى التي تلقيتُها على غير معرفةٍ سابقة من كامل السوافيري، والمهاتفة الأخيرة الملهوفة التي تلّقاها منّي قبل يوم واحدٍ من رحيله خمسةٌ وأربعون عاماً من أصفى المودّات وأنبلِ مشاعرِ الوفاء والولاء، وهي قد مضت ـ وآسفاه ـ عجلى متسارعة وكأنّها غمضةُ عين.

كنت في الأربعينيات أعمل صحفياً في دار المقطم والمقتطف، وهي دار كانت تصدر أقدم الصحف اليومية بعد الأهرام، وأعرقَ المجلّات بلا منازع. وكان تواترُ اسمي في الجريدة والمجلة يُورثني شُهرةً بازغة تفوق كثيراً حجمَ صاحبها. وكان السوافيري بدوره ينشر فصولاً في «رسالة» الزيات وسواها من الدوريّات أكسبتهُ بدورها شُهرةً ولو في النطاق الأدبيّ. فلمّا تلقيتُ ذات صباح هاتفاً من السوافيري، لم يكن أحدُنا يجهل اسمَ صاحبه، وإن جهلنا كلَّ ما كان وراء الاسميْن. واستأذن السوافيري في زيارة مكتبي تحقيقاً للتعارف، فرحّبتُ به.

وكنّا في ذلك الحين السحيق نعرف أن رأس مال الصحفي هو الصلات والعلاقات ننشؤها على أوسع نطاق، ولهذا لم نعرف في قواميسنا المتداولة حشودَ السكرتيرات يقفن بالأبواب لصدّ القاصدين، ولا كتائبَ رجال الأمن «تطفّشُ» الزائرين، ولا مكاتب الاستعلامات تعصرُ القادمين باستفساراتها، ولا كانت لدينا أرقامٌ سريّة للهاتف نتحصّنُ وراءها من كثرة المطاردين. وكانت أبواب مكاتبنا وصحفنا ابتداءً بالباشا رئيس التحرير وانتهاءً بأصغر محرّر مفتوحةً على مصاريعها لكلّ طارق، سواء أكان من رجال الدولة المسؤولين أم من عامّة الناس وسوادهم. فلمّا جاء السوافيري لزيارتي، لم يجد مَن يقول له: قفْ، مَنْ أنت؟ ولا سأله سائل عن بُغيته. ولا استفسر منه مستفسرٌ عمّا إذا كان على موعدٍ مضروب، ولا اعترض طريقه «شحطٌ» رغبةً في ثنيه عن الزيارة. وبعد عبارات

التعارف التي أراد بها كلانا استكشافَ كنه صاحبه، دعوتُه لحضور ندوتنا الأسبوعية في مجلة «المقتطف»، كما دعاني لحضور ندوة دوريّة كان يقيمها في بيته في ميدان حليم باشا بالقرب من ميدان الأوبرا.

أمّا ندوة المقتطف فكانت تضمّ صفوةً من رجال العلم وأساتذة الجامعات والأدباء من مصر والبلاد العربية جميعاً، ويُعييني أن أحاولَ تذكُّرَ أسمائهم. وأمّا ندوة السوافيري، فكان العنصرُ الغالبُ فيها هو عنصر المنتسبين إلى الأدب. وفي زيارتي الأولى لها قابلت بعضَ من أعرف ومنهم سيّد قطب وكمال نشأت ومحمد مفتاح الفيتوري، وقابلتُ مَنْ لم أكن أعرف مثل الشاعرة جليلة رضا، والشاعر محمد مصطفى الماحي، وأحمد عبد الغفور عطار، ومحمد فوزي العنتيل وسواهم، وكان كلانا حريصاً على المشاركة في الندوتين، فضلاً عن رابطة الأدباء التي أنشأها الشاعر الدكتور إبراهيم ناجي عام ١٩٤٥ وتوالي انتخابي وكيلاً لها إلى انحلالها في عام ١٩٥٢، وفضلاً عن وريثتها رابطة الأدب الحديث، وغيرها من منابر الثقافة والفكر التي كانت منتشرة في مصر في تلك الفترة الزاهرة انتشار نبات الفُطر ـ أو عيش الغراب ـ Mushrooms الذي يضرب به المثل في لغات الفرنجة لفرط تكاثره وانتشاره. وكم ذرعنا القاهرة طولاً وعرضاً لغشيان هذه الندوات الأدبية حتّى أجهزت عليها الأجهزة!

وكان السوافيري يعمل إذ ذاك مدرّساً في إحدى المدارس الثانوية، ومن أسف أنه عاش كلَّ عمره، حتّى بعد الماجستير، وحتّى بعد الدكتوراه، ومهمّته الوحيدة هي تدريس طلاب الثانويات، دون أن يرقّى في سلك الوظائف حتّى إلى درجة مفتش أسوةً «بالمحظوظ» الدكاترة زكي مبارك!.

وإذ أراجع سيرة حياة السوافيري كما كتبها بنفسه، لا أرى في حياته أيَّ معالمَ بارزة، عدا كونه قد جاء إلى مصر هارباً من مطاردات السلطة الإنكليزية في فلسطين. واطردت حياتُه بين التدريس في المدارس، والسعي لتحصيل أرقى الدرجات العلمية، والعكوف على التأليف والتصنيف. وكان في ملّته واعتقاده أن من يعمل في صمت، ويؤدّي للأدب والعلم والبحث حقوقها، فلن يلبث المجتمع أن يكافئه على جهده وتفانيه وإخلاصه. ولكن المجتمع لم يكفه أن تجاهَلَه أصلاً، بل رماه في جُبِّ الأسود ـ وهو ما كان يشير إليه ساخراً باسم «البَعَثة»! إذ ألفى نفسه ذات مساء مسوقاً إلى غياهب الزنازين حيث قضى ثلاث سنين بين

القيود والسدود. ولم يغادرها إلّا بعدما غادر الدنيا كلها سجّانهُ.

وخرج ليجد نفسه مفصولاً من وظيفته، بلا راتبٍ أو إيراد. بل إنه رأى ابنته للمرة الأولى وهو وراء الأغلال، إذ ولدت بعد ذهابه في هذه البعثة الملعونة! فكان عليه أن يبدأ رحلة الحياة من نقطة الصفر، تؤوده أعباءُ أسرة ومطالبُ أطفال، سعياً هنا وهناك مستجيراً بالقضاء، ولم يستطع حتّى بعدما انتصف له القضاء أن يستخلص شيئاً من حقوقه الضائعة ودَعْ عنك عُمرَه المسلوب في دياجير الظلام!.

ولعل النقطة المضيئة الوحيدة في كل حياة السوافيري التي امتدّت قرابة خمسة وسبعين عاماً هي رصيعةُ القدس التي قلّده إياها حامي ذمارِ القدس قبيل وفاته، قائلاً أمام الملأ: حيّوا معي معلّمي وأستاذي الأكبر.

ولست أعتزم في هذا الحديث المستطرد أن أتحدث عن السوافيري أديباً مؤلّفاً، فقد تحدثت عن ذلك غير مرّة في حياته، وأدعُ هذه المهمة للمنصفين من دارسي أدبه. وإنّما أريد أن أتحدّث عن ملامح من شخصيته عرفتُها بحكم اقترابي منه نحو نصف قرن.

كان السوافيري باستغراقه في خدمة كل قاصدٍ إليه يذكّرني بالشاعر القروي رشيد سليم الخوري الذي كان يقول عن نفسه إنه «حامل فوق همّه همَّ شعبه»! فقد كان السوافيري حمّال هموم عشراتٍ، بل أكاد أقول مئاتٍ من الساعين إليه لقضاء مصالحهم في الدور الحكومية بأسمائها المتعددة، أو لترتيب أوضاعهم في الجامعات والمعاهد المختلفة، أو للبحث عن مرجعٍ نادرٍ أو مخطوط مجهول، أو للتحقق من مسألة أدبيّةٍ أو تاريخية، أو للاستيثاق من صلاحية بحث للظفر بدرجةٍ علمية، أو لنشر كتاب أو حتّى لتوزيعه، أو للبحث عن مسكَنٍ يُقيم فيه زائر! لقد كان رجلاً سخّر نفسه بكل طواعية قلب لخدمة الناس ممن يعرف أو لا يعرف. وما أكثر ما أشركني معه في هذه المآرب دون أن يكون لي جَلَدُهُ عليها أو دَأْبُهُ في متابعتها. وما أكثر ما وطّأ هذا الرجل أسباب العيش الرخيّ لقاصديه، فأقبلت عليهم الدنيا بفضل سعيه وتوجيهاته دعوته وإرشاداته، وبقي هو في مكانه: محلّك سِرْ!.

وكنت أمازحه بقولي: أنتَ مستودعُ الأدب الفلسطينيّ، فكان يتقبّلُ منّي هذه

الدعابة لأنه يعرف أنني إنما أبغي وصفه «بعميد الأدب الفلسطيني». وأعتقد أن مكتبته الخاصة التي تضمّ أمهات الذخائر العربية، إنّما تتميزُ عن سواها بأنها تضمّ أكبر حشدٍ من الكتب الفلسطينية الحديثة والقديمة، وأعانتْ خَضْرَمَتُهُ على اقتناء حتّى ما طُبع منها قبل نكبة عام ١٩٤٨. وقد استعار منّي غير مرّة بعض ما كان عندي من هذه الكتب لاستنساخها بالتصوير وإعادتها حتّى لا تخلو منها خزانته الخاصة. وأعترفُ بأنني عجزت عن تلبية رجائه المكرّر المعاد باستهدائه نسخةً من كتاب «كشاجم» الضخم من مؤلفته الدكتورة ثريا ملحس لأن أبا الفتح كشاجم (الكاتب الشاعر الأديب المنجم المغني) كان فلسطينياً، ولا يصحُّ أن تخلو مكتبتهُ منه. ولم يشفع لي عنده تعلّلي بأن الكتاب مطبوع في نسخ معدودة لتقديمه كأطروحة جامعية، وأن صفحاتِه التي تقرب من الألف لا يهونُ استنساخُها.

وكنت أقول للسوافيري: إن اقتناء كلّ أثرٍ هو ضرب من المستحيلات، فكان يجيبني بقوله: إن واجبنا ما دُمنا على قيد الحياة أن نُلغيَ أسطورةَ المستحيلات!.

وكان في إلحاحه على اقتناء الكتب يذكّرني بصديقنا المستشرق المجري عبد الكريم جرمانوس الذي كان يكرّر في رسائله إليَّ قَوْله: اعذرني إذا ما تحوّلتُ إلى شحاذ كتب، فأنا أعيش في عالم شيوعي لا تربطني به إلّا صلةُ الإقامة، فابعث إليَّ بأي كتاب عربيّ تصادفه إرواءً لروحي العطشى. وسأظلّ أشحذُ الكتب إلى أن أموت. ولم يكن السوافيري يجد بدوره حرجاً في استهداء الكتب. فكنتُ أقول له: وهل تطمعُ في مزاحمة دار الكتب الوطنية؟ فيردّ قائلاً: ولِمَ لا؟ فالدارُ الوطنيةُ تستهدي الكتبَ بقانون الإيداع الإلزامي، أمّا أنا فأستهديها بقانون التعاون الأدبي.

كان أسرع الناس إلى المجاملة وأداء الواجب، لا يتخلّف عن عيادة أديب مريض، أو توديع جثمان أديب راحل، أو حضور مناقشة رسالة جامعية تربطه بصاحبها صلة، أو الحفاوة بأديب زائر من قطر عربي، أو المشاركة في ندوات لمناقشة الكتب الجديدة، أو حضور المناسبات الشخصية، أو المشاركة في الأنشطة الأدبية المختلفة. وكنت في بعض الأحيان أحاول أن أثنيه عن هذا النشاط ترفقاً بشيخوخته، ناصحاً إيّاه بالاكتفاء ببرقية تقوم مقام المشاركة بنفسه في هذه المناسبة أو تلك، ولكنه لم يكن يستوصي بنصائحي قائلاً: المشاركة الشخصية غير المشاركة البرقية.

كان برغم كل المثبطات شديد التفاؤل، وما أكثر ما ردّد في محضري قول الشاعر المهجري إلياس فرحات:

حياةُ مشقّاتٍ، ولكنْ لِبُعْدِها عن الذُّلِّ، تَصْفُو للأبيِّ وتَعْذُبُ

وكان كثير المطامح، ولكن في ميدان الأدب وحده. فكان يحدثني عن «الخلود» فأحدّثه عن الرزق.

وكان يسألني عن عضوية الهيئات العلمية والمجامع وهل يستحقها، فكنت أقول له: إن لهذه الهيئات مقاييسَها الخاصة، فإن استوفاها كان خليقاً بالعضوية، وإن تنكبّها تنكبته.

وكان يسألني: أليس لنا في الجوائز نصيب؟ فكنت أقول له: إن الجوائز نوعان: نوع يُرشَّحُ له الأدباء من جهات بعينها، وليس لك على هذه الجهات سلطان، ونوع يتقدم إليه الأديب بنفسه، وفي هذا معنى الالتماس. وأُعيذك في الحالين من احتمالات الرسوب وكأنك طالب بليد لم يستظهر الدرس!

وعندما رغب في استخراج جوازِ سفر، سُئل عن وظيفته فقال: إنني أديب ناقد! فضحك الموظف المنوط به قَبول الطلبات وقال له: إن توصيفات الوظائف لم ترد فيها هذه الوظيفة. فقال السوافيري: ولكنني أستخرج الجواز لأسافرَ به إلى مؤتمرات الأدب والأدباء، وهم هناك لا يعرفونني إلّا بهذه الصفة! وطبعاً لم يفلح في إقناع أهلِ البيروقراط بهذا المنطق، وقَنَعَ في نهاية الأمر بأن يوصف في الجواز بأنه من أرباب المعاشات!.

كان السوافيري مُعمَّداً بالأدب، هو طعامه وشرابُه ودنياه ومشغلتُه، وطبيعيٌّ أن تنصبَّ كل آماله وأحلامه في هذا الباب حتّى إذا ما خاب رجاؤه استشعر الحبوط دون أن يُفارِقه أَمَلُهُ. فأحسن ظنّه بالأيام وبالأدب حتى انطبق عليه قول الشاعر خليل مطران:

أَحْسَنْتُ ظنّي، واللَّيَالِي لَمْ تُوافِقْ حُسْنَ ظنّي
وَرَجَعْتُ مِنْ سُوْقٍ عَرَضْتُ بِضَاعَتِي فيها بِغُبْنِ
أفكانَ ذلكَ ذَنْبُها، أمْ كان ذَنْبِي، لا تَسَلْنِي

وأصارحكم بأنني استطراداً لأسباب الجحود التي أحاقت بالسوافيري، لم

أتوقع أن يقام له حفل لتأبينه. وكان قد سألني عن مثل هذا الاحتمال، فقلت له: إن حَظّ الأديب في دنيانا هو «نعيُ الأسرة» لأن الأدباء يموتون فطيساً كما تنبأ عن موته الأديب عباس حافظ. وكنتُ أقول له: وما جدوى التكريم إذا ما جاء بعد انتهاء رحلة الحياة، ثم أسمعه قول الشاعر القروي:

يَا أَيُّهَا الأُدَبَا مُوْتُوا لِنُكْرِمَكُمْ ... إنْ يَخْبُثِ العَيْشُ قَدْ تَحلُوْ المَنِيَّاتُ

لَوْ بَعْضُ إِكْرَامِنَا لِلنَّابِغِيْنَ بَدَا ... مِنَّا لَهُمْ قَبْلَ أَنْ مَاتُوا، لَمَا مَاتُوْا!

ولعلّ أكبرَ من فجيعتي في أخي السوافيري حسرتي عليه لأن آماله العراض لم يتحقق منها إلّا القليل. كان يمنّي النفس برؤية بلاده ومسقط رأسه ومرابع صباه، ولكن الأقدار أبت أن يرى القرية التي حمل اسمها. وكان يتوق إلى إتمام فرائضه بالحج أو بالاعتمار فحالت دون ذلك وسائله. وكان يرجو وقد نال من مراتب التخصص أعلاها أن يكون له مكانُ أستاذيةٍ في السلك الجامعي، فلم يصب من هذا إلّا انتداباتٍ وقتيةً عارضةً في الجامعات الإقليمية تُوافي عاماً وتختفي أعواماً، وكان يعتقد أنه مؤهل لعضوية لجان المجالس العليا لرعاية الفنون والآداب، فلم يظفر منها بطائل. وكان يريد إخراج المخطوطِ من كتبه فلم تسعفه الظروف. بل كان يريدُ أن يطمئن إلى موضعٍ يوسّدُ فيه بعد موته، فكتب رسالة إلى رئيس اتحاد الكتاب يرجوه فيها تدبيرَ مثوى صالحٍ لأعضاء الاتحاد فوعده خيراً، ولولا أريحيةُ منظمة التحرير لتغالظ الموقفُ أمام أسرته. وحتى جنازتُه شيعت بليل واقتصرت على أفراد، ولم يمش فيها أصفياءُ عمره.

لقد كان السوافيري اسماً أكبرَ من إمكانياته المادية والاجتماعية، وهو ما أرهقه في حياته إرهاقاً شديداً، وحمّله التزامات ثقيلة أخشى أن تنوءَ بها أسرتُه المكلومة.

وكأنما شاءت المقادير أن تفجعُني في شهر واحدٍ في أخوين شقيقيْن تساوت أسبابُ المنيّة بينهما، وتساوت حظوظهما في الجحود. ففي الثامن من فبراير فجعتُ في كامل السوافيري، وفي الثاني والعشرين من الشهر نفسه فجعتُ في أخي الشقيق الذي حقّق في الخارج مرتبةً عالمية في الفنّ التشكيلي، وكانت جنازته في مدريد مظاهرة ضخمة، ولكن زملاءه هنا في وطنه ومنبته لم يذكروه ولو بهاتف.

ومنذ وفاة كامل السوافيري في ٨ فبرلير ١٩٩٢ وأنا أقلّب جميع صحفنا حتّى ما عُني منها بالأدب دون أن أقع على سطرٍ واحد في إنصافه - باستثناء مقالة منصفة لأخينا الوفي عبد الفتاح البارودي (١٩١٣ - ١٩٩٦). فهل صارت منزلةُ الأديب مُهْدَرةً إلى هذا الحدّ؟ إنها لمأساةٌ أن يكافأ الأديبُ بمثل هذا الصمت المطبق، وكأنه - كما قال الشاعر محمود أبو الوفا يصوّر نفسه:

كَأَنَّنِي فِكْرَةٌ فِيْ غَيْرِ بِيْئَتِهَا بَدَتْ ... فَلَمْ تَلْقَ فِيْهَا أيَّ إِقْبَالِ
أَوْ أَنَّني جِئْتُ هذا الكونَ عن غَلَطٍ، ... فَضَاقَ بِي رَحْبُهُ المَأْهُوْلُ والخَالِي

وهذا سؤال يوجه إلى أجهزة الثقافة الرسمية: لِمَ تواضعَ حظُّ الأديب حتَّى صار أدنى الحظوظ حياً وميتاً؟.

وسلامٌ على أبي علاء أوفى الأوفياء. والبدرُ في الليلةِ الظلماءِ يُفْتقدُ.

❁ ❁ ❁

كريم تابت

في أيام الدراسة الجامعية، أنشأنا نحن طلاب معهد الصحافة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، نادياً أطلقنا عليه اسم «نادي العلاقات الدولية» كنّا ندعو إليه محاضرين من الخارج، من دبلوماسيين وصحافيين ومؤرخين، لكي نستنير بتجاربهم الخاصة وآرائهم في الأحداث الجارية في العالم، ولا سيّما لأننا كنا إذ ذاك في خضم الحرب العالمية الثانية، وبنا حاجةٌ إلى الاستهداء بآرائهم في متابعة أمور الدنيا من حولنا.

وبينما كنا نتدارس الأسماء المرشحة من المحاضرين، اقترح زميلنا سمير سوقي (١٩٢٠ ـ ١٩٩٧) ـ الذي أصبح بعد ذلك صحفياً مرموقاً سواء كمراسل الوكالة اليونايتدبرس الأمريكية أو كمراسل لمجلة «نيوزويك» الشهيرة ـ أن يدعو قريبه الصحافي كريم تابت لكي يحاضرنا عن تجاربه في الصحافة، ولا سيما لأنه اشتهر وقتها بين الصحافيين بأنه حقّق الرقم القياسي في مقابلة زعماء العالم. ورحّبنا بهذا الاقتراح. واحتشدنا في القاعة الشرقية بالجامعة للاستماع إلى هذا الصحافي، وكان ذلك يوم الأربعاء ٧ شباط (فبراير) ١٩٤٠، وهي المرة الأولى التي رأيت فيها كريم تابت وجهاً لوجه. كان قصير القامة، ممتلئ الجسم، ناحل الشعر، له أنف أقنى ويدان ضخمتان تشبه أظافرهما أظافر الصقر. وكان بادي الأناقة. يُطعّم حديثه بالنوادر والفكاهات، ويتحدث حديث الواثق.

ارتجل كريم تابت كلمته ملتمساً الصفح، لأن اللغة الإنكليزية هي لغة ثالثة بالنسبة إليه، فالفرنسية هي لغته الأجنبية الأولى، ومع ذلك، فقد استطاع أن يعبّر عن مقاصده بغير كبير مشقّة.

وقلنا له: إننا نحبّ أن يروي لنا أطرافاً من الأساليب التي كان يتّبعها في مقابلة زعماء العالم.

فانطلق يتحدث عن لقائه بالفوهرر هتلر زعيم ألمانية النازية، والدوتشي

موسوليني زعيم الفاشية الإيطالية، والزعيم الهندي المهاتما غاندي، والزعيم البولندي جوزيف بلسودسكي، والأمير فيصل (ملك العراق فيما بعد) والممثل المشهور شارلي شابلن. فقال إنه كان يدرس شخصية كل من هؤلاء، مُركّزاً على هواياته، حتّى إذا ما تكاملت لديه صورةٌ جلية لمعالم الشخصية المعنيّة، سافر على نفقته الخاصة إلى العاصمة المقصودة، واستعان هناك برجال القصر على مقابلة الزعيم والتحدث معه، جاعلاً هوايته الخاصة مدخلاً إلى أحاديث السياسة. وكان في نهاية كل لقاء يطلب من الزعيم إهداءه صورة فوتوغرافية ممهورةً بإمضائه، وهكذا استطاع أن يقتني مجموعة كبيرة من الصور المطرزة بتوقيعات أصحابها، وقد رأيتها متراصّة على آلة البيانو في بيته.

ومن طريف ما ذكره في تلك المحاضرة أنه توجّه إلى منطقة الأهرام عندما زارها الممثل المشهور شارلي شابلن الذي أبدى رغبته في ركوب جمل هو وشقيقه المرافق، فركب كريم تابت جملاً ثالثاً وأجرى حواره مع الممثل من على ظهور الإبل.

وعندما علم أن المهاتما غاندي الهندي مسافر بالباخرة عن طريق قناة السويس إلى لندن، توجه إلى بور سعيد، وصعد إلى الباخرة في فترة تزوّدها بالوقود، وأجرى حديثه مع هذا الزعيم.

وكنا معشر الطلاب آذاناً صاغياً لهذه المحاضرة الجميلة التي أورثتنا إعجاباً بهذا الصحافي الذي كان يتكّبد كل هذه النفقات والمشاق في سبيل أن يحقق أمنيته في مقابلة جميع زعماء العالم، إنْ أمكن.

وهكذا اشتهر كريم تابت بين أنداده بأنه الصحافي الذي يدفعه طموحه إلى الوصول إلى الملوك والرؤساء والأمراء بجهده الخاص وبغير التوكّؤ على أي هيئات للاستعلامات أو وزارات للإعلام أو غيرها من الهيئات المشابهة.

وهذه الرغبة في الكتابة عن الملوك هي التي أوحت إليه بكتابة الحلقة العشرين من سلسلة «اقرأ» عن الملك فاروق، وقد ظهرت هذه الحلقة في شهر آب (أغسطس) ١٩٤٤.

ومع أن هذا الصحافي كان مشدوداً بما يشبه الأمراس إلى القصور وأرائك الحكام، فقد كنت ألاحظ أنه يفرد الصفحة الأولى من جريدته للحديث عن الغلاء

الفاحش، لأن الخادم الذي يعمل عنده عاد من السوق وأنهى إليه أن ثمن الطماطم زاد مليمين، وثمن الخيار ارتفع مليماً، وثمن اللحم «تحرّك» - بتعبير أيامنا الحاضرة! - بمقدار خمسة مليمات! صفحة كاملة هي الصفحة الأولى من الجريدة لا تعالج قضايا السياسة أو أخبار البيروقراط، وإنّما ترفع شكاوي المواطنين من هذا الغلاء الفاحش الذي لا قِبَلَ لهم باحتماله! ثم يمهر المقال بتوقيعه، ولا يجد غضاضة في ذلك؛ لأن اتصاله بالملوك في قصورهم لا يحول دون اهتمامه بقضايا المواطنين وخبزهم اليومي.

ولهذا لم أستغرب منه أن يكلّفني - عندما بدأت العمل معه - بأن أذرع شوارع القاهرة في المناطق الشعبية طولاً وعرضاً، وأن أستوقف المارّة لأسألهم عن مشكلاتهم في الحيّ الذي يقيمون فيه وأن يخصّص صفحة كاملة كل أسبوع من جريدته لرفع شكاوى الناس، مرّة في شارع شبرا، ومرة في شارع محمد علي، ومرّةً في شارع الجيزة، ومرّة في شارع فاروق، وهلم جرا. وكان يقول لي: إن الصحافي الذي ينفصل عن قضايا الشارع يحكم على مستقبله بالفشل والخذلان.

عرفت كريم تابت عن قرب عندما استدعاني - بغير معرفة شخصية سابقة - للعمل معه في تحرير جريدة «المقطم» عندما أُسندت إليه رياسة تحريرها في أول آذار (مارس) ١٩٤٥، وكنت إذ ذاك أعمل في أقسام الإدارة بجريدة «الأهرام» محاولاً الانتقال إلى أقسام التحرير بغير أن أوفق إلى ذلك، لأن أقسام الإدارة وأقسام التحرير كانت مستقلة تماماً ويمتنع الانتقال بينهما. ولهذا حيل بين الشاعر فؤاد بليبل (١٩١١ - ١٩٤١) والشاعر صالح جودت (١٩١٢ - ١٩٧٦) اللذين كانا يعملان في أقسام الإدارة وبين الانتقال إلى أقسام التحرير. ولهذا رحّبت بدعوة كريم تابت، وكان يحمل وقتها رتبة الباشوية، ويجمع بين مناصب أخرى هي المستشار الصحافي لديوان جلالة الملك، ومستشار محطة الإذاعة المصرية، وعضو مجلس إدارة شركة قناة السويس.

ولئن كان قد احتلّ المنصب الذي كان يشغله والده خليل تابت بك (١٨٧٠ - ١٩٦٤) في رياسة تحرير الجريدة - وكان خليل بك عضواً معيّناً في مجلس الشيوخ، وكان محظوراً على الملك أن يُنعم برتب أو ألقاب على أعضاء مجلسي البرلمان، فبقى الأب بيكاً في حين صار الابن باشا، ولم ينل خليل بك رتبة

الباشوية إلّا بعد انتهاء عضويته في مجلس الشيوخ - فقد استُبقي خليل بك في الجريدة يصرّف أمورها الإدارية والتحريرية، ويكتب مقالات الصدر تعليقاً على الأنباء المحلية والعربية والعالمية. ولعليّ أصبحت وقتها أقرب المحررين إلى كريم باشا وإلى أبيه، وكانا يعاملانني - لحداثة سنّي - معاملة أبوية حانية، ولا يضنّان عليّ بأي توجيه أو مساندة أدبية، لأن الاحتكاك اليومي المباشر بين المحرر المبتدئ ورئيس التحرير المجرّب كان كفيلاً بأن يتدارك أوجه القصور في عملي، وينبهني إلى أمورٍ غائبة عن فطانتي.

وكان كريم تابت يعاني من آلام في شرايين ساقه اليمنى، فيضطر إلى رفعها على مقعد، وكان بسبب ذلك يتفادى المناسبات التي تقتضيه أن يقف على ساقيه وقتاً طويلاً، حتّى وإنْ كانت مناسبات رسمية.

وكنت ألاحظ أن المقالات السياسية التي يكتبها كريم تابت تُنشر إمّا في مجلة «المصور» أو في جريدة «أخبار اليوم»، وربّما أُعيد نشرها بعد ذلك في «المقطم». فكنت أقول له: أليست جريدتك أحق بهذه المقالات؟فكان يقول إن عمله في القصر الملكي يجعل منه صحافياً مُشاعاً بين جميع الصحف، ولا يصحّ أن يحتكر لجريدته كل شيء.

وقال لي إنه عندما رافق الملك فاروق في رحلة بحرية للقاء عاهل الجزيرة الملك عبد العزيز آل سعود في رضوى - عام ١٩٤٨ - ولم تكن له وقتها أي صفة رسمية في القصر، حرص على أن يبعث برسائله الصحافية عن هذا اللقاء إلى القصر ليقوم بتوزيعها على جميع الصحف فلا تُختصّ بها الجريدة التي يعمل بها.

وعندما تولى كريم تابت رياسة تحرير «المقطم» كان قد اتفق مع الدكتور فارس نمر باشا (١٨٥٦ - ١٩٥١) وهو الوحيد الباقي على قيد الحياة من مؤسسيها الثلاثة يعقوب صروف (١٨٥٢ - ١٩٢٧) وشاهين مكاريوس (١٨٥٣ - ١٩١٠) على أن يعمل على استحداث مطابع جديدة عوضاً عن مطابعها العتيقة التي رافقتها منذ إنشائها في عام ١٨٨٩، وإدخال مستحدثات الطباعة من صور وإخراج فنيّ بحيث تخرج الجريدة من المطبعة لا مطويةً بحجم الكتاب - كما كان شأنها دائماً - بل مطوية مثل سائر الصحف اليومية. كما كان يعتزم تطوير أقسام التوزيع والإعلانات فيها توسيعاً لنطاق انتشارها وزيادة لإيراداتها. ولكن عزّ على

نمر باشا (وكان وقتها في التاسعة والثمانين من عمره) أن يرى الحاجة الملحّة إلى هذه التجديدات مع ما تنطوي عليه من نفقات باهظة يقع عبؤها الأكبر عليه. فأدّى ذلك إلى خلاف عميق بين أفراد أسرة «المقطم» المتصاهرة، دفع بكريم تابت إلى رفع قضية على نمر باشا مطالباً بتصفية الجريدة وتوزيع حصيلة التصفية على الشركاء بنسبة مساهماتهم فيها. وانتظاراً لحكم القضاء هجر كريم تابت ووالده الجريدة في عام ١٩٤٨ وتركاها في ذمة مجلس من محرريها وإدارييها. ثم توفي نمر باشا في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥١ وتعثرت الجريدة إلى أن أغلقت في أواسط تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٢.

ولد كريم تابت في القاهرة عام ١٩٠٣، وإن تكن أصوله لبنانية من دير القمر، وتعلّم في المدارس الفرنسية إلى أن نال شهادة البكالوريا. ولأنه كان ينتمي إلى أسرة كل مَنْ فيها يشتغل بالصحافة، فقد خاض ميدان العمل الصحافي في سنٍ مبكرة نسبياً ولم يتابع الدراسة الجامعية. فعمل في صحف كثيرة منها «السياسة» لمحررها الدكتور محمد حسين هيكل باشا (١٨٨٨ ـ ١٩٥٦) وصحف دار الهلال، وأصدر في عام ١٩٢٦ مجلة «العالم» ولكنها لم تعمّر طويلاً. ثم اشترك مع محمد التابعي (١٨٩٥ ـ ١٩٧٦) ومحمود أبو الفتح (ت ١٩٥٨) في إصدار جريدة «المصري» اليومية التي استقلّ بها أبو الفتح بعد ذلك، ولكن كريم تابت قضى معظم حياته العملية في دار «المقطم».

وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٣٩، خرج كريم تابت على قراء جريدته بمقال دعا فيه إلى «إعلان حالة الحرب على ألمانية» وقال: «يجب أن نقرر أننا في حالة حرب فعلاً. أما ماذا نكسب؟ نكسب كثيراً. نكسب حق المساهمة في مفاوضات الصلح. ونكسب حق الجلوس إلى مائدة الصلح والاشتراك في إمضاء معاهدة الصلح. ونكسب ما يجب أن يؤول إلينا من غنائم الحرب وأسلابها». وقد علق جان ليغول رئيس تحرير جريدة «لابورص إيجبسين» على اقتراح كريم تابت في الكتاب الذي أصدره عام ١٩٤٥ باللغة الإنكليزية بعنوان «مصر والحرب العالمية الثانية» فقال: «إن كريم تابت، الصحفي ذا الموهبة الفريدة والذي أبدى دائماً رعاية محمودة للصالح العام، قد ساق هذا الاقتراح الذي عارضته جريدة «البلاغ» المنافسة لمحررها عبد القادر حمزة باشا (١٨٧٩ ـ ١٩٤١) الذي كان وقتها ناطقاً غير رسمي باسم الحكومة، وانتهى حمزة

باشا إلى أن هذا الاقتراح كفيل لا بالكسب بل بالخسارة بالنسبة لمصر». وأياً كان الأمر، فقد كان كريم تابت جريئاً في عرض اقتراحه الذي أُخذ به عند اقتراب الحرب من نهايتها ووافقت حكومة أحمد ماهر باشا في عام ١٩٤٥ على إعلان الحرب رسمياً على دول المحور.

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ عُقد في فندق ميناهوس بالقاهرة في سريةٍ تامة بسبب الحرب العالمية الثانية مؤتمر قمة ـ بالتعبير الدارج اليوم ـ بين ونستن تشرشل رئيس وزراء بريطانيا وفرنكلن دلانو روزڤلت رئيس الولايات المتحدة وشيانغ كاي شيك رئيس دولة الصين، وصدر عن هذا المؤتمر «إعلان القاهرة» الذي تضمّن حشد الجهد الحربي لدول الحلفاء ضد اليابان. وعُقد وقتها مؤتمر صحافي شهده كريم تابت وكبار الصحافيين، حيث أُطلع الصحافيون على مضمون «إعلان القاهرة»، ولكن حُظر عليهم نشره أو إذاعته قبل الساعة الخامسة مساء. وكانت جريدة «المقطم» ـ وهي مسائية ـ تصدر كل يوم طبعتين، أولاهما في الساعة الثانية عشرة ظهراً لتلحق بالقطرات المتجهة إلى الوجهين البحري والقبلي، وثانيتهما في الساعة الثانية بعد الظهر لتلحق بموعد خروج الموظفين من المصالح الحكومية التي يعملون فيها ـ وكان الموظفون يشكلّون قراء الصحف في المقام الأول. وأدرك كريم تابت استحالة نشر «إعلان القاهرة» في موعد صدور الطبعة الثانية بسبب الحظر، وخشي أن يؤجله إلى اليوم التالي فتسبقه جميع الصحف الصباحية. فقرّر ـ ربّما للمرة الأولى في تاريخ الجريدة ـ تأخير الطبعة الثانية من موعدها في الساعة الثانية مساء إلى الساعة الخامسة مساء لكي ينفرد بنشر «إعلان القاهرة».

وفي شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٤٦ زار الملك عبد العزيز آل سعود مصر زيارة رسمية، فتقرر في إثرها إيفاد بعثة وديّة إلى المملكة العربية السعودية قوامها مراد محسن باشا ناظر الخاصة الملكية والكاتب الكبير عباس محمود العقاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤) وكريم تابت حيث استقبلهم الملك عبد العزيز ورحّب بهم بنفسه. وقد وصف العقّاد هذه الزيارة في مقالين نشرهما في مجلة «الرسالة» في شهري كانون الثاني (يناير) وشباط (فبراير) ١٩٤٦.

واختير كريم تابت وزير دولة في وزارة حسين سري باشا التي ألفت في شهر تموز (يوليو) ١٩٥٢ قبل قيام الثورة بثلاثة أيام.

وفي ٢٧ تموز (يوليو) من نفس السنة، اعتزم كريم تابت السفر إلى

الخارج، وركب الطائرة التي غادرت مطار القاهرة فعلاً، ولكن تعليمات صدرت إلى قائد الطائرة بالعودة إلى المطار، وتمّ إنزال كريم تابت منها ليبدأ مرحلةً من التحقيقات والمحاكمات أمام المحاكم الاستثنائية التي أنشئت في ذلك الوقت، أمام محكمة الغدر أولاً ثم أمام محكمة الثورة، وحكم عليه بحرمانه من حقوقه السياسية والاجتماعية ومصادرة جميع ممتلكاته، بما في ذلك أمواله وأموال زوجته ـ وهي صغرى كريمات الأديب سليم سركيس (١٨٦٩ ـ ١٩٢٦) صاحب «مجلة سركيس» ـ ممّا زاد على ما كانا يملكانه قبل ٢٧ أيار (مايو) ١٩٤٦ ودخل السجن محكوماً عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة. وقد قامت زوجته بشراء أمتعة منزلها من مالها الخاص عندما بيعت بالمزاد العلني.

وفي سنة ١٩٥٤، وكان كريم تابت ما زال يقضي مدة العقوبة المؤبّدة في السجن، فُوتح في الإفراج عنه لاعتبارات صحية، بشرط أن يدوّن مذكراته السياسية لاستخدامها في إدانة الملك فاروق، فشرع في تدوين هذه المذكرات، واكتُفي بنشر الحلقات المتعلقة بفاروق في جريدة «الجمهورية» وأفرج عنه مقابل هذا العمل.

واعتزل كريم تابت الحياة تماماً، وقلّ أن كان يغادر بيته إلى أن أصيب بسكتة دماغية في شهر آذار (مارس) ١٩٦٤ قضت عليه. ولم ينشر له في الصحف إلّا نعي من بضعة أسطر يشتمل على اسم وموعد تشييع الجنازة دون إيراد أسماء الأقربين من أفراد عائلته كما هو معهود في المناعي. وعندما قرأت النعي، شككت في بادئ الأمر في أن يكون هو المقصود، ونازعتني نفسي في مهاتفة منزله للتحقّق من الواقعة، ولكنني أدركت من هذا التجهيل أن الراحل هو كريم تابت وليس سواه. وشهدت جنازته المتواضعة في الكنيسة، وكان يجلس إلى جواري الأديب الصحافي حبيب جاماتي (١٨٨٧ ـ ١٩٦٨). وعندما بدأ الكاهن الصلاة قال ما مؤدّاه: نزولاً على رغبة من لا أملك لرغبتهم رداً، فلن أستطيع ذكر اسم الفقيد طوال مدة الخدمة، وهي عبارة كررها في ختام الخدمة، فتبادلتُ مع جاري الجاماتي نظرات الدهشة! وقد تكرّر نفس الشيء في ذكرى الأربعين، على الرغم من أن صورة كريم تابت كانت تتصدّر قاعة الكنيسة مجلّلة بالسواد.

ومن تصاريف القدر أن كريم تابت توفي عن ٦١ عاماً قبل وفاة والده الشيخ ـ وكان قد عاد إلى لبنان ـ بأربعين يوماً، وكان عمر خليل تابت وقتها ٩٤ عاماً. وقامت الأسرة بكتمان خبر وفاة الابن إشفاقاً على الشيخوخة الفانية لأبيه.

محمد جميل بيهم

عندما التقيت للمرة الأخيرة بالشاعر المصري محمود حسن إسماعيل (١٩١٠ ـ ١٩٧٧) في منزل العلامة محمود محمد شاكر، (١٩٠٩ ـ ١٩٩٧)، وذلك قبل عودته إلى الكويت حيث توفي وحيداً في غرفته، سألني عن أخبار الشاعر البائس محمود أبي الوفا (١٩٠١ ـ ١٩٧٩) فقلت له ممازحاً: إنه ما زال على قيد الحياة. وعاد يسألني: ولِمَ لا يخرج إلى النور؟ فقلت له مُمعناً في المزاح: إنه يحتاج إلى جهاز للعلاقات العامة يرَّوج له ولشعره في دنيا لم يعد فيها مكان لمن تواضع شأنه أو لمن أعلى كرامته على كل أغراض الدنيا.

والعلّامة محمد جميل بيهُم كان بدوره في حاجة إلى جهازٍ للعلاقات العامة يُذيع على الناس فضله، وينشر محامده، ويذكّر بأياديه على الفكر العربي المعاصر ومآثره في خدمة الجماعة. فقد عاش واحداً وتسعين عاماً، منذ مولده في عام ١٨٨٧ وحتّى وفاته في خضم الحرب الأهلية اللبنانية في الثامن من أيار (مايو) ١٩٧٨ وهو عاكف على قلمه، يسّجل به معالم التاريخ العربي والإسلامي، ويصوّر به مشاهداته في البلدان التي زارها، وينافح به في سبيل إعلاء شأن القيم الأصيلة، والقومية الصادقة، مُتصدّياً للتيّارات الهدّامة والشعوبيات المشبوهة.

كما وقف عمره على النشاط الاجتماعي خدمةً للحركات الإصلاحية الاستقلالية، وللجهود الرامية إلى نشر العلم والثقافة ومكافحة الرذيلة، ولا سيما البغاء، والانتصار لحرية المرأة كي تصبح عنصراً بانياً في المجتمع بوصفها الأم المُنْجِبَةِ للأجيال الطالعة من أبناء الأمّة. وساندته في أنشطته الاجتماعية زوجته ورفيقة عمره السيدة الجليلة نازك العابد (١٨٩٩ ـ ١٩٥٩) التي تنتمي إلى أسرة العابد الشهيرة في سورية، والتي كان لها سبقٌ، حتّى على زوجها، في إنشاء الجمعيات الخيرية لتعليم الفتاة ورعاية الأيتام وإقامة المشاغل لتهيئة أسباب الكسب الشريف للأسر الفقيرة.

عرفتُ محمد جميل بيهم في زيارتي الأولى للبنان في عام ١٩٥٥ دون سعي من جانبي لِلحُظْوَةِ بلقائه بسبب ما فُطرتُ عليه من التهيّب من الاقتراب من ذوي السراوة والوجاهة في المجتمع. ولكن محمد جميل بيهم لم يكد يعرف من صديقي المجاهد الكبير أبي الحسن محمد عليّ الطاهر (١٨٩٦ ـ ١٩٧٤) بوجودي في بيروت حتّى أبدى رغبته في دعوتنا إلى بيته العتيق مظهراً العامر بالنفائس مَخْبَراً في حيّ المصيطبة، فألفيتُ نفسي في متحف تتوزع فيه التحف الشرقية والطنافس الثمينة التي اقتناها صاحبُ الدار من رحلاته إلى فارس والهند والصين وأوربة والبلدان العربية، ناهيك عن مكتبته التي تزاحم المكتبات الوطنية بما تراصّ على أرفف خزائنها من كتب وموسوعات ومجموعات كاملة للمجلات الأدبية والمتخصصة ونوادر المطبوعات.

واستقبلنا محمد جميل بيهم مرحباً مهّللاً وكأنّ بيننا قديم مودّات، كما استقبلتنا زوجته استقبالاً كريماً قائلة: أنتم في بيتكم لأن بيت جميل بيهم بيت للعرب جميعاً. فنحن لا نعرف لنا إلّا وطناً واحداً يضمّ كل من يتكلم العربية ويريد أن يكون عربياً، بتعبير العلّامة الأمير مصطفى الشهابي (١٨٩٣ ـ ١٩٦٨).

ومع أن هذه الجلسة كانت بالنسبة لي جلسة «استكشاف» لحياة هذه الأسرة المثالية التي اقتصرت على جميل بيهم وزوجته؛ لأنهما لم يرزقا بأولاد، فقد خرجتُ من هذه الزيارة مُزوّداً بروح عالية انتشيتُ بها، وأيقنت بفضلها أن العظمة الحقيقية إنّما تتراءى في التواضع لا الكبر، وفي التسامح لا التعصب، وفي حسن الفهم لا سوء الظن. فقد عاملني جميل بيهم ـ وبيني وبينه فارق ضخم في العمر ـ وكأنني من أنداده أو أقرانهِ، وزاد فأهداني بعضاً من ثمين مؤلّفاته كذكرى لهذه الزيارة التي لم تكن لتخطر لي على بال. وكان طبيعياً أن أكتب إليه بعد عودتي إلى القاهرة شاكراً له حسن استقباله، فجاء ردّه مؤكّداً أن السعادة كانت من حظّه هو لقبولي دعوته!.

وبعد أربع سنين من هذه الزيارة، عرفتُ أن زوجته السيدة نازك العابد قد انتقلت إلى رحاب الله، فكتبت إليه معزيّاً ومذكّراً إيّاه بنفسي خشية أن يكون قد نسيني، فعاد يُخجلني بردّه الكريم قائلاً إنه لا ينسى أحباءه، فتأكد لي من جديد أن الفضائل فطرة في النفس، ومَنْ فُطر عليها لم يعرف سواها.

واتّصل بيننا بعد ذلك حبل المراسلة، وكان ـ رحمه الله ـ يحرص على إهدائي النسخة الأولى من كتبه بعد خروجها من المطبعة، وكان يحرص على زيارتي كلّما هبط القاهرة فيدعوني إلى مشاركته في استنشاق السعوط فأشكره وأعتذر. بل إنه حرص وهو رئيس لبعثة الحج اللبنانية الرسمية على أن يبعث إليَّ من مكة المكرّمة ببطاقة تحمل دعواته وأمنياته الطيبة. وعندما اضطرتني ظروفي إلى السفر خارج مصر للعمل، مع احتمال الهجرة النهائية في سبيل الرزق، ودّعني بكلمةٍ سخيّة نشرها في مجلة «الأديب» اللبنانية قائلاً إنه سيفتقدني في القاهرة كلّما زارها.

ولد محمد جميل بيهم في بيروت لأسرةٍ ذات وجاهة ونفوذ، وتلقّى دراسته الأولى في المدرسة العثمانية ثم في مدرسة فرنسية، وانتسب بعد ذلك إلى كلية الآداب بجامعة باريس وظفر بشهادتها. ولدى تخرجّه عمل في مؤسسة تجارية كان والده يديرها، ولكن استعداده الطبيعي إلى خوض ميادين الحياة العامة والانصراف إلى التأليف أورثهُ ازوراراً عن الأعمال التجارية، ولم تلبث عضويّات الهيئات العامة أن سعت إليه، فاختير عضواً في بلدية بيروت، وعضواً في البنك الزراعي لولاية بيروت، وعضواً في المؤتمر السوري الذي انعقد في دمشق وبايع الملك فيصل الأول ملكاً، وعضواً في جمعية الشبيبة الإسلامية، والكتلة الإسلامية وجميعة تأمين العمل للاجئين الفلسطينيين، وجمعية مكافحة الصهيونية، وجمعية مكافحة البغاء.

وفي عام ١٩٢٩ انتخب رئيساً للمجمع العلمي اللبناني الذي أنشئ في ذلك الوقت، كما انتخب عضواً في المجمع العلمي، العراقي وفي الأكاديمية الدولية للتاريخ في باريس، وفي الأكاديمية الأمريكية للعلوم السياسية والاجتماعية.

وزار كثيراً من البلدان في الشرق والغرب، وسجّل تفاصيلها في كتبه. ولئن عُرِفَ جميل بيهم بكتبه التاريخية مثل «الانتدابان في العراق وسورية» و«فلسفة التاريخ العثماني» و«فلسطين أندلس الشرق» و«قوافل العروبة مواكبها في خلال العصور» و«الحلقة المفقودة في تاريخ العرب» و«العروبة والشعوبيات الحديثة» و«عروبة لبنان» و«لبنان بين مشرق ومغرب» و«العهد المخضرم في سورية ولبنان» و«الوحدة العربية بين مدٍ وجزر»، فقد عُرِفَ كذلك بمؤلّفاته التي تعالج قضايا تحرير المرأة مثل «المرأة في التاريخ والشرائع» و«المرأة في التمدن الحديث»

و«المرأة في حضارة العرب والعرب في تاريخ المرأة» و«حقوق المرأة السياسية». وقد أعانه في تأليف كتبه التاريخية أنه كان هو نفسه من القريبين من الأحداث، على الرغم من أنه لم يشغل أي منصب سياسي، ولم يخض معارك الانتخابات البرلمانية، وآثر أن يكون دوره هو دور «الأب الروحي» لكل حركةٍ إصلاحية، نائياً بنفسه عن الحزازات المترتبة على التنافس والصراع على الوظائف العامة.

وكان محمد جميل بيهم يخشى أن تؤول مكتبته وتحفه بعد وفاته إلى أيدٍ غير أمينة، ولا سيما لأنه كان بلا ورثة شرعيين من صلبه، فأوصى بأن تؤول كلها إلى جمعية المقاصد الخيرية في بيروت التي كان من كبار مؤازريها. ولأن وفاته وقعت في «أيام الهول»، فقد تلهّى الناس عن إقامة حفل تأبين له، مع أنه كان مشاركاً رئيسياً في كثير من حفلات التأبين التي أُقيمت للراحلين من معاصريه.

كان محمد جميل بيهم ناحل العود ضئيل الحجم إلّا من رأسه الكبير المتوّج بالشيب الجليل. وكان برغم علوّ سنّه مالكاً لجميع قواه لاعتداله في حياته، إلّا من إدمان استنشاق السعوط الذي يحتفظ به في علبة صغيرة من الذهب الخالص. وكان شديد الأناقة في ملبسه حتّى لتخاله أميراً من أمراء البلاطات.

وكان يفرض على نفسه قدراً كبيراً من الصرامة، فلم أره يضحك أو يقول هزلاً. فهو جادّ في جميع المواقف ولا يتكلّم إلّا بحساب حتّى لا تصدر عنه عبارة تسيء إلى أحد. ولذلك كسب مودّات الجميع واحترامهم في بلاده وفي المعمور العربي.

ومنهج محمد جميل بيهم في التأريخ هو منهج المؤرخ صاحب الرسالة، أي أنه يؤرّخ وعينه على رسالةٍ معيّنة تتأدّى من خلال هذا التاريخ. وفي ضوء هذه الرسالة يحلّل الأحداث التاريخية ويستنبط منها النتائج التي وضعها أصلاً نُصب عينيه. فعند ما وضع كتابه عن «عروبة لبنان» سجّل في مقدمته أن «قضية عروبة لبنان لا تحتاج إلى إثبات»، ولكن الذي حمله على وضع هذا الكتاب هو «أن التآليف التي صدرت في العهد الأجنبي لغايات سياسية معلومة ووضعت بين أيدي طلبة معاهدنا العلمية قد استطاعت أن تنشئ جيلاً من الناس يحاول بعضهم إخراج لبنان من المجموعة العربية بشتّى الطرق. فإذا كتب أحدهم أو ألّف، فهو لا يخرج عن إطار هذا المبدأ، بينما أن الدولة في لبنان مَشَت مُخلصةً في مقدّمة الصّف العربي».

وعندما ألّف كتابه «العروبة والشعوبيات الحديثة» وناقش فيه الآراء المغايرة لأنطون سعادة (١٩٠٤ ـ ٩٤٩) وكمال جنبلاط (١٩١٧ ـ ١٩٧٧) وسلامة موسى (١٨٨٧ ـ ١٩٥٨) وأمير بقطر (١٨٩٩ ـ ١٩٦٦) قال في مقدمته إنه توخّى في هذا الكتاب أن يكون «بمثابة دفاع عن العرب والعروبة. . . . فجاء كمعجم مختصر لحضارة العرب في الشؤون السياسية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية»، واسترشد بما جاء في مقدمة ابن خلدون (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦). ذلك أن محمد جميل بيهم ارتأى أن خير ما يردّ به على مَنْ يذهبون في الرأي مذهباً مخالفاً، هو أن يعرّفهم بالأمجاد الحقيقية التي عمر بها التاريخ العربي. وهو في نقاشه مع الأعلام الأربعة الذين اختارهم، قد توسّل بالمنطق والحجة التاريخية وليس بأساليب الاتهام أو التجريح التي يتذرّع بها مَنْ ضعفت حجتهم وتقاصرت وسائلهم.

ومما أوضحه لي محمد جميل بيهم أن المؤرخ لا يُعاب عليه كونه متحمساً لقضيّته ما دام قد اختار أن يكون مؤرخاً ذا رسالة، على خلاف المؤرخين الذين يعاملون التاريخ معاملة فاترةً محايدة، فيسوقون أحداثه مجرّدة من أي مشاعر. ولكن الذين يعيب المؤرخ أن يزيّف التاريخ أو أن يسوق بعضاً من أحداثه لا كلّها لهوى في نفسه، فيحوّل الهزيمة الساحقة إلى نصر ساحق أو نقيض ذلك. فوقائع التاريخ واحدة، ولكنّها تتشكل في أيدي المؤرخين وفقاً للمدرسة التي ينتمي إليها كل منهم، وأفسدها هي مدرسة المزيّفين.

ولئن تُرجم بعض مؤلفات محمد جميل بيهم إلى اللغات الأجنبية، ولا سيما كتابه عن «المرأة في التاريخ والشرائع»، فإن التراث البيهمي الكامل يكاد يكون بمنأى عن تناول الباحثين، ولا بدّ من إعادة نشره تعميماً للفائدة، وتوقيّاً من أن تعدو عوادي الزمن أو النسيان على هذا الجهد العلمي الباذخ الذي أنفق فيه محمد جميل بيهم كل عمره. ولا أدري هل منح محمد جميل بيهم أوسمةً عربية أو أجنبية في حياته، ولكن المؤكّد أن خير وسام يُمنح لهذا الباحث إنّما يتمثل في بعث تراثه ودراسة سيرته الملهمة في الوطن العربي الذي عاش له.

❁ ❁ ❁

الدكتور محمد صبري السوربوني

اقترن اسم الدكتور محمد صبري السوربوني في ذهني بـ «القارعة» وكانت عنواناً لمقال استوقفني عندما كنت طالباً في المرحلة الثانوية، فلا استوعبت ما يرمز إليه اسم كاتب المقال، لأن مصر تخلو من قرية أو مدينة اسمها «سوربون» يُنسب إليها أبناؤها، كما يُنسب الزنكلوني إلى زنكلون، والزفتاوي إلى زفتى، والإبياري إلى إبيار، والدمياطي إلى دمياط، والإسكندري إلى الإسكندرية والدشلوطي إلى دشلوط، والفرشوطي إلى فرشوط، وهلم جرا، ولا أدركت معنى «القارعة» في تلك السن المبكرة.

وعندما خرجت إلى الدنيا وعملت محرراً في جريدة «المقطم» وجدت على مكتبي ذات صباح من عام ١٩٤٨ نسخةً من كتاب ضخم عنوانه «الإمبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر» ومعه أطلس كبير، وعليهما إهداء من مؤلفهما الدكتور محمد صبري السوربوني «إياه»! فكتبت معرّفاً بالكتاب، ومُشيداً بالجهد الأكاديمي الشاق الذي بذله المؤلف في سبيل جمع مادّته وتحليلها من واقع الوثائق التاريخية المجهولة والمعروفة. وفوجئت عقب نشر المقال بزائر لا أعرفه يقتحم عليّ غرفتي ويشدّ على يدي ويمطرني بقبلاته. فسألته: مَنْ تكون؟ فقال: أنا صبري السوربوني، وقد جئت بنفسي لأشكرك على ما كتبته عن كتابي (مع أن مقالي نشر بغير توقيع كالتقليد الذي كان مُتّبعاً في صحف تلك الأيام).

وقد اختصر بحفاوته الحارة الطرق إلى قلبي، ولا سيما عندما دعاني إلى زيارته في منزله الملاصق لقصر القبة الملكي، وكان منزلاً مستقلاً (ڤيلا) مُحاطاً بحديقة كبيرة يشرف بنفسه على زراعتها بالخضر والفاكهة والزهور. وطاف بي في أنحاء مكتبته الضخمة بنفائسها من الكتب الأدبية والتاريخية والفنية أيضاً بلغات شتّى، وأراني اللوحات الفنية التي تزدان بها جدران البيت، وكلها لوحات أصلية لفنانين معروفين اقتناها بنفسه في أوربة. كما قدّمني إلى زوجته السويسرية وابنيْه

وابنته وكانوا صغاراً. وقد أمتعني يومها حديثه التلقائي عن الساسة الذين عرفهم، وأشهرهم الزعيم سعد زغلول باشا (١٨٦٠ ـ ١٩٢٧) وعن كبار الأدباء الذين اتصل بهم في مصر والبلدان العربية، ومنهم الشاعر إسماعيل صبري (١٨٥٤ ـ ١٩٢٣) والشاعر أحمد شوقي (١٨٦٨ ـ ١٩٣٢) والشاعر خليل مطران (١٨٧٢ ـ ١٩٤٩) والشاعر حافظ إبراهيم (١٨٧١ ـ ١٩٣٢) والشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي (١٨٦٣ ـ ١٩٣٦) وغيرهم.

كما حدّثني عن زمالته لطه حسين (١٨٨٩ ـ ١٩٧٣) في السوربون وقال إنه هو الذي زفّ إلى طه حسين خبر نجاحه في الامتحان، كما روى ذلك طه حسين نفسه في الجزء الثالث من «أيامه»، وأشار إلى زميل ثالث اسمه جلال شعيب ـ هو بطل رواية «أديب» لطه حسين ـ وقد ضيّع شبابه في باريس، وعجل بذلك بمنيّته قبل أن يظفر بأي شهادة.

وقد بهرني السوربوني بواسع علمه وتعدّد اهتماماته وبشخصيته المرحة وتعليقاته الساخرة. كان أَمْيَل إلى القصر منه إلى الطول، يعتمر «بيريه» كغطاء لشعره الناحل، ولا يفارقه غليونه أو عويناته. إذا تحدّث انطلق في الحديث، ولا يلبث أن يطلق فكاهة بصوته المجلجل. وإذا كان زميله طه حسين قد انتقل بعد المرحلة الباريسية إلى طبقة الأرستقراط، فقد بقي السوربوني شعبياً حتى عندما أُنعم عليه برتبة البكوية، وعندما أُسندت إليه رياسة دار الكتب ومعهد الوثائق والمكتبات.

وقد توثقت صلتي بالسوربوني بعد ذلك، ولا سيما عندما تقرّر هدم البيت الذي يُقيم فيه لإخلاء المنطقة حول القصر الملكي، فانتقل إلى بيت آخر غير بعيد عن بيتي.

وصف لي قراره بالسفر إلى فرنسة للدراسة هناك بعد نيل شهادة البكالوريا في عام ١٩١٣ قائلاً إنه أراد أن يطوّح بنفسه تطويحاً في أوربة كي يعتمد على نفسه، ويشقّ طريقه بأظافره. وقال إنه اختار جامعة السوربون للدراسة فيها من قبيل التحدّي لأنها معقل حصين تنوء دونه الهمم، فانكبّ على دراسة اللغتين الفرنسية واللاتينية كيما يذلّل العقبة التي تتحطم عليها قُدرات الدارسين، وبلغ من إتقانه الفرنسية حدّاً جعله يؤلّف كتبه بهذه اللغة، وينشرها في باريس بمقدمات

يكتبها أساتذته المرموقون. وقال: إنه في حين كان جميع الدارسين يتخصّصون في مجال واحد، فقد اختار هو ـ من قبيل التحدّي أيضاً ـ أن يتخصص في مجالين هما التاريخ والأدب، وأضاف إليهما هوايةً الفن، فدرس الفنون من واقع كتالوجات كبار الفنانين العالميين التي حرص على اقتناء أكبر مجموعة منها، كما جعل زيارة المتاحف الكبرى بَنْدَاً ثابتاً في برنامجه المرسوم.

وقد وصف الدكتور طه حسين جهاد السوربوني في سبيل تحقيق الفوز في هذه الجامعة العريقة فكتب يقول في «أيامه»: «إن السوربوني جدّ وكدّ، وتقدم للامتحان مرّة ومرّة، ولكن عُقدة اللاتينية أدركته، فكان إذا أقبل على الامتحان وتلقى النصَّ اللاتيني الذي يجب أن يترجمه إلى الفرنسية، ألقى عليه نظرة سريعة ثم طواه وقدّم إلى الممتحنين صفحةً بيضاء لم يمسسها خطأ أو صواب، وانصرف ضاحكاً يتمثل ببيتٍ لاتيني قديم يصّور اليأس والقنوط. ولكنّه لم يعرف يأساً ولا قنوطاً، ولم يُذعن لعقدٍ أو صعوبة، وإنَّما حاول وطاول وألحّ في المحاولة والمطاولة حتّى تقدم للامتحان ذات يوم، وتلقى النص اللاتيني، فلم ينظر فيه نظرةً سريعة، وإنما أقبل عليه فترجمه وقدم إلى الممتحنين صحفاً أتاحت له الفوز والنُجح».

استكتبتهُ مرة مقالاً عن ذكرياته فاستهلّه بقوله: «كان في نيّتي أن أكتب قصة حياتي بعنوان (لقد عشت مليون سنة)، ولا غرابة في ذلك، فإن مقاييس الزمان والمكان التي نعرفها مقاييس سطحية، فليس الخطّ المستقيم أقرب الطرق دائماً إلى الغاية، إذ يطيب لي أحياناً أن أبلغ الغاية من طرقٍ جانبية متنوّعة. أخرج من طريق إلى طريق، من منعرج إلى منعرج، دون أن أحسّ بطول المسافة والزمن.

والواقع أن كل شيء نسبيّ مرهون بظروفه وملابساته، وقد يطول الزمن ويقصر، ويبطئ ويعجل، وهو لا يسير على وتيرةٍ واحدة. فلا يصحّ قياسه بمقياس جامدٍ لا يحسب حساباً لروح الزمن واختلاف مراحله».

لقد تمنّى السوربوني أن يعيش مليون سنة، ولكنه لم يعش إلّا نحو ٨٥ عاماً، إذ يُختلف على يوم مولده، وهل كان في ٩ تموز (يوليو) ١٨٩٤ ـ كما تقول بطاقة هوّية السوربوني، أو في عام ١٨٩٠ كما يُستنتج من عبقريته الشعريّة المبكرة.

كان الدكتور السوربوني - كما يُستدلّ من عناوين كتبه - مشدوداً إلى كبار الأعمال الأدبية والأحداث التاريخية، فهو يؤلّف عن «الشوامخ» وعن «أروع» ما كتب خليل مطران وعن «المجهول» من شعر شوقي وعن «شعراء العصر» وعن «حضارة العرب» وعن «أسرار» تدويل قناة السويس وعن «الإمبراطورية» المصرية و«الإمبراطورية» السودانية، وكلّها عناوين تشي بالرغبة الكامنة في صدر السوربوني، وهي ألّا يكتب إلّا عن الكبار الكبار من الحادثات والشخصيات، وهو بهذه المؤلّفات يتقحّم مجتمع الثقافة بكل عُرامه وزخمه وقوارعه أيضاً. وهذه الفتوحات العلمية التي اجترحها السوربوني كانت كفيلةً بأن تفتح له أبواب الجامعات يدرّس فيها، وأن تمهّد له أسباب التبريز، سواء في المجامع أو في مهرجانات الجوائز، ولكن هذه الأسباب جميعاً تخطته، وليتها اقتصرت على ذلك، بل لقد عاقبته في رزقه عندما زُجَّ باسمه في قوائم التطهير التي أعلنتها الثورة بعد قيامها، ففصل من وظيفته مع مَنْ فصل في مذبحة التطهير، ومنهم الشاعران إبراهيم ناجي (١٨٩٨ - ١٩٥٣) وصالح جودت (١٩١٢ - ١٩٧٦). وأصبح السوربوني منذ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٢ بلا وظيفة، يعيش على راتب تقاعدي هزيل. ولا غرو أن تمتلئ نفسه بمرارةٍ ممزوجة بالسخرية. وكنتُ أسمعه يقول: «لا أريد وظائفهم ولا جوائزهم». بل فكّر جدياً في الهجرة إلى باريس - في وقتٍ لم يكن مسموحاً فيه لمن يسافر بأن يحمل معه ما يزيد على خمسة جنيهات مصرية! - وقال إنه سيحمل معه لوحتين أو ثلاثاً من اللوحات التي يقتنيها لبيعها في فرنسة والعيش هناك من ثمنها، والأهمّ عنده هو أن يطبع هناك كتاباً ضخماً كان منكبّاً على تأليفه باللغة الفرنسية عن الحضارة العربية في قلب إفريقية في القرن التاسع عشر، وتقع مخطوطته غير الكاملة في أكثر من ألف صفحة. وتحت وطأة هذه الحالة النفسية، فكّر في بيع خزانة كتبه، وأعدّ لهذا الغرض فهرساً مطبوعاً باللغة الفرنسية عسى أن تهتمّ باقتنائها إحدى الجامعات أو الهيئات العلمية. والذي حدا به إلى ذلك كونه قد انفصل عن زوجته السويسرية وكان ابناه قد هاجرا إلى الخارج، وتزوجت ابنته واستقلّت بحياتها، وصار يعيش بمفرده ويقوم بنفسه بجميع الأعمال المنزلية، بل صار يعتقد بأنه مُطارد، فأحكم أرتجة البيت، واقتنى كلباً يدرأ به خطر المطاردين الحقيقيين أو الوهميين. فإذا زاره صديق عادت ضحكته المجلجلة ترن في الآذان قائلاً لمناوئيه: «أنا السوربوني، وموتوا يغيظكم»!.

وعندما أصدر كتاب «خليل مطران، أروع ما كتب»، وهو يضم نماذج من كتابات الشاعر خليل مطران النثرية، رجوت أستاذنا عباس محمود العقاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤) أن يتناول الكتاب بقلمه، وفي ذهني أن أرفع من الروح المعنوية للدكتور السوربوني، فكتب مقالاً نشرته في مجلة «قافلة الزيت» السعودية ـ عدد تموز (يوليو) ١٩٦١ ـ التي كنت أمثلها في مصر، قال فيه: «جاءت مقدّمة الكتاب في مكانها وفي موعدها؛ لأنها تُعين على التعريف بفضل مطران الناثر، وتصحيح الدعاوى الفاشية بين الأدباء الناشئين الذين تغرّهم تلك الطنطنة الجوفاء بأسماء المذاهب الأدبية والمدارس الفنية كلّما راجت زمناً في صحف الأدب الرخيص بين الغربيين، وقد تُفيد الناقد الأصيل المطبوع، ولكنها تضلل الناقد المقلّد عن الحقيقة المقصودة، لأنها تشغله بالأسماء عن المسميات، وبالقشور عن اللباب، وقد يضلّ أصحابها أنفسهم في وضع أسماء المذاهب وفي تطبيقها على الموضوعات».

والكتاب الذي أثار جدلاً كبيراً من كتب الدكتور محمد صبري السوربوني هو كتاب «الشوقيات المجهولة» بجزأيه، لأن السوربوني حصر فيه كثيراً من الشعر المنشور في الصحف بالتوقيع الصريح للشاعر أحمد شوقي أو بغير توقيعه، وجعل منه مادّة الكتاب معتمداً في ذلك على معاصرته لزمن الشاعر وعلى إدراكه لخصائص شوقي الشعرية وعلى ما كان يعرفه من اهتمامات شوقي واتصالاته بما يقطع ـ في عرفه ـ بأن هذه القصائد هي له. وقد أنكر النقاد على السوربوني جزمه بأن هذا الشعر المجهول هو لشوقي، وقالوا إنه قد يكون لشاعر آخر. كما نعوا عليه احتفاله بقصائد ارتأى شوقي إسقاطها لاعتبارات خاصة به، وأهملها الأديبان اللذان وقفا على نشر الجزءين الثاني والثالث من «الشوقيات» وهما الشاعر محمود أبو الوفا (١٩٠١ ـ ١٩٧٩) والأديب محمد سعيد العريان (١٩٠٥ ـ ١٩٦٤). وقال بعض النقاد: إذا كانت «الشوقيات» قد وقعت في أربعة أجزاء، فلا يصحّ أن يُضاف الجزءان الصادران من «الشوقيات المجهولة» إليها باعتبارها الجزءين الخامس والسادس. وأياً كان الأمر، فإن السوربوني بتعليقاته الضافية وشروحه ومقدماته وهوامشه قد قام بعمل أكاديمي باذخ يعدّ وثيقة ثمينة في دراسة شوقي وعصره وسمات شعره واهتماماته حتّى وإن قيل إنه أخطأ في بعض اجتهاداته.

ومن قبيل الاستطراد أذكر أن الدكتور أحمد الحوفي (١٩١٠ ـ ١٩٨٣) اهتم بدوره بشعر شوقي، فأعاد ترتيب قصائده المنشورة في الشوقيات، وأرخ لكل قصيدة، وشرح مناسبتها، وغيّر في بعض العناوين، ثم أعدّ فهارس مسهبة للأعلام والأماكن والقوافي والألفاظ، وحوّل «الشوقيات» إلى كتاب جديد عنوانه «ديوان شوقي» يقع في جزءين. وبفضل هذا العمل يستطيع الباحث الاهتداء إلى ضالّته في لحظة بسب الفهارس الكاشفة والهوامش الثرية.

ولد الدكتور محمد صبري السوربوني في المرج من أعمال محافظة القليوبية في أواخر القرن الماضي ـ كما أسلفنا ـ ونال شهادة البكالوريا في عام ١٩١٣، ولكنه أصدر في عام ١٩١٠ وهو ما زال طالباً في المرحلة الثانوية الجزء الأول من كتاب «شعراء العصر» بمقدمة للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي (١٨٧٦ ـ ١٩٢٤) وأصدر الجزء الثاني في عام ١٩١٢ بمقدمة للشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي. وبعد نيله شهادة البكالوريا سافر إلى فرنسة في عام ١٩١٤ للدراسة هناك، وإن كانت الطبيعة الفرنسية استهوته فصوّر ذلك في كتاب أصدره عام ١٩١٥ عنوانه «ذكرى الماضي أو سياحة في الجبل». ومع اشتعال نيران الحرب العالمية الأولى عاد إلى القاهرة، ولكنه قرر أن الحرب لا يمكن أن تكون عائقاً دون متابعته لدراساته العليا فعاد إلى باريس على نفقته الخاصة ـ كما كان يفعل في جميع أسفاره ـ والتحق بالسوربون في عام ١٩١٥ ومنها حصل أولاً على شهادة الليسانس في عام ١٩١٨ ثم على شهادة الدكتوراه بأعلى مراتب الشرف، وكان أول مصري ينال هذه الشهادة.

وفي باريس انضم إلى الوفد المصري الذي جاء إلى العاصمة الفرنسية بعد توقيع معاهدة الصلح في ڤرساي للدفاع عن القضية المصرية برياسة سعد زغلول باشا، فنال ثقة الوفد بفضل اتصالاته الواسعة بالصحافة الفرنسية. وفي فرنسة أصدر عدة كتب باللغة الفرنسية هي «الثورة المصرية» في جزءين و«المسألة المصرية» و«نشأة الروح القومية في مصر» ـ وهو رسالة الدكتوراه، و«السودان المصري ١٨٢١ ـ ١٨٩٨» و«تقرير الزعيم أحمد عرابي إلى المحامين» و«الإمبراطورية المصرية في عهد محمد علي والمسألة الشرقية» و«الأمبراطورية المصرية في عهد إسماعيل والتدخل الإنجليزي الفرنسي». وفي مصر، أصدر كتباً منها «تاريخ الحركة الاستقلالية في إيطالية» بمقدمة للشاعر خليل مطران و«تاريخ

مصر الحديث من محمد علي إلى اليوم» و«الثورة الفرنسية ونابليون» و«مصر في إفريقية الشرقية» و«نوبار باشا» و«الإمبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر» مع أطلس كبير، و«فصول في الاجتماع» و«فصول في التاريخ» و«أسرار قضية تدويل قناة السويس» و«فضيحة السويس».

أما كتبه الأدبية ـ عدا ما سلفت الإشارة إليه ـ فهي «الشوامخ» في أربعة أجزاء، و«محمود سامي البارودي»، و«إسماعيل صبري» و«أدب وتاريخ واجتماع».

ونظراً لأن الدكتور السوربوني كان يطبع كتبه على نفقته الخاصة، فقد صار من المتعذر الحصول عليها، وإنْ كان بعضها ـ ولا سيما «الشوقيات المجهولة» ـ قد تعرّض لقرصنة الناشرين.

وعقب عودته من باريس في عام ١٩٢٤ عين مدرّساً للتاريخ في مدرسة المعلمين العليا، ثم نقل إلى دار العلوم، وعين مديراً لدار الكتب الوطنية بالإنابة، ومديراً لمعهد الوثائق والمكتبات التابع لجامعة فؤاد الأول. والحقيقة أن شخصية السوربوني كانت أضخم من هذه الوظائف الإدارية الحكومية، ولكن لأنه كان حاداً كالسيف الباتر، فقد بقي بعيداً عن مجاله الطبيعي وهو التدريس في الجامعة.

وقد توفي الدكتور السوربوني في ١٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٨، وكانت جنازته متواضعة لأن من يعمّر تُقفر دنياه من الأصدقاء والمعاصرين. وبعد وفاته أقام له صديقاه فتحي رضوان (١٩١١ ـ ١٩٨٨) وبدر الدين أبو غازي (١٩٢٠ ـ ١٩٨٣) حفلاً لتأبينه كما أنصفه تلميذه الوفي أحمد حسين الطماوي فأصدر عنه كتاباً عنوانه «صبري السوربوني ـ سيرة تاريخية وصورة حياة».

❁ ❁ ❁

عبد الغني حسن

ممّا يُنْعَى على أبناء هذا الجيل افتقارهم إلى التواصل مع الأجيال السابقة، وهو ما أجتهدُ في تداركه في هذه الأحاديث المستطردة بحكم خَضْرَمَتِي في الحياة الأدبية، وإنْ كنت بقيتُ على الدوام على هامشها. وبسبب الافتقار إلى تواصل الأجيال، فقد لا يعرف الكثيرون، حتى الذين آل إليهم الإشراف على الصفحات الأدبية في الصحف السّيارة، أن محمد عبد الغني حسن كان على مدى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي يُعرف «بشاعر الأهرام» وهو لقب أطلقه عليه داود بركات (١٨٦٧ ـ ١٩٣٢) رئيس تحرير «الأهرام» احتفاءً بشعره الذي كان ينشره في صدارة صفحات الجريدة، واعتزازاً بإسهامه في النشاط الأدبي للجريدة حتى وهو ما زال يطلب العلم في دار العلوم، حتى وهو يتابع دراسته العليا في إنكلترة.

وبقي أنطون الجميّل باشا (١٨٨٧ ـ ١٩٤٨) الذي خلف داود بركات في رياسة تحرير الجريدة يُطلق هذا اللقب على عبد الغني حتى صار كُنيةً له منذ عام ١٩٢٧، وكان إذ ذاك في العشرين من عمره. وكان هناك ما يشبه التقليد المرعيّ بأن يُكنى كل شاعر بلقب، فعرفنا في مصر أمير الشعراء، وشاعر النيل، وشاعر الأقطار العربية، وشاعر الحضرة الملكية، والشاعر البدوي وشاعر الشباب، وشاعر البراري، وشاعر آل البيت.

وعرفنا في الأقطار العربية الأخرى والمهاجر الأخطل الصغير، وبدوي الجبل، وعرار والشاعر القروي، والشاعر المدني، وهلم جراً، وهو تقليد قد زال أو كاد، وتَوَافَقَ مع إلغاء الألقاب المدنيّة في يومنا المعاصر.

ولم يكن الشعر هو بضاعة عبد الغني الوحيدة، فقد اتسّعت مواهبه فشملت الدراسات الأدبية وتحقيق كتب التراث والترجمة والمباحث الإسلامية والنقد الأدبي والسير والتراجم. إذْ كان طويل الأيادي في تحصيله لأوعية المعرفة من

كل قطر، بفضل ما أنشأه من صداقات مع أدباء العالم العربي والمهاجر، وبفضل رحلاته الواسعة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، فتكاملت لديه مجموعات من نفائس الكتب المطبوعة حتى في الهند والصادرة حتى في فنزويلا، ونَدُرَ أن تجد أخواتٍ لها عند سواه من المشتغليين بمآرب القلم. كما كان واسع الخطوات في دنيا الأدب، بشخصه الحاضر في كثرةٍ من المؤتمرات والندوات، وبكتاباته التي توزّعت بين جمهرةٍ كبيرةٍ من المجلات الأدبية الصادرة في العالم العربي.

افتح مجلة «المقتطف» أو مجلة «الكتاب» أو مجلة «الكتاب العربي» أو سلسلة «تراث الإنسانية» أو مجلة «الأديب» أو مجلة «الرسالة» أو مجلة «الهلال» أو «مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق» أو مجلة «الضاد» أو «مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة» أو «مجلة معهد المخطوطات العربية» أو مجلة «المجلة» أو مجلة «الثقافة» أو «صحيفة دار العلوم» تصافحك كتابات محمد عبد الغني حسن الدسمة التي تشي بسعة الاطلاع وقوّة البيان وعُمْقِ البحث وسداد الرأي. عدا أنه حرّر ثلاث مجلّات هي «الناشر المصري» و«بريد المطبوعات الحديثة» و«بريد الكتاب».

ناهيك عن أنه بحكم إحاطته شبه الشاملة بالكتب الصادرة في مصر والعالم العربي، فقد صار يعدّ حجّة في حصر المطبوعات، ممّا حدا بمعظم دور النشر في مصر إلى الاستعانة به في إعداد أدلّتها السنوية تعريفاً بما أصدرته من كتب، فَغَلَّبَ الطابعَ الأدبيَّ لا الطابع التجاري على هذه الأدّلة.

عرفت محمد عبد الغني حسن في «دار المقتطف والمقطم» التي عملتُ فيها منذ عام ١٩٤٥ وإلى أن طواها العدم في عام ١٩٥٢ (وكانت مجلة المقتطف الشهرية قد عمّرت ٧٧ عاماً في حين عمرّت جريدة «المقطم اليومية ٦٤ عاماً). وكان عبد الغني من أغزر كتّاب «المقتطف»، كما كان من أكثر الأدباء انتظاماً في غشيان ندوة «المقتطف» الأسبوعية في أيّام الجمعة، وهي ندوة ارتجلناها فصارت مع الوقت قِبْلَةً لأدباء مصر والأدباء العرب المارّين بالقاهرة، يتعارف فيها رجال القلم شخصياً بعدما تعارفوا من خلال آثارهم.

وعند صدور ديوانه «من نبع الحياة» عقدتُ فصلاً عليه في جريدتنا اليومية، وتوهّمتُ أن كُرور الأيّام أنساه هذه الكلمة، ولكنَّه عاد بعد ثلاثين عاماً يستشهدُ

بها بكثير من الاعتزاز في مقال نشره عن حظوظه الأدبية. ومنذ ما تَشَافَهْنَا للمرة الأولى وإلى أن ودّع الدنيا في الثاني والعشرين من كانون الثاني/ يناير ١٩٨٥ وأنا أجدُ في عبد الغني حسن أخاً أكبر ومرجعاً لا يخيب. ولا أظن أن يوماً واحداً مرّ طوال هذه السنوات دون أن يحدث بيننا لقاء، إمّا على الهاتف أو بشخصيْنا أو بالبريد أثناء رحلاته الخارجية أو في فترة اغترابي. بل لقد كان كلّ منا يفرّج عن صاحبه كربته بالمشاطرة الوجدانية ـ وهي أضعف الإيمان ـ وكان أقساها كربته بعد هجرة أبنائه الأربعة ـ وهم بين مهندس وطبيب ـ إلى العالم الجديد، وكان أقساها بالنسبة إليّ حينما تجهمت الدنيا في وجهي، وتغالظت الانكشاريات في حياتي مقيماً ومغترباً. ولهذا بكيتُ عبد الغني بكل حُرْقَةٍ عندما أتاني نبأ وفاته الفاجع، إذْ هو قد أَصفَاني من الأخوّات الحميمة على مدى أكثر من أربعين عاماً ما جعلني أردّد مع الشاعر خليل مطران (١٨٧٢ ـ ١٩٤٩) قوله: «إني كثيرٌ بإخواني، وما مُوسرٌ له رأسُ مالي». ولا بدّ من الاستدراك هنا للتأكيد بأن منزلتي من عبد الغني ـ برغم الأخوّات المبذولة ـ كانت على الدوام منزلة التلميذ من أستاذٍ كبير، وكنتُ أُقرّ له دائماً بهذه الأستاذية الآمرة التي صاحبته منذ يفاعته، لأنه لم يعرف في حياته إلّا الجدّ الصارم والدأب المتصل في ميادين الأدب جميعاً.

ولد محمد عبد الغني حسن في مدينة المنصورة لأسرةٍ من أصلٍ صعيدي في التاسع عشر من آب/ أغسطس ١٩٠٧، وانتظم في الدراسة الابتدائية والثانوية والجامعية حتّى تخرج من كلية دار العلوم في عام ١٩٣٢. وكانت دار العلوم (ويشار إلى خريجها بالدراعمة) معروفةً بتعصبّها الشديد للغة العربية في مواجهة «غريمتها» كلية اللغة العربية التابعة لجامعة الأزهر. أما كليات الآداب، فقد تأخّر ظهورها بتأخّر إنشاء الجامعة المصرية حتى عام ١٩٠٨ في حين يعود إنشاء دار العلوم إلى عام ١٨٧٢. وأُوفد عبد الغني في بعثة إلى جامعة إكستر البريطانية لدراسة اللغة الإنكليزية والتربية وعلم النفس، كما تردّد في الصيف على معهديْن في باريس لدراسة اللغة الفرنسية. ولما عاد إلى مصر اشتغل بالتدريس في مدارس شتى، وأُسندت إليه مهمّة إدارة الإذاعة المدرسية، وهي إذاعة موجهة إلى تلاميذ المدارس، وقام بالتدريس في كلية الشرطة، وعمل مفتشاً عاماً بالتعليم الثانوي والأجنبي. ورغبتْ دار المعارف ومؤسسة المطبوعات الحديثة في الاستعانة

بعبد الغني حسن مديراً للنشر، فطلب التقاعد مبكراً من وزارة المعارف. وعند تأميم دور النشر، صار عبد الغني مديراً أيضاً لدار القلم والدار القومية، وهي أعمال إدارية كادت تنأى به عن الإنتاج الأدبي. فتخَلّص من هذه الأعباء الإدارية، وانصرف إلى نشاطه الأدبي، وأضيفت إليه عضوية لجان المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، والمجالس المتخصصة، كما انتخب عضواً مراسلاً لمجمع اللغة العربية بدمشق وعضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة خلفاً للمؤرّخ محمد رفعت باشا (١٨٨٩ ـ ١٩٧٥) الذي شغل منصب وزير المعارف. وهكذا استطاع المفتش السابق بوزارة المعارف ـ صاحب الوظيفة المتواضعة في السلك البيروقراطي ـ أن يحلّ محلّ وزير المعارف نفسه في عضوية المجمع تأكيداً لأن السّلم الأكاديمي العلمي الدراسي يسخر من السلّم البيروقراطي المتبقرط! بل إن العضو الذي اختير خلفاً لعبد الغني حسن في المجمع بعد وفاته كان بدوره وزيراً سابقاً، وهو الشيخ محمد متولي الشعراوي (١٩١١ ـ ١٩٩٨).

أصدر عبد الغني خمسة دواوين هي «من وراء الأفق» و«من نبع الحياة» و«ماضٍ من العمر» و«سائر على الدرب» و«من وحي النبوة»، وله ديوان سادس لم ينشر بعد عنوانه «من وحي الأكباد النازحة» وقد وقفه على تصوير لهفة الأب والأم على الأبناء الذين آثروا الهجرة نُشداناً لحياةٍ أفضل. وأصدر في التراجم كتباً عن مي، وأحمد فارس الشدياق، وابن الرومي، والشريف الرضيّ، وجرجي زيدان، وأبي مسلم الخراساني، وتميم بن المعزّ، وعبد الله فكري، وحسن العطّار، والشريف الإدريسي، والمقرّي، وموسى بن نصير، وبطل السند، وابن سعيد المغربي. أما دراساته الأدبية فمنها «الشعر العربي في المهجر» و«في صحبة الشعر والشعراء» و«علم التاريخ عند العرب» و«معرض الأدب والتاريخ الإسلامي»، و«جوانب مضيئة في الشعر العربي» و«الفلاح في الأدب العربي» و«مشاركات في النقد الحديث» و«تاريخ مجّلة روضة الدارس» بالاشتراك مع الدكتور عبد العزيز الدسوقي و«فن الترجمة في الأدب العربي» و«من أمثال العرب» بالاشتراك مع عبد السلام العشري و«دراسات في الأدب العربي والتاريخ» و«التراجم والسير» و«بين السطور» و«الخطب والمواعظ». وله طائفة أخرى غير قليلة من الكتب المتعدّدة الموضوعات، وما ألمعتُ إلّا إلى ما يرمز إلى غزارة إنتاجه وتنوّع موضوعاته ورحابة ميادينه.

في عام ١٩٧٥ قرّر محمد عبد الغني حسن وقرينته الفاضلة رُقيّة أحمد بدير، وهي أستاذة رياضيات، زيارة البرازيل لافتقاد نجلهما يحيى بعدما برّحهما الشوق لرؤيته في مغتربه السحيق. وعوضاً عن أن تنطبع هذه الزيارة بالطابع العائلي المجرّد، استحالت إلى مهرجانات لتكريم الشاعر تبارى في إقامتها الشعراء والأدباء المقيمون في البرازيل ومنهم نبيه سلامة (١٩٠٨ ـ ١٩٩٤) وفيليب لطف الله (١٨٩٧ ـ ١٩٨٠) وميشال مغربي (١٩٠٢ ـ ١٩٧٨) وداود جرجس الخوري (١٨٨٥) ومريانا دعبول فاخوري (١٩٠١ ـ ؟) صاحبة مجلة «المراحل». وكانت شهرة عبد الغني قد سبقته إلى المهاجر بفضل نشاطه الأدبي الواسع من ناحية، وكذلك بفضل دراساته الموسّعة عن الأدب المهجري.

وقد سجّلت مجلة «المراحل» في عددها المزدوج ٢٢٥ و٢٢٦ الصادر في أيار/ مايو وحزيران/ يونيو ١٩٧٥ وصفاً مسهباً للحفلات التي أقيمت لتكريم عبد الغني وقرينته، كما أثبتت نصوص القصائد التي ألقيت في الحفاوة به، ونشرت مجموعة كبيرة من الصور التي التقطت بهذه المناسبة. بل نشرت صورة عبد الغني على غلاف العدد. ووجهت صاحبة المجلة خطاباً إلى المحتفى به قالت فيه: «يا شاعر الأهرام. لقد كنت ضيفنا الكبير، وكنت أديباً علماً لم نلتق بمثله، وقد مرّت علينا أقمارٌ عديدة لم يطرق فيها بابنا أديبٌ نقدر أن نتحدث معه، ونأخذ عنه الكثير من المواضيع الهامة التي اختفت من أدبنا المهجري. وعلى الرغم من قصر الوقت، فقد كانت لنا جلسات لن ننساها، لأنك عركت الدهر وامتزجت بالأدب والأدباء وحفظت كل نفيس من أقوالهم، ولهذا نخصص القسم الأكبر من عدد المجلة هذا لأقوالك وأقوال الأدباء فيك».

وممّا يذكر في هذا المقام أن السيدة مريانا دعبول فاخوري ظلّت تصدر مجلتها «المراحل» باللغتين العربية والبرتغالية على ورق صقيل وبالألوان وهي تزحف بشيخوختها صوب التسعين من العمر، وكان انقطاع المجلة عن بريدي إعلاناً برحيل صاحبتها عن دنيانا، وإيذاناً بانطواء صفحة الأدب المهجري بعدما توارى كل أعلامه في الجنوب الأمريكي، وكان الأعلام في الشمال الأمريكي قد سيقوا إلى الرحيل. ومجلة «المراحل» هي الثالثة من حيث أناقة الإخراج والاهتمام بالأدب العربي في البرازيل. أما المجلتان الأخريان فهما «العصبة» التي كانت تصدرها جماعة العصبة الأندلسية ويحررها ميشال معلوف (١٨٨٩ ـ ١٩٤٢)

ومجلة «الشرق» التي كان يصدرها موسى كُرَيِّم (١٨٩٤ ـ ١٩٧٤).

وإن الجهد الضخم الذي بذله محمد عبد الغني حسن على مدى نصف قرن كان خليقاً بأن يُنَولَّه أعلى الجوائز، فلما رُشِّح لنيل جائزة الدولة التقديرية، توفي قبل أن يُعلن عن منحها إلى سواه. وقد شكا لي في أخريات عمره من أنه بات يجدُ مشقةً كبيرةً في نشر كتبه لم يصادف مثلها وهو في بدايات عمره، وهي شكوى سمعتُ أمثالها من أدباء كبار منهم علي أدهم (١٨٩٧ ـ ١٩٨١) والشاعر الرقيق حسن كامل الصيرفي (١٩٠٨ ـ ١٩٨٤). بل لقد شكا من أن الناشرين يماطلونه متذّرعين بأنهم في انتظار تقارير لجان الفحص، وهو الذي كان دائماً عضواً في لجان الفحص!! فإذا رغب في استرداد مخطوطاته، قيل له إنها فقدت! ومات دون أن ينشر عدداً من كتبه المخطوطة، وما زالت أرملته تطالب دور النشر بإعادة هذه المخطوطات التائهة في دهاليزها.

وكان من عادته أن يُضيف إلى كل طبعةٍ جديدةٍ من كتبه مزيداً من الفصول، فتوسّع في كتابه عن ميّ في طبعته الثانية، وعمل الشيء نفسه في كتابه عن أمين فكري، وأضاف خمسة فصول جديدة إلى كتابه «فن الترجمة في الأدب العربي»، كما أضاف إلى كتاب «الشعر العربي في المهجر» ما يعادل نصف مادته ـ وإنْ بقي هذا المخطوط دون نشر.

وكان معجم «المنجد في الأدب والعلوم» يقتصر في طبعاته الأولى على المادة القاموسيّة المعتادة، وارتأى ناشروه بعد ذلك أن يلحقوا به «معجماً لأعلام الشرق والغرب» قام بصنعه الأب فردينان توتل. فلمّا اطلع محمد عبد الغني حسن على هذا العمل تبين أن فيه أوهاماً كثيرة وأخطاءً لا يصحّ السكوت عليها، وهي أخطاء وقع جزء كبير منها نتيجة الترجمة عن أصل فرنجي شاهت بسببه أسماءٌ عربيةٌ كثيرة. فسجّل عبد الغني ملاحظاته في فصل طويل نشره، وتوهّم بعد ذلك أنه لا بدّ قد أثار غضب أصحاب المعجم بقسميه. ولكنه فوجئ بعد ذلك بزائر لم يعرفه من قبل جاء لكي يشكره على فضله، وقدم الزائر نفسه إليه قائلاً: «أنا فردنان توتل، وقد جئت خصيصاً لكي أحمد لك صنيعك، وقد تداركنا كل هذه الهفوات في الطبعة المقبلة وسنتداركها في كل الطبعات الجديدة بإذن الله».

وفي محاولة لرسم صورة عن قرب لمحمد عبد الغني حسن ـ لأنه برغم

نشاطه الأدبي العريض لم يظهر مرة واحدة على شاشة التليفزيون لكي يعرفه الناس على الطبيعة ـ أقول إنه كان مديد القامة قويّ البنية جميل الصورة ذا عينين زرقاوين توحي ملامحه باليقظة التامة فلا تفلت من انتباهه بادرة. وكان على عاطفة إنسانية شديدة الزخم لا يستطيع كتمانها مهما حاول، وقد رأيته يجاهد في سبيل كظم مشاعره فتخونه الدموع الجارية. وكان عبد الغني شديد التعلّق بأسرته، ولهذا كان يُهدي نسخةً من كل كتاب جديد يصدر له إلى زوجته وإلى كل من أبنائه الأربعة وإلى ابنته الوحيدة «ثناء» التي اختارت بدورها الهندسة ميداناً للتخصص، وصارت «باشمهندسة».

وفي ديوانه «سائر على الدرب» قصائد تدور في جوّ الأسرة، لعل أرقها القصيدة التي وجهها إلى ابنته، وهي جديرة بالاستشهاد بها في هذا المقام:

«ثَنَاءُ» يا زَهْرَتَنَا النَّضِيْرَهْ ... والنَّجْمَةَ المُشْرِقَةَ المُنِيْرهْ
أَنْتِ بِكُلِّ حُبِّنا جَدِيْرَهْ ... وأنتِ في مَنْزِلِنَا أَمِيْرَهْ
وأنْتِ مَحْبُوبَتَنَا الصَّغِيْرَهْ ... وفَرْحَةً في بَيْتِنَا كَبِيْرَهْ
حَوَيْتِ مِنْ زَهْرِ الرُّبَى عَبِيْرَه ... وحُزْتِ مِنْ بَدْرِ السَّمَاءِ نُوْرَه
ليسَ الحياةُ يا ابْنَتِي يَسِيْرَه ... لكِنَّهَا رِسَالَةٌ خَطِيْرَه
أنتِ على احْتِمَالِهَا قَدِيْرَه ... وأنتِ مِنْ مَعْنَى الكَمَالِ صُوْرَه
فإنَّمَا آمالُنَا كَثِيْرَه ... في الدُّرَّةِ الغَالِيَةِ الطَهُوْرَه
حتّى تكونَ عَيْنُنَا قَرِيْرَه ... ونَفْسُنَا يا ابْنَتِنَا فَخُوْرَه

❁ ❁ ❁

محمد علي الطاهر

كنتُ في الأربعينيات من هذا القرن أحرّر جريدة «المقطم»، وكنت أستخدم ترام القاهرة في تنقلّاتي، وكان وسيلة نظيفة مريحة من وسائل النقل العام يستخدمها كثيرون حتى من علية القوم. وذات يوم، وقبل نزولي من الترام بمحطةٍ أو اثنتين، ركب راكب اعتبرته «ظاهرة» بسبب هيئته الفريدة المتميّزة. فقد كان يرتدي سترةً داكنة اللون، وتحتها قميص بياقةٍ منشّاة من الطراز الذي يرتدى في السهرات وفي عينيه حَوَلٌ ظاهر، وعلى رأسه طربوش، وفي يده أكداس من الصحف والمجلات، وتطلّ من جيوبه أكداس أخرى منها، وكلّها صحفٌ ومجلات صادرة في البلاد العربية أعرفها جيّد المعرفة لكوننا نتلقاها في جريدتنا إعمالاً لناموس المبادلة. وتأملت ملامح هذا الراكب عساي أتبيّن فيه واحداً من المشتغلين بالقضايا العربية الذين تنشر الصحف صورهم، فلم أفلح. وجاء موعد هبوطي من مركبة الترام، فغادرتها وصورة هذا الرجل تلحّ على ذهني إلحاحاً شديداً دون أن أوفّق إلى حلّ لغزه.

وفي يوم من أيام أغسطس (آب) ١٩٤٧ جاءني زميلي في «المقطم» محيي الدين رضا ـ ابن شقيق الشيخ محمد رشيد رضا ـ وكان واسع الاتصال بما كنّا نسميّه «بالدوائر العربية»، وقدّم إليّ نسخةً من كتاب «ذكرى الأمير شكيب أرسلان» قائلاً إنه كان في الليلة السابقة في زيارة مصنّفه محمد علي الطاهر الذي رغب إليه في حمل هذه النسخة إليّ على غير معرفةٍ سابقة. وألفيته قد طرّز الكتاب بعبارة إهداء سخيّة جاء فيها «هديّة تذكارية إلى حضرة الكاتب البليغ والصحافي المفضال الأستاذ فلان مع احترامي». فسألت أخانا محيي الدين: ومَنْ يكون محمد علي الطاهر؟ فأدهشه أنني أجهل هويته، وابتدرني بقوله: كيف لا تعرفه وهو مجاهد فلسطيني كبير له مكتب في وسط القاهرة هو المحلّ المختار لجميع المجاهدين العرب والمسلمين من إندونيسية وجاوى إلى المغرب وما وراءه؟! وكعادتي في ذلك الحين، قرأت الكتاب مبهوراً بسيرة الأمير شكيب،

وعقدتُ عليه فصلاً في «المقطم» أثنيتُ فيه على جهاد هذا الأمير العظيم، وأشدتُ بصنيع مصنّفه محمد علي الطاهر.

ولم يكد المقال يظهر حتى دق الهاتف في مكتبي، وكان المتكلم هو الطاهر بنفسه الذي شكرني على ما كتبت، ثم دعاني إلى زيارة مكتبه في رقم ١١٩ شارع الملكة نازلي في القاهرة (وقد تغيّر اسم الشارع بعد ذلك إلى شارع الملكة عندما جرّد الملك فاروق والدته نازلي من لقبها الملكي، ثم تغيّر إلى اسمه الحالي وهو شارع رمسيس بعدما مُحيت أسماء أسرة محمد علي باشا من شوارع القاهرة ومؤسساتها).

وعندما قصدتُ مكتب محمد علي الطاهر للمرة الأولى، ألفيتُ بابه مفتوحاً، ولكنني تهيبت الدخول دون إنذار سابق، فدققت الجرس، وعلى الإثر جاء صاحب المكتب لاستطلاع كنه هذا الزائر الذي لم يره من قبل. واكتشفت على الفور أن صاحب المكتب هو نفسه ذلك الرجل الذي حيّرني أمره عندما صادفته في الترام من فترة قريبة. ورآني الطاهر شاباً في الرابعة والعشرين من العمر، فسألني: مَنْ تكون؟ فقلت له: إنني فلان المحرر بالمقطم. فاحتضنني وقبّلني بتلقائيةٍ حبيبة وقال إنه كان يتوّهمني شيخاً طاعناً في السن، وكاد بسبب ذلك يتشكك في هويّتي واقتادني إلى مقعد في مكتبه وهو يرحب بي ترحيباً حاراً، في حين كنت أتأمل هذا المكتب الغريب الذي غطيت جدرانه بمئات من الصور الفوتوغرافية المتباينة الأحجام لأناس كثيرين يرتدون أزياء وطنية مختلفة. وقد رتبت الصور على الجدران بارتجال، أفقدها التجانس المرعيّ في ما يسمى اليوم «بالديكور»! أمّا مكتبه الذي كان يحتلّ ركناً من أركان القاعة، فكانت عليه أكداس من الأوراق والرسائل والصحف والمجلات التي لم أرها في حياتي.

وقام محمد علي الطاهر بتقديمي إلى ضيوف الليلة: فهذا مجاهد من سلطنة لحج، وذاك زعيم من حضرموت، وهذا مجاهد من تونس، وذاك مشرّد من الجزر الخضراء، وهذا مقاتل من فلسطين، وهذا مناضل من الجزائر، وهذا أديب من البحرين. وطبيعيّ أنني لم أستطع أن أستوعب جميع هذه الأسماء. ولكن، مع تكرار زياراتي لمكتبه بعد ذلك عرفتُ مجموعة ضخمة ممن كان يسمّيهم «بالمنكوبين»، وهم الزعماء الذين شرّدوا من ديارهم، وأصرّوا على متابعة الكفاح إلى أن يستعيدوا استقلالها الضائع أو المنقوص بعد طرد المستعمرين من إنكليز

وفرنسيين وألمانيين وإيطاليين وهولنديين وبرتغاليين وإسبانيين من كل شبرٍ من أراضي العرب والمسلمين. لقد كان مكتبه أشبه شيء بهيئة أمم للمستضعفين في الأرض بأشخاصهم، وإن كانوا أقوياء بحقوقهم، يستنجدون به فيهبّ لمناصرتهم بمقالات ينشرها في الصحف، ومؤتمرات صحفية يعقدها في الفنادق أو لقاءات يجريها مع المسؤولين، وبرقيات يبعث بها هنا وهناك، وزيارات إلى السجون والمعتقلات، واحتجاجات يسجّلها في كل موقف، وحفلات تكريم وتأبين يقيمها تمجيداً للأحياء والأموات من المناضلين في سبيل نصرة بلادهم.

ولستُ أعتزم في هذا الحديث المستطرد أن أسرد سيرة حياة الطاهر أو كفاحه في سبيل قضايا العروبة، فهو قد سجّل هذا كلّه في كتبه ولا سيما «خمسون عاماً في القضايا العربية» و«معتقل هاكستب» و«ظلام السجن» و«نظرات الشورى» ـ وإن كان قد تبرّأ من الكتاب الأخير ـ كما أن الأستاذ سميح شبيب سجل كفاح الطاهر في الصحف الثلاث التي أصدرها بكتابه الباذخ «محمد علي الطاهر ـ تجربته الصحافية في مصر من خلال صحفه: الشورى، الشباب، العلم ١٩٢٤ ـ ١٩٣٩»، وإنّما أعتزم تناول لمحات من جوانب صلاتي الشخصية به إسهاماً منّي في إبراز عيّنةٍ فقط من المآثر الإنسانية والأخلاقية في شخصية هذا الرجل العظيم الذي كان يصف نفسه ـ وبحق ـ بالشهيد الحيّ، والذي كان يقول إن المجاهدين عرفوه في أيام النضال والكفاح، فلما آلت إليهم وجاهات المناصب بعد استتباب الحكم لهم في دياراتهم أنكروه، وسرقوا جهاده ـ إلا من قلةٍ قليلة عصمها الله.

وأُقرُّ في هذا المقام إقرار العارف الشاكر بأن محمد علي الطاهر قد وفّر عليَّ سنوات طويلة في الطريق الذي قطعته لتثبيت قدميّ في الميدان الذي اخترته في مطالع عمري، وهو ميدان الصحافة. كان الصحفيّ منّا ينفق وقتاً وجهداً طويلَيْن حتى يتأتّى له عقد صلات مع المتصدرّين للحياة العامة في البلاد العربية المختلفة، ناهيك عن أن يكتسب ثقتهم، وأن يحوّل العلاقة معهم من علاقة سطحية عارضة بين صحفيّ وزعيم إلى علاقة صداقة تُلغي الحواجز التي كثيراً ما تباعد بين الجانبيْن. كنتُ أعرّج على مكتبه في غدواتي وروحاتي بلا موعدٍ مضروب لأن المكتب مفتوح يومياً بين السابعة والتاسعة مساءً، فأصادف في مجلسه قادةً وزعماء أعرفهم بالاسم دون أن يتصل بيني وبينهم أي سبب.

وكان طبيعياً أن أنتبذ لنفسي مكاناً قصيّاً في القاعة حتّى تكون مقاعد الصدارة لذوي الصدارة في المجتمع العربيّ. وكان الطاهر يبادر بتقديمي إلى الحاضرين «بخطبةٍ» يرصعها بسخي من العبارات وكريم من العواطف، فيكون لها في نفوس هؤلاء مفعول السحر لفرط ما كان الطاهر يتمتع به من إكبار وإجلال واحترام لما يصدره من أحكام أو يسوقه من نظرات بصيرة في الناس والقضايا. ولا ألبث بعد هذا الثناء المفرط أن أجدني صديقاً مقرّباً من هؤلاء السادة جميعاً، وهو ما كنت أحتاج إلى عمر مديد لتحقيقه. وهكذا اختصر الطاهر سنوات طويلة من فترة تكويني وتثبيت قدميّ، وأضاف بالتالي إلى عمري «النافع» سنوات كان يمكن أن تطول لولا أن فتكت بي انكشاريات الحياة، وردتّني إلى عزلةٍ مبكرة ما زلت أعيش في قوقعتها بعدما توّبتني عن المشاركة في أي عملٍ عام وبعدما بات العمل العام حكراً على أشخاص بعينهم هم وحدهم موضع الثقة، ومَنْ عداهم موضع الريبة والشك والاتهام!

ولعلّي الآن زاهد في إيراد أسماء عظماء وصلني بهم الطاهر، وجعلني من الناعمين بمودّاتهم وثقتهم وتقديرهم؛ لأن نواميس السياسة المضطربة قد انتهت ببعضهم إلى السدّة العليا من المناصب، وانحدرت ببعضهم الآخر إلى نهايات مأساوية، لعلّ أخفّها النفي الاختياري أو الإلزامي، ولعلّ أقساها قضاء العمر في الأصفاد والأغلال، أو إنهاء العمر غدراً وغيلةً. ولم أنج شخصياً من هذه التجارب المفزعة التي جلبتها عليّ أوزار السياسة ـ دون أن أزاول السياسة في أي مرحلة من مراحل عمري ـ كما جلبها عليّ اسمي بملابساته الجغرافية! وهي بلايا ما زالت تطاردني إلى يوم الناس هذا. وكانت بدايتها في أكتوبر (تشرين الأول) من عام ١٩٥٢ عندما كنتُ أهمّ بدخول بيتي فانقضّ عليّ أشدّاءُ شاهرو البنادق، وساقوني إلى غرفة ضيّقة في الطابق العاشر من مبنى لم يستكمل إنشاؤه بعد، وقذفوني فيها مع اثنين من «عواجيز» الصحفيين ومخبريْن،، ثم أوصدوا الباب بالأرتاج، ولم يفتحوه إلا بعد ثلاثة أيام، ناسين أن للجسد مطالب من مطعم ومشرب وحاجة إلى غشيان دورة المياه، فهذا كلّه ترفٌ هو حلالٌ عليهم وحرام على سواهم الذين وقعوا في قبضتهم.

وتكتّم السجّانون على خبر اعتقالي حتى عن والدتي التي طار صوابها وهي تحاول عبثاً الاهتداء إلى مكاني. ولكن وكالات الأنباء والإذاعات الأجنبية طيّرت

الخبر فبات معروفاً لمتابعيها. ولم يكد محمد علي الطاهر يسمع به، حتى عقد في مكتبه اجتماعاً دعا إليه سادةً نُجُباً من رجالات الشرف والصدار من مصريين وعرب، وقرّروا أن يتوجهوا إلى السجانين للاحتجاج على هذه المعاملة والمطالبة بالإفراج عنّي فوراً. وإذْ كانوا مجتمعين، تلقوا نبأ الإفراج عنّي. وكنت وقد خرجت إلى الدنيا للمرة الثانية قد بادرت بالتوجه إلى منزلي وأنا في حالةٍ من الإعياء والإجهاد لا توصف، ودخلت غرفة نومي، وألقيت بنفسي في فراشي بكامل ثيابي، ورجوت والدتي ألا توقظني حتى ولو ظللت نائماً شهراً بطوله. وفي حوالي الساعة الثامنة مساءً استيقظت ونهضت لأغتسل وأحلق ذقني وأتناول شيئاً من الطعام، فقالت لي والدتي: إن رجلاً عجوزاً جاء وترك لك هذه العلبة من الشيكولاته ومعها بطاقة تهنئة بالإفراج. ولم يكن هذا الرجل العجوز إلّا محمد علي الطاهر الذي جاء من حيث كان يقيم في أطراف حي شبرا إلى حيث كنت أقيم في ضاحية الهرم النائية، وصعد الدرج إلى الطابق الرابع ـ فلم يكن في بيتنا مصعد ـ لكي يؤدّي ما اعتبره واجباً إزاء صديق!

وتلقاء هذا الفضل الغامر، ارتديت ثيابي وهرعت إلى مكتب الطاهر لأشكره، فاستقبلني بالأحضان وروى لي ما كان من خطته «الاستراتيجية» ـ بالتعبير الدارج اليوم ـ للسعي في سبيل إطلاق سراحي مع وفدٍ شكّله من أعظم القمم الوطنية المصرية والعربية في ذلك الحين. ثم قال لي مُسرّياً: هوّن عليك، فإن جميع الذين تقابلهم في مكتبي هم خريجو سجون ومطاردون من الشرطة، وهي ضريبة ينبغي أن يؤدّيها كل وطني شريف.

وقصة أخرى من قصص نصرة الطاهر للمظلومين عرفتها لا منه بل من «بطل» هذه القصة، وهو صديقنا المجاهد الراحل الشيخ علي الغاياتي صاحب جريدة «منبر الشرق». فقد نشر الغاياتي في عددٍ من أعداد الجريدة خبراً قال فيه إنه تلّقى استدعاءً هاتفياً بالتوجّه في اليوم التالي إلى إحدى جهات التحرّي والتحقيق وأنه لا يعرف لذلك سبباً. وبمجرد أن اطلع محمد علي الطاهر على هذا الخبر المنشور، بكّر في صباح اليوم التالي إلى بيت الغاياتي وفي جيبه بضع مئات من الجنيهات قدّمها إلى الغاياتي قائلاً: خذ معك هذا المبلغ من قبيل الاحتياط خشية الإفراج عنك بكفالة مالية، وهي كفالة إنْ لم تدفع في التوّ واللحظة زُجّ بك في السجن! فشكره الغاياتي على صنيعه، ولكنه أبى قبول هذا

المبلغ قائلاً إنه يعرف جيداً بأنه لم يقترف ما يستدعى المساءلة أو العقوبة، وإنْ كان يجهل سبب استدعائه. وأصرّ كل من الطاهر والغاياتي على موقفه، هذا يقدّم المبلغ وذاك يرفضه، وعندئذٍ قرر الطاهر أن يصحب الغاياتي إلى جهة التحقيق لكي يكون جاهزاً لدفع أي كفالة قد يُقضى بها. وقد روى لي الغاياتي هذه القصة باندهاش قائلاً: إن الطاهر ليس مليونيراً «يلعب بالفلوس»، ومؤكّد أنه اقتطع هذا المبلغ من قوت أولاده أو أنه اقترضه من جهةٍ ما. وكم كنت أكون ممّتناً منه لو أنه اكتفى بالاتصال بي هاتفياً للسؤال والاطمئنان، ولكنّه تصرّف بوحيٍ من الأريحيّة والشهامة والنبل لا بوحي من الواجب الثقيل.

وعلى طول ما عرفتُ الطاهر، وعلى اقترابي الوثيق منه منذ ما عرفته في عام ١٩٤٧ وإلى أن زرته في مكتبه في بيروت للمرة الأخيرة في عام ١٩٧٢ وإلى ما بعد ذلك في المراسلات، لم يحدث أن قصّ عليّ الطاهر هذه القصّة لئلا يستقرّ في ذهني أنه قد مَنَّ على صديق بشيء. ولولا أن الغاياتي هو الذي رواها لي لما عرفت أمرها. لقد كان دأب الطاهر أن يصنع الخير، وبأسلوب يكاد يكون انتحارياً في بعض الأحيان، وأن يكتم صنيعه حتى عن أقرب المقربين إليه.

وفي عام ١٩٤٩ سيق محمد الطاهر إلى المعتقلات بأمر من الحاكم العسكري إبراهيم عبد الهادي باشا رئيس الوزراء في ذلك الحين. وإذْ كنتُ في مكتبي في الجريدة اتّصل بي أخي وصديقي عصام الطاهر ـ ابن شقيق الطاهر وكان وقتها يدرس في مصر ـ وأنهى هذا النبأ إليَّ راجياً نشره. فكتبت خبراً يحمل معنى الدهشة من اعتقال هذا المجاهد الكبير مع رجاء إلى الحاكم العسكري بأن يُعيد النظر فيه. ولكن الرقيب الحكومي المعين في الجريدة حذف الخبر ومنع نشره. وكان لا بدّ من الاحتيال على هذا الرقيب الهمام، فعقدت فصلاً في جريدة أخرى في «باب الكتب» تناولتُ فيه كتاباً قديماً للأستاذ الطاهر عنوانه «كتاب أحمر عن فلسطين» سجّل فيه صفحاتٍ مشرّفة عن نضال الشعب الفلسطيني، وصفحات مخزية عن فظائع الاستعمار البريطاني والإرهاب الصهيوني. وبعدما أطريت الكتاب ومؤلفه قلت: «ولو كان الأستاذ الطاهر كله ذنوب، فحسبه الكتاب الأحمر شاهداً على صدق وطنية هذا المجاهد الكريم وبلائه في مكافحة الاستعمار البريطاني وزميله الصهيوني». فأفلت هذا المقال من براثن الرقيب وظهر منشوراً في «منبر الشرق». وكانت حكومة عبد الهادي قد

ذهبت، وجاءت حكومة جديدة برياسة حسين سريّ باشا وكان من أعضائها صديقنا الوطني العظيم المؤرخ عبد الرحمن الرافعي بك ـ وهو أيضاً صديق للطاهر بل لقد تبنى في عام ١٩٤٦ قضية منحه الجنسية المصرية في جلسات مجلس الشيوخ ـ فناشدتُ الحكومة الجديدة إعادة النظر في اعتقال الطاهر. ومن حسن الطالع أنها فعلت ذلك لكثرة ما وُجِّه إليها من مناشدات مماثلة. وقد سجّل الطاهر نصّ هذا المقال في كتاب «معتقل هاكستب» ذاكراً أن المقال تسلّل إليه في المعتقل.

وفي عام ١٩٥٠ اتصل بي الأستاذ الطاهر في مكتبي بالجريدة، وقال إن هناك قضية حياة أو موت تنتظر تدخلي! ولما استوضحته الأمر، قال إن الدكتور أمين رويحة ـ وهو مجاهد كبير ـ محبوس ظلماً وعدواناً في سجن المزة، وإن بينه وبين الإعدام خطوة. فقلت للطاهر: وما دوري في هذا الأمر؟ قال إن لديه وثيقة هامة من شأنها إنقاذ حياة هذا المجاهد، وإن نشرها يساعد على إبعاد هذا الخطر عنه، ورجاني أن أزوره في المساء لتسلم الوثيقة على أن أعيدها إليه في الصباح ليبعث بها مع مسافر إلى دمشق.

وقمت بنشر الوثيقة بأكبر العناوين في الصفحة الأولى من الجريدة، وعلقت عليها دفاعاً عن هذا المتهم البريء، وأعدت نصها إلى الطاهر لتلحق بالمسافر إلى الشام. ومع أن الطاهر نفسه كان «المحامي الخفيّ» في هذه القضية، فقد رجاني بإلحاح شديد ألا أشير إلى اسمه، وألا أشيد بفضله، لأن غايته هي خدمة هذا المظلوم وليس اكتساب بطولات لنفسه هي في رأيه بطولات زائفة. هذا وقد أشار الطاهر إلى هذه القضية على هامش الصفحة ٧٥٧ من كتابه «ظلام السجن» حيث قال: «استطاع أحد أصدقائي في الشام الحصول على صورة طبق الأصل لتلك الرسالة، فأرسلها إليّ، فأعطيتها لجريدة المقطم فنشرتها وعلق عليها محررها الأستاذ فلان تعليقاً منطقياً أظهر مزاياها. وقد تناقلتها صحف لبنان والعراق وعلّقت عليها كذلك. وأما صحف دمشق فلم تستطع الإشارة إليها، ولكن الذي تسلّل من بعض جرائد الأقطار الشقيقة لدمشق كان كافياً لجعل هذه الوثيقة معروفة للجميع».

وهذه القضية تضاف بدورها إلى عشرات بل مئات من القضايا التي تصدّى لها الطاهر بكل ثقله وحيويته وحماسته دون أن يتوكأ على أي منصب أو يستند إلى أي نفوذ، اللهم إلّا «نفوذ الحق».

وكنت أزور مكتبه ذات مرّة فقال لي: هل تريد أن تنفرد بنشر خبرٍ وطني وتؤدّي في نفس الوقت واجباً إنسانياً؟ فأبديت استعدادي لذلك ورجوته إيضاح جلية الأمر. فقال: إن المجاهد الفلسطيني «إبراهيم أبا ديّة» مثخن بالجراح في المستشفى الإيطالي بالقاهرة، فإنْ زرته لعلّك تظفر منه بحديث عن المعارك التي خاضها مع الصهاينة، وإنْ واسيته كنت بذلك تنهض بعملٍ إنساني تُجزى عنه عند ربّك. فقلت للطاهر: ولكن، ربّما حيل بيني وبين زيارته بسبب السرّية التي تحيط به؟ فبادر بتكليف صديق بمرافقتي إلى المستشفى ليفتح لي الأبواب المغلقة، وهناك رأيت القائد الشهيد أبا ديّة للمرة الأولى والأخيرة مسجّىً على فراشه، عاجزاً عن الحركة وعن النطق بحرف، يغالب الآلام دون أن يتأوه. وقال لي مرافقه: إن كل جسمه مصاب بآثار المعارك. وجلست صامتاً احتراماً لجهاده وبادرتُ بكتابة كلمة عنه في جريدتي سجّلت فيها ما ارتسم في ذهني وروحي من مشاعر بإزاء هذا البطل. فكان الطاهر أسبق منّي إلى نقل هذه المقالة إلى أبي دية. وبعد أيام نعاه الناعي، فكان الطاهر أول الواقفين إلى جوار جثمانه.

كنت أزوره لتهنئته في مناسبة عيد، فألفيتُ باب مكتبه موصداً على غير المعتاد، ولكن الإضاءة الداخلية وَشَتْ بأن المكتب مأهول بصاحبه وزوّاره. فدققتُ الجرس، وبعد هنيهة جاء الطاهر ولكنه فتح «شراعة» الباب بدلاً من الباب حتى يستكشف أولاً كنه زواره قبل دعوتهم للدخول. ولمّا أغلق الباب ورائي سألته عن هذا «التطور»، فأطلعني على بطاقات تهنئة بالعيد تلقاها من جميع رجالات العهد الجديد ثم قال في غضب وفزع: تصوّر، يهنئوني ببطاقاتهم ويسلّطون عليّ عسسهم، ويفضّون رسائلي، ويعترضون طريق زوّاري، ويحاولون التسلل إلى مكتبي وهو وضع إنْ استمرّ فلم تعد لي هنا حياة. وهكذا قرّر حوالي عام ١٩٥٤ أن ينتقل إلى بيروت التي كانت إذ ذاك واحةً نقية الأجواء يسعى إليها جميع الهاربين من القيود والأسوار وألوان الحجر والقمع والمطاردة التي استفحلت في عالمنا العربي.

وكنتُ بدوري قد ضقت بانكشاريات الحياة، فسافرت إلى ليبية للعمل مترجماً قانونياً في إحدى الشركات الأمريكية، وألزمتُ نفسي أن أطوي صفحات الماضي تماماً، وأن أنسى أنني كنت من المدافعين عن استقلال ليبية وكنت أعرف مجاهديها، بل كنت صديقاً لأدريان بلت السفير النرويجي الذي عينته الأمم

المتحدة ليتابع حل قضية استقلال ليبية ووحدتها، والذي أطلق اسمه بعد ذلك على شارع الكورنيش العام في طرابلس الغرب.

وانطويت على نفسي زاهداً في الدنيا جميعاً إلّا في إتقان عملي المتواضع بعيداً عن السياسة وأدغالها ورجالها. وذات يوم تلقيت بالبريد رسالةً بإمضاء سفير في وزارة الخارجية الليبية يرجوني فيها الاتصال به في أمر عاجل! واستبدّت بي حيرة من هذا الأمر العاجل الذي أستدعى بسببه إلى الخارجية في حين أنني «لا في العير ولا في النفير»! ولم يكن هناك مفرّ من التوجه إلى مكتب هذا السفير الذي قال لي: أين أنت، فنحن نبحث عنك من مدة لأن الوزير يريد أن يراك! وقبل أن أنطق بحرف، فتح الباب الذي بين غرفته وغرفة الوزير وقال لي: تفضل. وقبل أن أخطو خطوة واحدة داخل الغرفة، ألفيت نفسي محاصراً في عناق وقبلات وعبارات ترحاب من الوزير صالح مسعود بويصير. وأذهلتني المفاجأة لأنني لم أعرف هذا الرجل من قبل ولا جرى بيني وبينه أي اتصال سابق. ولما اتّخذت مجلسي في مكتبه قلت له: يبدو يا سيادة الوزير أن هناك خطأً ما، وأنك أردت لقاء شخص سواي، لأنني مجرد مترجم قانوني في شركة ولا شأن لي بالحياة العامة. فكان ردّه: بل لقد أردت أن ألقاك أنت بالذات لأن محمد علي الطاهر «سوّد وجهي» برسائله واتصالاته وملاحقاته، إذْ كيف لم أسع إلى معرفتك حتى الآن! وخجلت من الوزير، وعرفت أن أفضال الطاهر وأياديه البيضاء تلاحقني وتطاردني في أطراف الأرض.

وبعد أيام من هذا اللقاء، فوجئت ببويصر وقد بُطش به وأخرج من وزارة الخارجية والوحدة ـ كما كانوا يسمّونها ـ وبُعيد ذلك انقضّ عليّ الباطشون وطردوني من بلادهم فوراً ومع التساهل غدوة، كما قال مندوبهم الزنيم!

وعندما زرت بيروت للمرة الأخيرة في عام ١٩٧٢ قبل الحرب الأهلية التي اندلعت بُعيد ذلك ولم تنته ذيولها بعد، رغبتُ في زيارة الطاهر زيارة مفاجئة بين موعديْن حتى لا يفرض عليَّ دكتاتوريته ويبقيني في مجلسه ساعاتٍ طوالاً. فتوجهت إلى منزله الذي دلّني عليه أصحاب المتاجر القريبون، ودققت الجرس فلم يفتح الباب أحد، وعندئذ دسست بطاقتي تحت الباب بعد أن دونت عليها عبارة تحية دون أن أشير إلى الفندق الذي أقيم فيه، وهممت بنزول الدرج في طريقي إلى الشارع. ولأن الطاهر لم يكن يستقبل زواراً إلّا بمواعيد محدّدة، فقد

رفض أن يستجيب للجرس. فلمّا لمح البطاقة التقطها وقرأ ما فيها، ثم بادر بفتح الباب وناداني قبل أن أختفي في الشارع. وعدت أدراجي، فإذا بالطاهر يعلن ثورةً عليّ. متى جئت إلى بيروت؟ وكيف دسست البطاقة تحت الباب دون أن أترك عنواني! لقد اكتملت الجريمة، وهي جريمة التهرّب من لقاء الطاهر! وانتهى العتاب وخمدت الثورة وقام إلى «عدّة» الشاي لتجهيزه بمراسمه التي يحرص عليها. وبعد جلسة قصيرة هممت بالانصراف بدعوى أنني مرتبط بموعد آخر. فثار وهاج من جديد، إذ كيف أعطيه من وقتي دقائق بعد ١٨ عاماً من الفراق. وتلقاء إلحاحي قال لي: اذهب إلى موعدك، ثم تعال لحضور اجتماع الأكاديمية، وعدتُ لأجده محاطاً بأعضاء ندوته التي أطلق عليها اسم الأكاديمية برياسة المؤرخ الكبير جواد بولس ـ وقد أجلسني إلى جواره ـ وكان من الحاضرين الوزير السعودي السابق الشاعر عبد الله بلخير، والمحامي اللبناني الكبير محسن سليم والناشر السوري زهير الشاويش وغيرهم. وكنت يومها «عريس» الأكاديمية لكثرة ما دار فيها من أحاديث حولي. ولكنني كنت شديد الانزعاج من الحالة الصحية المروّعة التي وصل إليها أبو الحسن، فالسعال الحاد المستمر يكاد يشجّ صدره، والنحول قد صار مخيفاً، وحركاته أصبحت بطيئة باستثناء «انفجاراته» وثوراته العصبية التي بقيت على حدّتها وضراوتها. ولهذا بقيت طوال الجلسة واجماً لاعتقادي بأن يوم المغيب لم يعد بعيداً، وهو قد حلّ في ٢٣ أغسطس ١٩٧٤.

وودّعته وبودّي لو يودعني صفوُ الحياة وأنّي لا أودّعه، ومع ذلك أصرّ على أن يودّعني في الفندق قبل سفري، وكان يبكي وينتحب وأنا مشفق عليه من هذا الانفعال. ولم ينس أن يحملني هدايا رمضانية لي ثم لجاره القديم في البيت الذي كان يقيم فيه في حيّ شبرا، فهو رجل لا ينسى صديقاً.

كان الطاهر رجل مروءات على الصعيد الشخصي الإنساني، وكان رجل نضال وكفاح على مستوى الأمة العربية والإسلامية كلها. ولكنّه جار على نفسه أشدّ جور، لأنه حمل بمفرده أعباء تنوء بها العصبة، وجار على أسرته الصغيرة البريئة التي تحمّلت بصبر وحب وإيمان كثيراً من شظف العيش وألواناً من العناء والشقاء حتى لقد أهينت زوجته ولطمت في أقسام البوليس، وما أكثر ما شقيت وهي تزور المجاهد في السجون والمعتقلات ثم وهي تلاحقه في الغربة والتنقل.

وثمة سؤال يعرض لي بعدما صارت حياة محمدعلى الطاهر في ذمة

التاريخ؟ بماذا خرج هذا الرجل من كفاحه العمر كله في سبيل أمّته؟ هل أطلق اسمه مثلاً على أي شارع في أي عاصمة عربية؟ هل أقيم له حفل تأبين في أي ركن من أركان العالم العربي الإسلامي؟ هل جرت محاولة لإحياء ذكراه في أي بلدٍ من البلدان التي دافع عنها ولاقى سبيل ذلك صنوفاً من العنت؟ هل صدر طابع بريد عربي يحمل صورته؟ ولا حتى هذا قد حدث مع الأسف الممضّ.

والأمل الوحيد هو أن يُرَدَّ للطاهر شرفُ الجهاد يوم تقوم دولة فلسطين وتعمل على تخليد أبنائها، وفي طليعتهم هذا الطاهر الذي عاش شهيداً ومات شهيداً ودفن بين الشهداء.

❁ ❁ ❁

محمد لطفي جمعة

تمر ذكرى الأدباء، دون أن يلتفت إليها أحد مع أن الذكرى تنفع المؤمنين، مع أن الأدباء الذين عاشوا عصورهم بالطول والعرض لا تنطوي ذكراهم في تلافيف الحياة الهادرة. ومنهم مَنْ تعتبر سيرته سيرة ملهمة عطرة، وهي من أثمن الدروس التي تستخلص من حياتهم وأعمالهم بل فتوحاتهم.

وقد مرت في الثامن عشر من شهر يناير ذكرى ميلاد الأديب العلامة محمد لطفي جمعة، الذي ولد في الإسكندرية في عام ١٨٨٦ وعاش حياة خصبة غزيرة الإنتاج، وكانت له في كل ميدان جولات وجولات.

لم ألتق بمحمد لطفي جمعة ولكنني رأيته في آخر مرة وقف فيها يواجه الناس في محفلٍ كبير. كان ذلك بعد اغتيال الزعيم الروحي الهندي المهاتما غاندي في عام ١٩٤٨ عندما قرر خريجو جامعات فرنسة وسويسرة وبلجيكة في مصر إقامة حفل لتأبينه في قاعة يورث التذكارية بالجامعة الأمريكية، وكان ذلك في شهر ديسمبر (كانون الأول) ١٩٤٨، وهو حفل شارك فيه محمد لطفي جمعة وكنت من شهوده.

تعاقب الخطباء، كل يتحدث عن مناقب الزعيم الهندي الراحل من زاوية من الزوايا، فلمّا حل الدور على محمد لطفي جمعة وقف بقامته القصيرة وجسمه الممتلئ وطربوشه التقليدي، وأخذ يلقي كلمة مكتوبةً آناً ومرتجلة في معظم الآونة، وهو شديد الانفعال، تكاد الدموع تتساقط من عينيه. ولم يلبث جسمه أن أخذ يترنح، فحسبناه يتخذ لنفسه موقفاً خطابياً تهتز له جميع أعضائه، ولكنه بدا وكأنه لم يعد يقوى على مجالدة الموقف العصيب، وأنه يؤذن بالسقوط. فهرع إليه الدكتور حنا رزق مدير قسم الخدمة العامة بالجامعة ومنظم الحفل، وقام بمساندته، بل حاول إثناءه عن إتمام كلمته، ولكنه تشبث بالمنبر، وواصل حديثه في جهادٍ عنيف لمقاومة اختلال توازنه. وكان في كل خطبته مفرطاً في الانفعال

وكأنه يبكي صديقاً حميماً. وكيف لا؟ وهو الذي سعى إلى لقاء المهاتما غاندي عندما توقفت سفينته «راجبوتانا» في بور سعيد في طريقه إلى لندن لحضور مؤتمر المائدة المستديرة في ٢٩ أغسطس (آب) ١٩٣١، وكانت للطفي جمعة معه جلسة طويلة، ولا غرو أن يحتشد في خطبته بشعور فياض، حيث قال:

«لا شغل شاغل، ولا مرض داهم، ولا نقص في الشعور بالواجب هي أو بعضها التي أخرت تعبيري عن عميق الحزن وشديد الأسى وصادق الوجد والألم لوفاة الإنسان العظيم والمرشد الكامل والرجل المخلص خادم الإنسانية والشرق عامة والهند خاصة، الطيب الذكر، والخالد الأثر، الزعيم الجليل والروح السامي المهاتما موهانداس غاندي. إنما الذي عاقني وعطل وأسكت لساني حتى جف المداد وتلجلج اللسان ذهول كامل شامل، وحيرة عقلية وحداد نفساني، لم يسبق أن اعتراني شيء منها عندما سمعت نعيه، ثم تأكدت الخبر المفزع في الصحف».

هذه اللوعة المحرقة الصادقة فيها أكبر برهان على أن لطفي جمعة كان إنساناً جُبل من أصفى المعادن، فاهتز كيانه كله لوفاة زعيم ليس من بلاده ولا من مواطنيه، وكاد يسقط وهو يرثيه من على منبر.

كان هذا في شهر ديسمبر (كانون الأول) ١٩٤٨، وقد علمت بعد ذلك من نجله المستشار رابح أن هذه المناسبة كانت آخر مرة خرج فيها محمد لطفي جمعة من بيته، فقد أنشبت العلّة أظافرها فيه حتى انطلقت روحه إلى بارئها بعدها بخمس سنين في الخامس عشر من يوليو (تموز) ١٩٥٣ بالغاً من العمر سبعةً وستين عاماً.

عاش لطفي جمعة في خضم الحياة السياسية والفكرية في عصره، واقترب من عددٍ كبير من الأعلام الذين كانت لهم على مسارح الحياة أدوار، من مصريين وعرب ومشارقة ومستشرقين، وكانت له مع كل منهم مواقف أو مراسلات أو مجادلات جاء نشرها ـ أو على الأصح بعثها ـ على يدي نجله المستشار رابح شهادات حيّة على عصر بتمامه، وهي لا تخلو من خصوصيات ومن مسائل عامة كانت للطفي جمعة فيها مواقف جازمة أو عنيفة أحياناً، أو مواقف كان فيها منصفاً سديد الرأي، وهي في مجموعها تدل على علمه وعلى وطنيته وعلى حرصه على المبادئ الخلقية، وعلى قدرته على مصاولة من سمّاهم بـ«المتعاصرين والأنداد».

والغريب أن هذه الشخصية الضخمة التي اشتغلت بالتاريخ وبالأدب وبالفلسفة وبالنقد وبالسياسة وبالقانون وبالأدب الروائي وبالدين وبالاجتماع... أقول: إن الغريب أن هذه الشخصية الضخمة لم تصادف من مواطنيها التقدير الذي يليق بها، وإنما جاءها التقدير من مجمع دمشق - وكان يعرف وقتها باسم المجمع العلمي العربي - فاختير عضواً مراسلاً فيه عام ١٩٣١.

كان لطفي جمعة معاقراً للقلم، يكتب ويكتب ولا يملّ، سواء تهيأت له أسباب النشر أو لا. وما زالت مخطوطاته من مذكرات ودراسات أدبية وتاريخية وفلسفية تضاهي في عددها ما تيسّر نشره في حياته أو على يدي نجله البار المستشار رابح. ولكن هذا الكلام الكثير الذي دوّنه لطفي جمعة يثير قضايا نختلف معه في بعضها أشدّ اختلاف.

فهو حين يتحدث عن مجلة «المقتطف» التي عمرت ٧٧ عاماً بين عامي ١٨٧٦ و١٩٥٢ يحاول النيل منها ومن أهداف ناشريها يعقوب صروف وفارس نمر. فهو يتهم المجلة بسوء النية، وبمحاولة زعزعة العقائد، لأنها عرّفت بنظرية دارون في النشوء والارتقاء التي كانت نظرية طازجة في وقتها لا يصح لمجلة تزعم أنها مجلة علمية أن تتجاهلها، بل يتعيّن عليها حتماً أن تعرضها وتناقشها من كل جوانبها. «فالمقتطف» لم يروّج لهذه النظرية، وإنما عرضها عرضاً علمياً جرياً على سنن العلماء، شأنها في ذلك شأن المجلة في احتفائها بنظرية اللاسلكي لماركوني، واكتشاف الراديوم بفضل ماري كوري، واكتشاف البنسلين على يدي فلمنج، وبنظرية النسبية لإينشتاين، وما إلى ذلك من النظريات العلمية التي غيرت وجه الحياة في القرن العشرين.

ثم إن لطفي جمعة نعى على مجلة «المقتطف» اهتمامها برجال المال والأعمال بما نشرته من قصص نجاحهم لكي يستخلص من ذلك أنها تدعو إلى الرأسمالية أو إلى سيادة طبقة الأثرياء على طبقات الفقراء. فإذا كان هناك عالم في التنقيب عن البترول، انتهى كدّه إلى اكتشافه، وتدفقت الثروة عليه، أفلا يعدّ هذا حدثاً يستحق التسجيل والإشادة به؟ ومع ذلك فإن «المقتطف» لم يهمل القضايا الخاصة بالزراعة وفلاحة الأرض، وعندما استقبل شريف باشا رئيس الوزراء صاحبي «المقتطف» قال لهما: إنه مدين لهذه المجلة بما أحرزه من نجاح في فلاحة أرضه، حيث استخدم أنواع الأسمدة التي أوصت المجلة

باستخدامها، فجاء محصوله وفيراً شأن غيره من الفلاحين.

فاتهام المجلة صراحةً أو ضمناً بأنها تنحاز إلى رجال المال والأعمال هو اتهام جائر ولا سيما عندما يصدر عن محمد لطفي جمعة حيث أحصيت ١٣ موضوعاً نشرت له أو عنه في هذه المجلة بين عامي ١٩٢٠ و١٩٤٠ مما يوحي بأنه كان على دراية كاملة باتجاهات المجلة.

على أن لطفي جمعة راجع نفسه بعد طول معرفة بالدكتور يعقوب صروف محرر المجلة، فلما توفي في عام ١٩٢٧ تنادى مع جمهرة من رجال الفكر لتأبينه، وألقى هو كلمة منصفة في حق هذا الرجل الذي ظلمه قبل أن يعرفه.

ومعذرة لدفاعي عن مجلة «المقتطف» إذ كنت من المسؤولين عن إدارتها وتحريرها في سنيّها الثماني الأخيرة.

ويروي لطفي جمعة أنه قدّم إلى صديقه الشاعر خليل مطران مسرحيةً من تأليفه عنوانها «الحب والضمير» على أمل تمثيلها ـ بعد إجازتها ـ على مسرح دار الأوبرا الملكية. وكان خليل مطران يشغل وقتها منصب مدير فرقة التمثيل القومية. وطال انتظار لطفي جمعة لليوم الذي يزاح فيه الستار عن هذه المسرحية، ولكن انتظاره خاب، وأدهشه أن المسرحية تحولت إلى رواية سينمائية عنوانها «نشيد الأمل» مثلتها أم كلثوم. ذلك أن مطران ائتمن عليها واحداً من مساعديه اسمه إدمون تويما، وهذا قام بإشراف مطران باصطناع فيلم منها هو الذي عرض باسم «نشيد الأمل». ويُشتم من كلام لطفي جمعة أن خليل مطران خان الأمانة وكفر بالصداقة واجترح هذه الفعلة في حقه.

وأنا وقد عرفت الشاعر خليل مطران عن قرب شديد، ولازمته ملازمةً شبه تامة في سني عمره الأخيرة أشهد بأنه كان يتحلّى بأخلاق النبلاء سراوة ونهاوةً وشهامة وأمانة وعفة وصدق طوية، وأستبعد استبعاداً تاماً أن يكون مطران قد قام عامداً ومتعمداً بتسريب مسرحية لطفي جمعة على النحو الذي توهمه المؤلف. وإذا كانت المسرحية قد عرفت طريقها إلى السينما من خلال إدمون تويما في ظروف غير معروفة، فالمؤكد أن ذلك لم يكن بمعرفة مطران ولا بإشراف منه، كما ذهب إلى ذلك لطفي جمعة. وهنا يبرز تساؤل: لِمَ سكت لطفي جمعة عن هذا الانتحالِ وهو المحامي الضليع؟ ولِمَ لم يلجأ إلى القضاء لاستئداء حقوقه

الأدبية قبل المادية، وهو الذي كان مكتبه كمحام مقصد الأدباء، يستنجدون به لمقاضاة من يناوئونهم، كما فعل رائد أبولو أحمد زكي أبو شادي؟ ولو أن لطفي جمعة احتكم إلى القضاء، لجاء قراره حاسماً في هذه القضية.

وللطفي جمعة رأي فيه تحامل شديد على الصحفي خليل تابت الذي رأس تحرير جريدة «المقطم» أربعين عاماً، لم يخل عدد منها من مقالات الصدر المسهبة التي كان يكتبها تعليقاً على الأحداث الداخلية والخارجية والاقتصادية. فلطفي جمعة يقول: «إن خليل تابت اتخذ طريقة كتابة المقالات الفاترة الجافة التي يصاب قارئها بالصداع لقلة حنكة الكاتب وبرود مزاجه وثقل دمه... ومقالاته سمجة فاترة لا حماسة فيها ولا فن... وقد أدعى خليل تابت أنه أتقن الكتابة في وصف وقائع الحربين الكبريين ١٩١٤ و١٩٣٩ وقد وصف فيها وقائع لم ينظرها، وكل عمدته على الأخبار البرقية والصحفية وليس لديه ثقافة حربية ولا تاريخية، والمسألة مسألة اجتهاد».

هذا بعض ما وصف به لطفي جمعة كتابات خليل تابت، وهو في اعتقادي أبعد ما يكون عن الصواب، وأشدّ ما يكون تحاملاً. فهل يُعاب الاجتهاد على الكاتب الصحفي؟ وهل جميع المعلقين الكبار على الحربين العظميين كانوا مراسلين حربيين ذهبوا إلى المواقع ووصفوها وصف عيان؟ أعتقد صادقاً أن لطفي جمعة تحامل على خليل تابت، وتعسّف أشدّ تعسّف في وصفه، فقد كان من أبرع المحللين السياسيين في عصره، إن لم يكن أبرعهم. وقد تابعت بنفسي وعن قرب افتتاحياته على مدى عشرين عاماً، وكنت وأنا طالب صحافة، ثم وأنا مشتغل بالصحافة، ثم وأنا قائم بتدريس علوم الصحافة على المستوى الجامعي أعجب بها أشدّ الإعجاب وأستفيد منها في حياتي العملية، وعندما خلفت خليل تابت في عمله.

وما دام لطفي جمعة قد حرص في مذكراته وكتاباته على وضع جميع معاصريه في الميزان، وإصدار أحكام عليهم، فقد افتقدت بين هؤلاء رجالاً مثل أنطون الجميّل محرر الأهرام، وعلي الغاياتي صاحب جريدة «منبر الشرق» وسليم سركيس صاحب «مجلة سركيس» ونقولا الحداد مترجم نظرية النسبية وزوجته الأديبة روز أنطون حداد شقيقة فرح أنطون الذي أعلى لطفي جمعة من شأنه بأعظم عبارات التقدير. كما أنه أشار إشارة عابرة إلى فؤاد صرّوف الذي خلف

عمّه ـ وليس شقيقه ـ يعقوب صرّوف في تحرير المقتطف عشرين عاماً، ولا أهتم بالحديث عن إسماعيل مظهر محرر مجلة «العصور» وسلامة موسى محرر «المجلّة الجديدة».

لقد أمسك لطفي جمعة بغربال كبير غربل فيه «المتعاصرين من الأنداد» فتحصّل في غرباله كثير من الحنطة وكثير من الزوان أيضاً. فكان منصفاً وظالماً في آن. ولكنه كان في جميع الأحوال صادقاً مع نفسه يجاهر برأيه ولا يخشى شيئاً، وله من ثقافته ومن تجاربه ومن بلاغته ومن «روب» المحاماة الأسود ما يكسب به حتى القضايا الخاسرة.

❁ ❁ ❁

الناقد محمد مندور

في أثناء الحرب العالمية الثانية وبُعيد انتهائها اشتدت ضراوة المنافسة بين الجريدتين المصريتين الصباحيتين الكبيرتين وهما «الأهرام» بتاريخها الطويل منذ أن أنشأها في عام ١٨٧٥ سليم تقلا (ت١٨٩٢) وبشارة تقلا (ت١٩٠١) وجريدة «المصري» لصاحبها محمود أبي الفتح (ت١٩٥٨) وهو المحرر السابق في جريدة «الأهرام»، وكان أنشأها في عام ١٩٣٦ بمشاركة كريم تابت (١٩٠٣ ـ ١٩٦٤) ومحمد التابعي (ت١٩٧٦) ثم انفرد بها محاولاً التشديد على مصريّتها في مواجهة شاميّة «الأهرام» عساه يتفوق على غريمته فيكتسح سوق القراء من دون منازع.

وفي حين اقتصرت «الأهرام» على محرريها التقليديين، توسعت جريدة «المصري» في استخدام عدد من الكتّاب الشبان النابهين، ومنهم الشاعر عبد الرحمن الخميسي (١٩٢٠ ـ ١٩٨٧) والأديب الشاعر عبد الرحمن الشرقاوي (١٩٢٠ ـ ١٩٨٧) والروائيان سعد مكّاوي (١٩١٦ ـ ١٩٨٥) وعبد الرحمن صادق (ت١٩٩٩) وغيرهم، وأفسحت لهم صفحات الجريدة يُثرونها بآثارهم من شعر ونثر ومترجمات.

وفوجئ قراء «المصري» ذات صباح بالدكتور محمد مندور يحتل الصفحة الأولى بمقالاته الافتتاحية، وكان استقال من عمله في الجامعة كأستاذ للأدب العربي، وخاض ميدان الصحافة بكل زخمه.

ولم يكن الدكتور مندور وقتئذ معروفاً لقراء الصحافة اليومية، وكانت شهرته تنحصر في المجلات الأدبية التي كان ينشر فيها مقالاته فيتابعها المعنيّون بالأدب. أما وقد صار على رأس محرري جريدة يومية، فقد بدأت مقالات الصدر اليومية التي يكتبها بتوقيعه الصريح تُعالج قضايا السياسة وقضايا الناس بأسلوب ثوري، انطلاقاً من المذهب اليساري الذي كان مندور يعتنقه. ولم يلبث أن استأثر باهتمام القراء، لأنهم رأوا في مقالاته نحواً جديداً غير معهود في

الصحافة اليومية، فمقالاته تشبه المعاول والمطارق التي تهوي على كل ما في الحياة العامة من عوجٍ وقصور. وفي فترة وجيزة أصبح اسم مندور على كل الألسنة، واكتسب شهرةً لم ينل شيئاً منها من عمله السابق كأستاذ جامعي، وصار بالتالي واحداً من قادة الرأي الأشداء الذين يقولون ما يعتقدون بكل جهارة، حتى ولو دخل السجن ـ وقد دخله فعلاً.

وكنت مع بعض الزملاء الصحافيين نُعجب بهذه الظاهرة الصحافية المتجسّدة في الدكتور محمد مندور، فتوافقنا على أن نراه رأي العين وعلى الطبيعة، لأنه صحافي من طراز مُغاير للأطرزة التي ألفناها. وعرفنا أن الدكتور محمد مندور مُنتسب إلى لجنة التأليف والترجمة والنشر برئاسة الدكتور أحمد أمين بك (١٨٨٦ ـ ١٩٥٤)، ومن هنا قرّرنا أن نتطفل على هذه اللجنة في ندوتها الأسبوعية، وغايتنا الوحيدة هي اكتحال العينين برؤية الدكتور مندور.

وتوجهنا في موعد انعقاد الندوة إلى حارة الكرداسي المعتمة في حي عابدين، ودخلنا دار التأليف والترجمة والنشر، وإذ هي دار عتيقة تكاد أن تكون متهالكة تقع المطبعة في طابقها الأرضي، ويجتمع أعضاء الندوة في غرفة تعلوها. ولم نصادف خفيراً يمنعنا من دخول الدار، ولا اعترض سبيلنا أحدٌ من رجال الأمن ـ ولم يكن لهم وجود أو ضرورة ـ ولا من رجال مكاتب الاستعلامات الذين يتمترسون عادةً في مداخل المؤسسات والهيئات، ومهمّتهم الرئيسية لا تسهيل ولوج هذه المؤسسات، بل «تطفيش» الراغبين في دخولها من ذوي الحاجات. فلم تكن هناك أشباه لهذه المكاتب التي استشرى خطرها في يومنا الحاضر.

واحتللنا بعض المقاعد المتناثرة في القاعة من دون أن يصدّنا أحد، ورأينا الدكتور أحمد أمين بسمته الوقور الهادئ يتصدّر الندوة، يحيط به أعضاء أجلّاء منهم الدكتور محمد عوض محمد بك العالم الجغرافي الكبير (١٨٩٥ ـ ١٩٧٢) والعالم الدكتور أحمد زكي بك (١٨٩٤ ـ ١٩٧٥) ومؤرخ الأندلس محمد عبد الله عنان (١٨٩٨ ـ ١٩٧٦) والفيلسوف الدكتور زكي نجيب محمود (١٩٠٥ ـ ١٩٩٣) ومن إليهم. ولكننا كنا نألف هذه الوجوه جميعاً، أما الوجه الذي لم نألفه وجئنا خصيصاً لرؤيته فهو وجه الدكتور محمد مندور، فلم يسبق لنا أن رأينا صورته منشورة مع مقالاته ـ كما درج على ذلك معظم الصحافيين في يومنا الحاضر ـ

وكنا نظن أن مندور الثائر سينقل ثورته إلى ندوة لجنة التأليف، ولكننا رأيناه هادئاً، يتكلم بصوت خفيض ويناقش بمنطق، أما مظهره فغاية في البساطة التي ترتد إلى أصله الريفي، فلا تأنق في الملبس، ولا تفاخر في الكلام، ولا رطانة تذكّر الحاضرين بسنواته التسع في باريس.

ولكن، يبدو أن استقلالية مندور بآرائه الثورية اصطدمت برؤى الجريدة ـ وهي لسان حال حزب الوفد المصري ـ فترك مكانه فيها وانتقل إلى جريدتين وفديتين أخريين محدودتي الانتشار هما «صوت الأمة» و«الوفد المصري». وعندما صدر كتابي الأول ـ وهو مسرحية «الأب» المترجمة عن الأديب السويدي أوغست سترندبرغ ـ في عام ١٩٤٥ رغبتُ في الاقتراب من الدكتور مندور بإهدائي نسخة من الكتاب إليه. فزرته في جريدة «صوت الأمة» وقدّمت الكتاب إليه، وكان وقتها مستغرقاً في الكتابة، فرفع رأسه وشكرني، ثم استأنف الكتابة. ولم أشأ أن أفرض نفسي عليه فانصرفت. وعندما ذكّرته بهذه الواقعة بعد سنوات قال: لعلّك تعذرني لعدم اهتمامي بك، إذْ خشيت أن ينقطع حبل تفكيري وأنا أرحب بك.

وتعددت لقاءاتي مع الدكتور محمد مندور، إذْ شاركت معه في مناظرتين عامتين، وفي ندوتين إذاعيتين في برنامج «مع النقاد» الذي كانت تديره سميرة الكيلاني (زوجة محمود أمين العالم) والشاعر فاروق شوشة، والتقيت به في رابطة الأدب الحديث، كما زارني غير مرة في مكتبي، ولكنني كنت أتفادى إحراجه عندما كنت أراه في مصيف رأس البرّ الشعبي وهو واقف بجلبابه الأبيض في متاجر الفاكهة واللحم لشراء حاجات الأسرة. فقد كان في أسلوب حياته فلاحاً ابن فلاح، تنطبع في كل ملامحه وتصرفاته صور الريف المصري. أي أن السنوات التسع التي قضاها في باريس بين عامي ١٩٣٠ و١٩٣٩ دارساً هناك لم تفرنجه أو تُدخل الاعوجاج على لسانه شأن بعض العائدين من الجامعات الأجنبية.

كان محمد مندور ذا رأس كبير وجسم ممتلئ وعينيْن غائرتين ـ ربّما من كثرة المطالعة والكتابة ـ وكان خفيف الروح يطلق النكات في مجتمعاته، كما كان في ذوقه شعبياً (أي ابن بلد). ولهذا كان يستسهل استخدام اللهجة العامية في ندواته ومحاضراته للوصول إلى عقول الجميع وقلوبهم.

وقبل اتجاه مندور إلى الصحافة، اشتغل أولاً بالتدريس في جامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) بين عامي ١٩٣٩ و١٩٤٢، وانتقل إلى جامعة فاروق الأول (الإسكندرية الآن) بين عامي ١٩٤٢ و١٩٤٤، واشتغل فترة بالمحاماة بين عامي ١٩٤٨ و١٩٥٠ وانتخب عضواً في البرلمان، وكان في أثناء ذلك كله يكتب في كثير من الصحف والمجلات الأدبية، وأهمها «الثقافة» لمحررها الدكتور أحمد أمين بك و«الرسالة الجديدة» لمحررها يوسف السباعي (١٩١٧ ـ ١٩٧٨) ومجلة «البوليس» لمحررها سعد الدين وهبة (١٩٢٥ ـ ١٩٩٧) كما كان يكتب يوميات في جريدة «الجمهورية» قبل أن يتولى رئاسة تحريرها حلمي سلام (ت١٩٩٧) الذي بطش بمندور وبكل الكتاب الكبار في الجريدة وأحالهم إلى العمل في مؤسسات «باتا» للأحذية واللحوم ومغالق الأخشاب!!

ولكن طاقة مندور كانت أكبر من أن تحتملها الكتابات الصحافية المرهونة بوقتها وزمانها، فعمل أستاذاً في معهد الدراسات العربية العالية التابع للجامعة العربية حيث ألقى مجموعة من المحاضرات التي درس فيها حركة الشعر المعاصر بعد شوقي، كما درس مسرح توفيق الحكيم (١٨٩٨ ـ ١٩٨٧) وعزيز أباظة (١٨٩٨ ـ ١٩٧٣) وأحمد شوقي (١٨٦٨ ـ ١٩٣٢) وألقى محاضرات عن إسماعيل صبري (١٨٥٤ ـ ١٩٢٣) وخليل مطران (١٨٧٢ ـ ١٩٤٩) وولي الدين يكن (١٨٧٢ ـ ١٩٢١) وكلها محاضرات نشرت بعد ذلك في كتب تشهد لمندور بباعه الطويل في الدراسات الأدبية والنقدية. كما عمل أستاذاً في معهد التمثيل والبحوث الفنية وتخرج على يديه كثيرون من العاملين في ميادين التمثيل والفنون بصفة عامة والنقد الأدبي والفني.

ولد الدكتور محمد مندور (واسمه الكامل محمد عبد الحميد موسى مندور) في ٥ تموز (يوليو) ١٩٠٧ في قرية كفرمندور في محافظة الشرقية، وبعد أن أكمل دراسته الابتدائية والثانوية التحق بكلية الحقوق في جامعة فؤاد الأول، ونال شهادة الليسانس منها، ثم التحق بقسم اللغة العربية بكلية الآداب في الجامعة نفسها وظفر بشهادتها. وأوفد بعد ذلك في بعثة دراسية إلى باريس للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة السوربون، ولكن قيام الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٣٩ عجّل بعودته إلى القاهرة قبل حصوله على الدكتوراه، وإن كان ظفر من هناك بدبلوم في الأدب الفرنسي. ومن ثم عاد إلى الالتحاق بجامعة فؤاد الأول

ومنها نال درجة الدكتوراه في الأدب العربي في عام ١٩٣٤.

وبفضل أستاذه الدكتور طه حسين (١٨٨٩ ـ ١٩٧٣) عين ضمن هيئة التدريس في كلية الآداب ـ جامعة فؤاد الأول، وفيها التقى الطالبة ملك عبد العزيز التي كانت في السنة الثالثة بالكلية، فاختارها زوجة له في عام ١٩٤١، وارتأى مندور، منعاً للحرج الناشئ عن كونه زوجاً لتلميذة في صفوفه، أن تترك ملك الدراسة نهائياً قبل أن تظفر بالشهادة الجامعية، لا سيما وأنها أصبحت حاملاً في توأم. وقد أخرج الدكتور محمد مندور طائفة من نفائس الكتب، وهي عدا ما سلفت الإشارة إليه: «في الميزان الجديد» و«نماذج بشرية» و«النقد المنهجي عند العرب» و«الأدب ومذاهبه» و«النقد والنقاد المعاصرون» و«قضايا جديدة في أدبنا الحديث» و«فن الشعر» و«الأدب وفنونه» و«في المسرح المصري المعاصر» و«في المسرح العالمي» و«كتابات لم تنشر». كما ترجم عن الفرنسية «منهج البحث في اللغة والأدب» لغوستاف لانسون وأنطون مايه و«دفاعاً عن الأدب» لجورج ديهاميل و«مدام بوفاري» لغوستاف فلوبير وغيرها.

وقد تعرض الدكتور مندور لطارئ صحي أفقده البصر مؤقتاً، إذ نبت في جبهته ورم ضغط على أعصاب العينين فاسودت الدنيا أمامه، ولكن الجراحة التي أجريت له في لندن لاستئصال هذا الورم، ردت إليه بصره، وقد أشيع وقتها أن الدكتور مندور لقي وجه ربه حتى إن الشاعر السعودي طاهر زمخشري (ت١٩٨٧) رثاه بقصيدة مؤثرة، استصفح الدكتور مندور عنها عندما التقى به مصادفة في رابطة الأدب الحديث بالقاهرة.

ومن المهام التي أُسندت إلى الدكتور مندور مهمة إجازة المسرحيات المقدمة لتمثيلها على مسارح الدولة.

ومن طريف ما يذكر أن أستاذاً جامعياً ـ كان يشار إليه بلقب المستشار الثقافي ـ تقدّم بمسرحية من تأليفه إلى الدكتور مندور للحصول على إجازته لها. فلما قرأها مندور استهول ما فيها من مواقف لا تليق، فكتب على المسرحية عبارة مشهورة هي «تُحال إلى بوليس الآداب»، وهي عبارة تذكرنا بتأشيرة العقاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤) المشهورة على النماذج النثرية المقدمة إلى لجنة الشعر في المجلس الأعلى للفنون والآداب ألا وهي «تحال إلى لجنة النثر للاختصاص». وثارت

ثائرة المستشار الثقافي، فكتب في الصحف يحمل على مندور، وهذا لم يلتزم الصمت، بل رد عليه رداً عنيفاً، واستمرت المعركة بينهما إلى أن لقي الدكتور مندور وجه ربه في شهر أيار (مايو) ١٩٦٥.

وعندما كان إسماعيل صدقي باشا (١٨٧٥ ـ ١٩٤٩) رئيساً للوزراء في عام ١٩٤٦ ـ وهو معروف بالبطش والعنف ـ انفجرت قنبلة في سينما مترو بالقاهرة، وعلى الفور نشط البوليس لاعتقال عدد كبير من رجال الفكر، منهم الدكتور محمد مندور وسلامة موسى (١٨٨٧ ـ ١٩٥٨) والصحافي محمد زكي عبد القادر (١٩٠٦ ـ ١٩٨٢) وكانت الشبهة ـ ولا أقول التهمة ـ المضحكة المنسوبة إليهم هي أن لهم ضلعاً في جريمة القنبلة!

والحديث عن الدكتور مندور لا يكتمل من دون الحديث عن زوجه الشاعرة ملك عبد العزيز (١٩٢١ ـ ١٩٩٩) التي أنجبت له قبيلة من العيال (بحسب تعبير مندور) تضم أربعة من الذكور وابنة واحدة، ولهذا لم يتسن لملك أن تعمل أبداً في حياتها، وإن كانت ارتضت أن يوضع اسمها كرئيسة للتحرير على مجلة «الشرق» التي كانت تصدرها دار نشر سوفياتية في مصر من دون أن تزاول أي نشاط فيها، كما ارتضت أن يوضع اسمها على مجلة «أدب ونقد» ضمن هيئة المستشارين الذين لا يُستشارون! وقد مرت ملك عبد العزيز بظروف مفجعة عندما لقي ابنها العميد ماجد مندور مصرعه محترقاً في حادث احتراق طائرة وزير الدفاع المشير أحمد بدوي. وقد قالت لي إنها أصيبت بعد ذلك بانهيار عصبي جعلها ترفض حتى الحياة نفسها. ولكن أولادها أقنعوها بعد تردّد شديد أن تتقبل إرادة السماء، وأن تستجيب للعلاج النفسي إلى أن تخلصت من هذه التجربة القاسية. وقالت إنها أغرقت نفسها بعد ذلك في خواطرها الشعرية، ولبّت كثيراً من الدعوات للمشاركة في ندوات ومؤتمرات شعرية في مصر وفي الخارج، وعاشت لمآربها الأدبية ولا سيما بعدما استقل جميع أبنائها بحياتهم الخاصة. وأصدرت في مسيرة حياتها طائفة من الدواوين هي «أغاني الصبا» و«الجورب المقطوع» و«قال المساء» و«بحر الصمت» و«أن ألمس قلب الأشياء» و«أغنيات الليل». كما أشرفت على إعادة طبع جميع مؤلفات زوجها، وجمعت مقالاته المتناثرة في المجلات وأصدرتها في كتاب.

وكانت خاتمة حياة ملك عبد العزيز قمّة في الفجيعة، إذ كانت في يوم ٢٨

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٩ تسير متكئة على عكازين - بسبب ضعف ساقيها - من بيتها في جزيرة الروضة إلى بيت واحد من أبنائها في الحي نفسه، فسقطت عليها شجرة باسقة قضت عليها في التو واللحظة.

وكم تغنّت بالأشجار في شعرها، ولم تكن تدري أن هذه الأشجار الوارفة الظليلة تحمل لها الموت في طياتها.

❁ ❁ ❁

محمود أبو الوفا

مرّت في شهر كانون الثاني (يناير) الماضي الذكرى الثالثة والعشرون لوفاة الشاعر البائس محمود أبي الوفا الذي حالفه الحظ التاعس على مدى سنوات عمره التي تقرب من الثمانين.

ولا بدّ في بادئ الأمر من التفرقة بين شاعرين، أولهما محمود رمزي نظيم الذي كان يكني نفسه باسم «أبو الوفاء» وكان يعمل محرراً بجريدة «البلاغ» وقد حقق ديوانه «الرمزيات» الأستاذان علي الجندي العميد الأسبق لكلية دار العلوم وزميلنا الصحفي محمد علي أبو طالب. وأما الثاني فهو الشاعر محمود أبو الوفا الذي ينصب عليه هذا الحديث.

ولد محمود أبو الوفا في قرية الديرس من أعمال محافظة الدقهلية بدلتا النيل في غفلةٍ من الزمن، إذ إن ولادته لم تُسجل في سجلّات الدولة واعتبر من «سواقط القيد» إلى أن جرى «تسنينه» بعد ذلك بسنوات طويلة على اعتبار أنه من مواليد عام ١٩٠١. وعندما بلغ سن الدراسة، بعث به أبوه إلى معهد دمياط الديني، فلم ينتظم فيه إلّا ثلاث سنين. وإذ بلغ العاشرة من عمره أصيب بعلّة في ساقه اليسرى اقتضت بترها من منتصف الفخذ، فأصبحت العكازة رفيقة عمره على مدى سبعين عاماً. وقد تأثر أبوه أشدّ التأثر عندما علم بقرار الأطباء، فتوفي في اليوم الذي أجريت فيه جراحة البتر.

وفد الصبي اليتيم بعد ذلك إلى القاهرة والتحق بالأزهر ولكن استحال عليه أن يجمع بين الدراسة وبين حاجته إلى العمل للقيام بأوده، فاضطر إلى هجر الدراسة وعمل في حرف متواضعة مثل بيع الفول المدمس والخدمة في المقاهي وبيع السجاير وما إلى ذلك.

وكانت القراءة هي هوايته الأولى، فلا تكاد ورقة تقع في يده حتى يلتهمها التهاماً، واستطاع بكدّه الشخصي أن يثقف نفسه بنفسه بعصاميّة فريدة، ممّا فجّر

فيه ينابيع الشعر بتلقائية عفوية. وكانت قصيدته الأولى موسومة «الإيمان» نظمها ثم طواها في جيبه ثلاث سنين وهو لا يدري ماذا يصنع بها. وإذ كانت «دار المقتطف والمقطم» قريبة من مطعم الفول الذي يعمل به فقد قصد الدار طالباً لقاء المسؤول عن الشعر: فقاده بوّاب الدار إلى فؤاد صرّوف (١٩٠٠ ـ ١٩٨٥) محرّر «المقتطف» الذي سأله عن بغيته فقال: لقد ألفت قصيدةً وأريد نشرها. فلمّا اطلع عليها محرر المجلة، أعجب بها أيّما إعجاب، ودفع بها إلى المطبعة فوراً لكي تظهر في أوّل عددٍ تال (نُشرت في المجلة في عام ١٩٣٠). ولم تكد القصيدة تنشر حتى تُنوقلت في عددٍ من صحف المهجر، وتلقى الشاعر عدّة رسائل إعجاب من القراء.

هذه القصيدة البكر مطلعها:

قُـوَّةٌ لَـمْ تُـتَـحْ لِـقَـلْـبِ جَـبَـانٍ ... تِـلْـكَ فِـي الـمَـرْءِ قُـوَّةُ الإيْـمَـانِ
تَتَجَلّى على جَمِيْعِ قوى الكَوْنِ ... شُـيُـوْعُ الأرواحِ فـي الأبْـدَانِ

وختمها بقوله:

يَكْرَهُ المَرْءُ أَنْ يَعِيْشَ على السِّجْنِ ... وَلَـوْ كـانَ سِـجْـنُـهُ فـي الـجِـنَـانِ

وتتالت بعد ذلك قصائده في «المقتطف» ثم في مجلة «أبولو» بعدما انضم الشاعر إلى جماعة أبولو التي أنشأها الدكتور أحمد زكي أبو شادي (١٨٩٢ ـ ١٩٥٥)، واكتسب بذلك قدراً من الشهرة.

وارتأى محمود أبو الوفا أن دخول المسابقات هو أسرع سبيل لإقرار منزلته الشعرية بين شعراء عصره، وكلّهم فحول. فانتهز فرصة إعلان محطة الإذاعة اللاسلكية للحكومة المصرية عن مسابقة بين الشعراء ودخل المسابقة بقصيدة عنوانها «تغريدة» ظفرت بالجائزة الأولى. وكان مطلع القصيدة:

صَـدَّاحَـةَ الـرَّوْضِ، مـا أَشْـجَـانـا ... نُوْحِي بِشَكْوَاكِ، أو نُوْحِي بِشَكْوَانا

وعلى إثر ذلك أقيم حفل كبير في دار الأوبرا الملكية لتوزيع الجوائز على الفائزين، كان من جمله الحاضرين فيه أمير الشعراء أحمد شوقي بك (١٨٦٨ ـ ١٩٣٢). ولمّا نُودي اسم الفائز الأول، رأى شوقي رجلاً يرتدي جلباباً أبيض ويتوكأ على عكازتين يخرج من بين الصفوف ويدّب على الأرض إلى أن ارتقى

الدرج بعناء شديد ليقف على المنصة ويتسلم الجائزة الأولى. فمال شوقي على جاره وقال له ما معناه: من سخرية الأقدار ألّا يفوز بالجائزة إلّا صاحب الجلباب والساق المبتورة! تنوقلت هذه العبارة حتى بلغت مسامع أبي الوفا فغضب من شوقي غضباً شديداً أعلن عنه في كل مجلس يغشاه. ولم تلبث غضبته أن بلغت بدورها شوقياً الذي أدرك مدى جنايته على الشاعر المسكين. ومن ثمّ قرر إقامة حفل لتكريمه في داره (كرمة ابن هانئ) على شاطئ النيل في الجيزة، ودعا جمهرةً من الشعراء والأدباء لحضور الحفل، وحرص على أن تُلتقط له صورة وهو واقف إلى جوار المحتفى به وسائر الضيوف من حولهما. ولم يكتف شوقي بذلك، بل حيّاه بقصيدة كان من جملة ما جاء فيها:

البُلْبُلُ الغَرِدُ الّذي هَزَّ الرُّبَى ... وَشَجَى الغُصُوْنَ وحَرَّكَ الأَوْرَاقا
سبّاقُ غاياتِ البَيانِ جَرَى بلا ... ساقٍ، فكيفَ إذا استردَّ السَّاقَا

كانت قضية الشاعر محمود أبي الوفا في كل حياته هي قضية البؤس، إذ لم يكن رزقه موصولاً أبداً، ممّا تراءى في شعره الكثير الذي صوّر فيه ألوان الخصاصة التي عاناها وتجرّعها. فعندما ترجم الشاعر حافظ إبراهيم (١٨٧٢ ـ ١٩٣٢) رواية «البؤساء» لفيكتور هيغو، خاطبه أبو الوفا بقوله:

يا صاحِبَ البُؤَسَاءِ، جاءَكَ شاعرٌ ... يَشْكُو مِنَ الزَّمَنِ اللَّئِيْم العَاتِي
لَمْ يكْفِهِ أنّي على عُكَّازَةٍ أَمْشِي ... فَحَطَّ الصَّخْرَ في طُرُقَاتِي
ثم انْثَنَى يُزْجِي عَلَيَّ مَصَائِباً ... سُحُباً كَقُطْعَانِ الدُّجَىٰ جَهِمَاتِ
فَغَدَوْتُ في الدُّنْيا ولا أَدْرِي أَمِنْ ... أَحْيَائِهَا أنا أَمْ مِنَ الأَمْوَاتِ

ثم خاطب «هوغو» قائلاً:

خَفَّفْتُ يا (هوغو) عليكَ فَلَمْ أُطِلْ ... وبَعَثْتُها فَصْلَيْن مِنْ مَأْسَاتِي
ولو انَّنِي أُعْطِيْتُ بُؤْسِي حَقَّهُ ... وَصْفاً، لَصَوَّرَ مَعْرِضَ النَّكَبَاتِ

وهو يذكرنا بقول الشاعر اللبناني بولس سلامة (١٩٠٢ ـ ١٩٧٩) الذي عانى بدوره من الأمراض والجراحات:

فَإِذا مرَرْتَ على الجَرِيْحِ تَعُوْدُهُ ... فَلَقَدْ أَتَيْتَ مَدَافِنَ الأَحْيَاءِ

وفي سانحةٍ من سوانح اليأس، رثى أبو الوفا نفسه بقوله:

فـي ذِمَّـةِ الله نَـفْـسٌ ذاتُ آمـالِ وفي سَبِيْلِ العُلا هذا الدَّمُ الغَالي
بَذَلْتُهُ، لَمْ أَذُقْ فِي العُمْرِ واحِدَةً مِنَ الهَنَاءِ، ولا مِنْ رَاحةِ البَالِ
كـأَنَّنِي فِكْرَةٌ في غَيْرِ بِيْئَتِهَا بَدَتْ، فَلَمْ تَلْقِ فِيْها أيَّ إِقْبَالِ
أَوْ أَنَّني جِئْتُ هذا الكَوْنُ عن غَلَطٍ فَضَاقَ بي رَحْبُهُ المَأْهُوْلُ والخَالِي
أَبِي، وفي النَّار مَثْوَىٰ كُلِّ والدةٍ ووالـدٍ أَنْجَبَا لِلْبُؤْسِ أَمْثَالِي!

وقال معبّراً عن يديه المغلولتيْن عن فعل ما يريد:

أريدُ، وما عسى تُجْدِي «أُرِيْدُ» على مَنْ لَيْسَ يَمْلِكُ ما يُرِيْدُ

كما قال معللاً تجهّمه للدنيا:

عَهْدُ الصَّرَاحَةِ، ما بالُ الصَّرِيْحِ بِهِ لا يَمْلِكُ النُّطْقَ إلّا بالكِنَايَاتِ
أُحِبُّ أَضْحَكُ للدُّنْيَا فَيَمْنَعُنِي أنْ عاقَبَتْنِي عَلَىٰ بَعْضُ ابْتِسَامَاتِي

وقال عن القيود التي تكبّل رجليْه:

قَـضَـى زَمَـانِـي بِـأَنِّـي أَمْشِي ورِجْلَاي فـي القُيُوْدِ

وقال أيضاً:

أَصْبَحْتُ مِنْ خَوْفِ القُيُوْدِ أَخَافُ وَسْوَسَةَ القَلائِدْ

في صباح يوم من أيام عام ١٩٤٥ أو ١٩٤٦، ذهبتُ إلى مكتبي في جريدة «المقطم» كعادتي، فألفيتُ في انتظاري رسالةً من الأديب سيّد قطب (١٩٠٦ ـ ١٩٦٦) طواها على نداء موجُه إلى وزير المعارف، وقال في ختام رسالته: «رجائي أن تنشر سريعاً، وأن تنشر كما هي. فهي مكتوبة لتنشر لا لتختصر». وكانت الكلمة تمثل نداءً موجهاً إلى وزير المعارف لكي يضع حداً لمأساة أبي الوفا بتعيينه في وظيفة استثناء من جميع القواعد؛ لأنه لا يملك مسوغات التعيين المطلوبة. فليس لديه مؤهل علمي، بل ليست لديه شهادة ميلاد، وحالته الصحية، ولا سيما ساقه المبتورة، لن تهيءُ له أسباب النجاح في الفحص الطبي. وإذْ كانت الحالات الاستثنائية من اختصاص مجلس الوزراء، فقد قام وزير المعارف بُعيد اطلاعه على النداء المنشور، بعرض الموضوع في أول اجتماع للمجلس. واقترح الوزير تعيين أبي الوفا في وظيفة باليوميّة في دار الكتب القريبة من منزله، وإن كان دون الوصول إليها أهوال من عبور لأشرطة الترام، إلى المزاحمة بين الكتل البشرية، إلى تسلق

درجات الدار وهي كثيرة. وعندما توجه أبو الوفا لتسلّم عمله الجديد استقبله الشيخ أمين الخولي (١٨٩٥ ـ ١٩٦٦) مدير الدار، ونبّه عليه بضرورة الالتزام بكل لوائح الوظيفة. فلا بدّ من الحضور في الموعد دون تأخير، ولا بدّ من البقاء في الدار جميع ساعات العمل، ولا بدّ من إنجاز كل ما يُسند إليه من أعمال بهمة ونشاط، وبعبارة أخرى تجاهل الوضع الصحي للشاعر، وأراد أن يحوّله إلى موظف بيروقراطي تام البيروقراطية. وضاق أبو الوفا بهذه الحال، وبدأ يتخلّف عن الذهاب إلى عمله، ممّا جعل المدير يتوعده بالفصل! والذي حدث بعد ذلك أن الحكومة تغيرت، وجاءت حكومة حزبية أخرى قررت إلغاء جميع الاستثناءات التي أجرتها الحكومة السابقة، فعاد أبو الوفا إلى الشارع من جديد. ومن غريب المفارقات أن الشاعر تعرّض ثلاث مرات في حياته لأمثال هذه التغييرات الوزاريّة التي كانت تطيح به قبل غيره من الذين عينّوا بالواسطة أو بالمحسوبية! فينقطع رزقه بعد وصل.

فكرّت مع صديقي الأديب الراحل حليم متري في أن نصنع شيئاً لهذا الشاعر الموهوب البائس، واتفق رأينا على أن قضية الرزق لا يحلّها إلّا تقرير معاش تقاعد استثنائي له، فهذا هو السبيل الوحيد لتأمين العيش الكريم له. واقتسمنا المهمّة فيما بيننا، إذ تعهد حليم متري بالاتصال بصديقه يوسف السباعي (١٩١٧ ـ ١٩٧٨) الذي كان ذا أيادٍ أخطبوطية في كل الحياة الثقافية والفنية في مصر، في حين اخترتُ لنفسي أن أناشد بعض كبار الصحفيين، وفي طليعتهم محمد زكي عبد القادر (١٩٠٦ ـ ١٩٨٢)، الدعوة إلى تقرير معاش تقاعد له، واستجابوا فعلاً لرجائي.

وحلّ موعد عيد العلم، وتوقعنا أن يتحقّق لأبي الوفا هذا المطلب، ولا سيما عندما توجّه رسولٌ إلى منزله ونبّه عليه بضرورة التوجه في الساعة كذا من نفس اليوم إلى قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة، مع التأكيد على «عدم التخلف للأهمية». وتطوع واحد من ذوي الأريحية بنقل أبي الوفا بسيّارته إلى مكان الحفل في الموعد المحدد، في حين جلسنا إلى جوار المذياع ـ ولم يكن التليفزيون قد دخل مصر ـ نتابع سير الحفل. وعندما نودي على الشاعر ـ أُعلن عن منحه وساماً جليلاً!

زرته في صباح اليوم التالي لأرقب ردّ فعله تلقاء هذا التكريم، فألفيته جالساً وقد وضع الوسام الجليل على «الطبلية» ـ وهي منضدة الطعام المنخفضة التي يتناول طعامه عليها ـ وقد أحاط به أهل الحارة الذين وفدوا على الدار لتهنئته

بالتكريم. فابتاع له زجاجة «شربات» وعلبةً من الحلوى لكي يرحب بضيوفه في هذه السانحة.

وعندما كتبتُ إلى صديقي الشاعر جورج صيدح في باريس أشرح له أوضاع أبي الوفا، وكيف أنه كان أحوج إلى الزاد اليومي منه إلى النيشان المفتخر، جاوبني بأبيات هي:

أرأيتَ كيفَ المَجْدُ بالشِّعْرِ احْتَفَىٰ ... وأَتَاكَ بالنَّيْشَانِ يُنْسِيْك الحَفَا
حَابَى الدَّعيَّ فَرَاحَ يَبْسُطُ كَفَّهُ ... ورَأَىٰ الشَّقِيَّ، فَرَدَّها نَحْوَ القَفَا
أَيَكُوْنُ مَجْدُكَ صِنْوَ دَهْرِكَ في الأَذَىٰ ... إنْ مَنَّ ضَنَ، وإنْ تَجَنّى أَسْرَفَا
شَرَفُ الوِسَامِ لِمَنْ يَبِيْتُ على الطَّوَى ... (صَحْنُ المِدَمِّس) كانَ مِنْهُ أَشْرَفَا
وَاخَجْلَةَ النِّيْلِ الجَزِيْلِ وفاؤُهُ ... إنْ لَمْ يَذُقْ طَعْمَ الوَفَاءِ (أبو الوَفَا)

وعندما أصدر الشاعر ديوانه «أنفاس محترقة»، فوجئ بالدكتور طه حسين (١٨٨٩ ـ ١٩٧٣) يشنّ عليه حملة شعواء واصفاً الشاعر بالناظم، وضاناً عليه بكلمة تشجيع. وكان طه حسين قد اختار في ذلك الوقت أن ينحاز إلى الشاعر علي محمود طه (١٩٠٢ ـ ١٩٤٩)، ومن ثم قسا على جميع أصحاب الدواوين التي اتفق صدورها في نفس التوقيت، ومنهم أبو الوفا، وإبراهيم ناجي (١٨٩٩ـ ١٩٥٣)، والشاعر المهجري فوزي المعلوف (١٨٩٩ ـ ١٩٣٠).

وعندما عين الدكتور رشاد رشدي (١٩١٢ ـ ١٩٨٣) رئيساً لأكاديمية الفنون، أدخل على نظامها بدعةً لم تكن معهودة فيها، هي إقامة حفل كبير في كل سنة يوزع فيه درجات الدكتوراه الفخرية وجوائز الجدارة على من يختارهم من رجال الأدب والفن. وهكذا منح درجة الدكتوراه للموسيقار محمد عبد الوهاب (١٩٠٣ ـ ١٩٩٢) والشاعر أحمد رامي (١٨٩٤ ـ ١٩٨١) والمخرج زكي طليمات (١٨٩٥ ـ ١٩٨٢) وغيرهم، كما منح أبا الوفا جائزة الجدارة وقيمتها ألف جنيه. ولكن هذه الألف لم تدخل جيب أبي الوفا، لأنه عهد في صرف الشيك إلى «ابن حلال» لعجزه عن الذهاب بعكازيْه إلى المصرف، فاستحلّ ابن الحلال قيمة الشيك لنفسه، واكتفى الشاعر بالفوز بلقب «الجدارة» عن جدارة!

وحدث عندما تقدم أبو الوفا من الرئيس أنور السادات لتسلم جائزة الجدارة أن سأله الرئيس إن كان في حاجةٍ إلى شيء. فقال له: يا سيادة الرئيس، إنني

أقيم في منزل قديم متهالك يشبه الجُحر، ويكاد ينهدم فوق رأسي، فهلّا أمرتَ بمنحي شقّة مريحة أقضي فيها بقية عمري؟ فأمر الرئيس بمنحه شقة جديدة فوراً! ولكن مضت ثلاث أو أربع سنين حتى تحقق هذا الأمر الفوري بفضل البيروقراطية المستعضلة، وفوجئ أبو الوفا بأن الشقة الجديدة تقع في منطقة شبه صحراوية ليس لها اسم شارع معروف، وليس للبيت رقم يُستدل به عليه. فانقطع بذلك عنه أصدقاؤه الذين كانوا يفتقدونه بزيارةٍ في الحين بعد الحين. وعندما رغبت في زيارته في بيته الجديد، غصتُ في الرمال، وذرعت المنطقة دون أن أهتدي إليه وقررت أن أعود أدراجي بخفي حنين. ولكنني لمحت عاملاً من عمال البناء فسألته عما إذا كان قد شاهد رجلاً مبتور الساق يسير على عكازيْن. فدلني على مكانه الذي لم تمتد إقامته فيه إلّا شهوراً معدودات لانقضاء أجله.

وكان بعض إخوانه الأدباء قد سعوا في سبيل سفره إلى فرنسة لتركيب ساقٍ صناعية هناك على نفقة الدولة وتحدثوا في هذا إلى رئيس الوزراء إسماعيل صدقي باشا (١٨٧٥ ـ ١٩٥٠). ثم رغبوا إلى الشاعر في أن ينظم قصيدة يحيي فيها صدقي باشا، الذي كان يتمتع بكراهية لا حدّ لها من الشعب بسبب استبداده وديكتاتوريته، فرفض أبو الوفا قائلاً إن التحية الآن معناها منافقة رئيس الوزراء، ولكنها بعد صدور القرار بسفره تعتبر شكراً واجباً. ولما صدر قرار سفره، وجه إلى الرئيس قصيدة شكر.

ولكن الساق الصناعية التي ركِّبت له في فرنسة جاءت غير مناسبة له لأن صناعة الأعضاء التعويضية كانت لم تزل في المهد. وصار ارتداء الساق مصدراً لآلام مبرّحة له، أكرهته على التخلّي عنها والعودة إلى عكاكيزه.

وقبل وفاة الشاعر أحمد شوقي، أوصى نجليه (علي وحسين) بأن يعهدا إلى الشاعر أبي الوفا دون سواه في الإشراف على نشر بقية أجزاء ديوان «الشوقيات». وقام أبو الوفا فعلاً بالإشراف على نشر الجزء الثاني. ولكن محمد سعيد العريان (١٩٠٥ ـ ١٩٦٤)، بنفوذه لدى الناشر، انتزع من أبي الوفا هذه المهمة، ونشر الديوانين الباقيين بإشرافه. وعندما أفلح سعيد العريان في أن يضع وزارة المعارف كلها هي ونقابة المعلمين أيضاً في جيبه، أصرّ على أن يكتب مقدمات لجميع مسرحيات شوقي عند إعادة طبعها، ممّا جعلني أتساءل في مقال منشور بقولي: ترى، لو كان شوقي على قيد الحياة هل كان يطلب من العريان التقديم لمسرحياته؟

وعندما أصدر الشاعر ملحمتيه الكبيرتين «عنوان النشيد» و«النشيد» وهما ملحمتان تؤكدان على إرادة الإنسان المستمدة من الإيمان ومن ثورته على الضيم، واللتان تؤكدان كذلك على القوّة باعتبارها العنصر الحاسم في الحياة، داعبه العقّاد بقوله: «هل أنت نيتشه جديد؟». وتلقّف رجل من رجال التربية وعلم النفس، هو الدكتور محمود زيتون هاتين الملحمتين وترجمهما إلى مشروع لتنشئة الجيل الجديد. وأقام في جبل المقطم جمعية أطلق عليها اسم «جمعية إنسان الفصل الخامس»، أي الإنسان الذي تجتمع فيه جميع مزايا الفصول الأربعة استهداءً بقول أبي الوفا:

أَنَـا لا أَبْـغِـيْـكَ رِيْـحـاً أو شَـذًى ... إِنَّـنـي أَبْـغِـيْـكَ قَـلْـبَـاً لَـوْذَعِـي
إِنَّـنِـي أَبْـغِـيْـك فَـصْـلاً خَـامِـسـاً ... جَـامِـعـاً كُـلَّ الـفُـصُـوْلِ الأَرْبَـعِ

ونجح الدكتور زيتون ـ الذي توفي في أول مارس ١٩٩٣ ـ في تحويل هاتين الملحمتين إلى ممارسات وتدريبات رياضية وجمبازية يقوم بها الشباب بحركات شهيق وزفير، ومدٍّ للأذرع ثم ثنيها، وإحناء للساقين ثم بسطهما، مع ترديد عبارات النشيديْن في أثناء هذه الحركات تطبيقاً لنظريات في علم النفس لم أَعِهَا تماماً. كما أصدر سلسلةً من الكتب حول هذا المذهب الجديد الذي سماه بمذهب «إنسان الفصل الخامس». وكان الدكتور زيتون يستضيف الشاعر في بعض أنشطة جمعيته. ومع أن الشاعر كان يرى في هذا العمل نوعاً من أنواع التكريم له، إلّا أنني خشيتُ من انسياقه وراء هذا التيار الذي لا يفيد شعره، بل يحوّله إلى ما يشبه التمائم والأحجية التي يُقال إنها تشفي من أمراضٍ مستعصية، وقلت له: إن تربية الأجسام والأرواح لا تستند إلى قصائد بل إلى نظريات علمية ونفسية ورياضية يتحدّث عنها المتخصصون في هذه الميادين. ولكن أبا الوفا كان يقول لي: وماذا أصنع؟ هل أرفض مثل هذه الحفاوة بشعري؟! إن الدكتور زيتون لم يسيء إليَّ، وهو لا يسيء استغلال الآراء التي بثثتها في شعري، فهل أمنعه من أداء رسالةٍ هي في صميمها رسالة إصلاح وتنشئة نافعة للشباب؟

وقد سألت أبا الوفا ذات مرة عن حق التأليف الذي تقاضاه عن قصيدته الجميلة «عندما يأتي المساء» التي غناها محمد عبد الوهاب في أحد أفلامه، وكان يرتدي بزة السهرة ومن خلفه تتلألأ أضواء جسر قصر النيل منعكسة على مياه النهر

في منظر بديع. فقال: إن عبد الوهاب كان يزمع السفر إلى باريس، فسألني عمّا إذا كنت أنوي توديعه في محطة سكة حديد القاهرة عند سفره إلى الإسكندرية ليستقل منها الباخرة إلى فرنسة. فأجبته إلى رغبته، ووقفت بحذاء القطار وعبد الوهاب مطل من نافذته، حتى إذا هم القطار بالتحرّك أخرج من جيبه ثلاثة جنيهات لفّها كالسيجارة ثم دسّها في جيبي قائلاً: متّع نفسك بمشروبٍ على حسابي!

واستطرد أبو الوفا قائلاً: بعد ذلك بسنوات كنت أصغي إلى المذياع، وكان المذيع يجري حواراً مع عبد الوهاب فسأله عن أحبّ أغانيه إلى نفسه. فكان جوابه «عندما يأتي المساء» للمرحوم محمود أبي الوفا»! فما كان من الشاعر إلّا أن حاول الاتصال بالموسيقار هاتفياً، ولكن الخادم أجابه بأن الأستاذ ليس في المنزل، ثم استفسر منه عمن يكون السائل فقال له أبو الوفا: عندما يأتي الأستاذ، قل له إن المرحوم أبا الوفا سأل عنه! وعندئذ سقطت سماعة الهاتف من يد الخادم على الأرض! وسألتُ أبا الوفا إن كان الموسيقار اتصل به بعد ذلك للاعتذار عن هذا السهو، فأجاب بالنفي.

ويطالع القارئ في ديوان أبي الوفا قصيدة عنوانها «نجوى» فمن تكون نجوى، وهو لم ينجب، وهي التي قال فيها:

نَجْوَى، ومَا أَنْتِ إلّا كُلُّ مُدَّخَرِي ... أَنتِ الحَيَاةُ وأَنْتِ مَنْ أُنَاجِيْهَا
لا شَيْءَ عِنْدِي سِوَى رُوْحِي وها أنذا ... مِنْ غَيْرِ مَنٍّ إليكِ الآن أُهْدِيْهَا

إن نجوى هي ابنة زوجة أبي الوفا، ولدت وقد تأخرت لديها حاستيّ السمع والنطق ثلاثة عشر عاماً، فتعهدها أبو الوفا منذ ما كانت في الأقماط وأنفق عليها من رزقه القليل في سبيل علاجها حتى استقامت لها أوضاعها الصحية، وأشرف على تعليمها وتنشئتها حتى كبرت وصارت زوجةً وأمّاً سعيدة. وكانت تناديه دائماً بلفظة «بابا»، وتولت رعايته في شيخوخته المريضة.

ولئن عمر شعر أبي الوفا بنغمات الحزن والأسى بسبب ما كابده في حياته من صنوف الهموم كقوله:

نُوْحٌ أَنَا، غَيْرَ أَنِّي لا أُرِيْدُ لَهَا ... طُوْفَانَ نُوْحٍ، فَهَلْ أَدْعُوْ بِغُفْرانِ؟

أو قوله:

أَمْشِي وَقَلْبٍ عَلَىٰ كَفِّي أَقُوْلُ: أَلَا مِنْ رَاغِبٍ في فُؤَادٍ صَادِقٍ حَانِي
يُحِبُّ حتّى كأَنَّ الأَرْضَ لَيْسَ بِهَا إلّا زَنَابِقُ مِنْ آسٍ وَسَوْسَانِ
فَلَا، وَرَبِّكَ، هذا القَلْبُ ما الْتَفَتَتْ عَيْنٌ إِلَيْهِ، فَيَا لِلْبَائِسِ العَانِي

أو قوله عن حظّه التاعس:

لَوْ خَلَعْتُ الثَّوْبَ أَبْغِي غَسْلَهُ أَقْسَمَتْ شَمْسُ الضُّحَىٰ لَمْ تَطْلُعِ
لَوْ طَلَبْتُ النَّهرَ أَرْوِي ظَمَأً لاشْتَكَىٰ النَّهرُ جَفَافَ المَنْبَعِ
وَلَوْ إنِّي تَلْمِسُ التِّبْرَ يَدِي حَوَّلَ التِّبْرَ تُرَاباً إِصْبَعِي!

إلّا أن شعره عامر بأجمل معاني الحب كقوله في قصيدة «أحباؤنا» ولعلّها آخر ما نظمه:

أَحِبَاؤُنا، أَنْتُمْ على البُعْدِ والقُرْبِ بَعُدْتُمْ قَرِبْتُمْ ما لَدَيْنا سِوَى الحُبِّ
فكونوا كَمَا شِئْتُم وشَاءَ هَوَاكُمُو فَأَنْتُم هَوَى رُوْحِي، وأَنْتُم هَوَى قَلْبِي
أُحِبُّكُمو حُبّاً كأَنِّي نَهلتُهُ مِنَ الحُبِّ في قَلْبِ المُحِبِّيْنَ للرُّبِّ

وقوله:

أَحْبَبْتُهَا أَحْبَبْتُهَا أَحْبَبْتُهَا وَأُحِبُّ في الأَيَامِ يَوْمَ رَأَيْتُهَا
وَوَدِدْتُ لَوْ أَنِّي جَمَعْتُ لها المُنَى وأَتَيْتُ بالدُّنْيَا لَهَا وَوَهَبْتُهَا

وقوله:

واللهِ لو بِيَدِي، لما تُرِكَ امْرُؤٌ ذو حَاجَةٍ إلّا لَهُ نَوَّلْتُهَا

أما رسالته الشعرية فقد عبّر عنها بقوله:

لَمْ أَقُلْ غَيْرَ ما حَسِبْتُ مُفِيْداً لَيْتَ شِعْرِي، هل قُلْتُ شَيْئاً مُفِيْدا؟
فإذا عِشْتُ، عِشْتُ حُرّاً ضَمِيرِي مُسْتَرِيحاً لِمَا صَنَعْتُ سَعِيْدا
وإذا مِتُّ، مِتُّ حُرّاً لأَنِّي لَمْ أُضِفْ للحَيَاةِ قَيْداً جَدِيْدَا
بل إذا مِتُّ لَمْ أَجُرَّ ورَائِي مِنْ كَلامِي سَلاسِلاً وحَدِيْدَا

وقوله:

لا تَقُلْ عَنِّيَ إنِّي مِنْ تُرَابٍ إنَّمَا قُلْ: آهِ، ما أَغْلَىٰ التُّرَابْ

وعند وفاة محمود أبي الوفا في السابع والعشرين من كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩ نقل جثمانه إلى قريته الديرس ووضعت عليه لوحة رأيتها منقوشة في حياته وأوصى بأن تعلق على ضريحه، وفيها يقول:

حَسْبِي إذا الحُبُّ أَضْنَانِي فَمِتُّ هَوًى إنْ يَذْكُرُونِي قالوا: كانَ إِنْسَانَا

ولقد كان الشاعر محمود أبو الوفا إنساناً بحق، بصفاء روحه وإنسانيته الشفيقة، ودعوته إلى الحبّ والقيم العليا، وإيثاره العيش لا بين المزاحمين بل مع الهائمين كقوله:

كُلُّ ما فِيْ الأَمْرِ أَنِّي هَائِمٌ ولَقَدْ آثَرْتُ عَيْشَ الهَائِمِيْن

ولدى وفاته، قرر محافظ الدقهلية إقامة ضريح له ومسجد يطلق عليه اسمه، ومتحف يلحق بالضريح ويضم مخلفاته، وما هذه المخلفات إلّا جلبابه الأبيض وفردة حذائه وساقه الصناعية ومجموعة عكاكيزه وعويناته (وكان قد كف بصره في أواخر عمره) وطربوشه والنيشان المفتخر وشهادة الجدارة وكتبه ودواوين شعره.

أما آثار الشاعر فتتمثل في دواوينه التي تغيرت أسماؤها ولكن مفرداتها انتقلت من ديوان إلى آخر مع إضافات. ودواوينه هي «أعشاب» و«أشواق» و«أنفاس محترقة» و«شعري» و«أناشيد دينية» و«أناشيد وطنية» و«عنوان النشيد» و«النشيد»، وقد صدر ديوانه المجموع بعنوان «محمود أبو الوفا دواوين شعره ودراسات بأقلام معاصريه». وكانت وزارة الأوقاف قد أصدرت له ديوانه بعد ما استبعدت منه جميع قصائد الحبّ وقصائد «الشطحات» وصدر بمقدمة لشيخ الأزهر الإمام الدكتور عبد الحليم محمود (١٩١٠ ـ ١٩٧٨). وكنت أداعبُ أبا الوفا بقولي: كان ينبغي أن يكتب على الديوان إنه لحضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمود أبي الوفا! ونُشر له بعد وفاته ديوان «أشعاري في الحب» وهو يضم منتخبات من قصائده في الحب.

كما حقق ديوان الهذليين، وقصيدة «اليتيمة»، ووضع اسمه كمترجم على رواية «جريمة سان سلفستر» مع أن دوره اقتصر على تنقيح أسلوب الترجمة. ولكن ناشرها، وهو إلياس أنطون إلياس (١٨٧٢ ـ ١٩٥٢) صاحب «القاموس العصري» أخبرني بأنه تلقاء الجهد الذي بذله أبو الوفا في تنقيح الترجمة حتى كادت تضاهي الأصل، رأى أن من حق الشاعر أن يقال عنه إنه ترجم هذه الرواية مع أنه لا يعرف أي لغة أجنبية.

محمود تيمور

مرت في الخامس والعشرين من شهر آب (أغسطس) الماضي الذكرى التاسعة والعشرون لوفاة محمود تيمور في عام ١٩٧٣ قبل شهريْن تماماً من وفاة صديقه الدكتور طه حسين في الثامن والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣. وفي ما عدا التحية التقليدية السنوية لتلميذه الوفي رستم كيلاني التي دأب على نشرها في جريدة «الأهرام» في ٢٣ آب (أغسطس) من كل عام، فإن ذكراه تمرّ في صمت بتنا نعهده في شأن كثيرين من أعلام الفكر والأدب الذين أدّوا رسالتهم ومضوا، فكانت قسمتهم الجحود، وكان النسيان جزاءهم. ولست أُعفي نفسي من التقصير في حق كثيرين من الأعلام الذين عرفتهم، وهو ما أجتهد في تداركه في هذه الأحاديث المرسلة استطراداً، وعذري أنني افتقرت إلى المنبر الذي أؤدي منه واجب الوفاء، وإنْ كان هذا التقصير لم يحل دون السير في جنازتهم، وهو أضعف الإيمان.

ولد محمود تيمور وفي فمه ملعقة من ذهب ومن حوله أسرة من جهابذة الأدب. فأبوه هو العلامة أحمد تيمور باشا (١٨٧١ ـ ١٩٣٠) الذي عُرف باهتماماته الواسعة بالتراث العربي، تشهد على ذلك عشرات من نفائس كتبه ومعاجمه (وإن بقي كثير منها مخطوطاً يعاني الركود في زكائب تكاد تكون مهملة) وتشهد على ذلك أيضاً «الخزانة التيمورية» التي تحتل جناحاً من أجنحة دار الكتب الوطنية في القاهرة. وعمته هي الشاعرة عائشة التيمورية (١٨٤٠ ـ ١٩٠٣) صاحبة ديوان «حلية الطراز» الذي ينتسب بجدارةٍ إلى «ديوان العرب». ومع ذلك، انصرف محمود تيمور وشقيقه الأكبر محمد تيمور (١٨٩٢ ـ ١٩٢١) إلى الفن القصصي بجميع فروعه، ممّا كان من العسير على شيوخ الأسرة تقبله منهما، ولا سيّما لأن هذا الفن يعالج العواطف المشبوبة والمشاعر الوجدانية، وهي موضوعات كانت تعتبر وقتها موضوعات شائكة لا يصحّ لمن ينتسب إلى هذه الأسرة إضاعة وقته فيها، ولا سيما لأن الشقيقيْن اختارا الكتابة بالعامية مؤثريْن إيّاها على الفصحى.

يروي العلامة عجاج نويهض (؟١٨٩ ـ ١٩٨٢) في مذكراته أنه توجّه إلى القاهرة في عام ١٩٢٣ للاتفاق على نشر كتابه المترجم «حاضر العالم الإسلامي»، وقصد العلامة محبّ الدين الخطيب (١٨٨٧ ـ ١٩٦٩) صاحب «دار الفتح». و«بينما كنا نتباحث في أمورنا بشأن طبع الكتاب، وصل شاب أنيق الإهاب، ودخل علينا. فلمّا وقع نظر محب الدين عليه داخلاً المطبعة على بعد عشرة أمثار، وقف واستأذنني في أن يرى هذا الشخص الطارئ. وكان في يد ذلك الشخص أوراق. فبقيا يتكلمان ويتفاوضان نحو ربع الساعة، وتسلم محبّ الدين هذه الأوراق من ذلك الشاب، وودّعه وانصرف. ثم أقبل محبّ عليَّ والأوراق في يده. فمدّ يده إليّ، وأخذ يهزّها قائلاً وهو يهزّ رأسه أيضاً: (أتعلم من هو هذا الشاب، وما هي هذه الأوراق؟) قلت له: (كلا). قال: (هو ابن صديقنا العلّامة أحمد تيمور باشا، واسمه محمود... أبوه علّامة الشرق، وأما محمود ابنه هذا فإنه متعلّق بالحكايات والقصص، ويقول إنه يريد أن يُحيي هذا الفن كما هو عند الإفرنج. فحاولتُ إقناعه بالعودة عن هذا العمل، فقال لي إنه مصمّم عليه. على كل حال، فإذا لم أرض أنا بطبع هذه الأوراق، فإنه يذهب إلى غيري. وأنا إنّما أطبعها لا إكراماً له، بل إكراماً لوالده أحمد تيمور باشا). وعلّق عجاج نويهض على هذه الرواية بقوله: «هذا الشاب الذي شهدنا معه هذه الواقعة سنة ١٩٢٣ في مصر هو محمود تيمور الذي صار بعدئذٍ أمير القصة في العالم العربي».

كان محمود تيمور ميسور الحال، يملك الضياع الواسعة التي ينفق من حصيلتها ومن حصيلة ثمار المانغو التي استنبتها وباتت تعرف باسم «مانغو تيمور» حتى اليوم، على طبع كتبه وترجمتها، بل على تمثيل بعض مسرحياته، سواء على مسرح المطربة ملك أو بفضل صديقه المخرج زكي طليمات (١٨٩٦ ـ ١٩٨٢)، فاستطاع أن يشق طريقه في ميدان كان روّاده قليلين، تنوء بهم وسائل النشر، وتقعد بهم أسباب الترويج التي تهيأت لمحمود تيمور بفضل قدرته المالية، وبفضل انتسابه إلى الشريحة العليا في المجتمع، إذْ كان شقيقه إسماعيل تيمور باشا كبيراً للأمناء في القصر الملكي، وآل هذا المنصب بعد ذلك إلى أحمد فؤاد تيمور (١٩٢٠ ـ ٢٠٠٠) نجل إسماعيل باشا، وهو أديب ذو أسلوب ناصع البيان، وقد ظلّ كبيراً للأمناء حتى عهد الرئيس أنور السادات (١٩١٨ ـ ١٩٨١). وكانت

فيلا محمود تيمور في الزمالك مقصد الأدباء والعلماء والمستشرقين من أمثال المستشرق الروسي إغناطيوس كراتشكوفسكي (١٨٨٣ ـ ١٩٥١) والمستشرق المجري الحاج عبد الكريم جرمانوس (١٨٨٤ ـ ١٩٧٩) والمستشرق البريطاني السرهاملتن ألكسندر غيب (١٨٨٥ ـ ١٩٧١)، وقد عرّفني تيمور بالسرهاملتن، فعرّفته بدوري بالمستشرق الأمريكي كرمت سكونوفر، وكان من أساتذة معهد الدراسات الشرقية بالجامعة الأميركية في القاهرة الذي أعدّ دراسة عن تيمور نشرها في مجلة «العالم الإسلامي» الأميركية.

على أن هذه السراوة الموروثة التي كانت تتراءى في حياة محمود تيمور، من سيارات فخمة، إلى أقلام وساعات من الذهب، وضياع واسعة، ودارة مُترفة في حي الأغنياء في القاهرة (حي الزمالك) لم تورث محمود تيمور أي عنجهية في تعامله مع الناس، فقد كان شديد التواضع، يحنو على ناشئة الأدباء ويشجعهم، ويهديهم كتبه ممهورة بتوقيعه ولو كان طالبها سائقاً في حافلة عامة، وكان يرد على كل ما يأتيه من بريد مهما تواضع شأن صاحبه. ولم يكن يمتنع عن لقاء أي أديب أو متأدّب، بل كان في كثير من الأحيان يسعى إليهم بنفسه، وهو ما حدث معي بالذات، فكان بداية صداقة استمرت إلى أن لقي وجه ربّه.

ذلك أن أعمال «لجنة النشر للجامعيين» التي أنشأها القاص عبد الحميد جودة السحار (١٩١٣ ـ ١٩٧٤) في عام ١٩٤٣ وضمّ إليها نجيب محفوظ (١٩١٢ ـ) وعلي أحمد باكثير (١٩١٠ ـ ١٩٦٩) وعادل كامل (؟١٩١ ـ) بهرتني، فقرّرتُ السعي إليها في عقر دارها، حيث احتفى بي روّادها، ورحبوا بنشر مسرحية «الأب» التي ترجمتها عن الأديب السويدي أوغست سترندبرغ (١٨٤٩ ـ ١٩١٢). وكان هؤلاء الشبان مجهولين تماماً عند القارئ العربيّ، فعولت على التعريف بآثار كل منهم كلما صدر جديد منها. وفي مجلّات «المقتطف» و«الرسالة» و«منبر الشرق» وسواها شواهد على أنني كنت من أوائل الذين عرفوا بهؤلاء الأدباء. وفي عام ١٩٤٥ نشرت اللجنة مجموعة أقاصيص لمحمود تيمور عنوانها «عطر ودخان» قدّمها مؤلّفها إلى اللجنة مساهمةً منه في نشاطها وتشجيعاً منه لهؤلاء الشبان رافضاً ـ كدأبه ـ أن يتقاضى أي أجر عن عمله. فقمتُ بدوري بالتعريف بهذا الكتاب. ولم تكد مقالتي تظهر، حتى اتصل بي عبد الحميد السحار قائلاً: إن تيمور بك (وكان يحمل رتبة البيكوية من الدرجة الأولى)

يشكرك على تحيتك، ويرغب في أن يقابلك. فرحبّت طبعاً ببادرته، وتواعدنا على اللقاء في مقهى أنيق في وسط القاهرة. وأحسستُ يومها بشيء من الزهو، فها هو الأرستقراطي الكبير محمود تيمور بك الذائع الصيت في دنيا الأدب، يتنازل لكي يقابل أديباً ناشئاً في الثانية والعشرين من عمره، ثم يصرّ على أن يوصّله بسيارته إلى منزله، لولا أنه أشفق على تيمور بك من إضاعة وقته. ومنذ ذلك اللقاء، لم ينقطع عنّي تشجيع هذا الرجل، سواء برسائله أو بكتبه أو بما تُرجم منها إلى اللغتين الإنكليزية والفرنسية أو بسؤاله عني بالهاتف. كما كان سريع الاستجابة لأي طلب أدبيّ أقصده فيه. ومن ذلك مثلاً أنني رغبت في إجراء حديث معه لمجلة «الأديب» اللبنانية، فرحب بذلك، وأجاب على أسئلتي التي نُشرت في عدد تموز (يوليو) ١٩٥٣ ثم أعاد هو نشرها في كتابه «ظلال مضيئة». وكان تليفزيون الظهران قد كلفني إجراء حديث معه، فلم يضنّ عليَّ بهذا الفضل. كما كلفني تسجيل عددٍ من أقاصيصه بصوته فاستجاب لي. بيد أنني عند مراجعة أقصوصةٍ منها، لاحظت ورود لفظة «مُجون» في سياقها، فأشرت عليه بتغييرها حتى لا تجرح مشاعر المشاهدين بصراحتها، واقترحت عليه لفظة «مَجَانَة»، وهي تؤدي نفس المعنى ولكن بصورةٍ غير فجّة، فرحب بذلك وقام بتعديلها.

وفي عام ١٩٦٣ دعتنا محافظة الدقهلية للمشاركة في مهرجان لتأبين إسماعيل مظهر (١٨٩١ ـ ١٩٦٢) فتوجهنا إلى المنصورة، عاصمة المحافظة، وكان معنا محمود تيمور والدكتور محمد صبري السوربوني (١٨٩٠ ـ ١٩٧٨) والمؤرخ الدكتور عبد الرحمن زكي (١٩٠٤ ـ ١٩٨٠) والمؤرخ محمود الشرقاوي (١٩٠٨ ـ ١٩٧٢) والقاص محمد عبد الحليم عبد الله (١٩١٣ ـ ١٩٧٠). وإذْ كنا نتسامر في قاعة الفندق، قلت لمحمود تيمور: هل يصح أن نشتقَّ من لفظة «مهرجان» فعْلاً، فيقال «مَهْرَجَ يُمَهْرِجُ» وإنْ كان ذلك يقودنا حتماً إلى «التهريج»؟! فضحك تيمور، وكان وقتها عاكفاً على جمع مفردات قاموس أصدره في ما بعد بعنوان «معجم الحضارة»، وسجل هذه الملاحظة في مفكرةٍ يحملها في جيبه للنظر فيها.

ولد محمود تيمور في القاهرة في السادس عشر من حزيران (يونيو) ١٨٩٤، وتلقى دروسه في المرحلتين الابتدائية والثانوية، ثم ألحق بمدرسة الزراعة العليا لتكون هذه الدراسة معواناً له في المستقبل على الإشراف على مزارع الأسرة.

ولكن مرضاً عطّله عن متابعة هذه الدراسة، فسافر إلى سويسرة طلباً للاستشفاء، وهناك استهواه الأدبان الفرنسي والروسي فعكف على دراستهما. وبعودته كان قد هيّأ نفسه للاضطلاع بالرسالة التي وقف عليها معظم حياته، وهي النهوض بالأدب الروائي بجميع ألوانه، من رواية ومسرحية وأقصوصة. وكان في بادئ الأمر يدير حواره باللهجة العامية، ولكنّه عدل عن ذلك في ما بعد، ولا سيّما عقب اختياره عضوا في مجمع اللغة العربية في القاهرة عام ١٩٤٩، فصار ينشر رواياته بنصّيْها. وعُني بالدراسات اللغوية والأدبية، وكان من قبل قد أصدر كتاباً عن «فن القصص»، فأتْبَعَهُ بكتبٍ عن «مشكلات اللغة العربية» و«الأدب الهادفِ» فضلاً عن «معجم الحضارة»، كما أسهم في بحوث المجمع بدراسات عن لغة المجتمع، وسلطان اللغة العربية، ومواليد جديدة في لغة الحياة العامة، وهلم جرّا.

أما آثاره الروائية التي تزيد على خمسين عملاً، والتي ترجم بعضها إلى لغات شتى، والتي كانت سبيله الممهدة إلى الشهرة، فهي تدور حول قضايا عصرية وتراثية وتاريخية فضلاً عن روايات استوحاها من رحلاته مثل «أبو الهول يطير» و«المئة يوم» و«شمس وليل» أو روايات أدارها حول الشخوص الفرعونية مثل «كليوباترة في خان الخليلي» كما أنه رسم صوراً جميلة لرجال عرفهم عن قرب أصدرها في كتاب عنوانه «ملامح وغضون»، وتناول كذلك موضوع الأندلسيات في رواية «طارق الأندلس». وهكذا طرق محمود تيمور جميع موضوعات الأدب الروائي، ربّما باستثناء الروايات البوليسية التي سقطت من اهتماماته.

وكان محمود تيمور يشكو دائماً من هشاشة صحته، فكان يحرص حتّى في أشهر الصيف الحارة على ارتداء سترته الكاملة، بما في ذلك الصدارة، مؤثراً اللون الأسود منذ ما فقد ابنه الوحيد الشاب الذي كان معقد آماله.

ومُنح محمود تيمور عدداً من الجوائز التقديرية في مسيرة حياته الأدبية، منها جائزة الدولة للآداب في عام ١٩٥٠، وجائزة الدولة التقديرية في عام ١٩٦٣ وجائزة واصف غالي باشا (١٨٨٢ ـ ١٩٥٨) التي تمنح في باريس عام ١٩٥١ وجائزة مجمع اللغة العربية تتويجاً لإنتاجه الأدبي في عام ١٩٤٧. وعند منحه جائزة المجمع أشاد الأديب محمد فريد أبو حديد (١٨٩٣ ـ ١٩٦٧) بأدبه قائلاً: «إن محمود تيمور يمتاز بثلاث، أنه يرسم الأشخاص حتى إنك لتحسّ أنفاسهم

وتلمح الحياة في سهولة حركاتهم، وإنه يكتب في لغة سلسلة لا تحجب شيئاً من معانيه، وإن فنّه يشيع فيه روح وديع من الإنسانية، فهو يخدم الأدب بالإشارة إلى مثله الإنساني الأعلى، ويصوره لنا في صورة بارعة، ويعرفنا بالجانب المعهود في مجتمعنا... ففنّ تيمور هو القصص الواقعي الإنساني المملوء محبةً للإنسان».

وعند اختياره عضواً في مجمع القاهرة بتزكيةٍ من طه حسين ـ وما زال المجمع بتجهّم للروائيين فلا يضمّ أحداً منهم إلى عضويته! ـ خاطبه الدكتور طه بقوله: «سبقت أنت إلى شيء لا أعرف أن أحداً شاركك فيه في الشرق العربي كله إلى الآن. وإذا ذهب أحد مذهبك، أو جاء أحدٌ فيما بعد بخيرٍ ممّا جئت به، فلم يستطيع أن يتفوق عليك، لأنك فتحت له الباب، ومهدّت له الطريق، ويَسَّرْتَ له السعي، وأتحت له أن يُنتج وأن يمتاز... هذا الذي تفوقت فيه وامتزت، وسجّلت به لنفسك خلوداً في تاريخ الأدب العربي لا سبيل إلى أن يُمحى... فأنت لا تكاد تكتب، ولا يكاد الناس يسمعون بعض ما تكتب، حتى يصل إلى قلوبهم كما يصل الفاتح إلى المدينة يقهرها فيستأثر بها الاستئثار كله».

وكنتُ سألت محمود تيمور كيف استطاع انتقاء بعض شخصيات رواياته من قاع المجتمع وتصويرها تصويراً أميناً وكأنّه عايشها واختلط بها طويلاً في حين أنه ينتمي إلى الشريحة الأرستقراطية المنعزلة عن سواد الناس. فكان جوابه: لا تَنْسَ أنني ولدت في «درب سعادة»، وهو حي شعبي في القاهرة، وأن طفولتي الباكرة في هذا الحيّ دلّتني على الشخصيات التي جعلتُ منها عناوين لأدبي الروائي مثل شخصيات «أبو شوشة» و«عم متولي» و«الشيخ جمعة» و«الحاج شلبي» و«الشيخ سيد العبيط» و«الشيخ عفا الله» و«أبو علي» و«أبو عوف»، وهلم جرّا. فجميعها شخصيات تراها في «درب سعادة» إلى هذا اليوم. فشخوصي تنتمي إلى الواقع المُعَاش وليس إلى عالم الجنّ والخرافات.

هذه سطور سُقتها تذكيراً بفضل محمود تيمور وما أكبر فضله.

❁ ❁ ❁

محمود حسن إسماعيل

في يوم من أيام عام ١٩٤٦ كنت أهمّ بدخول الجامعة الأميركية بالقاهرة من مدخل لها في شارع الشيخ ريحان المقابل لوزارة الشؤون الاجتماعية، عندما التقيت بصديقي الشاعر مختار الوكيل (١٩١١ ـ ١٩٨٨) الذي سألني عن وجهتي، فقلت له إنني كنت ذاهباً إلى معهدي القديم لافتقاد الأصدقاء من العاملين فيه. فابتدرني قائلاً: هل ترافقني لزيارة الشاعر محمود حسن إسماعيل، فهو يعمل في مجلة الشؤون الاجتماعية التي تصدرها وزارة الشؤون الاجتماعية. فقلت له إنني لا أعرف الشاعر، وليس لي معه موعد مضروب. فقال: لا تخش شيئاً، فسيرحب بك لأنه صديقي. وصعدنا الدرج إلى مكتب محمود حسن إسماعيل الذي استقبلنا استقبالاً حفيّاً، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أشافهه فيها عن قُرب، فهو بسمَته وإيماءاته وكلامه قطعة منتزعة من صعيد مصر الجُوَاني: سحنة سمراء، وشعر مجعّد، وعينان جاحظتان حمراوان، وقامة معتدلة لا تشتكي طولاً ولا قصراً ولا بدانة ولا هزالاً. وبمجرد جلوسنا، فتح الشاعر درج مكتبه وأخرج نسختين من ديوانه الجديد الموسوم «الملك» وكتب عليهما إهداء كريماً لكل منّا. ولا تسل عن فرحتي بالتعرف بهذا الشاعر الذي عرفته قبلاً من ديوانيه «أغاني الكوخ» و«هكذا أغني» ومن قصائده المندرجة في مجلة «الرسالة» لصاحبها أحمد حسن الزيات (١٨٨٥ ـ ١٩٦٨)، ولا تسل عن اعتزازي بهذا الديوان الجديد المطبوع طباعة فاخرة تتصدره صورة الجالس على العرش، الملك فاروق الأول (والأخير!). وكان طبيعياً أن أرد للشاعر تحيته في مقال عقدته حول هذا الديوان.

وكانت محطة الإذاعة وقتها تتبع شركة ماركوني الإنكليزية، فلمّا آلت ملكيتها إلى الحكومة المصرية ألحقتها بوزارة الشؤون الاجتماعية باعتبارها أنسب الوزارات للإشراف عليها، ولا سيّما لأننا لم نكن نعرف في ذلك الوقت وزارات الإعلام أو الارشاد القومي أو الثقافة. وما دامت الإذاعة تؤدي رسالة اجتماعية،

فلتتبع إذاً وزارة الشؤون الاجتماعية. وعندما أغلقت مجلة الشؤون الاجتماعية، نقل محمود حسن إسماعيل إلى إدارة الإذاعة اللاسلكية، وبقي فيها إلى أن تقاعد في عام ١٩٧٠. وكان قد عمل عقب تخرجه عام ١٩٣٦ من كلية دار العلوم محرراً في مجمع فؤاد الأول اللغة العربية، وموظفاً في مراقبة الثقافة بوزارة المعارف.

ومع أن ديوان «الملك» لم يُنِلْ محمود حسن إسماعيل أي رتبة (كالبكوية والباشوية) ولا أكسبه ثروة طائلة، فقد تناهى إلى العاملين في الإذاعة أن محمود حسن إسماعيل موصول الأسباب بالقصر الملكي، مما أعلى من منزلته الأدبية في الإذاعة، وصار مراقباً للبرامج الثقافية فيها مسؤولاً عن جميع الأحاديث التي يذيعها كبار المفكرين والأدباء على الهواء مباشرة، ولا سيما لأن عملية تسجيل الأحاديث قبل إذاعتها لم تكن معروفة، ولكن كان يُطلب من المتحدثين أن يقدّم كل منهم نسخة من حديثه لمراجعتها من قبل محمود حسن إسماعيل قبل إذاعتها للاطمئنان إلى خلوّها من أي محظورات.

ولا بأس من قبيل الاستطراد أن أنقل هنا بقدر من الإيجاز ما رواه الأديب الدكتور عبد القادر محمود أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة، أطال الله بقاءه، عن الشاعر محمود حسن إسماعيل وسلطته في قبول أو رفض أي حديث مقدّم لإذاعته. وقد نشر ذلك في جريدة «الأهرام» في عدد ١٦ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٤.

روى عبد القادر محمود نقلاً عن المرحوم زكريا الحجاوي (١٩١٤ ـ ١٩٧٦) إشاعة مؤداها أن محمود حسن إسماعيل اشترى مسدساً لاستخدامه ضدّ مناوئيه. وقد تندّر بهذه الإشاعة روّاد ندوة جريدة «الأهرام» أو مقهى اللواء الذي كان يواجه مبنى الصحيفة القديم، ومن هؤلاء الروّاد كامل الشناوي (١٩٠٨ ـ ١٩٦٥) ومحمد مصطفى حمام (١٩٠٦ ـ ١٩٤٦) وعبد السلام شهاب (ت١٩٧٧) ومحمود السعدني أطال الله عمره. وتقول الرواية، إن الأديب الكبير إبراهيم عبد القادر المازني (١٨٩٠ ـ ١٩٤٩) توجه إلى الإذاعة ليقرأ حديثاً له على الهواء مباشرة، وفوجئ باختفاء الحديث الذي سبق له أن قدّم نصه إلى مراقب البرامج الفنية محمود حسن إسماعيل. ومع أن المازني كان قادراً على ارتجال الحديث، فقد اعتقد أن في الأمر سراً، وأن المسؤول عن إخفاء الحديث أو إضاعته هو محمود حسن إسماعيل نفسه. فانقطع المازني غاضباً عن الإذاعة، وكتب كلمة

قصيرة في جريدة «البلاغ» من دون أن يشير فيها إلى اسم الشاعر ختمها ببيت ساخر لابن الرومي هو:

طُوْلٌ وعَرْضٌ بلا عَقْلٍ ولا أَدَبٍ فَلَيْسَ يُحْسُنُ إلّا وَهُوَ مَصْلُوْبُ!

واستطرد الدكتور عبد القادر محمود فقال: إن قوماً في ندوة «الأهرام» واللواء تطوعوا لتدبير مكيدة للشاعر محمود حسن إسماعيل ثأراً للمازني، وكانت المكيدة هي نظم قصيدة باسم الشاعر وبوحي من بعض تعبيراته وضعوا لها عنواناً هو «جسر الأبد» ونشروها في صدر مجلة «الحديقة والمنزل» جاء فيها:

رَقَصَ البَدْرُ عَلَىٰ لَحْنِ الصُّخُوْرِ... في ظَلَامٍ سَاطِعِ!
وَتَهَاوَىٰ النُّوْرُ مِنْ أَيْدِي الزُّهُوْرِ... في الهَزهيْعِ السَّابِعِ!
وَتَدَلَّىٰ النَّجْمُ مِنْ جِسْرِ الأَبَدْ!
شَارِداً أَسْيَانَ يَبْكِي فِي كَمَدْ!
رَاعِشَ الجَفْنِ، صَرِيْعَ الكِبْرِيَاء!
سَاهِماً مِثْلَ عُيُوْنِ البَبَّغَاء!
يا نَشِيْدَ الخُلْدِ في الوَادِي المَطِيْرَ... في الرَّحِيْبِ الوَاسِعِ
يا سَمَاءً في جِبَالٍ مِنْ بُحُوْرٍ... في فَنَاءِ الشَّارِعِ
أنا في الدُّنْيا شَرِيْدٌ ناسِكٌ
وأنا الرَّوْضُ النَّضِيْرُ الشَّائِكُ، جازِعٌ من كلِّ شيءٍ... ضَاحِكٌ
نَبِّئْنِي... كيفَ يَبْكِي الضَّاحِكُ؟

أما بقية القصة كما رواها الحجاوي ونقلها عنه عبد القادر محمود، فهي أن الشاعر صمم على أن ينتقم من أولئك الذين اعتدوا على ساحته المقدسة بهذا العبث الفارغ، ووضع في سترته الداخلية مسدساً ليطلقه موتاً على هؤلاء العابثين. وزعم الحجاوي أن الشاعر استقبل في بيته صديقاً له (المفروض أنه كاتب هذه الأحاديث المستطردة)، وإذ كانا يتحدثان في أمور الشعر والنقد، برزت قطة مستوحشة تقفز حولهما، فما كان من الشاعر إلّا أن أخرج مسدسه وأطلق عليها ثلاث رصاصات أردتها في الحال. وعلّل الشاعر فعلته هذه بأنه لم يقصد قتل القطة، وإنما قصد قتل «الوداعة» في ضيفه!

وهي حكاية أو دعابة قد تكون صحيحة في جزئها الأول، أما ما يتعلق بشخصي فهو غير صحيح، إذ كان الشناوي وحمام وشهاب والسعدني يخلطون الجدّ بالهزل، ولا يرون حرجاً في اختراع وقائع لم تحدث.

وعندما بدأت حركة الضباط في عام ١٩٥٢ في تطهير المناصب الحكومية من «المغضوب عليهم» خشي محمود حسن إسماعيل أن يصيبه أذى في رزقه بسبب ديوان «الملك» فتكتم أمره وطوى صفحته ولم يعد يذكره في سياق أي حديث عن دواوينه، وتمنّى أن ينساه الناس تماماً، وقد نسيه فعلاً معظم النقاد فأسقطوه من اهتمامهم. فقد كان الشاعر يعتمد في كل حياته على وظيفته في المقام الأول والأخير، ولو فقد هذه الوظيفة لعانت أسرته الكبيرة المؤلفة من زوجة وولدين وأربع بنات أشدّ الضيق. وإذا كان محمود حسن إسماعيل قد أهال التراب على ديوان «الملك» فإن الشاعر الأديب اللبناني أمين نخلة (١٩٠١ - ١٩٧٦) جاهر بإصدار «كتاب الملوك» في عام ١٩٥٤، وفي الكتاب تأبين لملك وذكرى لملك وتحية لملك وخطاب إلى ملك، وكلام على ملك للعرب، ومن هؤلاء الملوك فاروق الأول الذي كان قد فقد عرشه.

على أن محمود حسن إسماعيل ارتأى أن يجاري النظام الجديد ليداري على ديوانه المشؤوم، فأصدر ديوان «نار وأصفاد»، ووقفه على شعر النضال والكفاح والثورة حتى لا يُقال إنه تقاعس عن الإسهام في حركة التاريخ الثوري.

وكان من عادة محمود حسن إسماعيل عندما يريد استدعاء بواعث الالهام، أن يخرج من بيته في مدينة الجيزة في ساعة متأخرة من الليل، ويتمشى على شاطئ النيل وهو في حالة «وَجْد شعري» يكاد يكون فيها غائباً عن الدنيا من حوله. وذات مرة استوقفه شرطي وهو يذرع الطريق جيئة وذهاباً ظناً منه بأنه يحوم حول المنازل المطلة على النيل لكي يدبر أمراً يعاقب عليه القانون. فاستوضحه مقاصده، ولكنه طلب منه ألا يقطع عليه حبل تفكيره لأنه ينظم قصيدة عصماء، وهو كلام لم يفهمه الشرطي الساذج، فساقه إلى مركز الشرطة للتحقيق معه. ومن حسن حظه أن الضابط المنوب كان يسمع اسم محمود حسن إسماعيل مقترناً ببعض الأغاني التي ترددها الإذاعة لكبار المطربين والمطربات، فاعتذر له ونصحه بأن يكف عن ذرع شوارع النيل الهادئة في ساعات متأخرة من الليل حتى لا يثير من حوله شبهات لا مسوغ لها.

كان محمود حسن إسماعيل شعبياً، فعاش كل عمره في الأحياء الشعبية، وكان يستخدم وسائل المواصلات العامة في تنقلاته، ولم ينس أبداً صعيديته وحياته في قرية النخيلة التابع لمدينة «أبو تيج» ولا غادرته صور الكوخ التي سجلها في ديوانه الأول، ولهذا لم تكن له مشاركة في الحياة الاجتماعية، وإن كان هذا لم يمنعه من لقاء أصدقائه ومريديه سواء في مكتبه أو في مقاهي القاهرة، لأن بيته كان حكراً على أسرته وحدها. وكان بصورة عامة هادئ الطبع، قليل الانفعال، يستقبل زواره بحفاوة ودية، ولا بأس من التخفف من مسلكه الجاد بشيء من الفكاهة وخفة الروح.

سمعته مرة يقول: إن الشاعر الموصول بأسباب الوحي والإلهام، لا يحتاج إلى التوسع في المطالعات لأنها «تشوّش» على ما يتنزّل عليه من وحي ربات الشعر. فالشاعر لا تصنعه المطالعات مهما اتسعت. وإنما تصنعه موهبته التي فُطر عليها وصارت جزءاً من جبلته، ولا سبيل إلى اصطناعها إن انتفت. والشاعر يولد شاعراً ويموت شاعراً، وإذا أراد أن ينأى بنفسه عن التقليد والمحاكاة قلّل من مطالعاته، ولا سيما لدواوين الشعراء القدامى. ومع هذا، كان مضطراً، بحكم عمله في الإذاعة، لمراجعة القصائد والأحاديث المقدمة من الأدباء وتقييمها، سواء بالقبول أو بالرفض، وهو ما أكسبه صداقات وعداوات في وقت واحد. ولكن ميزانه كان محكوماً بالإنصاف والبعد عن الهوى.

وفي مسيرة حياة الشاعر محمود حسن إسماعيل دواوين متعددة أصدرها تباعاً، وهي ـ عدا ما سلفت الإشارة إليه «أين المفرّ» و«قاب قوسين» و«لا بدّ» و«صلاة ورفض» و«هدير البرزخ» و«نهر الحقيقة» و«التائهون» وقصيدة طويلة عنوانها «السلام الذي أعرفه» ترجمها إلى اللغة الإنكليزية الدكتور محمد مهدي علام (١٩٠٠ ـ ١٩٩٢) نائب رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة. ولم يحاول الشاعر في كل عمره أن يخرج عن دائرة الشعر، فلم ينشر في الصحف دراسات أو مقالات، ولا شارك في مناقشات أو محاضرات في أي موضوع أدبي؛ لأن الشعر هو كل حياته ولا يشغله عنه شاغل.

تقاعد محمود حسن إسماعيل من عمله في الإذاعة عام ١٩٧٠ (فهو من مواليد عام ١٩١٠) وكان يتوقع أن تتوّج حياته بالحصول على جائزة الدولة التقديرية، وهي أعلى جائزة في حينها، ولكن حظه تواضع عند الجائزة التشجيعية

التي نالها عام ١٩٦٤، وإن كان عيّن في لجنة الشعر بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، وشارك بشعره وشخصه في بعض المؤتمرات الأدبية.

وعُرض عليه بعد تقاعده أن يعمل خبيراً في مركز بحوث المناهج في الكويت، فرحّب بهذا العمل، وسافر إلى هناك حيث أصبح زينة المجالس والديوانيات بما كان يلقيه فيها من شعره، وبما كان يرويه من ذكرياته عن الأدب والأدباء في المجتمع الذي خالطه بكثافة أثناء عمله بالإذاعة.

وقد قابلته للمرة الأخيرة في صيف عام ١٩٧٦ في منزل جاري العلامة محمود محمد شاكر (١٩٠٩ ـ ١٩٩٧) وكان يقضي إجازته السنوية من عمله في الكويت، وأخذ يسألني عن أخبار الأصدقاء المشتركين لافتقاده إياها في غربته، وبعد أشهر من هذا اللقاء عاد إلى القاهرة في صندوق، إذ توفي في منزله في الكويت في ٢٥ نيسان (إبريل) ١٩٧٧.

ووصفت ابنته المذيعة سلوان محمود أيامه الأخيرة بقولها: «لم أر للشمس ضوءاً لمدة أربعة أيام كان فيها يلفظ أنفاسه الأخيرة وأنا بجانبه لا أصدق أن الهرم يتهاوى أمام سطوة القدر. وعدت به إلى وطنه في طائرة واحدة بعد تكريم عظيم في دولة الكويت... هو جسدٌ مسجى فارقته الروح، وأنا جسد حي لم يبق به إلّا أعمق معاني الحزن والألم... وكان دائماً ما يغرس في روحي شعوراً برفض كل ضعف وانكسار، ناشداً كل قوة وكل إقبال على الحياة واغتراف من معنى الوجود وفلسفة الحياة».

❁ ❁ ❁

مصطفى الشهابي

كنت في أتعس أيام عمري، أفكر في الهجرة الآبدة ولو إلى جهنميات سقر حين أتاني نعي الأمير مصطفى الشهابي في ١٣ من مايو ١٩٦٨ فأخرس لساني، وحجر الدمع في مآقي، وشل القلم في يدي، وانضاف حزن جديد ممض إلى أحزان قديمة متباهظة، أشعرتني في عتوها بيتم جديد. وقد عرفت اليتم لأول مرة حين مات أبي وأنا في السابعة من عمري، ثم تعدد شعور اليتم حين فقدت أساتذتي ورعاتي الدكتور فارس نمر باشا، وخليل مطران بك، ونقولا الحداد وإلياس أنطون إلياس، وعلي الغاياتي، والدكتور يوسف نحاس بك، والأمير الشهابي العظيم.

ولئن كنت وجمت وجوم بلداء الإحساس ساعة وفاة الأمير الشهابي، فرجائي في هذه الكلم المسوقة استطراداً أن أجلو أطرافاً من حياة هذا الرجل المتكامل السجايا، علماً وأدباً وخلقاً وجهاداً وريادة وأستاذية، معنياً في المقام الأول بالجانب الخلقي الذي كان أشد ما بهرني في الأمير العالم، فانعقدت بيننا مودة صافية منذ عرفته لأول مرة في عام ١٩٤٨ أو نحوه، إلى أن ضربت بيننا المنون بعد ذلك بعشرين عاماً. أما سيرة حياته، فلست براويها، لأن الأمير الشهابي قد دونها بقلمه وأودعها مجامع اللغة العربية ـ وعندي نسخة منها ـ كما أن صديقنا الوفي العلامة الكبير الدكتور عدنان الخطيب قد سجل هذه السيرة المعطرة بأسباب الإلهام في كتاب أصدره عام ١٩٦٨ كان منه لفتة وفاء لهذا العالم الأديب الفرد.

كنت في عام ١٩٤٨ أحرر جريدة «المقطم» خلفاً لأستاذي الكبير خليل تابت باشا، وكان من جملة مسؤولياتي اليومية كتابة مقالات الصدر، وفيها تعليقات ضافية على ما هو جار في الدنيا من أحداث. وإذ كنت عاكفاً على عملي في الطابق الثاني من دار الجريدة، رنَّ الهاتف، وكان المتحدث صاحب الجريدة

الدكتور فارس نمر باشا، وكان مكتبه يلي مكتبي في الطابق الأول، فاعتذر لي بأن صحته اليوم (وكان في التسعين من عمره) لا تسمح له بصعود الدرج إليَّ كما كان يفعل في الأسابيع والأشهر الفائتة بدعوى أن وقتي أثمن من وقته! ورجاني أن أهبط إليه لمقابلة ضيف. ولما هرعت إلى غرفة نمر باشا، قدمني إلى زميله الأمير مصطفى الشهابي عضو مجمع اللغة العربية قائلاً: إنَّ الأمير قرأ فصولك اليومية في الجريدة منذ وصوله إلى القاهرة لحضور دورة المجمع، وإنه رغب في مقابلتك لتهنئتك عليها. ولاحظت في عينيّ الأمير الشهابي أمارات الدهشة، التي سرعان ما فسرها قائلاً: لقد حسبتك شيخاً في الثمانين، وإذا أنت شاب في الخامسة والعشرين. فقلت له: إنني مدين بالفضل لأساتذتي الدكتور نمر وتابت باشا والدكتور فؤاد صروف. فقال: يسعدني كثيراً أن ألقاك، ودعني أهنئك على كتاباتك التي لولا تذييلها باسمك الممهورة به لحسبتها من قلم خليل تابت باشا.

وشكرت له هذه المجاملة وذلك التشجيع، وعدت إلى عملي والدهشة تعقد لساني. فمن أنا حتى يهتم بي هذا العالم الكبير الذي أعرف أنه عضو في مجمعين، وكان وزيراً غير مرة، وله معجم في النبات يحمل اسمه؟ وهل تراني خيبت أمله أو أنه كان في تشجيعه صادقاً غير مجامل؟ ولكنني تذكرت ما أثر عن أخلاق العلماء الأفذاذ من تواضع وحدب على الناشئة، وقلت: لا ريب في أن الأمير الشهابي عالم أصيل.

وبعد ذلك بعامين، قرأت في الصحف أن الأمير الشهابي اختير سفيراً لسورية في مصر، فكتبت في «المقطم» كلمة رحبت فيها به، حتى إذا ما وصل إلى مصر بعد ذلك لم أكن في عداد مستقبليه أو المرحبين به، اعتقاداً مني بأنه في مهامه الجديدة لا يتعامل إلا مع أنداده الوزراء والسفراء، وأن اللقاء العارض الذي تم بيننا منذ عامين لا بد أن يكون قد نسي أو تنوسي. وكان من دأبي وديدني ـ وما زلت على هذا مقيماً إلى يوم الناس هذا ـ أن أدير ظهري لكل ذي منصب، فلا أتعامل حتى مع أصدقائي منهم ما داموا على الأرائك والدسوت. فاكتفيت بمتابعة نشاط السفير السوري الجديد باعتبار ذلك جزءاً من اهتماماتي الصحفية اليومية المعتادة.

وذات صباح، دق الهاتف وكان المتكلم الأمير مصطفى الشهابي الذي عاتبني لأنني لم أستفسر عنه، فخجلت من نفسي، ولكنني قلت له: أعرف أنك

مشغول بأمهات المسائل والأعباء، ولم أشأ أن أكون كلاً عليك، ثم إنني حسبتك نسيتني فلم أرد أن أذكرك بشخصي، وعندك من التبعات ما ينسيك حتى أمورك الخاصة. فضحك ثم قال: اسمع يا صاحبي، أنا عالم وأديب أولاً، أما السفارة والوزارة فهي مجرد وظيفة نحاول عن طريقها خدمة بلادنا وأمتنا، ولكن متعتي الأولى والأخيرة هي أجواء العلم والأدب، وما دمت أنا في القاهرة، فَانْسَ أنني سفير، وعاملني كزميل وصديق، رابطتنا الأولى والوثقى هي حب العلم والأدب.

وأحسست وقع التأنيب على ضميري، لأنني أهرب من الشهابي بوصفه سفيراً، بينما هو يهرب إلي بوصف كلينا من محبي الأدب والعلم، وهذه والله أخلاق العلماء الأصلاء الذين يرون في العلم والأدب أعظم قيمة وأخلدها، أما الوظائف والألقاب فهي عارضة مهما تفاقمت وتعاظمت واستطال أمدها. وقلت للأمير الشهابي: إذن نرجىء اللقاء إلى أن تنتهي من مراسم تقديم أوراق اعتمادك وما يسبق ذلك من مقابلات رسمية وزيارات بروتوكولية. فقال: بل نلتقي غداً، ومعنا جمع من الأصدقاء، إميل زيدان بك (صاحب دار الهلال) وسامي السراج الأديب المجاهد المعروف، وعزيز ميرزا بك رئيس تحرير الأهرام، وسامي الجسري محرر المقتطف، وعادل الغضبان الأديب الشاعر الرقيق، والدكتور فؤاد صروف الذي انشغل عنا بعمل طارئ، وحبيب جاماتي صاحب تاريخ ما أهمله التاريخ.

وهكذا تحولت السفارة السورية في عهد الأمير مصطفى الشهابي إلى فرع لمجمع اللغة العربية، ولا سيما بعد أن انضمّ إلى هيئتها حبيب الكل الدكتور زكي المحاسني كمستشار ثقافي لسورية في مصر. وكنت أزور الأمير مصطفى بلا موعد وفي أي وقت، فإن كان على موعد مع زائر عرجت على الدكتور المحاسني. وفي هذه الدار، التقيت بالدكتور منصور فهمي باشا، والدكتور زكي نجيب محمود، ومحمد عبد الغني حسن، وحسن كامل الصيرفي، والدكتور إبراهيم بيومي مدكور والدكتور أحمد شوكت الشطي، وساطع الحصري حبيب جاماتي بشر فارس وطاهر الطناحي، وما شئت من أسماء الأدباء والعلماء الذين رأوا في سفارة الأمير الشهابي سفارة أدب وعلم ولغة وتراث ومصطلحات، لا سفارة احتراف سياسي.

ولا بأس أن أذكر أنني شننت حملة شديدة على أديب الشيشكلي الذي كان

الأمير الشهابي يمثله في مصر، وتوقعت أن تنشأ بيني وبين الأمير جفوة بسبب هذه الحملة. ولكنه لا بعث إلي برد عنيف على كلامي، ولا قاطعني، بل انتهز أول فرصة اجتمعنا فيها ليقول لي: طبعاً قرأت فصولك، وقرأتها بروح العالم لا باحتراف السياسي. فدعني أهنئك عليها لأنني لم أجد في منطقك مأخذاً أعيبه عليك، ولا وجدت في القيم والمثليات التي تدين بها ما أخالفك فيه. ولكنني أحب أن تعرف أن مهمتي الأولى هي إنشاء علاقات بين سورية ومصر أعمق من أن تتأثر بالأشخاص، فنحن قوميون، ولساننا عربي، ووجداننا واحد، وتراثنا مشترك، ومصالحنا مترابطة، وماضينا ومستقبلنا وحاضرنا واحد. فانظر إلى أمة العرب هذه النظرة العميقة، ودعك من الشيشكلي ومن سواه، بل دعك مني أنا شخصياً لأننا كلنا ماضون وتبقى أمة العرب من بعدنا.

وعجبت من هذا المسلك من جانب الأمير الشهابي، ولكن عجبي زال حين أيقنت أن هذا الرجل صاحب رسالة وليس مجرد شاغل وظيفة، وأنه يعمل بوحي من إيمانه وضميره وخلقه، ولا يتصرف بناء على تعليمات مقررة صدرت إليه لينفذها تنفيذاً حرفياً أعمى.

وقد استيقنت من هذه الروح القومية المتأججة في صدر الأمير حين أخبرني أنه يعد محاضرات عن القومية العربية لإلقائها في معهد الدراسات والبحوث العربية بدعوة من عميده ساطع الحصري، ثم رجاني أن أنقل له في كراسة ما كتبه جورج أنطونيوس (زوج الأخت العزيزة كيتي أنطونيوس كريمة فارس باشا نمر، التي توفيت في ٤ ديسمبر ١٩٨٤) عن ناصيف اليازجي وبطرس البستاني ونجيب عازوري وغيرهم من النصارى الذين كان لهم إسهام في إيقاظ العرب. وكنت أعرف أن كتاب «يقظة العرب» لأنطونيوس ترجم إلى العربية بقلم الركابي قبل أن تصدر له ترجمة ثانية بقلم الدكتورين إحسان عباس وناصر الدين الأسد، ولكن قدر لهاتين الترجمتين ألا تعرضاً في مكتبات القاهرة. فنقلت للأمير الشهابي المادة التي أعوزته لأن لغته الإنكليزية لم تكن تساعفه كما تساعفه الإفرنسية والتركية. وعرضت لي أثناء الترجمة واقعة جرت في عام ١٨٨٠ حين قام الثوار العرب بطبع لافتات، كانت إحداها تحمل صور سيف مسلول كتب تحته بيت من الشعر نقله أنطونيوس من العربية إلى الإنكليزية دون أن يشير إلى صاحبه. وحاولت جهدي البحث عن نص هذا البيت فأعيتني الحيلة، وعندئذٍ اقتصرت على

ترجمة معناه قائلاً أن مؤدى البيت هو «بالسيف تدرك المرامي البعيدة، فتوسلوا به إن أردتم النجاح». ولما قرأ الأمير الشهابي هذه العبارة ارتجل هذا المعنى شعراً قائلاً:

عَلَيْكَ بِحَدِّ السَّيْفِ إِنْ رُمْتَ مَطْلباً فَبِالسَّيْفِ لا الأَقْوَالِ نَيْلُ المَطَالِبِ

على أنني في تاريخ تال اهتديت إلى النص الأصلي للبيت وهو:

لَنَطْلُبَنَّ بِحَدِّ السَّيْفِ مَأْرُبَنَا فَلَنْ يَخِيْبَ لَنَا فِيْ جَنْبِهِ أَرَبُ

ومع أن جهدي في ترجمة هذه الفقرات كان جهداً ثانوياً، فقد حرص الأمير مصطفى الشهابي بخلق العالم المكين على الإشادة بي في محاضراته حين صدرت في كتاب مستقل عن معهدِ الدراسات التابع للجامعة العربية. ولم يكتف بذلك، بل أشار علي بترجمة كتاب أنطونيوس إعجاباً منه بأسلوبي في نقل بضع صفحات منه، فشكرت له تشجيعه، وتركت هذه المهمة للظروف.

وبانتهاء العمل الرسمي للأمير الشهابي محالاً إلى التقاعد، عاد إلى سورية، ولكن رسائله تواصلت وتواترت، وزاد عليها ما استهداني إياه من كتب مجمع دمشق ومجلته، وما كان يرد إليه من كتب مكررة أو باللغة الإنكليزية. وكنت من ناحيتي أعرف اهتمامه الأول بعلوم الزراعة والأحياء وبالمصطلحات في كل فن، فكنت أوافيه بكل ما يقع تحت يدي من كتب أو معاجم أو قوائم اصطلاحية يعنيه أمرها. فإذا حل الشتاء من كل عام، جاء الأمير إلى القاهرة ليشهد مؤتمر المجمع، ثم ليتفرغ لمهام علمية مختلفة. وفي شتاءات القاهرة طبع الطبعة الثانية لمعجمه الزراعي الكبير، وطبع كتاباً ذا جزءين عن الاستعمار، وطبع كتاب «القومية العربية» مرتين، وطبع كتاب «المصطلحات العلمية واللغة العربية» وشارك في جميع مناقشات مجمع اللغة العربية، ولا سيما عند التصدي للمصطلحات الجديدة في العلوم وشؤون الحضارة. وما زالت عندي مضابط المجمع، وعليها ملاحظات بخط يد الأمير الشهابي تنطق بسعة آفاقه وولعه المفرط بالمصطلحات وأصول اشتقاقها واستعمالاتهافي القديم والحديث. وهو ولع جعله يبحث عن جديد المصطلحات حتى في الرسائل الشخصية التي يرتجلها أصحابها. فقد فوجئت وأنا أطالع البحث الرئيسي المدرج في عدد أكتوبر ١٩٦٢ من مجلة المجمع بعنوان «ألفاظ الحياة العامة ومعجم الحضارة لمؤلفه محمود تيمور» بأن

الأمير الشهابي جعل لبحثه هامشاً نقل فيه بالتزكية والإعجاب ثلاث ألفاظ وردت ارتجالاً في رسالة خاصة بعثت بها إليه، وهي «المهاتفة» بمعنى المحادثة التليفونية، و«مقال الصدر» للمقال الافتتاحي، و«المحرزات» بمعنى المنجزات العقلية أو الحضارية. ولما عاتبت الأمير الشهابي لأنه ينقل كلامي الدارج الوارد في رسالة مرتجلة إلى أعرق مجلة مجمعية في العالم العربي، قال لي: إن واجبي الأول كعالم أن أرصد كل ما يخدم حياتنا العلمية، وأن أسجله منسوباً إلى مصدره. وعلى هذا العرف جرى الأمير، فأشار إليَّ في كثير من مقالاته، وعقد علي فصولاً خاصة غير مرة، بل اكتشفت بعد وفاته أنه ذكرني في الطبعة الثانية من كتاب «المصطلحات العلمية في اللغة العربية» ولم أكن قرأت إلا طبعته الأولى.

ولئن كان في كثير مما استطرد إليه القلم حديث شخصي يلبسني تهمة الأنانية والذاتية، فلم يكن لي من هذا ملاذ، وإنما أوردته برهاناً على خلق علمي أصيل تمكن من الأمير الشهابي، ولعله رأى في بعض جهدي ما يدعو إلى التشجيع، فلم يبخل علي به، بل لعله كان في تشجيعه شديد الغلو والسَرف.

وعند انتخاب الأمير الشهابي رئيساً للمجمع الدمشقي خلفاً للعلامة خليل مردم بك، فوجئت بكتاب رسمي من المجمع موقع عليه من أمين سره الأمير جعفر الحسني مؤاده أن المجمع قرر إهدائي مجلته وجميع مطبوعاته لمزايا توسّمها فيَّ. وبادرت بالكتابة إلى الأمير مصطفى الشهابي شاكراً ومعاتباً. فقلت له: أخشى ما أخشاه أن يقال عنك أنك تبدد أموال المجمع وتهدي مطبوعاته إلى من لا يستحقون. فكان جوابه: أما الاستحقاق فاترك لنا نحن تقديره. ثم اعرف أنني أجعل من خزانة كتبك فرعاً من خزانتي الخاصة في دمشق، ومتى جئتكم في الشتاء، وأعوزتني كتب مجمعية، كنت لي مسعفاً بها، وما أكثر ما كان يستعير كتبي في رحلة الشتاء، فإن ردها بعد الفراغ منها، كانت في صفحاتها ملاحظات بخط يده تشهد له بدقة المطالعة وعمق الفهم والاستيعاب والتبصر.

ولما صدرت الطبعة الثانية من معجمه الزراعي مطبوعة في القاهرة في مطبعة مصر بإشراف اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية، زارني الشهابي العظيم في منزلي وأهداني النسخة الرابعة من هذا المعجم قائلاً: النسخة الأولى كانت من نصيب عبد الخالق حسونة باشا الأمين العام للجامعة، والنسخة الثانية للدكتور طه

حسين رئيس اللجنة الثقافية، والنسخة الثالثة لعزيز أباظة باشا رئيس مجلس إدارة مطبعة مصر. أما النسخة الرابعة فأهديكها عربون صداقة أياً كانت صفتك. ولما اعترضت على الأمير الشهابي لأن هناك من هو أحق مني بهذه الهدية، خرج من حلمه المعهود قائلاً: لا تنس أنني عالم وأديب، وأن عندي موازيني الخاصة التي أزن بها الناس. فلا تتدخل في شؤوني، ودعني أتصرف في كتبي وفق هواي.

ولكنني عدت فقلت له: إذن، فاسمح لي أن أستهديك نسخة من المعجم لصديقنا سلامة موسى، فهو عالم وأديب وصحفي، ولمثله ينبغي أن يهدي كتابك، فناولني نسخة من معجمه لسلامة موسى الذي عقد عليه فصلاً موجزاً ولكنه شديد التبصر، ونشره في «الأخبار» القاهرية.

ولما صدر كتابا «القومية العربية» و«الاستعمار» كنت قد أقسمت يميناً مغلظة بألا أكتب حرفاً واحداً في السياسة، فقد طلقتها طلاقاً نهائياً كفراناً بها، وتبرؤاً من جرائر وعقابيل أصابتني بسببها دون ذنب. فقلت للأمير الشهابي: إنني أقبل كتابيك على العين والرأس، ولكن اعذرني إن رأيتني أودعهما خزانة الكتب دون قراءة ودون تقريظ. ولم يعتبر كلامي هذا انتقاصاً لجهده، ولا استخفافاً بعمله، بل عده حقاً مشروعاً لكل أديب وباحث ومفكر في أن يقرأ ما يشاء، ويكتب في ما يشاء من موضوعات دون إلزام، بل دون إحراج. وما زالت يميني المغلظة قائمة إلى يوم الناس هذا، فأجفو المطالعات السياسية، وأجتنب كل حديث أو بحث فيها.

وحتى عندما أصدر صديقنا الراحل الدكتور عبد الرحمن البزاز ـ رحمات الله على سيرته العظيمة ـ كتابه عن «القومية العربية» ورجاني بشخصه أن أشارك في ندوة أقيمت للحديث عن الكتاب، فقد اخترت زاوية «اللغة العربية» دون سواها من الزوايا لأتحدث عن جامعة العرب الكبرى التي توحد ولا تفرق، وتنشر العلم لا الجهل، وتبيت الخير لا الغدر.

وقد عرف الناس الأمير مصطفى الشهابي عالماً نباتياً وفقيهاً في المصطلحات، وأديباً واسع الدراية باللغة العربية وآدابها وفلسفتها، ولكنهم لم يعرفوه شاعراً. وإذا كنت قد أسلفت في هذا الحديث بيتاً أرتجله ليؤدي به معنى منثوراً، فهناك قصائد يطالعها القارئ في محاضراته التي ألقاها في مجمع اللغة

العربية بدمشق، وفي كتابه «الشذرات» نورد منها هنا قوله وهو يودع القاهرة:

أُوَّاهُ يا نَسَماتِ النِّيلِ سَاجِيَةً ... كَمْ ضَمَّكِ الصَّدْرُ شَهّاقاً وزَفَّارَا
وكَمْ تَعَطَّرْتِ بالرَّيْحَانِ وامْتَزَجَتْ ... رَيَّاكِ بالرَّوْضِ أَفْنَاناً وَأَزْهَارَا
ما إنْ نَشَقْتُكِ حتّى خِلْتُ مُنْتَعِشاً ... ماءَ الحياةِ جَرىٰ في الجِسْمِ أَنْهَارَا

وقال في مصر أيضاً:

يا سَاكِنِي مِصْرَ لا تَنْسَوْا مَوَدَّتَنَا ... إنَّ الوَفَاءَ لَكُمْ أَضْحَىٰ لَنَا دِيْنَا
أَنْتُمْ بَنُو عَمِّنَا فَاجْفُوْا بِسَاحِكُمُ ... حَمْرَاءُ بِالشَّرِّ تُغْرِيْكُمْ وتُغْرِيْنَا
الخَلْقُ والخُلْقُ والعَادَاتُ تَجْمَعُنَا ... والدِّيْنُ واللُّغَةُ الفُصْحَى ومَاضِيْنَا

وقد شكوت إلى الأمير الشهابي مرة من أن الراقصات «الموقرات» يمنحن امتيازات ضرائبية بدعوى أنهن يخدمن الفن الرفيع، بينما الأدباء والعلماء والمفكرون لا يمنحون أمثال هذه الإعفاءات لأنهم عاجزون عن خدمة ذلك الفن الرفيع عينه. وقلت للأمير: لو كنت شاعراً لنظمت قصيدة مطلعها «ليتني كنت هزاز ردف»!!

فجاوبني الأمير برسالة فكهة قال فيها: إنه عرض كلامي على بعض جلسائه، فنظم أحدهم ـ ولم يذكر اسمه ـ هذه الأبيات (وأنا أستعيدها من الذاكرة، وأرجح أن تحريفاً وقع فيها):

لَيْتَنِي في النِجَادِ هَزَّازُ رِدْفٍ ... أُتْقِنُ الرَّقْصَ بَيْنَ عُوْدٍ وَدُفٍّ
يُغَرِّمُ الأَلْفَ صاحِبُ القَلَمِ الحُرِّ ... ويُعْفَى الرَّقَّاصُ مِنْ دَفْعِ أَلْفِ
هكذا يُصْبِحُ الأَدِيْبُ ويُمْسِي ... فِي نَطَاقِ الجُهَّالِ صَاحِبَ رِدْفِ

وكتب لي في إحدى رسائله بأنه أوصى بأن ينقش على قبره هذا البيت:

أُمُّ اللُّغَاتِ قَضَيْتُ العُمْرَ أَخْدُمُهَا ... فَهِيَ الشَّفِيْعَةُ في غُفْرَانِ زَلّاتِي

وقد فهمت من كتاب صديقنا الدكتور عدنان الخطيب أن هذا البيت قد نقش فعلاً على ضريح الأمير العظيم، وفيه اختصار مركّز للرسالة التي عاش الشهابي يخدمها ويؤديها حتى انتهت حياته والقلم في يمينه.

ومما حدثني فيه الأمير الشهابي غير مرة أن من أكبر المهام التي ينبغي للمجامع الاضطلاع بها تربية أجيال متلاحقة من العلماء تحمل رسالة العلم

وتنقلها إلى الأجيال التالية. وأن أكبر خطأ تقع فيه المجامع هو أن يقال عن أعضائها أنهم لا يستخلفون. وتطبيقاً لهذه النظرية البعيدة الرؤى، جرى الأمير الشهابي على تطعيم مجمع دمشق بدم جديد من شباب العلماء، فدخل المجمع شبان من أمثال الدكتور عدنان الخطيب، والدكتور شكري فيصل، فكانا من العمد الرئيسية التي تنهض عليها رسالة المجمّع الدمشقي. ومن قبل عين العلامة محمد كرد علي العلامة محمد بهجة الأثري عضواً في مجمع دمشق وعمره ٢٨ عاماً.

ولا بد من الإقرار هنا بأن من آيات الأمير الشهابي الجليل أنه أنشأ مودة وثقى بيني وبين الدكتور عدنان الخطيب، فعرفت في هذا الرجل النبيل كيف يكون التواضع مع الكبرياء، وكيف يكون الوفاء مع الإنصاف والبذل، وكيف تكون الأريحيات طبيعة في النفس.

وما كان الأمير الشهابي في حاجة إلى من ينبهه إلى واجبه المجمعي، ولكنني ـ بصعلكتي التقليدية ـ انتهزت فرصة استمتاعي بمودته وثقته، واستغللت فتحه صدره لي، فقلت له في بعض رسائلي: إنني لأدهش كيف أن المجامع القائمة لا تضم إلى عضويتها رجالاً باذخي الفضل مثل فؤاد صروف ومحمد جميل بيهم ونظير زيتون ومحمد عبد الله عنان. فما كان من الأمير الشهابي إلا أن استصدر من مجمع دمشق قراراً بتزكية انتخاب الثلاثة الأول لعضوية المجمع الموحد تاركاً لمجمع مصر ترشيح العضو المصري. ففاز صروف ونظير زيتون بالعضوية، ولكنها سرعان ما «طارت» منهما بطيران الوحدة!

وكنت أعرف عن الأمير الشهابي إعجابه الشديد بعباس محمود العقاد وإشادته به في كثير من أحاديثه الخاصة والعامة وكتاباته هنا وهناك. ولكنني حين راجعت القوائم الخاصة بالفصول التي كتبت عن الأمير الشهابي بأقلام أدباء عصره، لم أقع على شيء للعقاد. وكنت أزور العقاد فسألته لم لم يكتب شيئاً عن الأمير الشهابي، فقال: بل سأكتب. قلت له: لقد صدر للشهابي معجم جديد في المصطلحات الحراجية، فلم لا تكتب عنه؟ فقال: أعرني نسختك يومين اثنين، وسترى رأيي فيه، واستعار العقاد نسختي، وبعد يومين كان مقال العقاد عن هذا المعجم بين يدي، وهو مقال قرأه باغتباط وشكران الأمير الشهابي مقراً للعقاد بموسوعية ذهنية هي والعبقرية ندان. ولم أسترد نسختي من هذا المعجم من العقاد إلا بعد أن قدمت إليه نسخة ممهورة بإمضاء مصنفه.

وقد أسدى الدكتور عدنان الخطيب خدمة جلى للباحثين بالكتاب الذي أصدره عن الأمير مصطفى الشهابي، وبالقوائم التي أوردها مشتملة على بحوث الأمير ومحاضراته ودراساته. وقد راجعت هذه القوائم، فوجدتها أغفلت ما كتبه الأمير الشهابي في تقريظ الكتب، وهي فصول كثيرة. كما لاحظت أن القوائم تخلو من ثبت بالدراسات التي كتبت عن الأمير الشهابي وعن كتبه المختلفة، وهي بدورها كثيرة. وهذه وتلك ينبغي ضمهما إلى أي طبعة جديدة تصدر من هذا الكتاب.

وكان الشهابي العظيم قد أخبرني أن في نيته إصدار مجلدات متعاقبة من كتابه «الشذرات» تضم الفصول المختلفة التي كتبها في الأدب واللغة والمصطلحات والشؤون الجارية. وليس من المستعصي جمع هذه الفصول المختلفة التي كتبها في الأدب واللغة والمصطلحات مندرجة في مجلات رصينة مثل المقتطف والهلال ومجلة مجمع دمشق ومجمع القاهرة، وكلها غير بعيدة التناول. فعسى أن ترى هذه المجلدات النور لفائدة قراء الضاد في كل مكان.

إن الأمير مصطفى الشهابي الذي أولاني من محبته وأخوته وعطفه وتشجيعه وبره ما يعيش في كياني ووجداني إلى آخر الدهر، رسول عظيم من رسل الضاد. وحسبه أنه لما عين محافظاً لحلب، أنشأ فيها مكتبة وطنية، فلما عين محافظاً للاذقية أنشأ داراً للكتب كبيرة، فلما أدركته منيته، أهدى مكتبته وأوراقه الخاصة إلى المكتبة الظاهرية في دمشق.

هذه لمحات، مجرد لمحات، من حياة الأمير الشهابي، لا تدل على علمه، فعلمه مدون في معاجمه وكتبه وبحوثه، ولكنها تدل على خلقه كأشرف الشرفاء في كل عصر ومصر.

❁ ❁ ❁

الآنسة مي

كنت في عام ١٩٤١ ما زلت طالباً بمعهد الصحافة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، وكنتُ رئيساً لتحرير مجلة الطلبة الأسبوعية واسمها «القافلة». وفي يوم ٢٠ يناير (كانون الثاني) من تلك السنة، سألني مدير قسم الخدمة العامة بالجامعة إن كان في وسعي أن أشارك في تنظيم استقبال الجمهور في القاعة الشرقية بالجامعة لأن الآنسة مي ستلقي محاضرة في مساء ذلك اليوم، والمتوقع أن يشهدها جمهور غفير بعدما كان أشيع وأذيع من أنها لم تعد تسيطر على قواها العقلية، وأنها قضت نحو عام في مستشفيات للأمراض العصبية في لبنان. فقلت له: إنني كنت أود أن أضطلع بهذه المهمة لشدة شوقي إلى رؤية مي للمرة الأولى في حياتي، لولا أن امتحاناً ينتظرني في اليوم التالي، وعليّ أن أتأهب له بالسهر على كتبي ومذكراتي. وهكذا ضاعت عليّ الفرصة الوحيدة لرؤية مي في هذا الموقف الخطابي الحاشد. ولكنني كلفت زميلاً لي من محرري «القافلة» بأن يشهد المحاضرة، ويكتب عنها خبراً لجريدتنا الجامعية، فكتب ما نصه:

«عش في خطر» للأنسة مي: الدنيا كلها خطر، وتاريخها حافل بالأخطار، لذا يجب على المرء ألّا يخشى الخطر في هذه الحياة، كما قالت الآنسة مي في محاضرتها «عش في خطر» التي ألقتها يوم الاثنين ٢٠ يناير (كانون الثاني) الساعة ٥:٣٠ بالقاعة الشرقية. ولقد حضر هذه المحاضرة عدد غفير أعجب بسحر الآنسة مي في تسلّطها على مسامعهم، وتملّك شعورهم بطريقتها المدهشة في الإلقاء. كانت تضربُ الأمثال من صميم الحياة على مقاومة الخطر وتدرجّه حتى أصبح في حضارتنا الراهنة شيئاً عادياً، قائلة: إننا لا نتصوّر مقدار ما عاناه الإنسان الأول من البسالة في الإقدام على ركوب الحمار لأول مرّة، ولكنه الآن يركب القطار والسيارة والباخرة فالطائرة دون أن يفكر في أي خطر».

وكانت مي قبل عودتها النهائية من بيروت بعد تجربة السجن في

المستشفيات قد ألقت محاضرة في قاعة «وست هول» بجامعة بيروت الأميركية وكان عنوانها «رسالة الأديب إلى العالم العربي» وقوبلت المحاضرة بإعجاب شديد من الحشود التي ملأت القاعة.

وقد حاولت في فترة لاحقة أن أبحث عن النص الكامل لهاتين المحاضرتين، وراجعت الصحف والمجلات التي اعتادت مي نشر مقالاتها فيها، فلم أصب في ذلك أي توفيق. ولعلّ الذين بددوا أوراقها بعد وفاتها، بددوا معها هاتين المحاضرتين.

كما أن آخر مقال نشرته مي في حياتها هو مقال عنوانه «تحية الأعياد» ظهر بدوره في نفس شهر يناير (كانون الثاني) ١٩٤١ من مجلة «الطالبة» التي أصدرتها الأديبة منرفا عبيد ـ وهي من أسرة عبيد المعروفة في قنا، والتي خرج منها وزراء سابقون ـ على مدى أكثر من ثلاثين عاماً. والأديبة منرفا التي توفيت في ١٤ يوليو (تموز) ٢٠٠٠ هي الوحيدة التي مدّ الله في عمرها من الذين شافهوا مياً. وكانت تشترك معها في هذه الحظوة شاعرة أبولو جميلة العلايلي التي توفيت في صمت مغيظ في عام ١٩٩١، وهو نفس العام الذي توفيت فيه الأديبة وداد سكاكيني التي أرَّخت لمي وروت بتعاطف كبير سيرة حياتها.

وللمحاضرة الأخيرة لمي قصة قد لا تكون معروفة على نطاق واسع. فعندما استقوى أقرباء مي عليها واستضعفوها واستدرجوها إلى لبنان حيث أودعوها مستشفى العصفورية للأمراض العصبية، قاموا بتوقيع حجر على ممتلكاتها، ولم تكن تزيد على أمتعتها المنزلية الشخصية، وعلى أموالها، ولم تكن تزيد على بضعة آلاف من الجنيهات. وظل هذا الحجر قائماً يحول بين مي وبين التصرف في مالها وأشيائها عند عودتها إلى مصر من رحلة الشقاء في مستشفى العصفورية وفي مستشفيين آخرين. ومع أن مياً كانت تستقبل في بيتها أعلام الفكر والأدب في عصرها، فقد عزّ عليها أن تلقى منهم شيئاً من الجحود عند عودتها، فقاطعتهم جميعاً، وأنشأت علاقات مع غيرهم من الذين لم يصدّقوا ما قيل عن التياث عقلها. وكان من هؤلاء الأصدقاء الجدد مصطفى مرعي بك (١٩٠٢ ـ ١٩٨٧) المحامي الذي أصبح بعد ذلك رئيساً لهيئة قضايا الحكومة، وعضواً في مجلس الشيوخ، وعضواً في مجمع القاهرة والسيدة قرينته. ورغب مصطفى مرعي بك في إنقاذ مي من كابوس الحجر، فقدم إليها أوراقاً أقنعها بالتوقيع عليها لمصلحتها،

فرقعتها دون أن تدري بأن هذه الأوراق هي توكيل رسمي منها له لإقامة دعوى لرفع الحجر عن أصولها المادية. وخشي مرعي بك أن يطول أمر القضية إذا ما قدّم للمحكمة تقارير طبية تُحال إلى خبير لفحصها، أو إذا ما قرر القاضي عرض مي على الأطباء لتحديد مدى تحكمها في قواها العقلية مع ما في ذلك من تعذيب نفسي لميّ. فاتصل بمدير قسم الخدمة العامة بالجامعة الأمريكية، وعرض عليه أن يدعو مياً لإلقاء محاضرة ضمن برنامج المحاضرات العامة التي كان القسم ينظمها على مدار السنة. فرحب بالفكرة، ورحبت مي بتلبية الدعوة. وأشار مرعي بك على مدير قسم الخدمة العامة بأن يوجه دعوةً إلى القاضي الذي ينظر قضية مي ليسمع بنفسه هذه المحاضرة، فلبى القاضي الدعوة، وكان أشدّ الحاضرين تتبعاً للخطيبة وهي تلقي محاضرتها. وعند انصرافه قال: «أهذه مجنونة؟ إنها أعقل مني». وفي أول جلسة تالية قضى بإلغاء الحجر الجائر الذي عانت منه ميّ أشدّ عناء، ولكنها لم تهنأ طويلاً بحياتها لأن عمرها انقصف في شهر أكتوبر (تشرين الأول) من نفس هذا العام، وكانت وقتها في الخامسة والخمسين من العمر.

ومن الحكايات التي وقفت عليها عن مي أنها لاحظت أن الدكتور طه حسين (١٨٨٩ ـ ١٩٧٣) استقبل أربعة دواوين جديدة صدرت في عام ١٩٣٤ استقبالاً متفاوتاً. ففي حين امتدح في «حديث الأربعاء» الذي كان ينشره في جريدة «الوادي» ديوان «الملاح التائه» لعلي محمود طه (١٩٠٢ ـ ١٩٤٩)، وفي حين تناول بترحيب معتدل ديوان «على بساط الريح» للشاعر المهجري فوزي المعلوف (١٨٩٩ ـ ١٩٣٠)، فقد قسا قسوة شديدة على الشاعرين إبراهيم ناجي (١٨٩٩ ـ ١٩٥٣) ومحمود أبي الوفا (١٩٠١ ـ ١٩٧٩)، وقال: إن شعر ناجي في ديوان «وراء الغمام» يشبه موسيقى الحجرة، وقال عن شعر أبي الوفا في ديوانه «أنفاس محترقة» بأنه نظم خال من الشاعرية. وعزّ على ميّ أن يعامل أبو الوفا، وهو بسيط الحال مبتور الساق، بهذه القسوة على الرغم من أن كاتب مقدمة الديوان فؤاد صروف (١٩٠٠ ـ ١٩٨٥) قال: إن شاعرية الشاعر «اجتمع فيها التفكير عميقاً صافياً، والخيال جريئاً وثاباً، والشعور متأججاً صادقاً في ألفاظ كأنها في معانيها ومبانيها وجرسها ومواقعها آيات التنزيل» وقال: إن هذه هي «سماحة القريحة».

فدعت مي كلاً من الدكتور طه حسين وفؤاد صروف إلى بيتها. فوصل طه حسين مبكراً، وصحبته إلى شرفة المنزل. وكان لم يزل شديد الضيق والضجر بسبب فصله من الجامعة. ولم يكد يجلس في مقعده حتى انقبضت عضلات وجهه، وأخذ يتأفف ويعيد التأفف في نقمة على الذين أبعدوه عن كلية الآداب. ولمّا تكرر منه ذلك، أرادت ميّ أن تسرّي عنه، فرددت على مسامعه قول الشاعر:

أُحِبُّ أَضْحَكُ لِلدُّنْيَا فَيَمْنَعُنِي أنْ عاقَبَتْنِي عَلَىٰ بَعْضِ ابْتِسَامَاتِي

فوجم طه حسين، ثم سأل ماذا قلت؟

فأعادت رواية البيت.

فسألها: لمن هذا الشعر، فلم يعرض لي من قبل؟

فقالت: لواحدٍ من الشعراء، والشعراء كثيرون نحفظ شعرهم وننسى أسماءهم.

فألحّ طه حسين في معرفة قائل هذا البيت الجميل الذي وقع من نفسه موقعاً جميلاً.

فقالت مي: إنه لمحمود أبي الوفا.

واربدّ وجه طه حسين حين سمع اسم الشاعر الذي قسا عليه قسوة جائرة، وحدّث نفسه قائلاً: تُرى ماذا يقول الناس عني لو نقلت إليهم هذه الواقعة، وهم الذين قرأوا أحكامي العنيفة على هذا الشاعر؟

وطلب من ميّ كتمان هذا الأمر، ولا سيما عن الشاعر نفسه.

ولكن ميّاً قالت: بشرط ألّا أكتمه عن فؤاد صرّوف الذي كتب مقدمة الديوان، ولم يسلم بدوره من انتقادك له.

وفي هذه اللحظة، دقّ جرس الباب، وكان صرّوف هذا الطارق، وانضم إلى مجلس الشرفة، وأخذت مي تروي له ما وقع مستأذنةً في ذلك طه حسين.

وحكاية أخرى عن مي كنت من الشاهدين عليها. فقد أشرتُ على أستاذنا عباس محمود العقاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤) أن يخص مجلة «قافلة الزيت» التي كنت أمثلها في القاهرة بمثالٍ عنوانه «موضوعي، وكيف أختاره» فرحّب العقاد بذلك،

وأعدّ مقالاً روى فيه منهاجه في اختيار الموضوعات التي يتناولها في كتبه ومقالاته. وكانت في المقال فقرة عن الآنسة مي، ولكن محرر المجلة ارتأى حذفها على طرافتها وأهميتها. وقد جاء فيها قول العقاد: «ولا حرج من الاعتراف بأسلوبٍ من أساليب الاختيار، لم يخطر على بال أحدٍ من قراء الصحافة السياسية في ذلك الحين. فقد كتبنا أعنف المقالات في الحملة على بعض الطغاة المرهوبين (يقصد عبد الخالق ثروت باشا ١٨٨٣ ١٩٢٨) لأننا كنا على ثقةٍ ـ بعد كل حملة ـ من دق الهاتف والاستماع إلى صوت إحدى الأديبات الناصحات بالتقية والتخفيف. فإذا طال العهد بالاستماع إلى ذلك الصوت، فالمقالة الأولى على أشدّها وأقساها، تصيب الطاغية الذي اشتهر بالنقمة العاجلة بين زمرته القابضين على زمام الأمور. وقد يكون حقيقاً بها وبما هو أشدّ منها، ولكنه لا ينال حقه كله في جميع الأوقات رعاية للنصيحة المشكورة على كرهٍ منّا، ثم تحين الفرصة في كل لحظة نريدها لتوفية الرجل حقه، وانتظار الهاتف الذي طال به عهدُ الانتظار».

ومي هي صاحبة هذا الهاتف.

وقد ذهب كثيرون في تعليل الحياة العاطفية لمي مذاهب شتّى، ربطوا بين قلبها وقلوب عددٍ من روّاد صالونها وبجبران خليل جبران (١٨٨٣ ـ ١٩٣١) على وجه التحديد. ولعلّ ما أفضت به مي نفسها إلى محمد لطفي جمعة (١٨٨٦ ـ ١٩٥٣) (في مذكراته التي نشرها نجله رابح) ما يفسّر إعراضها عن التجاوب مع عبارات الحبّ التي كانت تسمعها والتي امتلأت بها ثلاثة من كتب مصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠ ـ ١٩٣٧). فقد روى لطفي جمعة عنها أنها أسرّت إليه بقولها: «لا تنس تأثير البيئة والتربية التي تنشأ فيها المرأة أو الفتاة منّا، فقد دخلتُ وأنا طفلة في حوالي الخامسة أو السادسة من عمري مدرسة الراهبات اليوسفيات، ثم انتقلت إلى مدرسة الراهبات العذراوات في بيروت، وشدّتني حياة الراهبات في هاتين المدرستيْن وفي الأديرة التي زرتها في فلسطين وعينطورا في لبنان. لذلك تجدني، وأنا وحيدة أبوي، وقد أوشكت على بلوغ الثلاثين، عازفة عن الزواج معرضة عمن تقدّم إلى خطبتي، وقد تقدّم كثيرون». ويقول لطفي جمعة: إنه «تغلغل مع الآنسة في نفسها، فلم تخفِ عنّي أدق أسرارها، والخلاصة أنها تنظر إلى الفعل الجنسي وتعتبره قذارة مادّية، وهي شديدة الحساسية للجمال».

وإذا كان جبران قد حظي من مي بعشرات من الرسائل التي لا تخلو من إعجاب مهذّب بأدبه وشخصه، حتى قيل إنه الحب الوحيد في حياتها، فإن مما يثير الدهشة أن سيرة جبران التي سجلها ملازمه مخائيل نعيمة (١٨٨٩ ـ ١٩٨٨) قد خلت تماماً من أي إشارة إلى مي أو إلى رسائلها، وإن كانت قد عمرت بأحاديث عن مغامرات جبران العاطفية، برغم إصابته بالسل هو وكل أشقائه، سواء في نيويورك ـ ولا سيما مع ماري هسكل التي كانت تنفق عليه والتي بعثت به على نفقتها إلى باريس لدراسة الفن هناك ـ أو في عاصمة النور حيث كان جبران مشغولاً عاطفياً عن مي. وهي لم تسع إلى لقائه في باريس مع أنها كانت كثيرة السفر إلى أوربة.

وأقول بين عضادتين إن ميخائيل نعيمة كان يغار من جبران، وقيل إنه دوّن سيرة حياته لكي ينفي عنه صفات السموّ التي ألصقت به بفضل كتابه «النبي» الذي ترجم إلى معظم لغات العالم، والذي يعتبر أروج كتاب لأديب عربي في التاريخ كله بشهادة منظمة اليونسكو. وقد حاول نعيمة محاكاة جبران، فأصدر كتاب «مرداد» باللغتين العربية والإنكليزية على أمل أن يصادف من الرواج والحفاوة مثل ما صادفه كتاب «النبي»، ولكنه قصر عن بلوغ هذه الغاية.

أما مصطفى صادق الرافعي، فقد استولى عليه وهم كبير وهو أن ميّاً مولهة في حبه. ويروي عنه تلميذه الشيخ محمود أبو رية (١٨٨٩ ـ ١٩٧٠) أنه كان في صحبته ذات يوم في طنطا، «فجاءت جريدة الأهرام وفيها مقال للأنسة مي وردت فيه عبارة من كلام لها سبق نشره. فقرأه بشغف، ثم التفت إليّ وقال بلهفة: انظر يا أبا ريّة، ووضع إصبعه على عبارة من المقال: إن هذه الكلمة العابرة لم تكن في الأصل، وإنما وُضعت هنا كأنها رسالة لي منها. ومن ثمّ عرفت أن الآنسة مي كانت تحمل لي حباً، ولكنها تتلطف في إبدائه، وإن كانت تتحرج عن إظهاره للناس».

ويضيف الشيخ أبو رية قوله: «ومما أقرره هنا أن الرافعي ذكر لي أنه استشار السيدة الكريمة زوجته في حبه لمي حتى لا يمسّ بهذا الحب الطاهر أمانة الزوجة الوثيقة».

والرافعي كان كاتباً وشاعراً عظيماً، ولكن احتمال وقوع مي في هواه

مستبعد جداً، لأنه كان يعمل في وظيفة متواضعة هي وظيفة كاتب في محكمة طنطا يتقاضى حفنة من الجينهات في كل شهر، فلمّا جاءته علاوة مقدارها خمسون قرشاً كاد صوابه يطير. ثم إن الرافعي كان أصمّ، وقد أخبرني أستاذي فؤاد صرّوف أنه لمّا خلف عمه الدكتور يعقوب صرّوف (١٨٥٢ ـ ١٩٢٧) في رياسة تحرير «المقتطف» كان إذا ما زاره الرافعي يتبادل الحديث معه بوريقات. فيدوّن الرافعي كلامه على وريقة، ويرّد صروف على وريقة أخرى، وهكذا دواليك إلى أن تنتهي الزيارة لأن صممه كان مطبقاً.

ومع ما توهمه الرافعي من أن مياً كانت تحبّه فقد كان يغار منها وليس عليها! فقد لاحظ الرافعي أن الدكتور يعقوب صرّوف يقدّم مقالات مي على مقالاته في «المقتطف»، وكان يعتقد أن مقالاته أجدر بالتقديم. فلمّا ضجر من تكرار هذا الأمر، فاتح فيه محرر المقتطف الذي أوضح له أن ترتيب المقالات يراعى فيه زمن ورودها إلى يديه، كما قال إنه يعرف أن كثيرين من الذين لهم الكعب الأعلى في الإنشاء يجلّون قدر مي ويمدحونها بالكلام والكتابة «وقد رأيت إسماعيل باشا صبري (١٨٥٤ ـ ١٩٢٣) يقبل يدها في بيتي».

وعندما فرغ الرافعي من إعداد كتابه «أوراق الورد» لمناجاة مي، وصف هذا الكتاب بأنه «كتاب الشيطانة»!.

وقد اشتهر صالون مي الذي كانت تعقده في بيتها مساء كل يوم ثلاثاء فيؤمه الأعلام من المفكرين فمنهم الدارويني شبلي شميل، والعلماني يعقوب صروف ورجال الدين مثل الشيخ محمد رشيد رضا صاحب «المنار» والشيخ مصطفى عبد الرزاق، ومنهم أصحاب الرتب وأصحاب الجاه وكذلك مَنْ لا عهد لهم بحياة الصالونات وطقوسها مثل إبراهيم عبد القادر المازني. ومع كثرة ما كتب عن هذا الصالون إلّا أن المناقشات والمساجلات التي كانت تجري فيه والتي كانت مي تديرها باقتدار و«عودتنا ههنا فصل الخطاب» بتعبير العقاد، لم تسجّل، ولا اهتمت صحف ذلك العهد بوصف ما كان يدور فيها. ولعلّ السبب في ذلك أن هذا الصالون لم تكن الغاية منه إعلامية دعائية، وإنما كان منتدى لمناقشة قضايا الأدب والفكر والعلم في جدٍّ حميم. ثم إن آلات التسجيل لم تكن معروفة في ذلك الوقت لتسجّل ولو جلسة واحدة من جلسات الصالون، فضاعت آثاره، ولم تبق منها إلّا إشارات هنا وهنالك في مؤلفات الباحثين في سيرة مي.

رحم الله هذه الأديبة المتفرّدة التي ملأت الدنيا وشغلت الناس حتى يومنا هذا، فاستدرّت إعجاب من عرفوها ودموعهم، واقتطع العقاد من مهجته عبارات رثى بها ميّاً قائلاً:

شِيَمٌ غُرٌّ رَضِيَّاتٌ عِذَابْ وحِجَى يَنْفُذُ بالرَّأي الصَّوَابْ
وَذَكَاءٌ أَلْمَعِيٌّ كالشِّهَابْ وجَمَالٌ قُدُسِيٌّ لا يُعَابْ
كُلُّ هذا في التُّرابِ، آهِ مِنْ هذا التُّرَابْ

❁ ❁ ❁

صالون مي وشهادات روّاده

لم تُتح لي الظروف غشان صالون مي أو الالتقاء بصاحبته لأنني كنت ما زلت إذ ذاك طالباً في مراحل التعليم المختلفة. فإنْ كان قد عزّ عليَّ أن أشافه هذا الصالون، فقد اجتهدتُ في تكوين صورة عنه شبه دقيقة من واقع ما سجّله رواده في أقوالهم وكتاباتهم. ولم تسعفني الصحف القديمة بمشاهدة صورٍ التقطت في هذا الصالون في أي جلسةٍ من جلساته، وما ذلك لأن التصوير كان محظوراً أو كان في بداياته، ولكن لأن ربّة الصالون شاءت أن تسبغ عليه جواً أكاديمياً لا محلّ فيه للتصوير الذي يُراد لأغراضٍ دعائية. بل إن المساجلات والمناقشات التي كانت تجري في صالون مي لم تخرج من بين جدرانه إلى صحافة تلك الأيام، ولا كانت هناك آلات تسجيل يُستعان بها في تسجيل نصوص المناقشات ثم تفريغها ونشرها. وهكذا ضاع ما يمكن أن يعدّ تراثاً ثميناً يمثل زبدة الأفكار والآراء التي طُرحت ونوقشت في صالون مي. ويكاد نفس الشيء ينطبق على ما سبقه من صالونات، أبرزها صالون الأميرة نازلي فاضل (١٨٥٣ ـ ١٩١٣)، وما لحقها من صالونات أبرزها صالون عباس محمود العقّاد.

وليسمح لي القارئ أن أدعوه لمرافقتي في رحلة استكشافية لصالون مي، عسى أن نتصوّر، ولو بالخيال، أننا قد عشنا مع مي في صالونها، واختبرنا ما اختبره رواد الصالون في السويعات التي كانوا يقضونها فيه مساء أيام الثلاثاء من كل أسبوع.

صاحبة الصالون:

وصاحبة الصالون وربّته هي الأديبة مي زيادة (أو ماري زيادة أو إيزيس كوبيا ـ وهو الاسم المستعار الذي نشرت به أوّل كتاب لها). وهي أديبة برزة واسعة الاطلاع، تكتب فصولها بأسلوبٍ فيه تهويمات رومانسية، وتخطب في المحافل، وتجيد العزف على الآلات الموسيقية، وتشنّف الآذن بما تنشده من

أغانٍ شعبية لبنانية، وتجيد عدداً من اللغات، قيل إنها تسع لغات.

وصف طه حسين صوتها بقوله: إنه «اضطرب اضطراباً شديداً، وأرق ليلته تلك. كان الصوت نحيلاً ضئيلاً، وكان عذباً رائعاً، وكان لا يبلغ السمع حتى ينفذ منه في خفّةٍ إلى القلب فيفعل به الأفاعيل»

ووصف الشاعر ولي الدين يكن صاحبة الصالون قائلاً في مخاطبتها: «يا بيتَ القصيد في بدائع القدرة. لا أدري ما أصف. مجلسك الطيب أم صوتك الرخيم أم كلامك العذب؟».

ووصف سلامة موسى ميّاً بأنها «ربعة، مستديرة الوجه، زجّاء الحاجبين، وطفاء الأهداب، دعجاء العينين، يتألق الذكاء في بريقهما، ويجلل وجهها الجميل شعر جثل أسحم، وتلعب أبداً على شفتيها ابتسامة الخفر. وهي أبعد النساء عن الاسترجال، وأشدّهن أنوثة».

ووصفت هي نفسها في رسالةٍ إلى جوليا طعمة دمشقية بقولها: «استحضري فتاةً سمراء كالبنّ، وكالتمر الهندي كما يقول الشعراء، أو كالمسك كما يقول متيّم العامرية، وضعي عليها طابعاً سديمياً من وجدٍ وشوقٍ وذهول وجوع فكري لا يكتفي، وعطشٍ روحيّ لا يرتوي، يرافق أولئك جميعاً استعداد كبير للطرب والسرور، واستعداد أكبر للشجن والألم ـ وهذا هو الغالب دوماً ـ واطلقي على هذا المجموع اسم ميّ، تري مَنْ يساجلك الساعة قلمها».

كيف نشأت فكرة الصالون:

في مساء الخميس الرابع والعشرين من نيسان (إبريل) ١٩١٣، أقيم في الجامعة المصرية القديمة حفل لتكريم الشاعر خليل مطران بمناسبة الإنعام عليه بالوسام المجيدي. وشارك في تكريم مطران عدد كبير من رجال الفكر والشعراء في ذلك الوقت. وبعث الأديب المهجري جبران خليل جبران من مستقره في الولايات المتحدة كلمة لكي تلقى باسمه في هذا المهرجان، فَعُهِدَ إلى مي في إلقائها، وكانت تلك تجربة تخوضها للمرة الأولى، ممّا جعلها تتدرب على الإلقاء في بيتها حتى لا تتهيب الموقف الخطابي. ولمّا ألقت كلمة جبران، بهرت جمهور الحاضرين، وكادت بسحرها تغطي على جميع المتحدثين في هذه المناسبة. كانت هذه هي المواجهة الأولى بين مي وبين جمهور المثقفين، ممّا

أغرى عدداً من قادة الفكر على إبداء رغبتهم في زيارة مي في بيتها. ولم تشأ مي أن تمانع في استقبال أعلام من أمثال الشاعر إسماعيل صبري باشا، والدكتور يعقوب صرّوف محرر المقتطف، وسليم سركيس محرر «مجلة سركيس»، والشاعر خليل مطران، والشاعر ولي الدين يكن وغيرهم. وعرضت على هؤلاء فكرة عقد صالون أسبوعي ينتظمهم جميعاً عوضاً عن هذه الزيارات الفردية، فرحبوا بذلك، وعندئذ وجهت الدعوة إلى روّاد الفكر في عصرها للانتظام في هذه الندوة الأسبوعية اعتباراً من شهر أغسطس (آب) ١٩١٤. وظلت مي تنصب صالونها نحو ربع قرن بانتظام دقيق، لا تخالفه إلّا في رحلاتها الصيفية إلى أوربة.

بيت مي:

كانت مي تقيم في بيت يقع في رقم ٢٨ شارع المغربي الذي أطلق عليه بعد ذلك اسم شارع عدلي وهو اسمه الحالي، ثم انتقلت إلى شقة في عمارة مملوكة لجريدة «الأهرام» في رقم (١) شارع علوي بالقاهرة.

وعندما عملتُ في جريدة «الأهرام» بين عامي ١٩٤٢ و١٩٤٥، نقلت للعمل في مكتب للجريدة يقع في هذه العمارة نفسها، وكانت وكالة اليونايتد برس للأنباء تشغل طابقاً منها.

وقد وصفت مي بيتها عندما دعت إليه حشداً من رجال الفكر في عام ١٩٢٥ لتبادل الآراء حول إقامة مهرجان لمجلة «المقتطف» في عيدها الخمسيني، إذ ظهرت في عام ١٨٧٦ وحلّ موعد المهرجان في عام ١٩٢٦ قبل سنةٍ واحدة من وفاة محرر المجلة الدكتور يعقوب صرّوف في يوليو (تموز) ١٩٢٧. وفي هذا الاجتماع الحاشد، خاطبت مي الحاضرين في بيتها قائلة: «بالإصالة عن نفسي، وبالنيابة عن والديّ، أتشرف أن أرحب بكم في هذا المنزل الصغير، في هذه الغرفة الضيقة بمساحتها، ولكنها الساعة أرحب وأعظم ما تكون بحضوركم فيها، كما أنها نَبُهَتْ بالدور الذي شاءت الأيام أن يُمثَّل بين جدرانها. فكم من اجتماع زاهرٍ عُقد في هذه الغرفة، وكم من مناقشة بين أهل العبقرية من الشرقيين والغربيين حرّكت في هذا الجوّ المحدود رواكد الأزمنة، وكوامن ممّا حجبته الحياة عن الأبصار والبصائر. وكم ذُكرت هنا أسماء كتابنا ومفكرينا، وكم مُحِّصَت هنا آثارهم في الأدب والعلم والاجتماع.

فأنتم الآن إذن في جوكم المألوف، وهو رحيب زاخر بالتيارات الفكرية التي تتعارض فيه وتتلاقى».

وكانت مي تعلّق في صدر صالونها لوحةً نُقشت عليها أبيات للإمام الشافعي، وكأنها دستور للصالون، هي:

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَحْيا سَلِيماً مِنَ الأَذَىٰ ... وَعَيْشُكَ مَوْفُورٌ وَعِرْضُكَ صَيِّنُ
لِسانَكَ لا تَذْكُرْ بِهِ عَوْرَةَ امْرِئٍ ... فَكُلُّكَ عَوْرَاتٌ، وللنَّاسِ أَلْسُنُ
وعَيْنُكَ إِنْ أَبْدَتْ إليكَ مَعَايِباً ... فَصُنْهَا، وقلْ: يا عَيْنَ للنَّاسِ أَعْيُنُ
وعَاشِرْ بِمَعْرُوْفٍ، وسَامِحْ مَنِ اعْتَدَىٰ ... وفَارِقْ، وَلكِنْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

ووصف الشيخ مصطفى عبد الرزاق القاعة التي كانت مي تعقد فيها صالونها في بيتها قائلاً: أما المنتدى نفسه فهو رحب فسيح، تأنقت هي في اختيار أثاثه، وظهر ذوقها السليم في الطُّرف المنثورة في جوانبه، والصور المعلقة على جدرانه والتماثيل القائمة في أركانه.

استقبال روّاد الصالون:

كانت والدة مي السيدة زهرة معمّر ووالدها إلياس زخور زيادة يستقبلان روّاد الصالون، ويرحبّان بهم ريثما توافيهم مي بنفسها لتكرر الحفاوة بضيوفها. وكانت مي تدور عليهم بنفسها بأقداح شراب الورد على طريقة شرقية محبوبة بحيث يشعر الجالس ـ كما قالت صديقتها إيمي خير ـ بأنه في دار شرقية. وكانت تقدم لهم كذلك القهوة والشاي. ثم تجلس إلى البيان لتعزف لهم بعض القطع الموسيقية حتى تسبغ على المكان جوّاً رومانسياً.

روّاد الصالون:

كان صالون ميّ قِبلةً لعدد لا يكاد يحصى من أرباب القلم ومعاقري الفكر ومن الشعراء والباحثين، وقد اجتهدتُ في حصر هؤلاء الروّاد على اختلاف مشاربهم وتوزّع اهتماماتهم، فطالت القائمة، ولكن لا بأس من إثباتها ليعرف الذين قبلوا دعوتي المفتوحة لزيارة صالون مي مَنْ هم جلساؤها.

فمن السيدات هدى شعراوى رائدة تحرير المرأة، وباحثة البادية الشاعرة ملك حفني ناصف وإيمي خير الأديبة باللغة الفرنسية، ونظلة الحكيم زوجة عميد

الفلسفة وعلم النفس الدكتور محمد مظهر سعيد، والدكتورة إحسان القوصي الأستاذة الجامعية، وسيدة اسمها مدام شكور.

أما **الشعراء** فمنهم إسماعيل صبري باشا، وشبلي الملاط، وأحمد شوقي، وخليل مطران، وحافظ إبراهيم، وولي الدين يكن، وجميل صدقي الزهاوي.

ومن **رجال العلم** الدكتور شبلي شميّل، والأمير مصطفى الشهابي، وإسماعيل مظهر، والدكتور يعقوب صروف، والفريق أمين باشا المعلوف والدكتور أمير بقطر، وفؤاد صرّوف.

ومن **رجال الدين** الشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة «المنار»، والشيخ مصطفى عبد الرازق الذي صار شيخاً للجامع الأزهر.

ومن **الأدباء والباحثين** الدكتور طه حسين، وعباس محمود العقاد، ومصطفى صادق الرافعي، والدكتور منصور فهمي باشا، وأحمد حسن الزيات، ومحمد حسن نائل المرصفي، وشيخ العروبة أحمد زكي باشا، وأستاذ الجيل أحمد لطفي السيد باشا، والدكتور محمد حسين هيكل باشا، وفيلسوف الفُريكة أمين الريحاني، وسليمان البستاني، وإبراهيم عبد القادر المازني، ومجد الدين حفني ناصف، وتوفيق إسكاروس.

ومن **رجال الصحافة** أنطون الجميل باشا، وخليل تابت باشا، وعبد القادر حمزة باشا، وإدجار جلاد باشا، وسليم سركيس، والصحافي العجوز توفيق حبيب، وإدريس راغب باشا، وداود بركات، وطاهر الطناحي، ومحيي الدين رضا.

ومن **رجال السياسة** عبد العزيز فهمي باشا، وعبد الستار الباسل باشا. وهناك أيضاً الخطاط نجيب هواويني بك.

كما زار الصالون بعض الأجانب منهم القاص الأمريكي هنري جيمس ونجل الشاعر الأمريكي لونجفلو.

ولكل اسم من هذه الأسماء التي سردتها على عجل - ومؤكد أن هناك أسماء أخرى فاتت متتبّعي صالون مي - وزنه الفكري، وهم في جملتهم يكادون يمثلون كل المتصدرين للحياة الثقافية في عصر مي.

أسلوب مي في إدارة الصالون:

أجمع الذين سجّلوا وقائع صالون مي على أن ميّاً كانت تدير هذا الصالون بنفسها، فهي التي تتحكم في توجيه النقاش، وتنظيم السجال منعاً لاختلاط الآراء واحتدام الحوار، وكان لها دائماً فصل الخطاب، كما قال عباس محمود العقاد.

وقد وصف العقاد أسلوب مي في إدارة الندوة بقوله: إن ما كانت تتحدث به مي كالذي تكتب بعد رويّة وتحضير. فقد وُهبت ملكة الحديث في طلاوة ورشاقة وجلاء، ووهبت ما هو أدلّ على القدرة من ملكة الحديث، وهو ملكة التوجيه وإدارة الحديث بين مجلس المختلفين في الرأي والمزاج والثقافة والمقال. فإذا دار الحديث بينهم، جعلته على سُنَّة المساواة والكرامة، وأفسحت المجال للرأي القائل وللرأي الذي ينقضه أو يهدمه، وانتظم هذا برفقٍ ومودةٍ ولباقة، ولم يشعر أحدٌ بتوجيه الكلام منها، وكأنها توجه من غير موجه، وتنقله بغير ناقل. وتلك غاية البراعة في هذا المقام.

ويستطرد العقاد قائلاً: إن الآنسة مي «كانت حريصة على تقاليد العرف في الصالونات العائلية إلى حدّ التكلف، ولا تحبّ أن يظن الزوار العائليون أن أدبها يُنسيها تقاليد ربّة الصالون في مجتمع الأسرة، وأن مادة الثرثرة الاجتماعية منتظرة في كل صالون يحضره أناس من أصدقائها الأدباء الذين تعرفهم معرفةً عائلية وتقابل زوجاتهم وأخواتهم في بيوتهم وفي ندوتها. وكان خليل مطران، وشبلي شميل، وداود بركات، وأنطون الجميل يسبغون أبوتهم الأدبية على الآنسة مي» (ولا أدري لِمَ أغفل الدكتور يعقوب صرّوف والشاعر إسماعيل باشا صبري في هذه الأبوة الأدبية).

ويصف أنطون الجميل باشا أسلوب ميّ في إدارة الحديث بقوله: «كانت مي في الحفل الحافل من زوّارها، وفي هذا المزيج المختلف من روّاد مجلسها بارعةً في توزيع الكلام، لبقةً في توجيه الحديث وفسح المجال أمام كل زائر ليقول كلمته أو يدلي برأيه أو يذهب في الجدال مذاهبه، فلا يشعر أحدٌ في هذه الاجتماعات بأنه غريب على المجلس أو دخيل فيه».

ويقول الشيخ مصطفى عبد الرزاق: «كانت مي هي التي تدير الحديث، ولكن من غير أن تظهر بمظهر المتزعمة في النادي أو المتصدرة في الحفل، مما

يدل على ناحية من نواحيها الخلقية الجميلة. وكان تنوّع الأحاديث وسموّها وسلامتها من كل ما لا تخلص منه عادة المجامعُ يدلّ على مقدار كفايتها الأدبية وقيمتها الأخلاقية».

ويصوّر محمد عبد الغني حسن شخصية مي في صالونها بقوله: «تلك هي مي الكاتبة، ومي الشاعرة، ومي الموسيقية المرهفة الأذن، الرقيقة الحسّ، البارعة الأصابع، ومي حين تتهكم، ومي حين تبدع في الأسلوب وتتسّع نظرتها للأديان أصل الخير ومنبع الرحمة والبر، وحين تتسامى بفكرتها الإنسانية إلى العالمية التي تحتقر كل تعصب وتنبذ كل تحزّب... كانت الفصيحة البيان الطليقة اللسان».

ويقول طه حسين: «إن ميا تنظم الاجتماعات الأدبية التي يشترك فيها الرجال والنساء اشتراكاً حراً سمحاً فيه كثير جداً من الرقي والامتياز، تنظم الاجتماعات في بيتها، وتشترك في كل اجتماع يشبهها إذا كان خارج بيتها».

وكأنما أشفق الدكتور منصور فهمي باشا على ميّ من الغرور وهي تتصدّر صالونها، فقال: «كان كبار الكتاب والأدباء والمفكرين حين يتلاقون في ساحة تلك الشابة الأديبة الظريفة، ويتركون لها إدارة توجيه الأحاديث وتنظيم الحوار والمحاضرات، فإنهم كانوا يفتحون للشيطان باباً ليتعدّى ناحية الثقة بالنفس، ويغري بطرق باب الغرور. إن الشهرة تحيط بميّ مع من يحيطون بها ويكبرونها من الكتّاب والمفكرين، وإنها مُدَلَّلة عندهم جميعاً، أثيرة بينهم بالإعجاب والإطراء».

هذا، ويبدو أن ميا استشعرت تحفظاً إزاء صالون تقيمه امرأة مثلها. فقالت في الردّ على أولئك المتحفظين: «غريب أن تبخلوا على المرأة بحضور اجتماع يرفع نفسها إلى أسمى درجات التأثير المفيد، ويلفت عقلها إلى هيبة العلم وعظمة الفضل، ويعلمها إجلال الوطن ورجال الوطن».

ماذا دار في الصالون كما وصفه روّاده؟

كان غشيان صالون مي للمرة الأولى تجربةً جديدة هي بالمغامرة أشبه. وخليق بنا أن نروي كيف وصف بعض روّاد الصالون هذه الزيارة الأولى إلى بيت مي:

يقول الدكتور طه حسين إنه سمع صوت مي للمرة الأولى في حفل عام أقيم لتكريم الشاعر خليل مطران، فلم يرض عن شيء مما قيل فيه إلّا صوتاً واحداً سمعه. ولم يفهم طه حسين من حديث ذلك الصوت العذب شيئاً، ولم يحاول أن يفهم من حديثه شيئاً. شغله الصوت عما كان يحمل من الحديث. كان صوت الآنسة مي التي كانت تتحدث إلى جمهور من الناس للمرة الأولى. ولم يستطع طه حسين حين أصبح من ليلته تلك أن يمتنع عن السعي إلى مدير الجريدة (يعني أحمد لطفي السيد باشا) وقد جلس إليه فقال له وسمع منه، ثم ما زال يدور بحديثه حتى انتهى إلى حفل مطران، وحتى انتهى من حفل مطران إلى ذكر تلك الفتاة التي تحدثت فيه، والتي لم يسمع عنها قبل يومه ذاك، وإنما لجلج في القول. وأثنى لطفي السيد علي مي، وأنبأ طه حسين بأنه سيقدمه إليها في يوم قريب. وابتهج بهذا الوعد، وإن لم يعرب عن ابتهاجه، وظل يرقب البرّ به. ومضت أيام وشهور، وذات يوم سمع طه حسين اسم ميّ على لسان لطفي السيد، فبدا عليه فيما يظهر شيء من وجوم، وكأن الأستاذ لاحظ ذلك، فذكر وعده القديم وقال في رفق: مساء الثلاثاء سنزورها معاً. ويقول طه حسين: «وفي مساء الثلاثاء رأى نفسه لأول مرة في حياته في صالون فتاةٍ تستقبل الزائرين من الرجال، حفيّةً بهم، معاتبةً لهم في رشاقة أيّ رشاقة، وفي ظرف أي ظرف، وفي حديث عذب يخلب القلوب ويستأثر بالألباب. وطال المجلس، وكثر الزائرون، ودارت أكواب الشاي وطه حسين في مكانه لا يكاد يحسّ من ذلك شيئاً، قد ملك الوهم والوجل عليه أمره كله. فهو لم يشهد مثل هذا المجلس قط، وليس له عهد بمثل ما يجري في مثل هذه المجالس من المراسم، ولا بما يتبع فيها من التقاليد والعادات. فهو منكر لنفسه، منكر لمن حوله، وما حوله، إلّا شخصية اثنين هما الأستاذ لطفي السيد والآنسة مي».

أما إبراهيم عبد القادر المازني فيروي تجربته الأولى ـ ولعلّها الأخيرة مع صالون مي بهذه العبارات التي لا تخلو من سخرية بنفسه وفكاهة مستملحة، وكان إذ ذاك في صحبة صديقه عباس محمود العقاد، يقول: «أعترف أني دخلت مستحيياً، ووقفت على الباب متردداً متهيّباً لقاءها، مستحيياً أن أحشر نفسي بين زوّارها الذين قيل لي إنهم من كل طبقة، ومتردداً لأنني لم أعتد هذه المجالس، ولأني أعرف من نفسي شدّة النفور من هذه الطبقات التي تعدّ نفسها ممتازة أو

عالية أو لا أدري ماذا أيضاً. على أني دخلت بسلام، فاستقبلتني هاشة باشة شاكرة، فتعجبت، ولا أظن أني نطقت بحرف، وقعدت حيث أومأت. وكانت المرحومة أمها تساعدها في الترحيب بالضيوف وإكرامهم. ولا أذكر أنه دار بيني وبينها حديث. وكانت كلما مرّت بي تلقي لي كلمة تحية أو تكتفي بالابتسام، وأنا كالآخرين لا أنبس ببنت شفة! وإذا بهذا الجمع الحاشد يخرج من الحجرات إلى الردهة الفسيحة، وإذا بها تقف لتخطب، فارتعت ووجمت، فما أكره شيئاً كرهي للخطب. وقالت شيئاً سمعت منه اسم ماكس نوردو، فانطلق لطفي السيد يصفّق، فتعجبت لهذا الرجل، ولما عددته يومئذٍ إسرافاً في التلطّف والمجاملة. ولم أصغ لشيء مما قالت. ورأيت كثيرين ينهضون شاكرين مُثنين، وصار هذا يدعو ذاك لإلقاء كلمة. فخفت. فما أنا من رجال الصالونات، ولست أُحسن هذا الضرب من الكلام. وما جئنا هنا ليثني بعضنا على بعض. وعلى أني لا أعرف لماذا جئنا أو دعينا. واتفق في هذه اللحظة أن مرّت بي الآنسة مي، فحاولت أن أنهض لها، فنهتني عن ذلك، وعرفتني أنه غير لازم. فوجدت لساني، وقلت لها معتذراً من جهلي: إني من عامة الشعب ولست من روّاد الصالونات، فأرجو أن تتجاوزي عن أغلاطي! فقالت بابتسامةٍ وديعة: لا تقل هذا الكلام».

ووصف الأمير مصطفى الشهابي الذي آلت إليه بعد ذلك رياسة مجمع اللغة العربية بدمشق، زيارته الأولى إلى منتدى مي بقوله: «زرت ميّاً مع صديقي العلامة أمين باشا المعلوف صاحب معجم الحيوان، فإذا بي في دارها وكأنني في هيكل الأدب الأسمى، وقدس النبوغ والعبقرية، وإذا بأحاديثها تنمّ على أدق ما تلمس مشاعر الإنسان. وقد خيّل إليَّ أنني في حضرة إحدى سيدات الملأ الأعلى اللواتي كنت أقرأ عنهن في كتب كبار الأدباء الفرنسيين. وما كدنا نودعها ونخرج حتى ابتدرني الصديق الأمين قائلاً: (إنها مخيفة). فقلت: صدقت يا باشا. وماذا أخافك منها؟ قال: حدة ذكائها ووفرة معلوماتها الأدبية. قلت: أما أنا، ففرط إحساسها لدقائق الحديث، حتى كدت أرى نفسي غير قادرٍ على مجاراتها فيه».

أما فؤاد صروف، فقد وصف زيارته الأولى لهذا النديّ بقوله: «قال لي عمي الدكتور يعقوب صرّوف: ينبغي أن نزور الآنسة مي. فسّرني هذا (الانبغاء). وجلست يومئذ بين الشيخ الذي أتاح لي أن أتعلّم (يقصد عمه يعقوب صروف) وبين هذه الأديبة التي أخذ نجمها اللامع يرتفع في سماء الأدب العربي. وقد

أخذتني الروعتان في تلك الجلسة: روعة الحكمة الهادئة في كلام الشيخ، وروعة التدفق في حديث الأديبة».

وإذا كان هؤلاء الأعلام قد عبّروا عن مشاعرهم وهم يَرِدُون منتدى مي للمرّة الأولى، فإن الذين أدمنوا ارتياد الصالون قد وصفوا بدورهم ما كان يدور فيه، كل برؤيته الخاصة.

فيقول محمد عبد الغني حسن: كانت الوفود تختلف إلى منتدى مي مساء كل ثلاثاء بين عالم وأديب ووزير، فيزول التفاوت من بينهم، ويجمع بينهم الأدب اللباب، ويؤلف بينهم على اختلافهم في المراتب وتفاوتهم في المناصب، ومي في وسط الجميع تدير الحديث وتوجه الكلام وتقبل على الزوار في بشاشة تنسيهم أنهم ضيوف، وتقدم لهم شراب الورد سائغاً للشاربين.

ويستطرد عبد الغني حسن فيعقد مقارنة بين صالون مي وصالون الأميرة نازلي فاضل (وهو صالون كانت تعقده هذه الأميرة التركية في القاهرة قبل انتقالها إلى تونس، وكان من شهوده الشيخ محمد عبده، وسعد زغلول باشا، والدكتور فارس نمر باشا وغيرهم) فيقول: إن المشابهة بين الصالونين «تكاد تكون تامّة من حيث المناظرة والمناقشة والمحادثة، ومن حيث مقام الوافدين ومكانة المجتمعين، ومن حيث تصوّن الأحاديث من كل ابتذال، وارتفاعها عن كل صغيرة، ومن حيث المناقشة في موضوع المرأة والرجل. إلّا أن الصالونين يختلفان في مسألةٍ واحدة هي السياسة. فلقد كانت المناقشات السياسية في منتدى مي طارئة، وفي منتدى الأميرة كانت أصيلة ثابتة».

ويضيف عبد الغني حسن قوله: «وأظن أن ما دار في الصالون من الأحاديث، وما عولج فيه من المسائل، وما روي فيه من الشعر، وما نوقش فيه من مسائل العلم والأدب، وما بدا فيه من المشارب والميول، وما ظهر فيه من النفوس والعقول، كل ذلك يصوّر لنا ناحيةً جميلة ممتعة من تاريخ الأدب في العصر الحديث».

ويقول الشيخ مصطفى عبد الرزاق: «كنتُ من المترددين على ناديها الأدبي. وكان المجتمعون يستطيعون أن يقدروا جميع مواهبها الأدبية والخلقية. إذ يتمّ الحديث في منتداها في جوٍ يفيض أدباً وفنّاً وفكاهة وجداً، ويفيض صفواً لا يكدره مكدّر. وكان مجلسها لا لغو فيه ولا تأثيم.

أما عن لغة الحديث، فكان في الغالب باللغة العربية، وكان بالعربية الفصحى. ومع تأنق مي في شأنها كله، وفي حديثها على الخصوص، فإنها كانت تصل إلى جعل اللغة العربية الفصحى لغة حديث في مجمع راقٍ ليس كل مشاهديه من أنصار العربية الفصحى، من غير أن يشعر أحدٌ من سامعيها بأن حديثها أقلّ سلاسةً أو أظهر تكلّفاً من حديث المتكلمين باللغة العربية العادية أو المتكلمين بأي لغة من اللغات الحية الراقية».

ويحاول عباس محمود العقاد نقل صورة حية عن روّاد صالون مي وكيف يتصرّفون في حضرتها فيقول: «كل زائر من هذه النخبة كان حقاً له أن يزور الندوة في موعدها في أصيل يوم الثلاثاء، وكان يرى من حقه أو من واجبه أن يعتذر لفوات موعده منها بعض الأيام. بل كان من حقه أن يكتب رسائل الاعتذار أو رسائل السؤال والتحية، وإن لم يكن من مطمعه دائماً أن يتلقى الجواب. لكل منهم أسلوبه في تعبيره: لطفي السيد وأسلوب الجنتلمان الفيلسوف. وعبد العزيز فهمي وأسلوب الصمت الخجل كأنه الصبيّ في مجلس الفتيات القريبات. وأنطون الجميّل وأسلوب بائع الجواهر في معرض الهوانم. وشبلي شميّل وأسلوب المصارع في حلبة الفكر والشعور، وخليل مطران وأسلوب موليير على غير مسرح التمثيل. وسليم سركيس وأسلوب الدعاية للبيوتات في صالونٍ من أشهر صالونات البيوت. ومصطفى صادق الرافعي وأسلوب المفاجأة بالكتابة الذي يغني الاطلاع عليها عن السماع (لأنه كان أصمّ). وإسماعيل صبري وأسلوب الشاعر الذي يعلم أن حق الغزل الصريح أولى بالرعاية من حق الكناية والتلميح. وأحمد شوقي وأسلوب الإيماء من بعيد، وعليه تعليق الفيلسوف المعجب بالطرفين».

ولم يتخلف سلامة موسى، وهو أصلاً رجل علم لا رجل أدب، عن ارتياد صالون مي، فسجل انطباعاته عنه بقوله: «كنت أزورها، فيجري حديثنا على المستوى الأدبي الرفيع. وكانت مي على ثقافة واسعة في الأدب الفرنسي، وعلى اطلاع للأدب الإنجليزي، وكانت تتحدث باللغة الفرنسية في طلاقة، وترطن باللغة الإنجليزية في دلال. وكانت إلى هذه الثقافة النادرة موسيقية على درايةٍ بكبار الموسيقيين. وكان إحساسها الفني دقيقاً. وكانت لذلك تختار الفكرة والكلمة بما يطابق أو يجاري الروح الفنيّ. وقد أهملت مي الزواج والأمومة، إذ كانت لاهيةً بشبابها، تتلألأ أمام أضيافها الكثيرين كل مساء، وكان هؤلاء الأضياف من

الباشوات والأثرياء، أو من الأدباء الأثرياء، أو من الأدباء المعدمين، وكلهم كان معجباً، وإن اختلفوا في مواضع الإعجاب. وقد آثرت مي، مضطرةً، ممارسة أدب الصالون على أدب الكفاح، فلمّا انطفأ بعض المصابيح في الصالون، لم تعرف ما تصنع، فاستسلمت للموت».

وكان طه حسين من كبار المدمنين لصالون مي الدؤوبين في حضور جميع جلساته، لا يتخلف عن جلسة منها إلّا لطارىء. وقد أورد شهادته عن الصالون بقوله: «كان يعجبني من هذا الصالون اتساعة لمذاهب القول وأشتات الكلام وفنون الأدب. ويعجبني منه أنه مكان للحديث بكل لسان، ومنتدى للكلام في كل علم، وملتقى للطوائف من غير تفريق، فلا تعالي بينهم، ولا اختلاف فيهم، بل هم أهل ندوة واحدة، ألّفهم الأدب، ووثقت بينهم المعرفة، وجمعتهم الحكمة، يغدون ويسرحون في إخاءٍ تالد على اختلاف مذاهبهم، وتباين مشاربهم، وتفاوت مراتبهم. وكان أشد ما أغتبط له أنني وجدت الطريق إلى منتدى مي ميسوراً، لم تحفّه الأشواك، ولم تُدْمِ من أجله الأقدام».

ويستطرد طه حسين قائلاً: إن الصالون «كان ديمقراطياً، أو قل إنه كان مفتوحاً لا يردّ عنه الذين لم يبلغوا المقام الممتاز في الحياة المصرية، وربما كانوا يُدعون إليه، وربّما كانوا يُستدرجون إليه استدراجاً فيلقون الناس ويتعرفون إلى أصحاب المنزلة الممتازة، ويكون لهذا أثره في تثقيفهم وتنمية عقولهم وترقيق أذواقهم. كان الذين يختلفون إلى هذا الصالون متفاوتين تفاوتاً شديداً، فكان منهم المصريون على تفاوت طبقاتهم ومنازلهم الاجتماعية، وعلى تفاوت أسنانهم أيضاً. وكان منهم السوريون، وكان منهم الأوربيون على اختلاف شعوبهم، وكان منهم الرجال والنساء، وكانوا يتحدثون في كل شيء. ويتحدثون بلغاتٍ مختلفة وبالعربية والفرنسية والإنجليزية خاصة. وربّما استمعوا إلى قصيدة تنشد أو مقالةٍ تقرأ أو قطعة موسيقية تعزف أو أغنية تنفذ إلى القلوب».

ويقول أنطون الجميل باشا: «كان نادي مي مثال الأندية الراقية، فكان الصدر فيه للأدباء، والمحل الأول للعلماء. أما رجال السلك السياسي وأصحاب المناصب الكبيرة، فكانوا يغشون نديَّها ويطرقونه على الغالب بصفة كونهم يسايرون الحركة الفكرية والأدبية، ويهتمون بما جدّ فيها من جديد أو ظهر فيها من تطوّر».

وكان للشعراء مشاركة في وصف منتدى مي، سواء في حياتها أو بعد وفاتها، فوجه الشاعر إسماعيل باشا صبري إلى ميّ تحية قال فيها:

رُوْحِي على بَعْضِ دُوْرِ الحَيِّ حَائِمَةٌ ... كَظَامِئِ الطَّيْرِ تَوَّاقاً إلى المَاءِ
إنْ لَمْ أُمَتِّعْ بِمَيٍّ نَاظِرَيَّ غَدًا ... أَنْكَرْتُ صُبْحَكَ يا يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ

أما الشاعران خليل مطران وعباس محمود العقاد، فقد وصفا منتدى مي بعدما أقفر منها برحيلها، فقال مطران:

أَقْفَرَ البَيْتُ، أَيْنَ نَادِيْكِ ... يا مَيُّ، إليه الوفودُ يَخْتَلِفُونا؟
صَفْوَةُ المَشْرِقَيْنِ نُبْلاً وفَضْلاً ... في ذُرَاكِ الرَّحِيْبِ يَعْتَمِرُوْنا
فَتُسَاقُ البُحُوْثُ فيه ضُرُوْباً ... ويُدَارُ الحَدِيْثُ فيه شُجُوْنَا
وتُصِيْبُ القُلُوْبُ، وهِيَ غِرَاسٌ ... مِنْ ثمارِ العُقولِ ما يَشْتَهِيْنَا

وقال العقاد:

أَيْنَ في المَحْفَلِ مَيٌّ يا صِحَابْ ... عَوَّدَتْنَا هٰهُنَا فَصْلَ الخِطَابْ
عَرْشُهَا المِنْبَرُ مَرْفُوْعُ الجَنَابِ ... مُسْتَجِيْبُ حِيْنَ يُدْعَىٰ مُسْتَجَابْ
أَيْنَ في المَحْفَلِ مَيٌّ، يا صِحَابِ ... سَائِلوا النُّخْبَةَ مِنْ رَهْطِ النَّدِيّ
أَيْنَ ميٌّ، هَل عَلِمْتُمْ أَيْنَ مَيْ؟ ... الحَدِيْثُ الحُلْوُ واللَّحْنُ الشَجِيّ
والجَبِيْنُ الحُرُّ والوَجْهُ السَنِيّ ... أَيْنَ وَلَّىٰ كَوْكَبَاهُ، أَيْنَ غَاب؟

بعد انفضاض جلسات الصالون:

كان من عادة مي بعد انفضاض كل جلسة من جلسات الصالون أن تستبقي بعض خاصتها لحديث أثير. ويقول طه حسين، وهو يتذكر زيارته الأولى لصالون مي بصحبة لطفي السيد باشا، إن الزائرين أخذوا ينصرفون بعد انفضاض الجلسة، ورغب هو في الانصراف ليخلص من حرجه، ولكنه أشفق من الانصراف حرصاً منه على صوت مي وحديثها، وما كان له أن يحاول الانصراف قبل أن يؤذنه به الأستاذ لطفي السيد. ولمّا خلا للأستاذ والتلميذ وجهُ ميّ، قرأت مي مقالاً لها، فسحر طه حسين، ورضي الأستاذ، وانصرفا بعد حين وفي نفس طه حسين من الصوت وممّا قرأ شيء كثير.

ولكن طه حسين لم يلبث أن صار من خاصّة مي بفضل لطفي السيد باشا،

فكان يتأخر في الصالون حتى ينصرف الزائرون، وفي هذا يقول: «وما أكثر الليالي التي انصرف فيها الزائرون جميعاً، ولم يبق منهم إلّا الأستاذ لطفي السيد ومحمد حسن نائل المرصفي، رحمه الله وأنا. وفي ذلك الوقت كانت مي تفرغ لنا، وتفرغ لنا حرّة سمحة، فنسمع من حديثها ومن إنشادها ومن عزفها ومن غنائها. ويظهر أني لن أنسى صوت مي حين تغنّينا أغنية لبنانية مشهورة «يا حنينة» ونغنّينا في اللغات المختلفة وفي اللهجات العربية المختلفة أيضاً».

وحرصت مي على استبقاء إبراهيم عبد القادر المازني بعد انفضاض جلسة الصالون عندما زارها في صحبة العقاد للمرة الأولى. وقد صور المازني هذا اللقاء الحميم بقوله: «بعد انتهاء جلسة الصالون، بدأ الناس ينصرفون، وهمّ الأستاذ العقاد وهممتُ بالخروج، فأخرتنا واستبقتنا أستغفر الله، بل استبقت أيضاً الأستاذ خليل مطران. وجلسنا نحن الأربعة في حجرة الاستقبال الكبرى، وكان نصيبي منه الإصغاء مطرقاً حيناً، وناظراً إليها حيناً آخر، ومعجباً بها في الحالين، وإن كنت شعرت أني غير فاهم شيئاً ممّا يقال، لفرط اشتغالي بما في نفسي... وخلوت بنفسي في تلك الليلة، ورحت أفكر فيما رأيت وسمعت، فأعجبني من الآنسة مي أن احتفالها برجال الأدب كان أَبْيَنَ من احتفالها بغيرهم، وسرّني على الخصوص رقّتها وتلطفها حين أخرتنا واستبقتنا كأنما كان همّها كله هو أن تجالسنا نحن لا سوانا... ولا أدري هل عدتُ بعد ذلك إلى زيارتها أم لم أعد، فإنْ كنتُ عدت، فقد كان ذلك ولا شك بدافع من الإعجاب والإكبار، وإن كنت كففت، فالعلة لا بدّ أن تكون نفوري مما يسمى الصالون».

نهاية الصالون:

استمرّ صالون مي قرابة ٢٥ عاماً، تعقده في موعده المضروب من كل أسبوع، ولا تتخلّف عنه إلّا لسفرٍ أو لطارئ. ولكن الهموم التي هاجمتها بعد فقد الوالدين وعددٍ من أصدقائها المقربين أورثتها ميلاً إلى إيثار العزلة واستدبار الصالون. وفي هذا يقول طه حسين: «آثرتْ ميّ الوحدة، وألحت عليها العزلة مُضياً رقيقاً، أو قل إنها تدرجت في هذا الطريق تدرّجاً بطيئاً أول الأمر، ولكنه سريع مُلحٌّ آخر الأمر. أخذ ميلها إلى العزلة يظهر بعد أن فقدت أبويها، وبعد أن عَمَرَ الحزنُ نفسها المشرقة، ولكنّها لم تقطع صلتها بالناس فجأة، وإنّما قللت

لقاءهم، وتجنبت ما يدعو إلى هذا اللقاء. وأخذت لا تلقى الناس إلّا بميعاد يطلبونه، وتُستشار المذكرات لتحديده. وأخذت المذكرات تبخل بهذا التحديد شيئاً فشيئاً حتى أصبح لقاءُ ميّ مقتصراً على أصدقائها الأدنين. وكنت بين الذين شرفتهم مي بهذه الصداقة، فكنت ألقاها بين حين وحين، فنستخلص لأنفسنا من الدهر وأحداثه ساعة أو ساعات نتحدث فيها أدباً وفلسفة، جادّين حيناً ومازحين حيناً آخر. وكان سكرتيري ثالثنا في هذه الاجتماعات، وكان لنا رابع يحضرنا دائماً، ولكنه لم يكن يفهم عنّا، ولعلّنا نحن كنا نفهم عنه كثيراً، وهو ذلك الإبريق الذي كان ممتلئاً دائماً من شراب الورد».

تأثير الصالون:

هل كان لصالون مي أي تأثير سواء في ميّ نفسها أو في رواده أو في المجتمع بصفة عامة. يقول الدكتور منصور فهمي باشا في الردّ على هذا التساؤل: «لعل أبدى تأثير لمنتدى مي في صفات الكاتبة نفسها وفي حياتها أنه أكد منها الثقة بنفسها. وكان لهذا المنتدى تأثيره في الأدب وفي الناس، وكان له تأثيره وأثره كذلك في شهرة التي أقامته وسيطرت فيه لإثارة أفكار المفكرين. وكان له تأثيره في تكييف نفسها وفي اتساع ثقافتها وعلمها وفي تعبها الجسمي أيضاً.

إن هذا المنتدى قد تفجّر من بعض أركانه نبع فياض لإرواء أدبها العاطفي الرائع، ولتفجير ما في قلب المرأة من مطالب الحياة، ولإشعال نفسها بنار العذاب الطاهر المطهر، ولمصدره هام من مصادر علّتها ومحنتها القاسية».

ويقول طه حسين عن أثر هذا الصالون :إن «حياة مي اتصلت على هذا النحو، مؤثرة بهذه الاجتماعات المنظمة في البيئات المختلفة للأدباء والمتأدبين والمفكرين ورجال الأعمال أيضاً. اتصلت هذه الحياة أعواماً غير قليلة، وظهرت آثارها في كثير من إنتاج هؤلاء الناس. وما أشك في أن صالون مي قد اتُّخذ مثالاً لصالونات أخرى فتحت أبوابها فيما بعد. فمي قد أحيت بهذا الصالون سُنَّة عربية قديمة، كما نقلت إلى مصر سُنَّة أوربية قديمة وحديثة».

ويقول أحمد حسن الزيات صاحب مجلة «الرسالة»: «إذا كان لندوة مي أثر عميق في حياة الأدب والأدباء من الناحية الفنية والخلقية، فإن تأثيرها كان أشدّ

وأبعد في نفسها وحياتها وطاقتها، إذ جعلتها هذه المكانة الرفيعة تشارك في كل علم، وتفيض في كل حديث، وتختصر للجليس سعادة العمر كلّه في لفتة أو لمحة أو ابتسامة».

معذرةً للإطالة، فقد اجتهدتُ في هذا الحديث في أن أصحب القارئ معي إلى صالون مي بعدما استقصيت أخباره من شهادات رواده، ومما ارتسم في أذهانهم من صورٍ ومراءٍ حوله. ولا يسعني إلّا أن أعود فأجتر مشاعر الأسى لأن كل ما دار في هذا الصالون من مساجلات شاركت فيها جمهرة كبيرة من أعلام العصر، قد ذهب بدداً، ولم يبق منه شيء. وللمرء أن يتصور كم من المجلدات كانت حرية بأن تستوعب كل هذه المساجلات لو أنها عرفت طريقها إلى التسجيل وباتت في متناول أيدي الأجيال التي جاءت بعد مي وعصرها.

❁ ❁ ❁

ميخائيل نعيمة

كنت في وحشة الهجرة عندما جاءتني رسالة من مجلة «المراحل» البرازيلية، عثر عليها أخونا الراحل يعقوب العودات (البدوي الملثم) في صندوق بريده في عمان، فأرسلها إليَّ مبدياً عجبه من تصاريف البريد: فمن أنبأ «المراحل» بأنني أقيم في عمان؟ ومن أنبأ ساعي البريد بأنني صديق للعودات فوضع الرسالة في صندوق بريده، ولم يردها إلى عنوان «المراحل» لعدم الاستدلال على صاحب هذا الاسم؟

وفضضت الرسالة، وكانت دعوة إلى كتابة فصل عن ميخائيل نعيمة يندرج في عدد خاص تصدره المجلة عن هذا الأديب الكبير. ولم تكن تحت يدي في الغربة المفزعة مراجع أستعين بها في تلبية هذا الرجاء، فاكتفيت بخاطرة موجزة سجلت فيها رأياً مرتجلاً قلت فيه:

«سواء أكان ميخائيل نعيمة محسوباً على المهجر أم على الوطن، فهو بغير منازعة واحد من أعاظم المفكرين المعاصرين في دنيا الضاد أجمعين. ومعجزته كامنة في أمرين:

أولهما: إنسانيته التي من دواعيها النظر إلى أمور الدنيا جميعاً نظرة مثالية لا قوام فيها لغير الحق المرعي والصفاء الإنساني الأصيل. فلا عنف ولا اغتصاب ولا تسلط ولا استغلال ولا استئثار، وإنما حب وألفة وتعاون ووداعة ورفق. ومن دواعيها كذلك النفور من الألم، ولو أصاب حيواناً أعجماً، أو لحق بمن لا قدرة له على الجأر بالشكوى.

وثانيهما: استقلاله في الرأي، فلا يحكي غيره، ولا يرتضي المسلمات المتوارثات.

وإلى جانب هذين النهرين الدافقين، هناك رافدان أنزلا نعيمة هذه المنزلة السامقة، هما أسلوبه المتوفز الواضح المباشر المعبر، وتسلسل تفكيره في اتجاه

منطقي واحد. ولهذا نرى آثاره الأدبية كلها منتظمة في سلك واحد، فلا تتضارب أو تتعارض أو يختلف جديدها مع القديم القديم فيها.

نفّاذ إلى الجوهر، غواص على الدرر، مشاء في دروب الفضيلة، نهاب للمعارف، نزاع إلى الكمال. وهي جميعاً آيات مرصودة له، حتى وإن نازعناه في مذهب تناسخ الأرواح، وإن خالفناه في مجافاة الأنثى، وإن لم نسايره في تطبيق القواعد الإنسانية المثالية المجردة على القضايا القومية التي يتمزق منها عالمنا المجرد من الإنسانية والعالمية والمثالية.

سيرة حياته المروية أعظم كتبه، ولها في الآداب العالمية مكان مرموق بين السير. ترجمته لجبران، مهما يكن نقد النقدة عليها، كتاب مستطرف باذخ في الأدب العربي. فلسفته المستصفاة في «كرم على درب» سديدة النظرات، كل عبارة منها مجمع حكمة وحنكة وخبرة. يعيش في برج عاجي ناسكاً في الشخروب، ولكن الناس تأنسه مضطرباً معهم في خضم الحياة. فيلسوف لا يتفلسف، وعالم لا يتعالم، وحكيم يرتجل الحكمة، ولا تفارقة صلصالته التي جبل بها وفطر عليها.

وهذه تحية إلى ميخائيل نعيمة، يعيبها أن صاحبها متواضع القدر، وأن صوته منحبس الأصداء، فلا تليق برجل هذا مقامه».

وقد اندرجت هذه الكلمة في العدد الخاص من «المراحل» الذي صدر لتمجيد ميخائيل نعيمة في شهري نوفمبر وديسمبر ١٩٦٩.

ومعرفتي بميخائيل نعيمة معرفة قارئ لا مخالط أو مشافه، فلم تتح لي الظروف رؤيته إلا مرة واحدة، ولكنني تهيبت مخاطبته إنسياقاً مع طبيعتي القديمة الجديدة التي تتهيب لقاء العظماء، ولا تلقاهم إلا لقيا الطالب لأساتذته.

ففي مؤتمر الأدباء العرب الأول الذي عقد في القاهرة في الخمسينات، سألني الأخ الوفي والحبيب المواصل الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي إن كنت اعتزم شهود جلساته. فقلت له: وكيف أشهدها ولم أتلق دعوة؟ أتريدني أن أتطفل على موائد العلماء، وأزج بنفسي بين الأئمة الأجلاء، ولست منهم؟ فقال الخفاجي: أيعقل أن يكون هناك مؤتمر للأدب، وأن يشهده أدباء عرب، وأن يغفل اسمك في قوائم المدعوين؟ هاك دعوتي الخاصة أتنازل عنها لك عساها

تعفيك من تهمة التطفل! وعلى تردد شديد توجهت إلى قاعة المؤتمر، واخترت لنفسي آخر مقعد في آخر صف تهيؤاً لمغادرة القاعة إذا رمقتني نظرة شزراء، فلم يسبق لي في ذلك العهد، ولا سبق لي إلى هذا اليوم، أن تلقيت ـ ولو على سبيل الخطأ ـ دعوة لشهود أي مؤتمر أو حفل أدبي أو أي مناسبة لها صلة بالفكر والثقافة أو أي مهرجان مهما يكن موضوعه. وهذا أمر ألفته ولم أضق به أبداً، لأنني في كل عمري سلكت طريق الأدب لا من باب الوظائف ودرجات البيروقراط، بل من باب الاجتهاد الشخصي والاستقلال الفكري، ومن كان هذا طريقه ومسلكه، فلا مطمع له في جاه وظيفي ينسبه إلى الأدب، أو حيثية أدبية تستمد من الوظيفة!

وإذ أنا جالس في مقعدي القصي من تلك القاعة، دخل ميخائيل نعيمة فلم ينتبه إليه أحد من «موظفي الأدب» الذين نيط بهم استقبال الوفود، وهممت بالقيام عنهم بهذا الواجب، ولكنني خشيت أن يزجرني زاجر، لأن استقبال المدعوين ليس من اختصاصي، ناهيك بأنني أصلاً مدعو إلى المؤتمر «من الباطن»، فالدعوة التي أحملها في جيبي خاصة بأستاذنا الخفاجي، وما أنا إلا مدعو بالوكالة لا بالأصالة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى خشيت أن أتقدم لميخائيل نعيمة معرفاً إياه بشخصيتي، فيفجعني بأنه لم يسمع باسمي، فمالي وهذا الحرج؟ حسبي أن أسلط عليه نظراتي عن قرب، لا سيما وقد اختار هو أن يجلس أمامي مباشرة في الصف قبل الأخير. وطوال جلسة المؤتمر الافتتاحية، لم أر أحداً من مديري الأدب وموظفيه يقترب من ميخائيل نعيمة لتحيته، مما أورثني شعوراً بالغيظ، كظمته، معزياً نفسي بأنني غير ذي صفة تطوع لي أن أحييه وأرحب به.

وبانتهاء جلسة المؤتمر، كنت أول المنصرفين، وبنفسي حسرة لأن ميخائيل نعيمة بلحمه وشحمه ماثل أمامي، فلا حييته ولا بادأته بعبارة ترحيب. ولما عرف ذلك شاعر المهجر الأكبر جورج صيدح لامني أشد اللوم لأنني ضيعت بحماقتي فرصة الاجتماع بميخائيل نعيمة مراعاة لاعتبارات شكلية أو توهما أنه لا يعرفني.

وزاد ندمي على هذا عندما زارني صديقي القديم وزميلي منذ أيام «المقتطف» محيي الدين رضا ـ رحمه الله فقد توفي في أول فبراير ١٩٦٨ ـ وأطلعني على رسالة كان تلقاها من ميخائيل نعيمة ذكرني فيها بعبارة تحية. إذاً، فهو لا يجهلني. وما أغبنني إذ حرمت متعة الاجتماع به.

ولا بأس ـ والحديث هنا مستطرد ـ أن أذكر أن كتاب «الغربال» لميخائيل نعيمة قد أمكن نشره في مصر بجهد المرحوم محيي الدين رضا الذي يعتبر كتابه «بلاغة العرب في القرن العشرين» أول همزة وصل بين أدباء المهجر وأدباء الوطن.

وكنت وما زلت من المعجبين بميخائيل نعيمة، أتابع آثاره بمقدار ما تسعفني وسائلي، وأرى منه فوق ما سجلته في تحيتي المندرجة في مجلة «المراحل» مفكراً ذا كبرياء، فلا أذلته وظيفة، بل رفض أن يكون سفيراً تستغرقه الشكليات البروتوكولية، ولا انخرط في حزب سياسي، ولا ارتضى إغراءات الأعمال التجارية في «الدردور» الأمريكي، فركل كل ما يحول بينه وبين انطلاق الفكر، واختار رفقة الكتب والأوراق والمحابر على ضجيج السياسة، ورنين الذهب في أسواق التجارة، وأخلى نفسه من الوظائف التي «تقولبه» بقوالبها، أو تطوع لسانه لأغراضها.

وقد قرأت سيرة نعيمة غب صدورها وبلغ من إعجابي بمنهاجها وصراحتها ولمعات فلسفاتها أن رجوت أخي وصديقي وجاري الراحل طاهر الطناحي أن يكتب عنها فصلاً لإحدى المجلات التي كنت أمثلها، فكان ترحيبه بهذا الرجاء فورياً. وقد عدت أخيراً إلى قراءة سيرة ميخائيل نعيمة وقرأت في وقت واحد ثلاثة كتب عنه هي «ميخائيل نعيمة الأديب الصوفي» للأديبة المبدعة ثريا ملحس، و«ميخائيل نعيمة بين قارئيه وعارفيه» للناقد المجتهد كعدي فرهود كعدي، و«ميخائيل نعيمة: منهجه في النقد واتجاهاته في الأدب» وهو رسالة ماجستير ممتازة صدرت لشفيع السيد. وفي اعتقادي أن الدارسين لن يشبعوا من تناول ميخائيل نعيمة من زواياه الكثر، فهو روائي، وهو شاعر، وهو مفكر ذو منهج فلسفي، وهو ناقد، وهو كاتب سيرة، وهو في هذه جميعاً مجدد يشق لنفسه طريقاً مبتدعاً ويقول الرأي بضمير خالص من كل غرض إلا غرض المناداة بما يعتقد. وعلى اختلاف المناهج التي اتبعها المؤلفون الثلاثة، وعلى تباين النتائج التي انتهوا إليها بعد الدراسة المستأنية لآراء ميخائيل نعيمة ففي يقيني أنهم جميعاً قد توخوا الغاية العلمية، وأنهم قد اجتهدوا اجتهاداً ممتازاً، وأنهم لم يغادروا محراب العلم الأصيل.

فالأخت العزيزة ثريا ملحس استخلصت من آراء نعيمة المبثوثة في كتبه المختلفة ولا سيما «مرداد» و«سبعون» و«همس الجفون» منهاجاً فكرياً متسقاً

مترابطاً متدرجاً ينتهي بصاحبه إلى مراتب التصوف والزهد. ولا أقول إن ثريا ملحس تعسفت في الإتيان بهذه النتيجة، بل أقول إنها كانت ذكية البصر والبصيرة، وإنها بروحها المترقرقة الشفيفة، قد اكتشفت في ميخائيل نعيمة أديباً تسامت إنسانيته حتى أسلمته إلى روحانية فياضة. وميخائيل نعيمة، كما يعترف في سيرة حياته، قد ضجر أشد الضجر من الحياة المادية التي كان يحياها في ديار هجرته حيث تقاس أقدار الناس بالمال ولا سواه، وسرعان ما تاب عن هذه الحياة المغلظة المادية، يشده إليه الشرق بسحره وروحانياته، وعاد إلى بساطة الريف وسذاجة القرية وجمال الطبيعة. وقلة قليلة من المهجريين هي التي استطاعت أن تفكر تفكير نعيمة فتتخلص من ماديات المهجر وتعود إلى أحضان الطبيعة ونفحات الشرق الروحانية. فعل هذا جورج صيدح الذي سرعان ما قال «بلاد الله أرحب من بلادي»، وركب مراكب هجرة جديدة إلى أوربة. وفعل هذا الشاعر القروي الذي لم يكد يستقر في الوطن بعد هجرة نصف قرن، حتى شد الرحال من جديد إلى مهجره، ثم عاد إلى الوطن. وأما نظير زيتون فقد كان إلى آخر يوم في حياته يفكر في معاودة الهجرة إلى البرازيل برغم الشيخوخة التي أبهظت قواه. ولكن الغالبية الكبرى من المهجريين، على حنينها المتصل إلى الوطن، بقيت في سحيقات مهاجرها محتملة ميكانيكية الحياة ومادية القوم، لأن هذه الميكانيكية وتلك المادية قد صاحبتهما كرامة ليس للمرء ما هو أعز منها. وما أصدق الشاعر إلياس فرحات حين أعرب عن ذلك بقوله:

حَيَاةُ مَشَقَّاتٍ، وَلَكِنْ لِبُعْدِهَا ... عَنِ الذُّلِّ تَصْفُو لِلأَبِيِّ وَتَعْذُبُ

ولكن نعيمة بتر حياته المهجرية بتراً كاملاً، وترك منابت تفكيره وجذور ارتباطاته، وخلع نفسه من المهجر عائداً إلى الوطن في ما يشبه المظاهرة الروحية، أو في ما يكاد يعد احتجاجاً صارخاً ـ وإن يكن صامتاً ـ على مادية الحياة. وها هو يخاطب دنيا المادة قائلاً:

غَداً أَرُدُّ هِبَاتِ النَّاسِ لِلنَّاسِ ... وَعَنْ غِنَاهُمْ أَسْتَغْنِي بِإِفْلَاسِي
وَاسْتَرِدُّ رُهُوْناً لِي بِذِمَّتِهِمْ ... فَقَدْ رَهَنْتُ لَهُمْ فِكْرِي وإِحْسَاسِي

وفي سبيل فك الرهن عن فكره وإحساسه، عاد إلى الوطن بروحانياته وسحره، ولعله لم يذرف دمعة واحدة على حياة أرادها أن تكون خالصة للفكر

والرأي والتعبير، فما جازته إلا بوظيفة دقاق على المراقم ـ آلات الكتابة ـ أو وظيفة كاتب في متجر، أو مقاتل في الحرب العالمية الأولى.

وحق لثريا ملحس أن تقول: إن ميخائيل نعيمة عرف كنه الحياة، فآثر الروح على المادة، واختار حياة الصفاء والنقاء على حياة الأوطار والأغراض.

أما الناقد الشديد المراس كعدي فرهود كعدي فقد قام بمحاولة نقدية لعلها الأولى من هذه الشاكلة في الأدب المعاصر. إذ إنه تتبع آثار ميخائيل نعيمة جميعاً وهمه ووكده أن يتقصى كل ما فيها من تناقض وتضارب، فخرج من هذا الاستقصاء بمحصول كبير أنزل ميخائيل نعيمة من سدته العليا إلى منزلة الإنسان الكثير النقائص. وأقول للكعدي: أهلا بنعيمة إنساناً بين الأناسي، وأكرم بنعيمة مبشراً سوياً فيه جميع العيوب الإنسانية إذ تحصى المعايب، وفيه جميع المزايا الإنسانية إذ تشرئب اليها طوال الأعناق. والتناقض حادث في كل شيء، في سواد الليل وبياض النهار، في برد الشتاء وحر الصيف، في الصحة والمرض وهلم جرا. ولا يكاد يعرف في الدنيا مفكر جاس مناحي التفكير، وقلب الرأي في الأسباب والمسببات إلا قال ما عاد فناقضه، ودعا إلى شيء في مرحلة ثم عدل عنه في مرحلة. ولا أقيس إلا على نفسي، فلو راجعت ما كتبته قبل ستين عاماً يوم حملت القلم لأول مرة، وما كتبته أول من أمس، لألفيتني أكبر الناس تناقضا. ولعل من غريب أطواري أو تناقضي، أنني كنت في كل عمري صديق الأضداد: صادقت سلامة موسى، وصادقت خصوم سلامة موسى. صادقت إسماعيل مظهر، وصادقت مناوئي إسماعيل مظهر. وصادقت سيد قطب وكذلك مخاصميه، وصادقت أحمد حسن الزيات والخارجين عليه، وصادقت نقولا الحداد والذين خالفوه الرأي، وصادقت الدكتور فارس نمر باشا وكذلك الذين كانوا حرباً عليه. وكان الشيخ محمود أبو رية من أعز أصدقائي، وكان مهاجموه يؤمونني. كما عرفت زكي مبارك وعرفت جميع الذين هاجمهم كطه حسين وأحمد أمين والسباعي بيومي. ومن وقت قريب قامت حرب أدبية ضروس بين أعلام المهجر: القروي وفرحات وصيدح، كانت في ضراوتها بسوساً جديدة مفزعة، ومع هذا لم أفقد صداقة ثلاثتهم.

أفيكون هذا تضارباً؟ ربما. ولكنني ـ على اعترافي بوجود هذا التضارب الصارخ في آراء ميخائيل نعيمة مما ساقه كعدي فرهود كعدي في قافلة طويلة من الاستشهادات ـ فلست أراه إلا برهاناً على أن نعيمة في إنسانيته الأصيلة قد كان صادقاً

مع نفسه، فأتى بالرأي وعززه بالحجج المقنعة، حتى إذا ما فلسف الحياة وعرف حكمتها الباقية اتخذ رأياً سواه، ثم حشد له طائفة مسكتة من الحجج الأخرى.

فالكعدي مشكور على مسعاه. وعلى جبينه ينعقد الثناء مضاعفاً، أولاً لأنه ـ وهو رجل القانون الفذ ـ قد صرف إلى الأدب هذا الجهد الجهيد، وقرأ آثار النعيمي لا قراءة عجلان بل قراءة ناقد ينشد الحقيقة في كل سطر هي وراءه خبيئة. وهو مشكور ثانياً لأنه عاد إلينا بعد طول المطاف ليضع أمامنا حقيقة اكتشفها وهي أن ميخائيل نعيمة إنسان مثلنا. وما كان ميخائيل نعيمة في كل عمره إلا ذلك الإنسان الذي يريد السلم فتسخره الدنيا في خدمة الحرب، يريد الأدب والفكر فتطرحه حظوظه بين آلات المكاتب وعروض التجارة. يريد الحب، فتجرعه الدنيا مراراته.

لقد كانت حياة ميخائيل نعيمة الأولى سلسلة من المثبطات المحبطة لكل رجاء، مما اعترف به تفصيلاً في سيرة حياته. فهل كان في كل ذلك إلا إنساناً يضطرب في خضم الحياة أعنف اضطراب وأشده؟

وأعتقد صادقاً أن كتاب الكعدي وثيقة نقدية شريفة. فلا أقارنه «بسفود» الرافعي، ولا بغيره من كتب النقد التي تجاوزت حدود الأدب. وحسبه فضيلة أن كتابه يحمل في تضاعيفه معاني الإجلال لميخائيل نعيمة، ولا يتنكب عن سكك الأدب في شيء. وسيبقى ميخائيل نعيمة بفضل كعدي فرهود كعدي ـ وبرغمه ـ أديباً إنساناً أقام مجده على دعائم من الأصالة والاستبصار والدراية العميقة بتيارات الفكر العالمي، والقدرة الخلاقة شعراً وروائية، والتعاطف الإنساني الذي يتخطى الحواجز.

وفي تحيتي لنعيمة التي صدّرت بها هذا الحديث المستطرد، خالفته في ثلاثة أمور، دون أن يقلل ذلك من احترامي له كأديب مترامي الفضل. فخالفته في عقيدة التناسخ التي نادى بها في بعض آثاره وأشار إليها في سيرته، وخالفته في مجافاته للمرأة على ضعفه الشديد تلقاء سحرها مما أبدع تصويره في مراحل عمره المختلفة، وخالفته في رأيه المعلن عن قضية فلسطين. ولعلي أجد في ثنايا آراء نعيمة كثيراً من الآراء التي تدعوني إلى معارضتها بما يشبه التحريض، ولكن هذا كله يظل في ميدان حرية الفكر أمارة على الصحة، ودليلاً على الحيوية، ويظل أديبنا النعيمي الكبير وناقدنا الكعدي الأصيل أهلاً لاحترام تفرضه علينا رسالة الأدب الصحيح.

ولا أظن ميخائيل نعيمة يتوقع من الناس جميعاً أن توافقه في كل رأي. فكل رأي يحتمل وجهين بل وجوهاً، والناس أحرار في أن تذهب هذا المذهب أو ذاك. فلنعيمة قصيدة تاريخية عنوانها «أخي» كان قد نظمها والمجاعة تطحن لبنان قال فيها:

أَخِي إِنْ عَادَ بَعْدَ الحَرْبِ جُنْدِيٌّ لِأَوْطَانِهْ
وَأَلْقَىٰ جِسْمَهُ المَنْهُوْكَ فِي أَحْضَانِ خِلّانِهْ
فَلا تَطْلُبْ إذا مَا عُدْتَ لِلأَوْطَانِ خِلّانا
لأنَّ الجُوْعَ لَمْ يَتْرُكْ لَنَا صَحْباً نُنَاجِيْهِمْ

وجاء في مقطعها الأخير:

أَخِي مَنْ نَحْنُ؟ لَا وَطَنٌ، وَلا أَهْلٌ ولا جَارُ
إذا نِمْنَا، إذا قُمْنَا، رَدَانا الخِزْيُ والعَارُ
لَقَدْ خَمَّتْ بِنَا الدُّنْيا، كَمَا خَمَّتْ بِمَوْتَانَا
فَهَاتِ الرَّفْشَ واتْبَعْنِي لِنَحْفِرَ خَنْدَقاً آخَرْ
نُوَارِي فِيْهِ أَحْيَانَا!

وقد تنوقلت هذه القصيدة في صحف كثيرة. فلما أطلع عليها الشاعر الشاب - وقتئذٍ - شفيق إلياس سليمان، والذي صار من كبار المحامين في مصر، نظم على شاكلتها أبياتاً جاء فيها:

أَخِي إِنْ ذُلَّ بَعْدِ العِزِّ شَرْقِيٌّ وإنْ هَانَا
فلا تَبْكِ لِمَا نَلْقَىٰ ولا تَجْزَعِ لِبَلْوَانَا
فَقَدْ كُنَّا وما كَانُوْا، وما هذا الذي كَانَا
سِوَى إغفاءةِ المَنْهُوْكِ يَقْضِيْهَا ولا يَدْرِي
أَنَامَ المَجْدُ أَمْ خَانَا

وهي أبيات وافق الشاعر فيها بعض ما ذهب إليه النعيمي وخالفه في بعضها الآخر، دون أن يكتم إعجابه به وبصياغته الجديدة في هذه الأبيات الجيدة المحاكاة.

أما الكتاب الثالث فقد كان دراسة جامعية أجيزت على المستويات الأكاديمية ونال عنها صاحبها شفيع السيد درجة الماجستير من كلية دار العلوم

بجامعة القاهرة. والكتاب بحث موضوعي في تقييم ميخائيل نعيمة مفكراً وشاعراً وروائياً وناقداً ذا منهج غربالي خاص. وإذا كان هذا هو العمل البكر لشفيع السيد، فمؤكد أنه سيحتل في وقت قصير جداً منزلة الصدارة في دراساتنا الأدبية والنقدية، لأنه إلى إلمامه المستوعب بمذاهب النقد واتجاهاته في الأدبين العربي والغربي، يتحلى بذوق أدبي رفيع يحتكم إليه في كل قضية أدبية، وله قدرة أستاذية على الإنصاف القائم على الموضوعية. ثم إن له من دراساته العروضية والنحوية ما يعينه على توخي الحق في التطبيقات الشعرية والنقدية.

وليس في الكتاب ما يدل على أن واضعه اتصل بمخائيل نعيمة أو استفسر منه عن جانب غمض عليه، وإنما فيه كل الأدلة على أن شفيع السيد قد قرأ جميع كتب ميخائيل نعيمة ونسبة كبيرة من الكتب التي تناولته بالتقييم والدرس، فجاءت آراؤه بنت التحقيق الشخصي في الكتب والدوريات وحدها. وليت الكاتب استعان بالأديب ميخائيل نعيمة حياً كما استعان به مسطوراً، إذن لتكاملت لدراسته ناحيتا المراجع المدونة والمرجع الحي الأصيل، أي نعيمة نفسه.

ولا أدري لم لم يقف الناقد شفيع السيد عند قصيدة «الطمأنينة» لميخائيل نعيمة ويجري مقابلة بينها وبين قصيدة «شهوة الموت» للشاعر إلياس أبو شبكة. فلو فعل، لأدرك أن واحداً من الشاعرين تأثر بالآخر على نحو من الأنحاء.

فميخائيل نعيمة يقول:

بَابُ قَلْبِي حَصِيْن ... مِنْ صُنُوْفِ الكَدَرْ
فَاهْجِمِي يا هُمُوْمُ ... فِي المَسَاءِ والسَّحَرْ
وازْحَفِي يا نُحُوسْ ... بالشَّقَا والضَّجَرْ
وانْزِلِي بالأُلُوف ... يا خُطُوْبَ البَشَرْ
بابُ قَلْبِي حَصِيْن ... مِنْ صُنُوْفِ الكَدَرْ

أما إلياس أبو شبكة فيقول:

نَاقِمٌ على السَّمَاء ... حَاقِدٌ على البَشَرْ
سَاخِطٌ على القَضَاء ... ثَائِرٌ على القَدَرْ
غَيْرَ قَطْرَةِ المَسَاءْ ... لَا أُحِبُّ فِي السَّحَرْ

صَـرْتُ أَمْـقُـتُ الـصَّـفَـاءْ صِـرْتُ أَعْـشَـقُ الـكَـدَرْ
غَـيْـرَ مَـشْـهِـد الـدِّمَـاءْ لا أُحِـبُّ الـصُّـوَرْ
نَـاقِـمٌ عـلـى الـسَّـمَـاءْ وحَـاقِـدٌ عَـلـىٰ الـبَـشَـرْ!

ولئن كان نعيمة متفائلاً تفاؤل المؤمن الواثق بأن باب قلبه حصين من صنوف الكدر، فإن إلياس أبو شبكة متشائم تشاؤماً أسود حتى كره كل المشاهد إلا مشهد الدماء، وحتى بات يمقت الصفاء ويعشق الكدر. ومع هذا، فقارىء هاتين المقطوعتين لا يملك إلا أن يلحظ تشابه الألفاظ والقوافي، وتكررها هنا وهناك، مع إبداع الشاعرين كلٍّ برؤاه الخاصة.

وقد لاحظت أن الدارسين لميخائيل نعيمة فاتتهم في وصفه رائعة من روائع الشعر المعاصر أنشدها شاعر مصر الكبير محمود أبو الوفا حين تلقى في وقت واحد رسالتين كريمتين، واحدة من الدكتور أحمد زكي أبي شادي وواحدة من ميخائيل نعيمة. وكان أبو الوفا يعاني جحوداً من بني عشيرته، والقيم تترنح أمام مخيلته، فقال من قصيدة طويلة عنوانها «أمواج»:

مَنْ لِي بِحَضٍّ (أبي شادي) وصُحْبَتِهِ لَكَانَ لِي الآنَ مِنْ دُنْيَايَ حَظَّانِ
يَا لَيْتَ بَيْعَةَ (مِيْخَائِيْلَ) عَنْ كَثَبٍ يا لَيْتَنِي كُنْتُ مِنْ أَصْحَابِ (جُبْرَانِ)
إذنْ لمَا كانَ لِي عِنْدَ السُّهَىٰ أَرَبٌ إذ مَا أَنَا والسُّهَىٰ إلا نَجِيَّانِ
(مِيْخَا) نَجِيُّكَ، قُلْ: ماذا تَجِيْءُ بِهِ مِنْ أَيِّ إنْجِيْلٍ أَوْ مِنْ أَيِّ قُرْآنِ
أو مِنْهُمَا أنتَ قَدْ أَبْدعْتَ واحِدَةً شَرْقِيَّةَ الرُّوْحِ مِنْ تَصْوِيْرِ رُوْحَانِي
يا صَاحِبِي وَإِلَيْكَ الرُّوْحُ مُتَّجِهٌ كَأَنَّهُ هَارِبٌ مِنْ وَجْهِ سَجَّانِ
يا آلَ لُبْنَانَ، كَمْ قَلْبِي يُحِبُّكُمُو حَتَّى تَمَنَّيْتُ لَوْ أَنِّي ابنُ لُبْنَانِ
ولو أُخيَّرُ في الأَقْوَامِ أَيُّهُمُو أَحَقُّ بي، قلتُ: كلُّ الناسِ إخوانِي
وَطَنِي هُوَ الأَرْضُ، كلُّ الأَرْضِ لي وَطَنٌ أُحِبُّهَا كُلُّهَا حُبِّي لِأَوْطَانِي
يا صَاحِبِي إنْ تَسَلْ عَنِّي أَنَا فَأَنَا يا صَاحِبِي لَسْتُ شَيْئاً غَيْرَ إنْسَانِ
كُنْ حَيْثُ شِئْتَ، فَإِنِّي لا أراكَ سوَى إنسانَ عَيْنِي، وَإلا عَيْنَ إِنْسَانِي
أنا وأنتَ كِلانا عَيْنُ صَاحِبِهِ ونَحْنُ في عَيْنِ دُنْيَانَا نَزِيْلانِ

وهي قصيدة لشاعر إنسان خاطب بها النعيمي الإنسان وأبا شادي وهو إنسان.

نجيب العقيقي

كانت المآرب الصحافية تقتضيني غشيان كثير من المجتمعات والدور الرسمية والمنظمات الدولية والإقليمية، ومنها جامعة الدول العربية التي تواتر تردّدي على مكاتبها منذ نشأتها في عام ١٩٤٥، وكانت وقتها تحتلّ دارها القديمة (المهترئة) في شارع البستان ـ وقد هُدمت الآن، وأقيم في مكانها مركز تجاري كبير ـ قبل أن تنتقل إلى دارها المشمخرة في ميدان التحرير التي تطلّ من إحدى واجهاتها على النيل، ومن واجهة أخرى على مبنى وزارة الخارجية المصرية القديم ومن واجهة ثالثة على فندق النيل هيلتون. وكانت الإدارة الثقافية بالجامعة العربية (قبل أن تتطور وتظفر باستقلال ذاتي باسم المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ثم تنتقل إلى مقر في ميدان الدقي وتستقر نهائياً في تونس) هي قِبْلتي الأولى، لأنها كانت معنيّة بالنشاط الثقافي على الصعيد العربي إدراكاً منها بأن الثقافة ليس عليها خلاف في حين تختلف أمصارُ العرب على كل ما عدا ذلك من ميادين.

وأذكر في هذا السياق أن الدكتور ناظم القدسي (١٩٠٦ ـ ١٩٩٨) رئيس وزراء سورية ورئيس جمهوريتها الأسبق، زار مصر في شهر كانون الثاني/ يناير ١٩٥١ ـ ولم تكن له إذ ذاك أي صفة رسمية ـ وطلع على الناس بمشروع لتحقيق الوحدة العربية الشاملة الجامعة بين عشية وضحاها. فعقدتُ حول هذا المشروع تسعاً من مقالات الصدر في جريدة «المقطم» قلتُ فيها: إن القدسيّ بدأ من نقطة الاختلاف، وهي السياسة، ولم يبدأ من نقطة الاتفاق، وهي الثقافة التي يكاد ينعقد عليها الاجماع في الأقطار العربية كلها. ولهذا انتهى مشروع القدسي كما انتهت جميع مشروعات الاتحاد أو الوحدة العربية إلى الفشل الذريع، ولم يؤيده في ذلك إلّا ساطع الحصري (١٨٨٠ ـ ١٩٦٨) الذي سفّه آرائي في واحدٍ من كتبه.

استطردتُ إلى هذا الحديث المتقدّم لأقول إنني التقيت في هذه الإدارة الثقافية للمرة الأولى بنجيب العقيقي الذي كان يؤمن بضرورة إعلاء قدر الثقافة على كل ما عداها، والذي عمل في سبيل تحقيق ذلك من خلال وظيفته المسندة إليه في هذه الإدارة، ثم من خلال مصنفاته الرائدة. وأدركتُ من لهجته الواضحة أنه لبناني لا غشَّ فيه، ترتسم على وجهه بشاشة دائمة، ويستقبلك بعاطفة جياشة، وروح مرحة، ورغبةٍ في تقديم العون حتى وإن لم تقم بينك وبينه معرفة سابقة، وما أسرع ما ينهض إلى خزائن مطبوعات الإدارة فيختار منها نماذج من الكتب يقدّمها إليك بأريحية تلقائية، فلا يلبث المرء أن ينجذب إلى هذا الإنسان الودود برقة شمائله، وعذب حديثه مع جمالٍ في نبرة صوته يحكي جمال ملامحه. كان أَمْيَلَ إلى القِصَر مع اعتدالٍ في القوام، ربّما لأنه خاصم السيارات طوال إقامته في القاهرة إيثاراً لرياضة المشي، بل لقد خاصم حتى الهاتف فلم يدخل داره لا وهو يقيم في حيّ الفجالة ـ حيّ المكتبات ودور النشر ـ عند نزوحه من لبنان للمرّة الأولى، ولا وهو يقيم في حي الفلكي وسط مقار الوزارات ومجلس الشعب. بل خاصم الصور الفوتوغرافية، فلم أصادف له صورةً منشورة، ولا اختصَّني بإحدى صوره.

ولد نجيب العقيقي في كفرذبيان في جبل لبنان في الثامن من نيسان/ إبريل ١٩١٦، وتعلّم في معاهد القرية قبل أن يلتمس تعليمه العالي في العاصمة اللبنانية، وعمل بعد ذلك بالتدريس والصحافة بعدما أجاد اللغتين العربية والفرنسية إجادةً تامة، وداعبت خياله، وهو ما زال في شرخ الشباب، أحلامُ المجد الأدبي ينشده في ديار الهجرة، فقرر النزوح إلى مصر في حين كان أقرانٌ له يركبون متون البحار إلى العالم الجديد نشداناً للثراء الماديّ. وكانت الرحلة من بيروت إلى القاهرة قبل شيوع الطائرات تتم إما بحراً إلى ميناء الإسكندرية أو ميناء بورسعيد ومنهما بالقطار إلى القاهرة، أو برّاً سكة الحديد التي كانت تمتد من القاهرة حتى حدود تركية. وكان الركاب في الحالتين يهبطون من القطرات في ميدان محطة مصر (ميدان رمسيس الآن) باحثين عن أقرب فندق متواضع أو نُزُلٍ (بنسيون) يستريحون فيه أياماً ريثما يهتدون إلى بيت ملائم في المنطقة.

ونظراً لقرب حي الفجالة من هذه الفنادق ومن محطة مصر، فقد اختاره معظم الشوام النازحين إلى مصر مكاناً لإقامتهم ومباشرة تجارتهم أو إصدار

مطبوعاتهم كمجلة «الهلال» مثلاً. وفي هذا الحيّ ولدت «دار المعارف» ومنه صدرت القواميس العصرية لإلياس أنطون إلياس (١٨٧٧ ـ ١٩٥٢) وفيه أنشأ سلامة موسى (١٨٨٧ ـ ١٩٥٨) «المجلة الجديدة». وما زالت مكتبات زيدان والبستاني والمعارف تحتلّ مواقعها في شارع الفجالة بعدما أُطلق عليه اسم «شارع كامل صدقي باشا».

وكان أول عمل التحق به نجيب العقيقي في مصر هو التدريس في مدرسة الجزويت، وهي أيضاً في حي الفجالة. حتى إذا ما أُنشئت جامعة الدول العربية وصارت لكل دولة من أعضائها حصَّة من الموظفين، تقدّم العقيقي للعمل فيها على حصة لبنان، وألحق بالإدارة الثقافية التي تدّرج في سلّمها الوظيفي حتى وصل إلى مرتبة مستشار. ولمّا قررت الجامعة الانتقال إلى تونس، آثر العقيقي البقاء في القاهرة متقاعداً قبل سن التقاعد، إذْ كان قد استقر فيها وتزوج في عام ١٩٥٧ من السيدة اليونانية أريستيا ماكي ولم يرزق منها بأبناء، ورغب في أن يتفرغ في سنوات عمره الباقية ـ وحتى تاريخ وفاته بداء القلب بعد نوبات متكررة في الرابع والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨١ ـ لمؤلفاته التي لم تشغله الوظائف عن العكوف عليها بروح العالم المدقّق. وفي هذه الأثناء أنعمت عليه الحكومة اللبنانية بوسام المعارف من الطبقة الأولى ووسام الأرز من مرتبة فارس.

اشتهر نجيب العقيقي بكتابه «المستشرقون»، ولو لم يكن له مؤلفات أخرى لكان حسبه هذا الكتاب فخراً ومجداً. وقد جاءت طبعته الأولى في مجلد واحد، والثانية في مجلدين أما الثالثة فجاءت في ثلاثة مجلدات ضخمة استطاع إنجازها بالاتصال الشخصي بدوائر الاستشراق في جميع دول العالم. وهو قد أطلعني على عشراتٍ من الرسائل التي تلقاها من المشتغلين بالاستشراق، وأثبت في نهاية الجزء الثالث صوراً زنكوغرافية لبعضها. ولا إخالني مبالغاً إذا قلت: إن كتاب العقيقي هو أوفى كتاب ظهر حتى الآن في التأريخ لحركة الاستشراق وأعلامها وفي تسجيل آثار المستشرقين، سواء أكانت فصولاً في مجلّات علمية متخصصة، أم دراسات أكاديمية جامعية، أم كتباً منشورة باللغات المختلفة. وقد ظهر في حياته الجزءان الأول والثاني من هذا الكتاب وظهر الجزء الثالث بعد وفاته، وإنْ كان وقف بنفسه على مراجعة جميع تجارب المطبعة.

كما اشتهر نجيب العقيقي بكتابه «الأدب المقارن» الذي وقعت طبعته الثالثة

في ثلاثة أجزاء كذلك، أجرى في الجزء الأول منها دراسة مقارنة بين الأدبين العربي والفرنسي جنح فيها إلى ترجيح كفة الأدب الأخير، وخصص الجزئين الثاني والثالث لتراجم مختصرة للأدباء والمشتغلين بالفن في مصر والعراق وسورية ولبنان وفلسطين والأردن والمهاجر، كما استقصى آثار الأدباء العرب الذين ألّفوا بلغات أجنبية. وتناول كذلك حركات النشر والصحافة واتجاهات النثر والشعر والمسرح في الأدبيْن العربي والفرنسي.

والحق أن هذين الكتابين الضخمين هما من الأعمال الموسوعية الموثقة الجليلة، لأن العقيقي سجل فيهما ببصر الأديب ودقة العالم جميع البيانات الببليوغرافية وتواريخها تسجيلاً يورث الثقة تماماً. ومن هنا رجوعي الدائم إلى هذين المرجعين النفيسين كلمّا أعوزني الاستيثاق من عنوان كتاب أو تاريخ ميلاد أديب أو وفاته أو اسم مستشرق أجنبي. ولا غرو أن يقول مخائيل نعيمة (١٨٨٩ ـ ١٩٨٨) عن العقيقي «لو كنت ممن يأبهون للألقاب العلمية فكان لي حق منحها وعُرض عليّ «المستشرقون» لما تأخرت لحظةً واحدةً في منح مؤلفه لقب دكتور في الأدب». ولا غرو أيضاً أن تقول وداد سكاكيني (١٩١٣ ـ ١٩٩١) عن كتاب «الأدب المقارن»: «نستطيع بهذه الدراسة أن ندلّ على عبقرية لغتنا وعالمية أدبها، إذ لا يُتاح لمباهجه وروائعه أنه يظهر رونقها وفنونها إلّا إذا قورنت بنظائرها في الآداب الأخرى... وكم يعوزنا في هذا الأدب أن نمدّ الأعين والأيدي إلى روائع الآداب العالمية، شرقية وغربية، لنجد فيها التشابه والتطابق في مطالع الفن والإبداع بينها وبين أمثالها في أدبنا القديم والجديد».

ولكن نجيب العقيقي لم يقتصر على هذه الدراسات الأكاديمية، وإنّما أضاف إليها من مبتدعاته ثلاث روايات منشورة هي «أرض المستنقعات» و«برج بابل» و«أرض الله» ورواية رابعة غير منشورة عنوانها «الميت الحيّ»، وقد أطلعني عليها في حينها فلم أشجّعه على نشرها لأنها، وإنْ كانت عملاً روائياً، إلّا أنها تتناول في تضاعيفها قضايا غير روائية يشتدّ حولها الجدل. وأشكّ كثيراً في أن تكون هذه الرواية قد عرفت طريقها إلى المطبعة بعد وفاته.

وإذا كانت رواية «أرض المستنقعات» مستوحاةً من البيئة اللبنانية، فإن رواية «برج بابل» مستوحاة من المفارقات بين البيئة اللبنانية والبيئة المصرية، في حين أن رواية «أرض الله» تعالج قضية الإقطاع الزراعي في مصر، وربما يثير هذا

الدهشة، لأن العقيقي لم يعش في ريف مصر، ولا عرف حياة الإقطاع، ولا اختلط بقطاع الفلاحين. ومع ذلك أجاد تصوير هذه القضية تصويراً روائياً وكأنه عايش أبطالها وعانى مشكلاتها.

كان العقيقي يرى أن الجهد الفردّي في العمل الموسوعي أجدى وأسرع إنجازاً من الجهة الجَمْعِيّ، لأن الفرد متى عقد النيَّة على إعداد مرجع ضخم، حدّد أهدافه بنفسه تحديداً قاطعاً، وجمع مادته في ضوء هذه الأهداف، ثم عكف على عمله وفقاً للخطة التي تتراءى له، وبذلك يحقق لعمله التناسق والتوازن المنشودين. وهو عندما قرر إعداد كتاب «الأدب المقارن» الذي ضمّنه تراجم مركّزة ـ وإنْ تكن وافية ـ لعشرات من الأدباء، انطلق من سنواتٍ بعيدة يسجّل كل ما يعرف عن هؤلاء الأدباء من معلومات، سواء من حيث تواريخ الميلاد أو الوفاة، أو من حيث الجنسية الأصلية، إذ ردّ كل أديب إلى جنسيته عند الميلاد. فخليل مطران (١٨٧٢ ـ ١٩٤٩) وحبيب جاماتي (١٨٨٧ ـ ١٩٦٨) وأسعد داغر (١٨٨٦ ـ ١٩٥٨) وإبراهيم المصري (١٩٠٠ ـ ١٩٧٩) لبنانيون، وخليل شيبوب (١٨٩٢ ـ ١٩٥١) وشقيقه صديق شيبوب (١٨٩٣ ـ ١٩٦٥) سوريان برغم تمتع هؤلاء جميعاً بالجنسية المصرية، وفؤاد الخطيب (١٨٨٠ ـ ١٩٥٧) لبناني وخير الدين الزركلي (١٨٩٣ ـ ١٩٧٦) سوري على الرغم من أنهما كانا سفيرين سعوديين يتمتعان بالجنسية السعودية، وهلم جرا. بل طبق هذا التصنيف عينه على المهجريين أياً كان البلد الذي اختاروه لهجرتهم واكتساب جنسيته.

ولمّا سألت العقيقي عن سبب إغفاله لأقطار المغرب العربي والجزيرة العربية والسودان في تسجيل هذه التراجم الببليوغرافية قال: «كلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلق له. فانصرفت من ناحيتي إلى ما يُسِّر لي وتَيَسَّر من تراجم أدباء البلدان التي عُنيت بها، ومَنْ شاء أن يستكمل عملي فليضطلع به على وجه أكمل ممّا لو اضطلعت أنا به». وأشار في هذا المقام إلى العمل الموسوعي الضخم الذي أنجزه العلَّامة العراقي كوركيس عوّاد (١٩٠٨ ـ ١٩٩٢) في ثلاثة أجزاء عن أدباء العراق بعنوان «معجم المؤلفين العراقيين»، وإلى العمل الموسّع الذي اضطلع به العلامة اللبناني يوسف أسعد داغر (١٨٩٩ ـ ١٩٨١) بعنوان «مصادر الدراسة الأدبية» وقد صدرت منه في حياته ثلاثة أجزاء في أربعة مجلدات وصدر بعد وفاته جزء رابع من هذا المرجع الفريد.

وسألت العقيقي عن احتمالات الخطأ في مثل هذه الأعمال التي يضطلع بها أفراد روّاد مجتهدون، فقال: «عن نفسي لا أجد غضاضة في عرض المادة التي جمعتُ فرائدها على مَنْ أتوسّم فيه القدرة على إرشادي، وقد انتفعت بملاحظات كثيرة أبديت لي في ضبط مادّتي، فاستدركتُ الفوات، وصحّحت الوقائع التاريخية، وأضفت الكتب الجديدة التي لم يصل إليّ خبر صدورها بالنسبة لأي من المترجم لهم، وبذلت عنايةً مضاعفة في المراجعة النهائية لتجارب المطبعة، إدراكاً مني بأن رأس مالي هو الثقة التي يضعها القارئ في البيانات التي يستقيها مني».

وقلت لنجيب العقيقي ممازحاً: «ولكنْ، لِمَ تجاهلتَ نجيب العقيقي في تراجمك؟ أَتُرَاكَ لم تعترف به أديباً يستحق أن يندرج بين مئاتٍ من الأدباء الذين تقصّيت أخبارهم حتى في قارات الدنيا البعيدة؟». فأجاب ضاحكاً، وما أكثر ما كنت أراه يضحك للدنيا كلمّا ارتطم بشيء من مهازلها: «لقد تركت سيرتي الذاتية في عهدتك، تسجّلها أنت في الوقت الذي يروق لك؛ لأنني أكثر الناس عجزاً عن تسجيل شريط حياتي. فأنا أريد للناس أن ينظروا إلى عملي وليس إلى شخصي، ولعلّك تلاحظ أنني لا أسلك كالباقين فأصف نفسي بالمستشار، وهي المرتبة الوظيفية التي بلغتها في عملي في الجامعة العربية. فما حاجتي إلى هذه الألقاب التي يتباهى بها القوم، ويكفيني اسمي المجرد الذي يمثل أكبر قيمة أعتزّ بها».

ورحبّت غير مرّة بقراءة مخطوطات كتب نجيب العقيقي، ولا سيما عندما أصيب بداء القلب للمرة الأولى ونهاه الأطباء عن جميع مآرب الأدب. ولم يضق أبداً بأي ملاحظة أبديتها له لأنه، إن كان هو عاش في صومعة النسك، فقد عشت ـ ولو في مرحلة مبكرة من العمر ـ في معترك الحياة الأدبية، فعرفت معظم الأعلام الذين عاصرتهم، واتصلت بيني وبينهم الوشائج. كما أن العقيقي، بسبب عدم تمكنّه من اللغة الإنكليزية. كان يقصدني كلما تلقى رسالةً بهذه اللغة من واحد من المستشرقين أو من مركز من مراكز الاستشراق الناطقة باللغة الإنكليزية.

والحقيقة التي لا يختلف عليها مُنصف هي أن نجيب العقيقي استطاع بعمله الموسوعي أن يمهّد أمام الباحثين الجادّين طرقاً سلطانية. ولو قارنا مثلاً بين كتاب «المستشرقون» للدكتور محمد النويهي (١٩١٧ ـ ١٩٨٠) وكتاب العقيقي

الموسوعي الضخم، لما وجدنا أصلاً وجهاً للمقارنة بين عمل شبه بدائي وعمل فريد في ضخامته. صحيح أن معظم الكتب التي صدرت عن الاستشراق عُنيت بمناقشة آراء المستشرقين ومذاهبهم في التفكير، ولكن لم يتأتَّ لأي باحث تسجيل التاريخ المفصّل للمستشرقين وآثارهم على النحو الموسّع الذي اجترحه نجيب العقيقي.

وعلى كثرة الدراسات المنشورة هنا وهنالك عن الرواية العربية، فالملاحظ أن روايات العقيقي الثلاث المنشورة لم تظفر من الباحثين بأي اهتمام، مع أنها استقبلت يوم صدورها استقبالاً طيّباً من أمثال محمود تيمور (١٨٩٤ ـ ١٩٧٣) وإبراهيم المصري (١٩٠٠ ـ ١٩٧٩) ومحمد عبد الغني حسن (١٩٠٧ ـ ١٩٨٥) وسواهم، وهو إغفال يُرجى تداركه في الدراسات العتيدة بأن تظهر حول الرواية العربية.

عاش نجيب العقيقي في تواضع الصمت، وانسحب من الدنيا بمثل هذا التواضع البليغ. فقد راجعتُ عدداً من المجلات الأدبية في الفترة التالية لوفاته، فلم أقع فيها إلّا على خبر موجز عن رحيله في مجلة «الأديب» اللبنانية ومجلة «الثقافة» المصرية، وهذا هو كلّ حظ نجيب العقيقي من دنيا الفكر التي خدمها أشرف خدمة. وعسى أن أكون قد أنصفته بهذه الكلم القصار.

❁ ❁ ❁

نجيب محفوظ عبد العزيز في بداياته

أحاول في هذا الحديث أن أصوّر الجوّ العام الذي عاشته القاهرة في أثناء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥)، وهي صور أمتاحها من معين الذاكرة دون الاستهداء بأي مرجع ـ إن كانت هناك مراجع لا أعرفها سجلت هذه الصور الواقعية في الفترة التي شهدت الولادة الأدبية لنجيب محفوظ وأقرانه في «لجنة النشر للجامعيين».

كان الإظلام الدامس مفروضاً على القاهرة، فالأوامر المشدّدة تقضي بطلاء جميع مصابيح الكاز في الشوارع باللون الأزرق (ولم تكن مصابيح الكهرباء قد عُمِّمت)، كما تقضي بإحكام إغلاق النوافذ والأبواب المنزلية مع طلائها بهذا اللون حتى لا ينبعث منها في الليالي أي ضوء تراه طائرات العدو. وكان متطوعو الدفاع المدني يطوفون بالشوارع ليلاً لتنبيه السكان إلى سدّ منافذ الضوء كلما رأوا بصيصاً منبعثاً من أيّها. وكانت سماء القاهرة تسلط عليها الأضواء الكاشفة لرصد أي تسلّل محتمل للطائرات المعادية إلى الفضاء المصري. وكانت شوارع القاهرة تشكو قلّة السابلة ليلاً، إذ لزم معظمهم الدور خشية أن تفاجئهم صفارات الإنذار التي تنطلق في أي لحظة مؤذنة باحتمال وقوع إغارة جوية، فيهرع الناس إلى المخابئ التي أنشئت على عجل في «بدرومات» المنازل أو «مرآئب» السيارات أو في الحدائق والساحات في أماكن شتى من العاصمة وضواحيها، فيزدحم الناس في هذه المخابئ كالسردين وهم في حالة ذعر من القنابل التي كانت الطائرات المعادية تلقيها عشوائياً، وقد أصابت فعلاً عدداً من المباني في الأحياء الآهلة بالسكان. وفي حين كانت الشوارع تقفر من المدنيين ليلاً. كانت تعجّ «بجنود الحليفة» المخمورين الذين كانوا يتصرفون وكأنهم على موعد مع القدر في ساحة القتال في اليوم التالي. وهؤلاء ـ وهم خليط من الذين جندوا في المستعمرات البريطانية ـ الهند ونيوزيلندة وأسترالية وجنوب إفريقية ـ وفي المستعمرات الفرنسية ـ إفريقية الاستوائية وساحل العاج وسييراليون وغينية... إلخ ـ كانوا يزحمون

الحانات المهيّأة لتبريد الهموم، ويغشون المراقص المزدانة للترفيه عنهم، ويتحرّشون تحرشاً فاسقاً بكل أنثى يصادفونها في الطريق. وكانت دور السينما تشكو البوار لقلة عدد المترددين عليها إلّا من «جنود الحليفة»، وبعضهم لا تفارقه زجاجة الخمر، يحتسيه وهو جالس بين الصفوف.

وأنشئت في مصر للمرة الأولى والأخيرة وزارة جديدة هي «وزارة الوقاية» وكان عملها الإشراف على تأمين المرافق والسكان من مخاطر الحرب، وتوزيع كمامات الأفواه على المواطنين تحسباً من استخدام الغازات السامة ضدّهم، وقامت بترحيل سكان المدن الكبرى إلى الصعيد الجنوبي عندما بات القائد الألماني روميل يزحف صوب العلمين ويدقّ أبواب الإسكندرية.

وفرضت ظروف الحرب وندرة الاستيراد تخفيض عدد صفحات الصحف من ٢٤ صفحة بخمسة مليمات ـ رُفعت بعد ذلك إلى عشرة مليمات ـ إلى أربع صفحات تزيد إلى ست صفحات مرةً في الأسبوع، مع الالتزام بالاحتجاب يوماً في كل أسبوع. وكان ورق الصحف مقنناً، توزّعه الحكومة ـ حتى ما كان منها مستورداً بمعرفة الصحف نفسها ـ بناءً على جرايات تتمشى مع أرقام توزيع كل جريدة.

وكانت «الأهرام» لآل تقلا ورياسة تحرير أنطون الجميّل باشا وجريدة «المصري» لصاحبها محمود أبي الفتح أكبر جريدتين صباحيتيْن في ذلك الوقت، وكانت بينهما منافسة جادّة على الاستئثار بأكبر نصيب من القراء، ولا سيّما لأن القارئ المصري ـ وهو في الأغلب موظف في الحكومة أو في الشركات ـ كان يكتفي بقراءة جريدة صباحية واحدة، فيفاضل يومياً بين هذه الجريدة وتلك تحت إغراء العناوين التي تتصدر الصفحة الأولى. وقد توافقت الجريدتان على أن تحتجب إحداهما في يوم الجمعة من كل أسبوع، فتنفرد الثانية بالسوق صادرةً في ست صفحات، وتحتجب الثانية في أيام السبت، فتستقلّ الأولى بالسوق صادرةً بدورها في ست صفحات.

وارتأت جريدة «المصري» أن اليوم الذي تنفرد فيه بالسوق وبالقرّاء هو فرصتها الذهبية للاستحواذ على أكبر عددٍ من القراء والاحتفاظ بهم بصورة دائمة. فقرّرت تقديم مادة أدبية رفيعة في الصفحة السادسة يجدُ فيها القراء متنفساً من

أخبار الحرب الكئيبة من تدمير وقتل وإغراق للسفن والغواصات وإسقاط للطائرات وتشريد للأهلين، وغير ذلك من مفازع الحروب، فكانت هذه الصفحة واحة للقارئ يستجير بها من هجير السياسة ولا سيّما لأن «المصري» عهدت إلى ثلاثة من الأدباء الشبان الموهوبين في تحرير هذه الصفحة الأخيرة وهم سعد مكاوي، وعبد الرحمن صادق، وعبد الرحمن الخميسي. فكانوا يتناوبون نشر إنتاجهم من أقاصيص مؤلفة أو مترجمة في هذه الصفحة، ممّا أكسبهم شهرةً عريضة، ولا سيما لأنهم، برغم شبابهم، كانوا يمثّلون فعلاً طبقةٍ رفيعة من الكتّاب الواعدين. أما عبد الرحمن الخميسي، فقد اختار أن يُعيد صياغة «ألف ليلة وليلة» بأسلوب أدبي عصري جذّاب، ظفر بإعجاب كاسح من القراء، حتى إن جريدة «المصري» كانت تتلقى من مصلحة البريد «زكائب» كاملة من رسائل المعجبين بهذه الحلقات. وكلما واصل الخميسي كتابتها، تزايد عدد «الزكائب»، ممّا رفع من منزلته لا في عيون القرّاء وحسب، بل كذلك في عيون الجريدة نفسها، فازدادت حرصاً عليه وسخت عليه بأسباب التقدير المادية فضلاً عن المعنوية.

وكان السبب في هذه الإقبال العظيم على الصفحة الأخيرة من «المصري» أن الناس كانت في شبه لهفةٍ على تزجية أوقات الفراغ الطويلة بسبب ظروف الحرب. فارتياد دور التسلية من سينما وغيرها كان محفوفاً بالقلق والخوف، ولم يكن هناك تليفزيون أو «دش» يجلب التسلية إلى عقر الدار، وكانت الإذاعة ـ وهي إذ ذاك تابعة لوزارة الشؤون الاجتماعية لا وزارة الإعلام ـ تقتصر على محطة واحدة تكاد تكون حكراً على إذاعة أخبار الحرب وتعليقات المعلقين عليها من أمثال عباس محمود العقاد، والدكتور محمود عزمي، وإبراهيم عبد القادر المازني، وفؤاد صرّوف.

أما الإذاعات الخارجية، فكان التقاطها عسيراً بسبب عمليات التشويش والتشويش المضاد على أكبر محطتين في ذلك الحين، وهما راديو لندن وراديو برلين الذي كان يجلجل منه صوت يونس بحري باللغة العربية، واللورد هاوهاو باللغة الإنكليزية ـ وواضح أن هاوهاو اسم مستعار لمذيع ألماني يجيد تقليد اللهجة الإنكليزية.

هذا الجوّ الكئيب الذي ران على الحياة في مصر عموماً، ولا سيما في

القاهرة والمدن، أصاب الناس بالملل والضجر، فصحف الصباح تقرأ في دقائق، والإذاعة تورث الهمّ بما تبثّه من أخبار المعارك البرية والبحرية والجوية، وجميع أسباب الترفيه ممتنعة إلّا من صنوف الألعاب المنزلية كالنرد وورق اللعب والشطرنج والدومينو وما إليها. وكان المنفذ الوحيد للخروج من هذا الضجر هو القراءة الأدبية التي بات الجوّ مُهيئاً لها تماماً.

وكان من أسبق الخائضين في هذا المجال الصحفيّ الأديب أحمد الصاوي محمد، الذي قذف في السوق بسلسلةٍ من الكتب الشعبية التي ألفها وترجمها، فتهافت الناس على اقتنائها حتى قيل يومها إنه اشترى ضيعةً من إيرادات هذه الكتب. وقررت دار المعارف بدورها إصدار سلسلة «إقرأ» الشهرية فكانت حلقتها الأولى هي رواية «أحلام شهرزاد» للدكتور طه حسين التي صدرت في شباط (فبراير) ١٩٤٣، كما صدرت سلسلة شهرية من الكتب عنوانها «أعلام الإسلام»، فلقيت هي أيضاً رواجاً واسعاً.

في هذه الفترة التقى الصحاب الأربعة: عبد الحميد جودة السحّار المتخرج من كلية التجارة والموظف بوزارة التجارة، ونجيب محفوظ المتخرج من قسم الفلسفة بكلية الآداب والموظف بوزارة الأوقاف، وعلي أحمد باكثير المتخرج من قسم اللغة الإنكليزية بكلية الآداب والمشتغل بالتدريس، وعادل كامل المتخرج من كلية الحقوق والمحامي تحت التدريب. وهؤلاء، على اختلاف تخصصاتهم، قد جمعتهم هواية الأدب الروائي والمسرحي. وكان بعضهم قد دخل في مسابقات نظمتها جهات ثقافية ففازوا بجوائزها. إذ فاز نجيب محفوظ عن روايته «كفاح طيبة» وفاز علي أحمد باكثير بمسرحيته «السلسلة، والغفران» بجائزة وزارة المعارف، وفاز باكثير بمسرحيته «أبو دلامة» بجائزة وزارة الشؤون الاجتماعية وفاز نجيب محفوظ بروايته «راودوبيس» بجائزة السيدة قوت القلوب الدمرداشية وهي سيّدة عُرفت بمبرّاتها الواسعة، وما زال مستشفى الدمرداش، الذي كان نواة لكلية الطب بجامعة عين شمس، يقوم آيةً على مآثرها الخيرية. ولكن هذه الأعمال جميعاً كانت ما زالت مخطوطة ولم تتح لها أسباب النشر.

ولم يكن لأي من هؤلاء الفرسان الأربعة تعامل سابق مع النشر باستثناء نجيب محفوظ الذي كان يكتب مقالات في الفلسفة وفي التاريخ المصري القديم وفي الأدب شرع ينشرها في المجلات الأدبية منذ عام ١٩٣٠، كما كان ينشر

بعض أقاصيصه في تلك الفترة المبكرة. وقد أحصى له الدكتور عبد الحسن طه بدر ٤٦ مقالاً و٧٤ أقصوصة نشرها في باكورة حياته، منها أقصوصة عنوانها «ليلة الغارة» وصف أحداث إغارة جوية ألمانية عاصرها في حي «العباسية» الذي كان يقيم فيه. على أن الدكتور على شلش اكتشف مقالةً أغفلها الدكتور بدر، فصار مجموع المقالات المبكّرة ٤٧ مقالاً، وتحفّظ على هذا الرقم بقوله إن العدد قد يزيد مستقبلاً مع زيادة البحث والتنقيب.

جاء كل من هؤلاء الفرسان الأربعة بمحصوله من الروايات والمسرحيات المخطوطة، وتوافقوا على تأليف «لجنة النشر للجامعيين» واختاروا لها هذا الاسم إبرازاً لصفتهم الجامعية، وتأكيداً لأنهم من الشباب الذي يريد أن يشقّ طريقه في الحياة معتمداً على ذاته. وقد أخبرني عبد الحميد جودة السجار ـ وهو الرأس المدبر والمنفذ لهذه اللجنة ـ أن مشكلة رأس المال للشروع في النشر حلّتها زوجته بتنازلها عن مجوهراتها، فباعها السّحار لاستخدام حصيلتها في تنفيذ هذا المشروع. وكان الشقيق الأكبر للسحار ـ سعيد ـ يملك «مكتبة مصر» في حي الفجالة، فتعهّد بأن يقوم للجنة بأعمال الطباعة والنشر والتوزيع والدعاية، وأن تكون مكتبته مقراً لاجتماع أعضائها، فكانوا يلتقون مرّةً في كل أسبوع لتدارس كل ما يتعلّق بمشروعهم. وقرّروا في بادئ الأمر أن يطبعوا كتاباً كل شهرين، ولم يلبثوا أن قرّروا جعل مطبوعاتهم شهريةً بحيث يخرج الكتاب في اليوم الأول من كل شهر، ويُعلن عنه في الصفحة الأولى من جريدة «الأهرام» في هذا اليوم بالذات الذي يقبض فيه الموظفون مرتباتهم وتكون قدرتهم على الشراء في ذروتها.

وافتتحت السلسلة في شهر أيار (مايو) ١٩٤٣ برواية «أحمس» لعبد الحميد جودة السحّار، وتلتها رواية «رادوبيس» لنجيب محفوظ عبد العزيز، ولعلّه اختار هذا الاسم الثلاثي حتى لا يخلط الناس بينه وبين الطبيب المصري ذي الشهرة العالمية الدكتور نجيب محفوظ باشا. وتوالى نشر الكتب في مطلع كل شهر، ممّا شجع شباناً آخرين على مؤازرة لجنة النشر للجامعيين مثل محمد عبد الحليم عبد الله ـ وكان بدوره قد فاز بجائزة وزارة المعارف عن روايته «بعد الغروب» ـ ومثل صلاح ذهني وأمين يوسف غراب والشيخ الأزهري كامل محمد عجلان، وكاتب هذه السطور. كما ارتفعت قامة اللجنة عندما قصدها أدباء كبار لنشر

آثارهم مثل إبراهيم عبد القادر المازني، ومحمود تيمور وكامل كيلاني، وإبراهيم المصري، ومحمود محمود (شقيق الدكتور زكي نجيب محمود)، والأديبة السورية وداد سكاكيني. ورحّبت اللجنة بناقد «الرسالة» سيد قطب فنشرت له رواية «طفل من القرية» وبأشقائه فنشرت لمحمد قطب كتاب «سخريات صغيرة» وللإخوة الأربعة سيد ومحمد وأمينة وحميدة قطب مجموعة أقاصيص «الأطياف الأربعة».

وقد استفادت اللجنة من انضمام هؤلاء الأدباء الكبار إليها، فكتب المازني يعرّف ببعض آثارها، وعني سيد قطب بالكتابة عن عددٍ من مطبوعاتها في مجلة «الرسالة» ثم جمع كتاباته بعد ذلك في مصنفه «كتب وشخصيات»، وذلك عندما كان سيد متفرغاً للأدب والنقد.

وكنت بدوري من الذين سبقوا إلى التعريف بآثار معظم الكاتبين في هذه السلسلة، وأثبت الدكتور علي شلش في كتابه «نجيب محفوظ: الطريق والصدى» أنني كنت الثاني في التعريف بنجيب محفوظ فسبقت بذلك قائمة طويلة من النقاد جاءوا بعدي في الترتيب الزمني. بل إن علي شلش سجّل ما يكاد يكون نبوءةً لي بالمجد الذي ينتظر نجيب محفوظ، وذلك بقولي في ختام مقالٍ عن رواية «رادوبيس» ما نصه: «وفي اعتقادي إن هذه الرواية تستطيع أن تزاحم روايات الغرب إذا هي وجدت من يُعنى بترجمتها إلى لغات الأعاجم».

وقد نشرت لي هذه اللجنة مسرحية «الأب» التي ترجمتها عن الأديب السويدي أوغست سترندبرغ وظهرت في آب (أغسطس) ١٩٤٥. وعندما أعلن عن فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل، سأله الصحفيون الذين غزوا داره عمّا إذا كان مطّلعاً على الأدب السويدي، فقال: طبعاً، فقد قرأت آثار سترندبرغ. واكتفى بهذه العبارة دون أن يشير إلى ناقل هذه الآثار الذي كان أوّل من قدّم سترندبرغ إلى اللغة العربية.

واصلت لجنة النشر للجامعيين رسالتها في تقديم كتب الشباب من الأدباء، مع التناوب مع كتب أعضائها المؤسسين الأربعة إلى أوائل الخمسينيات عندما اضطرب نظامها الشهري، ربّما في ضوء أرقام التوزيع التي كانت تتراقص مع التحوّلات السياسية وما يترتب عليها من إغلاق بعض الأسواق العربية في وجهها. كما أن انتهاء الظروف التي سادت أثناء الحرب وجعلت من القراءة

الجاذب الرئيسي لاستغلال أوقات الفراغ الطويلة، قلّل من الإقبال على الكتب بالقدر الذي عُرف في فترة الحرب. حتى إذا برز في الجماعة يوسف السباعي بنفوذه الواسع ومناصبه الثقافية المتعدّدة، طرح في السوق اعتباراً من عام ١٩٥٨ سلسلة جديدة تحمل عنوان «الكتاب الفضيّ»، وكانت تصدر عن نادي القصة الذي يرأسه وبرياسة تحريره، كما أصدرت مجلة روز اليوسف سلسلة «الكتاب الذهبي» الشهرية فابتعلت السلسلتان معظم الآثار الأدبية التي سبق للجنة النشر للجامعيين إصدارها. وهكذا انسحب البساط نهائياً من تحت اللجنة وانتقلت آثار المؤسسين الأربعة وسواهم إلى هاتين السلسلتين الشعبيتين. ولمّا جاء الدور على ورواية نجيب محفوظ «القاهرة الجديدة» خشي المشرفون على النشر الشعبي أن يتوهم الناس أن نجيب محفوظ أعدّ دراسةً جغرافيةً أو جيوبيوليتيقية عن القاهرة في كتابه هذا، ممّا يجعلهم يعدلون عن اقتنائه، فغيّروا عنوان الرواية إلى «فضيحة في القاهرة»! والحقيقة أن هاتين السلسلتين حققتا للأدباء من الشهرة والشعبية ما لم تحققه الكتب عند نشرها لدى لجنة الجامعيين ـ ربما لاعتقاد السواد الأعظم من القراء بأن عبارة «الجامعيين» تعني الأكاديمية الصارمة، فتنفّر بدلاً من أن تغري. هذا إلى جانب أن مجلة روز اليوسف قامت بدعاية واسعة للترويج لكتبها، وهو ما كان مستعصياً على لجنة الجامعيين تحقيقه إلّا بثمن باهظ.

وتغيّرت بعد ذلك أوضاع أعضاء اللجنة المؤسسين، إذ انتقل نجيب محفوظ من وزارة الأوقاف إلى أجهزة الثقافة من رقابة وسينما، وانتقل عبد الحميد السحّار من وزارة التجارة إلى وزارة الدفاع ثم إلى مؤسسة صناعة الحراريات ومؤسسة السينما، وقرّر عادل كامل أن الأدب لا يطعم خبزاً فانصرف إلى المحاماة هاجراً ميدان الأدب، ولم يعد إليه إلّا مؤخراً عندما نشر بعض المطويّ من أوراقه القديمة كرواية «الحل والربط» التي ظهرت في حزيران (يونيه) ١٩٩٣ وقصتين هما «المؤامرة» و«وَيْكَ تحتمس» نُشرتا في آذار (مارس) وحزيران (يونيو) ١٩٩٣ في مجلة «إبداع». وانتقل علي أحمد باكثير من التدريس إلى وزارة الثقافة.

وعندما فرغ نجيب محفوظ من كتابة ثلاثيته الفريدة في أكثر من ألف صفحة، قدّمها إلى سعيد السحّار بوصفه الناشر. وهذا تبيّن ضخامتها المفزعة، واسْتَهْولَ القيام بنشرها، وأشار على نجيب محفوظ باختصارها إلى النصف أو ما

دون ذلك! فخاب أمل الكاتب المزهوّ بثلاثيته. ولكنّ الناشر قرّر، بعد مطالعة الثلاثية، أن يغامر بنشرها في مُقامرة غير محسوبة النتائج، ولكن الله سلّم، كما يقولون.

وإذا كانت لجنة النشر للجامعيين قد اهتمّت أساساً بالأدب الروائي من أقصوصة ومسرحية ورواية، وخصّت مؤسسيها الأربعة بالحصة الأولى من منشوراتها، فقد أضافت إلى نشاطها الأبحاث الدينية التي توسّع فيها عبد الحميد السحار وعبد الفتاح عبد المقصود، كما نشرت طائفةً من الكتب المترجمة لمؤلفين من الشرق ككتاب «رباعيات الخيام» (بالزجل الشعبي) لحسين مظلوم رياض، و«الإسلام والنظام العالمي الجديد» لمولاي محمد علي وقد ترجمه أحمد السحار، و«السادهانا» لتاجور (أو طاغور) من ترجمة محمد محمد علي، ونشرت كتباً مترجمة لأدباء من الغرب مثل مسرحية «روميو وجولييت» لشكسبير من ترجمة على أحمد باكثير، ورواية «الشيء الصغير» لألفونس دوديه من ترجمة أبي بكر عبد الرازق، ومسرحيات يوروبديز من ترجمة محمود محمود، و«الرسول ـ حياة محمد» لبودلي وترجمة محمد فرج وعبد الحميد السحار، ورواية «حشيش» لألفريد دي مونفريد من ترجمة عادل كامل وأحمد زكي مخلوف، وكتاب خرافات إيسوب (أويعسوب) من ترجمة مصطفى السقا وسعيد السحار، وبهذا وسّعت من أهداف رسالتها.

ولم تكن لجنة النشر للجامعيين هي المحاولة الوحيدة التي أقدم عليها الجامعيون لنشر سلاسل من الكتب الدورية، فقد اجتمعت كلمة أساتذة الفلسفة في جامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) على تأليف جمعية أطلقوا عليها اسم «الجمعية الفلسفية المصرية» واختاروا لرياستها الفخرية الشيخ مصطفى عبد الرازق الذي أصبح فيما بعد وزيراً للأوقاف وشيخاً للجامع الأزهر، واختاروا الدكتور علي عبد الواحد وافي رئيساً لها والدكتور عثمان أمين سكرتيراً عاماً لها. وشرعت هذه الجمعية منذ عام ١٩٤٥ ـ وهو العام الذي انتهت فيه الحرب العالمية ـ في إصدار سلسلة عن المؤلفات الفلسفية استهلتها بكتاب «فيلسوف العرب والمعلم الثاني» للشيخ مصطفى عبد الرازق. ولكن هذه السلسلة لم تعمّر طويلاً، إذ لم تظهر عنها إلّا حلقات لا يزيد عددها على العشر، ربما بسبب تخصصها الشديد.

كما قامت جماعة من أربعة شبان جامعيين بمشروع لترجمة دائرة المعارف الإسلامية مع ضبط مادتها، وكان قوام الجماعة الدكتور عبد الحميد يونس، والدكتور محمد ثابت الفندي، وإبراهيم زكي خورشيد، وأحمد الشنتناوي، ولكنهم لقوا وجه ربهم دون أن يستكملوا المشروع، فآلت مهمة استكماله إلى جيلٍ تالٍ.

كذلك انصرف الدكتور يوسف مراد أستاذ علم النفس إلى حشد الجهود لإصدار سلسلة من الكتب الأساسية المترجمة في علم النفس مستعيناً في هذا الجهد بكوكبةٍ من شباب الجامعيين هم الدكتور مصطفى زيوار، والدكتور صبري جرجس، والدكتور إسحق رمزي، والدكتور مصطفى سويف، والدكتور مصطفى صفوان، ونُشرت ترجماتهم في سلسلة «منشورات جماعة علم النفس التكاملي».

ومن المؤسف أن أمثال هذه الأنشطة الجامعية قد انتفت من حياتنا المعاصرة، وتفرقت جهود العاملين في ميادين الأدب والعلم والثقافة عموماً، وأصبحت تتسّم بالفردية لا الجماعية.

❁ ❁ ❁

نظير زيتون

في إحدى أمسيات عام ١٩٦٠ فوجئت بطارق غريب يدقّ باب بيتي، فلمّا فتحته ألفيتُ أمامي رجلاً بديناً يعتمر قبعةً إفرنجيةً وفي صحبته سيدة ضئيلة الحجم بالنسبة إليه. فسألته عمّن يريد ومَنْ يكون، فأجاب: أنا نظير زيتون، وقد جئت من المطار رأساً إلى بيتك لكي تدلّني على فندق أقيم فيه مع شقيقتي جوزفين، فانهلتُ عليه ترحيباً واحتضاناً، ثم رافقته إلى فندق متواضع في وسط القاهرة ـ كرغبته ـ لم يلبث أن اكتشف أنه لا يلائمه، فانتقل إلى فندق أكثر منه تواضعاً، وإن كان يتميّز بوجود قاعةٍ فسيحةٍ تصلح لاستقبال الزائرين. وسألت نظيراً عمّا إذا كان قد جاء بناءً على دعوة رسمية، فقال: بل على حسابي الخاص، لرغبتي في مشافهة الأدباء المصريين.

وكان الشاعر القرويّ رشيد سليم الخوري (١٨٨٧ ـ ١٩٥٤) يزور مصر وقتها بدعوةٍ رسمية من حكومتها، وينزل في فندق معدودٍ من فنادق الدرجة الأولى ضيفاً على الدولة، وتحت إمرته سيّارة خاصة ومرافق، وتقام له حفلات التكريم ومآدب الشرف، وتلاحقه الصحف بنشر أخباره ومقابلاته بتوسّع. وكانت المقارنة ـ المكتومة ـ بين الحفاوة التي تنهال على الشاعر القروي والإغفال الذي يلقاه الناثر المهجري البليغ نظير زيتون تورث الإشفاق ـ في أقلّ القليل. وكنتُ وقتها ما زلت أعاني ممّا أسميّه «بالإزاحة» أي أن مكاني الأصيل في الصحافة قد شغله آخرون لا عهد لهم بالصحافة من المقربين وأهل الثقة، فلم أستطع أن أمدّ إلى نظير زيتون يداً إلّا بالاستعانة بغيري. فأوعزت إلى كل من أعرف من الأدباء أن يزوروا نظيراً في فندقه للترحيب به، واستنجدت بالصديقيْن حبيب جاماتي (١٨٨٧ ـ ١٩٦٨) المحرّر بمجلات دار الهلال وأسعد حسني المحرر بجريدة «الجمهورية» ورئيس تحرير مجلة «العالم العربي» لكي يزوراه ويجريا معه أحاديث ينشرانها ويناشدان الدولة استضافته أسوةً بزميله القروي. ومن حسن التوفيق أن هذا المسعى واتاه النجاح من حيث استضافة نظير زيتون، وإنْ كان هو آثر البقاء

في فندقه المتواضع ولم يشأ أن ينتقل إلى فندق يُضاهي ذاك الذي نزل فيه القروي. كما دعوناه إلى رابطة الأدب الحديث، فكان موضوع حفاوةٍ من عميديْها مصطفى عبد اللطيف السحرتي (١٩٠٢ ـ ١٩٨٣) والدكتور محمد عبد المنعم خفاجي أطال الله بقاءه. وهكذا أفلحنا في التخفيف من شعوره بالغبن حتى إنه انتوى العودة من حيث أتى وفي نفسه مرارة.

كانت هذه هي المرة الأولى التي قابلت فيها الأديب الناثر البليغ وأخطب خطباء المهجر نظير زيتون، وسبقت هذا اللقاء مراسلات متواصلة بعدما ابتدرني هو بتحيةٍ كريمةٍ في سياقٍ فصل مسهب نشره في مجلة «الأديب» اللبنانية ـ عدد حزيران (يونيو) ١٩٥٦ ـ دفاعاً عن الأدب المهجري من حملاتٍ عنيفةٍ شنها عليه ابتداءً الشاعر عزيز أباظة (باشا) (١٨٩٩ ـ ١٩٧٣)، ثم اندفع حواريوه من الأباظيين يهاجمونه بلا هوادة، حتى وصف شاعرُهم العوضي الوكيل (١٩١٥ ـ ١٩٨٣) شعراء المهجر بأنهم ينطقون «برطانة المستعمر» حيث قال في قصيدة نشرها بعد ذلك في ديوانه الموسوم «رسوم وشخصيات»:

تَأْبَى العُرُوْبَةُ أَنْ يَكُوْنَ لِسَانُهَا مُسْتَعْمَراً بِرَطَانَةِ المُسْتَعْمِرِ

كما سبق لنظير زيتون أن أهداني كتيّباً له عن الشهيدين عبد الحميد الزهراوي وسلوم، ومسرحيةً عنوانها «من وراء القبر».

وهذا الشعور بالقنوط الذي كاد يستولي على نظير زيتون في القاهرة وَازَاهُ شعورٌ مماثل عندما عاد من مهجره في البرازيل إلى موطنه حمص في أواخر عام ١٩٥٠ بعد هجرةٍ امتدت ٤٤ عاماً نزولاً على إلحاح والدته العجوز «نظيرة» التي أعطته اسمها، إذْ لم يصادف من بني قومه تقديراً، واعتزم العودة إلى البرازيل، وهي رغبة عبّر عنها في رسالتين، وجّه أولاهما إلى زميله الشاعر المهجري شفيق معلوف (١٩٠٥ ـ ١٩٧٦) قال فيها: «أتمنى العودة إلى البلد الأزهر البكر، حيث قضيتُ أزهر سني العمر، ألملم ذكرياتي الخضر، وأحتسيها خمراً بعد خمر، وأنقع غليل الحنين بعد مُرِّ الصبر، وأنعم بالدفء بعد القرّ، وأزرع القلب زهراً في زهر، وأروي الروح بذوب الفجر، فبعضي يشتاق بعضي وقد طال الهجر، هناك أرعى وطني من بعيد بعين النسر ووثبة النمر، وأدفع عنه حملات الشرّ بغضبة مُضَرِيٍّ حُرّ، وبإيمان أصلب من الصخر».

أما الرسالة الثانية، فوجهها إلى زميله المهجري إلياس قنصل (١٩١٤ ـ ١٩٨١) حيث قال: «أما عن نفسي، فسل الأقدار، كيف تدفعنا إلى العثار والإسار، وكيف تمتحن صلابة الأحرار والأخيار، والعزاء كل العزاء أننا ما تنكبنا عن سبل الإباء، ولا سرنا في ركاب الوزراء والسفراء، ولا ابتذلنا حرفة القلم بالرياء، بل عصمناه سيّداً جامح الكبرياء».

ولكن لم يمض وقت طويل حتى تنبّه مواطنوه إلى وجوده بينهم، فسعت إليه أسباب التكريم المعنوي متمثلةً في منحه وسام الاستحقاق السوري من الطبقة الأولى، واختير عضواً في المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية بدمشق حالياً) وعضواً في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بدمشق، فضلاً عن انتخابه عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ومنحه وسام الأرز اللبناني من طبقة فارس، ووسام المعارف المذهّب اللبناني من الطبقة الأولى.

على أن هذا التكريم المعنوي لم يصاحبه تكريم مادي، فبقي نظير زيتون بلا وظيفة أو عمل دائم يستند إليه في تدبير أموره، فكان إخوته في حمص، وهم من تجار المجوهرات، يكفلونه ويحفظون عليه كرامة عيشه.

عُرف نظير زيتون بين أنداده المهاجرين في البرازيل ببلاغته وقدرته الفائقة على الخطابة المرتجلة، وعلى الترسّل بأسلوب مسجوع طويل الأنفاس، وقد قدّمنا نماذج من هذا الأسلوب الذي تفرّد به، والذي قال في تعليل الحرص عليه «السجع منزلة بين النثر والشعر، وأنا لا أستطيع أن أرتفع إلى الشعر ـ لا النظم ـ لأعبّر عن أفكاري وأحاسيس نفسي، ولا أرضى لأدبي أن أهبط به إلى النثر العادي الدارج الذي يعالجه كل قلم بسهولة، فكانت لي تجربتي في السجع المديد المتناغم، الذي تولّف فيه السجعة الواحدة مقطعاً كبيراً، وكأنه مقطع قصيدة واحدة. . . وأسلوبي في السجع يقفز في السجعة الواحدة إلى عشر فقرات أو أكثر، ولكل فقرة انطلاقة، ولكل فقرة إشراقة، ولهذه حلاوة، وللأخرى طلاوة في تناغم وإيقاع».

ومن المستطرفات في هذا الباب ما رواه العلامة جعفر الخليلي (١٩٠٤ ـ ١٩٨٥) من أنه تلقى رسالةً من نظير زيتون يقول فيها: «أَلَا إنَّ الودّ ودّك، والنبل

شهدك، والعهد عهدك، والخير قصدك، والعُلى وِرْدُك، والعبيرُ وَرْدُك، والوفاء مجدك». ورغب الخليلي في أن يُشرك روّاد ندوته في الاستمتاع بهذا السجع، فتلا عليهم رسالة نظير زيتون، وكلهم معجب بهذه المعاني الجميلة. وكان من رواد الندوة الشاعر العراقي أنور شاؤول الذي رغب في أن يبرهن للحاضرين على أن هذا الكلام هو من صميم الشعر، فنظم أبياتاً استشهد فيها بكلام نظير زيتون نصها:

أَنَا إنْ سُئِلْتُ عَنِ المَوَدَّةِ ... قُلْتُ إنَّ «الودَّ ودُّكْ»
وَلَكَمْ عُهُودٌ أُهْمِلَتْ ... وتُنُوْسِيَتْ، و«العَهْدُ عَهْدُكْ»
إنَّ المَقَاصِدَ لا تُعَدُّ ... دُرُوْبُها و«الخَيْرُ قَصْدُكْ»
وِرْدُ الأَنَامِ مَغَانِمٌ ... وَمِنَ «العُلَىٰ قَدْ كَانَ وِرْدُكْ»
أَمّا العَبِيْرُ وَقَدْ تَضَوَّعَ ... في المَغَانِي «فَهُوَ وَرْدُكْ»
إنِّي أُمَجِّدُ بِالوَفَا ... وَ«وَفَاؤكَ» المَشْهُوْدُ «مَجْدُكْ»

والعبارات الواردة بين عضادتين هي عبارات نظير زيتون.

ولد نظير زيتون في حمص في شباط (فبراير) ١٨٩٦ وتلقى علومه في مدارسها على يدي يوسف شاهين الذي عرف بتضلّعه من اللغة العربية، والذي تثقف عليه كثيرون من أدباء حمص الذين صاروا بعد ذلك من أعلام المهجر. ثم انتقل إلى المدرسة الإنجيلية الوطنية التي كان يديرها حنا خباز (١٨٧١ ـ ١٩٥٥) وهو مترجم «جمهورية أفلاطون»، وفيها درس الإنكليزية وشيئاً من الفرنسية والتركية.

وفي عام ١٩١٤ وكان قد بلغ الثامنة عشرة من عمره، نزح إلى البرازيل مع النازحين نُشداناً للنجاح الماديّ في بلدٍ بكر، فبدأ كجميع سابقيه من المهاجرين بحمل «الكشة» ـ وهي صندوق يضم نماذج من السلع يطوف به في أنحاء البلاد ترويجاً لهذه البضائع مقابل عمولة يتقاضاها من أصحاب المصانع، ولكنه ازورّ عن هذا العمل، واشتغل كاتباً في محلٍّ تجاري، فلم يلبث أن ضاق بهذه الأعمال التي لم توافق هواه. فانصرف إلى التبحّر في آداب اللغة العربية إلى جانب مطالعاته في اللغتين البرتغالية والإسبانية، كما نشر مقالات في صحف المهجر فتحت أمامه باب العمل بالصحافة.

وفي عام ١٩٢٦ دعاه العالم اللغوي الشيخ رشيد عطية (١٨٨١ ـ ١٩٥٦) صاحب «معجم عطية في العامي «الدخيل» ومؤلف كتاب «الإغراب عن قواعد الإعراب» في ستة أجزاء، ومحقق مقدمة ابن خلدون وشارح ديواني البحتري وعنترة، لكي يتولى رئاسة تحرير جريدته اليومية «فتى لبنان». فجعلها منبراً للذياد عن قضايا الأمة العربية، وظل يحرّرها إلى أن احتجبت في عام ١٩٤٢ امتثالاً لقرار حكومة البرازيل الذي حظر نشر صحف بلغاتٍ أجنبية طيلة زمن الحرب العالمية الثانية.

عمل نظير زيتون في النادي الحمصي ـ وهو من أشهر الأندية العربية في المهاجر ـ خمسة عشر عاماً، فكان خطيبه المفوّه في جميع المناسبات التي احتفل بها، كما شارك في تأسيس جمعية «العصبة الأندلسية» في عام ١٩٣٢ وفي تحرير مجلتها الفاخرة «العصبة» التي صدر منها ١٥ مجلداً في حين امتد عمر الجمعية عشرين عاماً.

ولنظير زيتون طائفة من المؤلفات والمترجمات، منها كتاب «الشعلة» وهو يضمّ مجموعة خطبه، وكتاب «اعتراف» الذي ترجمه عن مكسيم غوركي، ورواية «النبي الأبيض» التي ترجمها عن هول كاين، وهي تدور حول جهاد المصريين في عهود الخديويين، ورواية «مركيزة سنطوس» التي ترجمها باولو سيتوبال البرازيلي وكتاب «أرلندة المناضلة» وكتاب «فلسطين العربية» وكتاب في ٨٠٠ صفحة عن «روسية في موكب التاريخ»، وكلها طبعت في المهجر. ولم ينشر له في الوطن إلّا مسرحية «من وراء القبر» وكتيّبان عن الشهيدين الزهراوي وسلوم وعن رجل البرّ السوري فتح الله الصقال (١٨٩٣ ـ ١٩٧٠)، هذا عدا مئات من الدراسات الأدبية والنقدية المبثوثة في صحف المهجر والوطن، والتي يُخشى عليها من الضياع إن لم يتداركها الغيارى على الأدب.

توفي نظير زيتون في حمص في ٢٢ تموز (يوليو) ١٩٦٧ متأثراً بعلّة اليرقان، ودفن في مدينته التي باتت تعرف باسم «أمّ الحجار السود» الذي أطلقه عليها الشاعر المهجري نسيب عريضة (١٨٨٧ ـ ١٩٤٦) وهو بدوره حمصي الأصل، فأقيم لتأبينه حفل كبير في أول أيلول (سبتمبر) ١٩٦٧ في نادي الرابطة الأخوية في حمص برعاية محافظ حمص شارك فيه ثمانية عشر من رجال الفكر السوريين واللبنانيين والمصريين والمهجريين، ونشرت وقائع هذا الحفل في كتاب

صدر عن وزارة الثقافة السورية عنوانه «نظير زيتون الإنسان» أشرف على طبعه عبد المعين الملوحي وقدم له عدنان الداعوق.

وقد قلتُ في تأبين نظير زيتون: «إذا سأل سائل عن منزلة نظير زيتون في الأدب المعاصر عامةً وفي الأدب المهجري خاصة، لجاء الردّ على الفور وقد انعقد عليه الإجماع، إن نظير من فحول المنشئين الراسخين، ومن كبار النقاد المتبصّرين، وهو تاريخ حيّ لحركة الهجرة العربية وروّادها الأولين الماهدين، كما إنه من فصحاء الضاد اللغويين الثقات. وله باللغة عشق معجب مذهل. ولفظة واحدة قد تقتضيه أياماً من الدرس والبحث والمراجعة، مع المقابلة بين أندادها في اللغتين البرتغالية والإسبانية فضلاً عمّا كان تعلّمه في أول عمره من لغات الفرنجة التي أتقنها في ما بعد باجتهاده الشخصي.

«نقّب ما شاء لك صبرك أن تنقب في كل الأدب العربي المعاصر، منذ مطلع هذا القرن، بل منذ أواسط القرن الفارط، فلن تجد في كل ما يعرض لك من أسماء فحول الأدباء ومدوّناتهم وآثارهم نظيراً لنظير زيتون. ربّما وقعت بينهم على من يَعْدِله ثقافةً أو من يُجاريه إلماماً بمفردات الضاد وآدابها، أو من يُدانيه بلاغةً وأناقة أسلوب، ولكنك بعد طول التنقيب والبحث لن تهتدي أبداً إلى أديب كفؤ لنظير زيتون في حلاوة سجعه، ورشاقة تشبيهاته، وطول ترسّله، ودقة تخريجاته للألفاظ البلاغية، وقدرته الفذة على المصاولة الشريفة في ميادين الأدب، وكل هذا بعفيف اللفظ ونقي الكلم وبارع اللفتة».

❁ ❁ ❁

نقولا الحداد

من محاسن الاتفاق أنه كان يزاملني في مرحلة الدراسة عددٌ من أبناء كبار العاملين في ميادين الفكر والصحافة، مثل ابنة العالم نقولا الحداد، وابن صاحب جريدة البلاغ عبد القادر حمزة باشا وابن رائد أدب الأطفال كامل كيلاني، وابن الدكاترة زكي مبارك، وابن الأديب المجمعي الشيخ عبد العزيز البشري، فتاقت نفسي إلى التعرّف بهؤلاء الأعلام واحداً واحداً إن كان إلى ذلك سبيل، ولكنّني لم أظفر إلّا بمعرفة نقولا الحداد وكامل كيلاني وزكي مبارك.

كان لقائي الأول بنقولا الحداد في «النادي الشرقي»، وهو نادٍ أنشأه «الشوام» في شارع سليمان باشا (طلعت حرب اليوم) وسط حديقة واسعة، وكنت تصادف فيه جميع أعيان الجالية الشامية (السورية اللبنانية) على اختلاف اهتماماتهم ومشاربهم.

فمن رجال التجارة والصناعة آل صيدناوي، وآل توتونجي، وآل تاجر، ويوسف نحاس.

ومن رجال الأدب والعلم خليل مطران، وعادل الغضبان، وبولس غانم، وسليم عبد الأحد، وفؤاد صرّوف.

ومن رجال الصحافة خليل وكريم تابت، وحبيب جاماتي.

ومن رجال القانون موريس أرقش، وعزيز وجميل خانكي، وتوفيق حداد، وإميل لبنان، والقائمة طويلة.

وكان لهذا النادي نشاط ثقافي إلى جانب أنشطته الاجتماعية. فلمّا تقرر هدمه لإقامة بناية ضخمة في مكانه، انتقل إلى شقة واسعة ميدان سليمان باشا. ولكن دوره تضاءل بعد هجرة الشوام المضادّة، فصفّى أعماله وانتهى دوره.

وكنت قبل لقائي بنقولا الحداد قد بعثت إليه بمسرحية «الأب» التي ترجمتها عن الأديب السويدي أوغست سترندبرغ فتلقيت منه رسالة تشجيع كريمة. ثم إنني

كنت أعالج الكتابة في صحفٍ شتى، فلم تكن هناك غربة في اللقاء الأوّل بعد هذا التمهيد، ناهيك بأن كريمته «لورا» لم تضنّ بتزكية زميلها السابق لدى أبيها. وهكذا تعمّقت أواصر الودّ بيننا دون جهدٍ من ناحيتي، ولا سيّما لأن السيدة الجليلة روز أنطون حدّاد، زوجة نقولا وشقيقة الكاتب الفيلسوف فرح أنطون، قد خصتني بفيضٍ من أمومتها وعطفها. وتواترت لقاءاتي معها في نادي سيدات القاهرة الذي كانت من البارزات في عضوّيته، وهو بدوره نادٍ ما انفك إلى يومنا هذا يضم نخبة من كرائم السيدات من مصريات وأجنبيات، وله بدوره نشاطه الاجتماعي والثقافي العريض.

وكنتُ في ذهابي وإيابي أرى نقولا الحدّاد يتصدّر طائفةً من المشتغلين بالفكر وهو جالس في مقهى «لوك» القريب من ميدان سليمان باشا، فكنت أنضم بدوري إلى هذه الكوكبة ومنها السيدة وداد سكاكيني، وزوجها الدكتور زكي المحاسني، وعلي أدهم، والصحفي محمد عودة وغيرهم، فأصغي إلى ما يدور بين الحاضرين من محاورات فكرية، يتصل بعضها بالأدب والعلم، ويتصل بعضها بالمواجع السياسية المتمثلة في قضايا التحرير للأمة العربية الرازحة تحت النير الأجنبي.

وكان نقولا الحداد إذ ذاك قد ودّع الشباب، فكان وجهه متغضناً، وبنيته ضئيلة مع ميل إلى القصر، لا تفارقه العوينات ولا الطربوش العتيد ولا العكازة التي يستند إليها حتى لا يختل توازنه. تراه مرتدياً حلّته الكاملة حتى في أشهر الصيف، وإن كانت تتهدّل عليه ويعوزها أن تُعالج لدى صُناع الأناقة - إذ لم يحفل بهندامه أبداً ولا سيما في سنه المتأخرة.

إذا توسّط المجلس، فقد استحضر في ذهنه كل ما طالعه في صحف الصباح من أخبار وفصول، فضلاً عمّا حصّله في الحياة من علوم وتجارب، فيدهشك منه تدفقه في الكلام بلهجته الشامية في كل موضوع مُثار، يجري فيه الحديث بلسان خبير مجرّب. وربّما اختلف معك في النتائج أو في الرأي، ولكنه اختلاف بين وجهتي نظر، وليس منازعة جنائية بين خصوم. وكان يدهشني منه أنه - وهو واهي العظام - لا يترك القلم أبداً بمجرد أن يستقرّ في بيته، فيكتب في العلم - وهو ميدان تخصصه الأصيل كصيدلي - وفي الأدب وفي السياسة ويؤلف الروايات والمسرحيات (ويسمّيها بالحوارات) وينظم الشعر في أغراض الحب وفي أغراض

الفلسفة والعلوم. فقد عاش في عصر الموسوعيين، وكان واحداً منهم، ولم يقنع حتى وهو في سنّه الباكرة إلّا بالإحاطة الشاملة للمعارف أياً كان مصدرها. وكان في تفسيره وتعليله لجميع الظواهر في الحياة الفكرية يأخذ بالمنحى المادّي، منكراً كل ما لا ينتسب إلى العلوم المادية والتطبيقات العملية، وهو ما أسلمه إلى متاهات تراءت حتى في شعره.

ولد نقولا الحدّاد في مدينة جون من قضاء الشوف بجنوب لبنان في يوم عيد الميلاد، أي في ٢٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٧٢، وتلقى تعليمه في المدارس المحلية قبل أن ينتقل إلى العاصمة اللبنانية، وكان يختصر سنوات التعليم فيدرس في العطلة الصيفية ما يكسبه سنة دراسية كاملة يحذفها من سني الدراسة. وكان مضطراً، بعدما آلت إليه أعباء الأسرة في إثر وفاة أبيه وهو في السابعة عشرة من عمره، إلى توزيع وقته بين العمل والدراسة، واستطاع بعد كفاح في الحياة أن يظفر بشهادة الصيدلة من كلية بيروت الأميركية، الجامعة الأميركية الآن في عام ١٩٠٢.

نزح بعد ذلك إلى القاهرة، فعمل في تحرير بعض الصحف والمجلات، ومنها جريدة «الرائد المصري» لصاحبها نقولا شحادة، وجريدة «المحروسة» لصاحبها إدريس راغب باشا، وقد آلت ملكيتها بعد ذلك إلى إلياس زيادة والد الأديبة مي.

وعندما التقى بفرح أنطون صاحب مجلة «الجامعة» ـ التي أصدرها في القاهرة من عام ١٨٩٩ إلى عام ١٩٠٥ وفي أمريكة بين عامي ١٩٠٦ و١٩٠٨ ـ خطب شقيقته روز، وهي أديبة ثقيفة كانت بدورها تصدر مجلة «السيدات». وفي عام ١٩٠٥ قرّر ثلاثتهم الهجرة إلى نيويورك بعدما أغراهم بعض المعارف بأن مجال العمل الصحفي هناك واسع بين المهاجرين العرب. فأصدروا هناك «الجامعة» كجريدة يومية إلى جانب «الجامعة» الشهرية. ولكنّ هذه التجربة لم تحقق لثلاثتهم النجاح المالي المنشود، فتحوّلوا إلى التجارة في الطنافس (السجاجيد) العجمية، إلّا أن خبرتهم في الأعمال التجارية كانت من الضحالة بحيث اقتنعوا بأن الهجرة بالنسبة إليهم كانت سراباً خادعاً، فقفلوا راجعين إلى القاهرة، وقبل عودتهم تزوج نقولا من روز في نيويورك، وباتت منذ ذلك الوقت تُعرف باسمها الثلاثي «روز أنطون حدّاد» اعتزازاً بالانتساب إلى أسرة شقيقها

وأسرة زوجها. وأذكر بين عُضادتين أن من الاعتبارات التي شجّعت فرح أنطون على الهجرة إلى أمريكة رغبته في التخلّص من أزمة عاطفية حادّة كانت تلاحقه في القاهرة، لم يلتمس مخرجاً منها إلّا بالفرار إلى آخر أطراف الأرض.

ولدى عودتهم إلى القاهرة، رغبت روز في إعادة إصدار مجلتها «السيّدات» فأقنعها زوجها بتغيير اسمها إلى «مجلة السيّدات والرجال» واشتركا معاً في تحريرها وأصدرا أحد عشر عدداً منها. وفي الوقت عينه افتتح نقولا الحداد «صيدلية الحداد» في الشارع الرئيسي لحي شبرا الشعبي، واعتمدتها وزارة الصحة العمومية المصرية واحدة من بضع صيدليات رخُص لها بالعمل أربعاً وعشرين ساعة في اليوم لتلبية الطلبات الطارئة على الأدوية. وكان الحدّاد يكل الإشراف على الصيدلية إلى بعض المعاونين لكي ينصرف هو إلى مشاغله الفكرية وكتبه الكثيرة التي تندرج تحت الأبواب التالية: ففي العلوم أصدر كتاب «هندسة الكون بحسب ناموس النسبية» وهو أوّل كتاب يصدر باللغة العربية شرحاً لنظرية النسبية التي ابتدعها العالم الأمريكي ألبرت إينشتاين، وكتاب «فلسفة التفاحة أو جاذبية نيوتن» و«فلسفة الوجود» و«عالم الذرة أو الطاقة الذرية والقنبلة الذرية»، وفي علوم الاجتماع والمذاهب السياسية أصدر «علم أدب النفس» و«علم الاجتماع» ويقع في مجلّدَيْن، و«الاشتراكية» و«الديمقراطية مسيرها ومصيرها» و«مناهج الحياة» و«ذكراً وأنثى خلقهم» و«الحب والزواج» و«تاريخ أساس الشرائع الإنكليزية» (وهو مترجم). أما في الأدب الروائي فقد أصدر روايات مطولة مثل «المقدّس» و«الحقيبة الزرْقاء» و«ثورة عواطف» و«عين بعين» وغيرها. عدا ما كان ينشره مُنَجَّماً في المجلات والروايات من روايات مؤلفة ومترجمة.

وعندما قرّر الدكتور فارس نمر باشا صاحب مجلة «المقتطف» إعفاء إسماعيل مظهر من رياسة تحريرها لأنه خالف سياسة المجلة في مهاجمة الدكتور طه حسين لقبوله رياسة تحرير مجلة «الكاتب المصري» التي كانت تصدر عن دار يملكها بعض اليهود، فضلاً عن وجود زمالة بين صاحب «المقتطف» وطه حسين في مجمع فؤاد الأول للغة العربية، فقد عهد إلى نقولا الحدّاد في تحرير المجلة اعتباراً من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٩. وكأنما وجد الحدّاد في هذه المجّلة ضالته المنشودة لنشر كل ما كان يدخرّه من مقالات وقصائد وكتب مخطوطة، فكاد يحتكر المجلة بكتاباته التي كان يوقعها باسمه الصريح أو باسم «ند» وهو

يمثل الحرفين الأول والأخير من اسمه، كما وجدت زوجته متنفساً في المجلة فنشرت فيها موضوعات يتصّل معظمها بقضايا المرأة. واستخرج الحداد قصائد قديمة منذ أيام الصبا وشرع ينشرها تباعاً، وأضاف إليها قصائد تعالج موضوعات علمية ومعضلات فلسفية. وكان إسماعيل مظهر قد استحدث في المجلة لواحق تضاف إلى كل عددٍ، يمثل كل ملحق منها كتاباً مستقلاً لكاتب من الكتاب، فاستغلّ الحدّاد هذه اللواحق لنشر كتبه المخطوطة، ولم يترك مجالاً لغيره طوال مدة تحريره للمجلة. وكان من السياسة المستقرة «للمقتطف» ألّا تتناول الموضوعات التي تمسّ العقائد الدينية أو تشكك في معطياتها، ولكن الحدّاد هيّأ للنشر قصيدةً من نظمه أثار فيها تساؤلات حول نشأة الكون وهل خلق من عدم، وشطح به التفكير إلى ما خالف سياسة المجلة الموسومة، فأمكن تدارك هذه القصيدة قبل نشرها، وقام الدكتور نمر باشا بإعفاء نقولا الحداد من رياسة التحرير في آب (أغسطس) ١٩٥٠ وخلفه فيها سكرتير تحرير «المقتطف» منذ أيام محرّره الأول يعقوب صرّوف، وهو سبيرو جسري الذي بدّل اسمه إلى سامي الجسري، وظل يزاول عمل رئيس التحرير إلى أن أغلقت المجلة نهائياً في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٢.

وعندما صارت قضية فلسطين شغل الأمّة العربية الشاغل، انتضى نقولا الحدّاد قلمه وكتب مقالات مدوّية نشرها في «المقتطف» و«رسالة» الزيات وجريدة «منبر الشرق» لصاحبها المجاهد علي الغاياتي، وكان ديدنه في هذه الفصول هدم النظرية الصهيونية من أساسها. فشكك في الوعد الذي قطع أصلاً «لشعب الله المختار» واستشهد في ذلك بأقوال علماء السلالات مثل السير آرثر كيث. وكان لهذه المقالات صدى واسع في وقتها، وتنوقلت في الصحف العربية وصحف المهجر، لأنها تناولت القضية من جذورها الأولى وليس من مراحلها الأخيرة.

أما زوجته روز أنطون حداد، فقد كانت تعتز بكتابٍ وضعته عنوانه «مقام المرأة الاجتماعي في التاريخ»، وقد تمّ جمع مادته وطبعه على هيئة ملازم انتظاراً لمقدّمة وعدت هدى شعراوي، رائدة الحركة النسائية، بكتابتها. ولكن مرض الرائدة ثم وفاتها سبقا كتابة المقدمة الموعودة، فبقي الكتاب مهملاً كملازم في إحدى المطابع ولم يصدر أبداً، وإن كانت استطاعت استنقاذ نسخة كاملة من هذه الملازم أهدتني إيّاها مع عددٍ خاص أصدرته من مجلة «السيدات والرجال» عام

١٩٣٣ (في سنتها الرابعة) لأنها شفعت به ملحقاً ضمّ سيرة حياة شقيقها فرح أنطون والخطب التي ألقيت في حفل تأبينه ومختارات من أعماله.

وكان الحدّاد يطرب للموسيقى الشرقية وينفر من الموسيقى التي تحاكي الموسيقى الغربية وله في ذلك مقال في «التجديد في فن الطرب» استهله باستنزال الرحمة على عبده الحامولي والشيخ يوسف المنيلاوي والشيخ سلامة حجازي من أئمة الطرب القديم، ثم دعا بالغفران لأولئك الأئمة العظام لأنهم اجترحوا جريمة لا تغتفر تتحصّل في أنهم «دوزنوا أوتار أعصابنا الموسيقية دَوَزاناً بديعاً، فصارت أسماعنا تنبو عن هذا الجديد» المتمثل في الموسيقى الإفرنجية. فإذا سمع أم كلثوم تنشد «غيري على السلوان قادر» صفّق لأبي العُلا محمد الذي لحّن القصيدة ولم يصفق لها. وحثّ أم كلثوم على الّا تغني إلّا لمن يلحنون لها اللحن الشرقي مثل أبي العُلا محمد والقباني وسيّد درويش وداود حسني، «لأن صوتها لم يبدع الله أجمل منه، ولكن التلحين العصري مخدّر».

وممّا يذكر للحدّاد أنه هاجم الجماعات التي تكتنفها أسرار ومُغمضات، فهاجم الماسونية، وهاجم المشتغلين بالأرواح وتحضيرها، وهاجم القائلين بغير العلم متعلّلين بالميتافيزيقا وبغيرها من مذاهب ما وراء الطبيعة.

قالت عنه الأديبة السورية وداد سكاكيني «هو رجل ملائكيّ الطبع، إنسانيّ المذهب، وعلى طول ما عرفته ما سمعتُ منه كلمةً تؤذي مخلوقاً، ولا عاينت منه فعلاً كان يُراد للسوء».

وكان نقولا الحدّاد يحتفظ في بيته بأكداسٍ مكدّسة من كتبه وأوراقه ومن مجموعات المجلات التي أصدرها هو وزوجته. وقد تمّ التخلّص منها جميعاً عندما قرر ابنه الوحيد ـ وهو صيدلي كأبيه ـ الهجرة إلى لبنان، وكانت شقيقتاه قد تزوجتا ولحقتا بزوجيهما في الخارج. وأخشى ما أخشاه أن يكون هذا التراث كله قد اندثر تماماً، ولا سيما لأن بعضه يرجع إلى السنين الأولى من هذا القرن، ولم يكن نظام الإيداع في دار الكتب الوطنية قد قضى بإيداع جميع المصنفات المطبوعة في الدار وجوباً حتمياً.

وكان من عادة النادي الشرقي أن ينظم محاضرات دوريّة لأعضائه يُدعى إلى إلقائها محاضرون من النادي ومن خارجه، فدعي نقولا الحداد إلى إلقاء محاضرة

اختار لها عنوان «جاذبية الأكوان وجاذبية الحسان» ـ وهي محاضرة طويلة خصّني الحدّاد بنصها المكتوب بخط يده ـ ففيها أسهب المحاضر في إيراد الجانب العلمي من ناموس جاذبية الأكوان الذي اهتدى إليه نيوتن، ثم تطرّق إلى الجانب العاطفي «الناموس» جاذبية الحسان، متحدّثاً بأسلوب فيه كثير من الفكاهة والرشاقة ممّا بدّد مشاعر الملل لدى السامعين، ولا سيما لأن جمهرة كبيرة ممّن كانوا يتابعون هذه المحاضرات ينتمون إلى فريق النساء. وبعد انتهاء المحاضرة، خرج الحداد مع زوجته يتوكأ على عصاه ليتوجه إلى بيته الذي لا يبعد كثيراً عن النادي سيراً على القدمين وكانت ليلة من ليالي الشتاء القارصة البرد، فأصيب بالتهاب رئوي حاد لم تفلح في مداواته العقاقير (ولم تكن المضادات الحيوية قد اخترعت بعد) فلقي وجه ربه في شتاء عام ١٩٥٤ ولحقت به زوجته بعدما يقرب من عام.

فالعلم الذي عاش له هو الذي قتله بهذه المحاضرة الوداعية. ومن أسفٍ أنه لم ينل حقّه من التكريم، وقلّ أن يُشار إليه كواحدٍ من الرعيل الأوّل الذي بسّط العلم وعمل على ذيوعه.

❁ ❁ ❁

نقولا يوسف

لا أظن أحداً من الأدباء يستحقّ أن يوصف بأنه «شيخ حارة الأدب والأدباء» أكثر من نقولا يوسف الذي كان من مرصده في دمياط أولاً، ثم من الإسكندرية بعد ذلك، يمدّ خيوطه في كل اتجاه ليتعرّف بأدباء عصره ويسجل سيرهم ويتابع مسيراتهم ويوثق البيانات المتعلقة بهم ويعرّف هذا بذاك. ولأنه ولد في ١٢ آذار (مارس) ١٩٠٤، فقد أتيح له أن يحيط بالحركة الأدبية في القرن العشرين منذ بداياته، وأن يضع كتاباً كبيراً عن «أعلام دمياط»، وهي المدينة التي ولد فيها، وكتاباً آخر كبيراً عن «أعلام الإسكندرية»، وهي آخر محطة في حياته، وإن كانت وفاته وقعت في القاهرة في ١٣ نيسان (إبريل) ١٩٧٦ عندما كان يزور كريمته الوحيدة «كيتي».

كان التدريس هو مهنة نقولا يوسف، التي استغرقت كل حياته إلى أن أسندت إليه بعد ذلك إدارة المدارس كناظر يعرف من فنون التربية وعلم النفس أكثر من فنون التلقين واعتياد الاستظهار.

ولكن التدريس ـ وهو مهنة جاحدة بل قاتلة ـ لم يصرف نقولا يوسف عن هوايته الحبيبة وموهبته الأصيلة في الكتابة الأدبية مؤلفاً وباحثاً ومترجماً، فأخرج في وقت مبكر رواية «إلهام» التي طبعت مرتين، وثلاث مجموعات قصصية هي: «دنيا الناس» و«مواكب الناس» و«هم ونحن» وترجم عن أوسكار وايلد كتاب «من الأعماق» وعن جون فنيمور كتاب «اليابان» وأصدر كتابين من الخواطر الشعرية بعنوان «الفردوس» و«نسمات وزوابع» ولخّص من الأوذيسة قصة «بطل طروادة» ونشر أبحاثاً أدبية بعنوان «الحياة الجديدة» و«توت عنخ آمون». وله آثار مخطوطة لم يسعفه العمر بنشرها منها دراسة عن أستاذه الشاعر عبد الرحمٰن شكري (١٨٨٦ ـ ١٩٥٨) تضم حياته وشعره ونثره.

وتتميز رواياته وأقاصيصه بأنها مستوحاة من حياة البشر العاديين التي أَلِفَهَا

في يومه الدارج، عازفاً عن حياة الطبقات المترفة التي لا ألفها ولا عرف عن قرب خباياها بل مباذلها.

ومن آيات وفائه لأستاذه الشاعر عبد الرحمٰن شكري - وهو أستاذ العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤) والمازني (١٨٩٠ - ١٩٤٩) - أنه عكف على جمع شعره المتناثر من الصحف والمجلّات، وجعل منه ديواناً ثامناً إضافةً إلى دواوين شكري السبعة التي صدرت في حياته، ونشرها مجتمعة في ديوان ضخم مع دراسات موسَّعة عن الشاعر ومذاهبه وعصره اشترك معه فيها الباحث الدكتور محمد رجب البيومي، أطال الله بقاءه، ثم قام الدكتور رجب باستكمال واجب الوفاء، فنشر في كتاب كبير مجموعة المقالات التي كان شكري يخصّ بها مجلة «المقتطف» في فترة احتجابه عن الدنيا بعنوان «نظرات في النفس والحياة» بين عامي ١٩٤٧ و١٩٥١ وكان يوقّعها بالحرفين الأولين من اسمه وهما ع.ش، إلى جانب مقالات كثيرة نشرها شكري في مجلدات أدبية شتّى.

ومن الأقاصيص الجميلة التي قرأتها لنقولا يوسف قبل رحيله بفترة قليلة أقصوصة عن «الأستاذ الشبراوي»، وهو موظف حكومي أحيل إلى التقاعد، فانضم إلى زملائه في مقهى المتقاعدين من أرباب المعاشات، وفيه يستهلّون نهارهم بقراءة صفحة الوفيات في الجريدة اليومية، ثم ينهضون لأداء واجب العزاء في زميل لهم سبقهم إلى الدار الباقية وتخلّف بسبب ذلك عن غشيان المقهى العتيد. حتى جاء يوم كان الشبراوي نفسه هو المتخلّف عن المقهى، وكان زملاؤه قد افتقدوا حضوره، فلمَّا عرفوا من صفحة الوفيات التي لا تكذب - وإنْ تسلّلت إليها مظاهر النفاق والتباهي! - بأنه لحق بركب الراحلين، نهضوا لكي يودّعوه الوداع الأخير. وعندما قرأت هذه الأقصوصة قلت لنقولا يوسف: ما بالك تذكّر أرباب المعاشات - وأنت منهم - بالموت، وكان الأحجى أن تذكرهم بأن الحياة تبدأ في السبعين والثمانين والتسعين حسب «فلسفات» كتّاب علم النفس الغربيين، أو أن تقول إن أرباب المعاشات نهضوا لكي يشاركوا في عرس حفيدةٍ لواحد من زملائهم. لقد أوشك مقهى أرباب المعاشات أن ينفضّ بسبب تركيزك على الموت، وتذكير روّاده بهذه الحقيقة التي لا مهرب منها، فكان نقولا يوسف يردّ قائلاً: إن قصة الأستاذ الشبراوي تنطبق عليَّ تماماً، وعمَّا قريب سيخلو مقعدي العتيد في الكازينات التي أغشاها كل صباح في الإسكندرية لملاقاة

الأصدقاء من أدباء الإسكندرية وأدباء القاهرة المصطافين في الثغر وغيرهم من الوافدين من الأدباء العرب. ولعلّه كان يعرف أن داء استسقاء الكبد لن يمهله طويلاً، فأراد أن يرسم صورةً مستقبليةً تنطبق عليه.

كان نقولا يوسف يخرج من بيته في حي كليوباترة في الإسكندرية كل صباح، ويتوجّه إلى المقاهي المنتشرة على شاطئ البحر، وقد أطلق عليها أصحابها اسم «كازينو» أما هو فكان يعرّب الاسم إلى «كازينة»، وبمجرّد أن يحتل مقعده الأثير، يشرع في استخراج أدواته من كتب وأوراق ورسائل، فيقضي نصف النهار في القراءة والتأليف وفي الرد على بريده المتضخّم، وهو لم يدع مجلّة أدبية تصدر في مصر إلّا وافاها بمقالاته: «السياسة الأسبوعية» و«المجلة الجديدة» و«المقتطف» و«الرسالة» و«الثقافة» و«الأدب الحي» و«الأديب» اللبنانية و«العالم العربي» و«الطالبة» وكذلك مجلة «أخبار دمياط» التي كان له فيها مقال أسبوعي على مدى عشرين عاماً. كما كان حريصاً على التصويب والاستدراك، فإذا صادف خطأ وقع فيه كاتب، نبّهه إلى وجه الصواب، وإذا رأى أن كاتباً لم يستوف مادّته استدرك عليه وأضاف من معلوماته ما يكمّل الصورة. وبحكم خضرمته، عرف كثيرين من الأدباء الذين يحار الباحثون في رصد أخبارهم مثل إسماعيل أحمد أدهم (١٩١١ ـ ١٩٤٠) والشقيقين شحاتة عبيد (ت١٩٦١) وعيسى عبيد (ت١٩٢٣) والشقيقين خليل شيبوب (١٨٩٢ ـ ١٩٥١) وصديق شيبوب (١٨٩٣ ـ ١٩٦٥) والشاعرة السكندرية منيرة توفيق (١٨٩٣ ـ ١٩٦٥) وفليكس فارس (١٨٨٢ ـ ١٩٣٦) والصحافي المعجوز توفيق حبيب (١٨٧٩ ـ ١٩٤١) والأديب محمد أمين حسونة (١٩٠٩ ـ ١٩٥٦) وأمّ البحرية عصمت هانم محسن (١٨٩٨ ـ ١٩٧٣) وغيرهم. وكتاباه عن أعلام دمياط وأعلام الإسكندرية مرجعان ضخمان لأعلام هاتين المدينتين، مع التركيز على الأدباء الذين أنجبتهم عروسا البحر المتوسط في شرق النيل وغربه.

ولد نقولا يوسف لأمٍّ يونانية وأب مصري، فأجاد اللغة اليونانية منذ صغره، والتحق بعد الدارسة الابتدائية والثانوية بمدرسة المعلمين العليا، وكان أستاذه الأكبر فيها هو الشاعر عبد الرحمٰن شكري الذي بقي على وفائه له وعلى اتصاله الدائم به سواء عندما كان الشاعر يقيم في بور سعيد أو عندما هجرها هرباً من الإغارات الجوية إلى الإسكندرية. وله مع شكري مجموعة من الرسائل المتبادلة،

وقد نشرها في مجلة «الأدب» لصاحبها الشيخ أمين الخولي (١٨٩٥ ـ ١٩٦٦). وعندما أصيب شكري بالفالج في يده اليمنى، عوّد نفسه على الكتابة باليسرى فكان يحرّر بها رسائله وكذلك مقالاته.

تزوج نقولا يوسف من سيدة يونانية أنجبت له ابنتيْن من التوائم، توفيت واحدة منهما وهي صبيّة فكسرت قلبي الوالدين. وكان من عادة نقولا يوسف أن يزور اليونان في الحين بعد الحين فضلاً عن زياراته لسويسرة وفرنسة وإيطالية، وسجل خواطره عن هذه الرحلات في كتاب ما زال مخطوطاً.

ونقولا يوسف هو أوّل من نبّه إلى الشاعر اليوناني قسطنطين كفافيس المقيم في الإسكندرية، والذي تمنح اليوم باسمه جوائز للشعراء، وأعتقد أن أحقّ الناس بهذه الجوائز هو «اسم» نقولا يوسف «مكتشف» هذا الشاعر. وبرغم الوشائج اليونانية في حياة نقولا يوسف، فلم يُعْنَ بالترجمة عن هذه اللغة، ولا بدراسة الشعر اليوناني، ولا كانت له كتابات عن الأدب اليوناني القديم أو الحديث.

كان نقولا يوسف بحكم طول إقامته في الإسكندرية، مُسخَّر القدميْن في خدمة الأدباء المقيمين والوافدين، على الرغم من أنه لم يكن عضواً في الفرع المحلي للمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب.

فعندما عرف باشتداد العلّة على أستاذه عبد الرحمٰن شكري، بادر بالاتصال بالمسؤولين وبالصحف للعمل على إنقاذ حياته. فلمَّا تحرك البيروقراط بعد تثاقل مُميت، وقصد رُسُل الرحمة بيت شكري لإسعافه بالعلاج، كان الشاعر الكبير قد انتقل إلى رحمة الله! وعندما توفي الصحافي الأديب صديق شيبوب، وكان هو وشقيقه خليل شيبوب الذي سبقه إلى الرحيل، يحتفظان بأطنان من الكتب والصحف والمجلات والأوراق والمخطوطات في بيتهما الذي تشاركه شقيقاتهما معهما، خشي نقولا يوسف أن يبدّد الورثة كل هذا التراث، فسعى لدى المسؤولين في فرع المجلس الأعلى لرعاية الأدب لاقتناء هذه المخلّفات، وحذَّر الورثة من التصرف في هذه «الكنوز»، ولكن مساعيه انتهت بجملةٍ كبيرة من الوعود العرقوبية. ولمَّا طال صبر الشقيقات، بادرن بالتخلّص من هذه «الكنوز» لتجّار المهملات المنزلية لتتحوّل بعد ذلك إلى قراطيس مقرطسة يُباع فيها اللبّ والزيتون وما إليهما في محال البقالة!

وعندما استنفر الشاعر صالح جودت (١٩١٢ ـ ١٩٧٦) أريحيّة أصدقاء الشاعر الدكتور إبراهيم ناجي لكي يوافوه بما لديهم من شعره المتناثر، توطئةً لإصدار ديوان كامل لهذا الشاعر بالتعاون مع زملائه أحمد رامي (١٨٩٢ ـ ١٩٨١) والدكتور أحمد عبد المقصود هيكل، أطال الله بقاءه، ومحمد ناجي شقيق الشاعر، بادر نقولا يوسف بتزويد صالح جودت بما كان في حوزته من شعر ناجي غير المنشور حتى لا يخلو الديوان منه. ويسوقني الاستطراد إلى الإشارة إلى أن هذا الديوان الذي نشرته وزارة الثقافة، ظهر معيباً برغم الأسماء الأربعة التي تصدت لإخراجه، إذ احتوى على بضع عشرة قصيدة للشاعر الدكتور كمال نشأت، أطال الله عمره، وللشاعر علي محمود طه (١٩٠٢ ـ ١٩٤٩) تسللت إلى الديوان في غفلةٍ من «العيون اليواقظ»!.

وهكذا كان نقولا يوسف ينتدب نفسه لخدمة الأدباء وإرشادهم والتخفيف عن وطأة الحياة عليهم، وقُصاراه أن يرضي ضميراً أُشرب أجمل القيم والمثل العليا، حتى وصفه صديقه الدكتور محمد رجب البيومي بأنه «ناسك هندي» في حين وصفه زميله السكندري الدكتور عبد العزيز جادو، (١٩١٠ ـ ٢٠٠١)، بأنه «الكاتب الإنسان».

وبفضل نقولا يوسف عرفت كل أدباء الثغر، لأنه كان واسطة العقد بين المشتغلين بالأدب.

ولم يكن نقولا يوسف شكّاء لأن الدارسين للأدب الروائي أغفلوا أمره، فَخَلَتْ قائمةُ الروايات المئة التي اختارها اتحاد الكتاب من روايته المبكرة «إلهام» وتناسى دارسو الأدب القصصي مجموعاته الثلاث، ونسيته المهرجانات التي أقيمت في مسقط رأسه دمياط، وفي مستقره الجديد الإسكندرية، مع أنه سجّل تاريخ دمياط من أقدم العصور واستقصى كل أعلامها هي والإسكندرية. وقد منعه تواضعه من أن يحشر نفسه بين هؤلاء الأعلام.

وإذا حلّ موسم الصيف، وتدفق المصطافون إلى الإسكندرية، انعقدت فيها ندوتان، ندوة في «مقهى پترو» ينتظم فيها توفيق الحكيم (١٨٩٨ ـ ١٩٨٧) ونجيب محفوظ، وثروت أباظة، (١٩٢٧ ـ ٢٠٠٢)، وينضمّ إليها أحياناً المؤرخ عبد الرحمٰن الرافعي بك (١٨٨٩ ـ ١٩٦٦) وبعض الباشوات مثل إبراهيم فرج

باشا (١٩٠٣ ـ ١٩٩٤)، وندوة ثانية تعقد في كازينة كليوباترة أو كازينة لاكويرتا تضم نقولا يوسف والأديب إبراهيم المصري (١٩٠٠ ـ ١٩٧٩) ومجموعة كبيرة من أدباء الثغر وأدباء القاهرة، وأغلبهم من الشباب الذي يرى في نقولا يوسف «مخزن ذكريات وتجارب». وفي حين كانت الندوة الأولى تتطرق إلى موضوعات عامة من سياسية واجتماعية وفكرية، كانت الندوة الثانية خالصة للأدب لأن روّادها لا يحملون من الهموم إلّا ما يتّصل منها بالأدب، أما هموم السياسة والمجتمع فالطلاق منها بائن. وقد كنت أقول لنقولا يوسف: إن هؤلاء المصطافين جاءوا إلى الإسكندرية أساساً للتمتع بمياه البحر ومصارعة الأمواج، ولكنك تصرفهم عن هذه المتعة بجلساتك المتصلة، فكان ينفي عن نفسه هذا الاتهام قائلاً: إنهم إنما غشوا ندوته بمحض إرادتهم، ولعلّ الأدب عندهم أشد إغراءً من البحر بسابحاته الفاتنات!

وعلى مدى شهري الصيف، يتعاقب على ندوة نقولا يوسف قادمون جدد، في حين يرحل عنها الذين آذنت إجازاتهم بالانتهاء، ونقولا ثابت في مكانه لا يريم. وكنت أقول له: إن ندوة العقاد تلتئم مرة في الأسبوع، ولكنك تضرب الرقم القياسي بالاجتماع يومياً. فكان يقول: إن للعقاد التزامات عملية تقتضيه التفرغ لها في أيام الأسبوع الستّة، أما أنا فحظّي من الصعلكة كبير.

كان نقولا يوسف معتدل القوام، أَمْيَلَ إلى النحافة، لا تراه إلّا مشرق الوجه متفائلاً، وهو لا ينفك يتأبط حزمةً من الأوراق والكتب في ذهابه وإيابه. ولعلّ أصدق وصف لصورة نقولا يوسف هو نفس الوصف الذي ساقه عن أستاذه الأوّل عبد الرحمٰن شكري الذي كان شديد التأثر به: فهو ـ أي شكري وكذلك نقولا ـ رجل جدّ وعمل، يميل إلى الهدوء والنظام، واسع الاطلاع، غزير المادة، مثقل بالتجارب والذكريات، متمكن من اللغتين العربية والإنجليزية (واليونانية في حالة نقولا)، هذا إلى أنه رصين، قوي الشخصية، عطوف، طيّب القلب، مهذب اللفظ، لا تخرج من فيه كلمة نابية عن أديب أو غير أديب، وهو يصحب طلابه إلى مكتبة المدرسة ليحبّب إليهم المطالعة والبحث.

ولعل الفارق الرئيسي بين الشخصيتين، هو أن عبد الرحمٰن شكري ضاق بنقد العقاد والمازني فاعتزل الدنيا، أما نقولا يوسف فكان منفتحاً على الدنيا والناس طوال عمره.

وبوفاته خلت الإسكندرية من عُمدتها الأدبيّ، وتوالت وفيات أدباء الثغر، ولحق بهم مؤخراً الشاعر عبد العليم القباني (الترزيّ سابقاً) الذي توفي في ١٤ يناير (كانون الثاني) ٢٠٠١، ودارس علم النفس الدكتور عبد العزيز جادو (التاجر سابقاً) الذي توفي في ٣٠ أغسطس (آب) ٢٠٠١.

وحتّى لا تضيع ذكرى نقولا يوسف في ضجيج الحياة، أشار صديقه الدكتور محمد رجب البيومي العميد السابق لكلية اللغة العربية بالمنصورة على واحدٍ من طلابه لكي يعدّ أطروحته الجامعية عن هذا الأديب الذي كان سخيّ اليد والروح، على النقيض مما اشتهر به أبناء دمياط من شدة الحرص والتقتير. ولا أدري لِمَ سكت الشعراء عن رثائه، مع أنه كان كبير الاهتمام بالشعر والشعراء.

❁ ❁ ❁

وداد سكاكيني

في الثالث من كانون الثاني (يناير) ١٩٩١ فاضت روح الأديبة العربية الكبيرة وداد سكاكيني بعدما أجزلت عطاءها للغة الضاد، وأكدّت منزلتها الفريدة في أدبنا المعاصر. ولئن كتمت أحزاني الممضّة على هذه الأديبة الماجدة، التي ارتبطت بها وبزوجها الراحل الدكتور زكي المحاسني (١٩٠٩ - ١٩٧٢) بمودّات وثقى منذ أواسط الأربعينيات، فعزائي في فقدها هو أن أحاول إنصافها في هذه الصفحات القاصرة.

في صدارة الصدارة من المشتغلات بالأدب في عصرنا الحديث السيدة وداد سكاكيني اللبنانية المولد، السورية الجنسية، العربية العقيدة والاتجاه، الإنسانية النزعة، الحفيظة في جميع كتاباتها على مكارم الأخلاق ومفاخر المبادئ ومناقب الضاد وقيم الدين.

وإذا كانت القاعدة التي يُقاس عليها الأديب هي قدرته على الإتيان بجديدٍ مبدع، وامتلاكه ناصية البيان ليصوغ الأثر البديع في قالب أدبي رفيع، فإن وداد سكاكيني هي في الطليعة من كبيرات الكاتبات المعاصرات، ولعلّها تتقدّم على كثيرات من حاملات الألقاب الجامعية، وكثيرات غيرهن من اللائي ذاع صيتهنّ وشغلن الرأي العام على نحوٍ أو آخر.

فمنذ ما انتضت وداد سكاكيني قلمها وهي بعدُ في طليعة الشباب، كانت مأخوذةً في جميع آثارها القلمية بقاعدة الأسلوب والفكرة، فلا تترخّص في أسلوبها، بل تجاري فيه أعلام البلاغة كالجاحظ والكاتب وابن العميد، ولا تستهويها الفِكَرُ السطحيّة، وإنما تنشغل بجلائل الأفكار وأمهات القضايا دون أن تضحي في أسلوبها وفكرتها بالملامح الأنثوية الكريمة والأصيلة فيها.

ووداد سكاكيني صانعة نفسها، فقد نالت من العلم المدرسي حظاً غير موفور، ولكنها تعلمت على السلف الصالح، ولا سيما الشيخ مصطفى الغلاييني

الذي اكتشف موهبتها ورعاها وشجعها على الاغتراف من موائد الأدب حتى ملكت عليها هواية الأدب جميع حياتها، وبدأت مع ريِّق الصبا تعكف على مطالعة أمهات الكتب في الأدب العربي، وترجمات الآثار الغربية الباقية، حتى إذا تكاملت لها ثقافة ثرّة من محصول هذه المطالعات جرّبت حظها في الكتابة، وإذا الطريق أمامها ممهّدة، والشهرة على الباب. ولكنها مع ذلك راضت نفسها على المضيّ في طلب المعارف في بطون الكتب وفي غمار الحياة، دون أن تزدهيها بوارق النجاح المواتية، أو تسكرها نشوة التقدير التي صاحبت أوَّلَ ظهورها.

ولا أظنّ وداداً حاكت كاتبةً غيرها أو سارت على صراطٍ مرسوم لأديبة سبقتها. ولكنِ المتابعة الحثيثة لآثارها الأدبية المنشورة تؤكد أنها تأثرت أكبر التأثر بالكاتبة الشهيرة مي، وإنْ خالفت مذهبها في الرومانسية الحالمة، وجفت ما يتراءى في كتابات ميّ من معانٍ فرنجية وأخيلةٍ غريبة على السليقة العربية الصافية.

ولئن عُرفت وداد سكاكيني في الخافقين العربييْن بانشغالها بالأدب، فلم يكن ذلك منها احترافاً يؤودها بباهظ الثمن، بل كان هوايةً تتخلّل حياتها الدارجة كزوجة وأم وربّة بيت. فلم نعرف عنها أنها أذعنت لمطالب المطبعة الملحّة، ولا أنها اشتغلت بالكتابة الصحفية اليومية التي تعدو على العمل الأدبيّ بما تفرضه على الكاتب من سرعةٍ ولهفة. ولكنها كانت تُصيخ دائماً إلى هاتف القلم كلّما ناداها من خلال هموم الحياة، فتخلو إليه، وقد تتركه إلى حين لتفرغ إلى إعداد طعام الأسرة، أو تفرغ إلى طفل مريض لا يجد لحنان الأم بديلاً.

بيد أن وداد سكاكيني شاركت بقدرٍ في الحياة العامة، فعرفت عضوية مجالس الشورى ومنتديات الأدب، وارتقت المنابر متحدّثة في شؤون الأدب أو أمور الجماعة، واختيرت غير مرّة عضواً في وفود الأدب ومؤتمراته، وزارت عدداً من البلدان، فكانت سفيرةً أدبيّة بارعة، كما كانت في الوقت عينه ساعيةً وراء المعارف تحث إليها كل الخُطى.

وإن المتتبِّع لآثار وداد سكاكيني لا يعييه أن يصنفها في أبواب خمسة هي: القصة، والترجمة للأعلام، والنقد الأدبي، والدفاع عن قضايا المرأة، والدين.

فلها في القصة مجموعات عنواناتها: «مرايا الناس» و«بين النيل والنخيل»

و«الستار المرفوع» و«الحبّ المحرّم» و«أروى بنت الخطوب» و«نفوس تتكلم» و«أقوى من السنين».

ولها في النقد: «نقاط على الحروف» و«سواد في بياض» و«شوك في الحصيد».

ولها في السيرة: «نساء شهيرات من الشرق والغرب» بالاشتراك مع تماضر توفيق، و«قاسم أمين» و«مي زيادة في حياتها وآثارها» و«عمر فاخوري أديب الإبداع والجماهير» و«العاشقة المتصوفة».

ولها في الدفاع عن المرأة «إنصاف المرأة» و«سابقات العصر».

ولها في الدين «أمهات المؤمنين وأخوات الشهداء» وقد بدّلت عنوانه في طبعته الثانية إلى «أمهات المؤمنين وبنات الرسول».

ولها كتاب مخطوط عن «مصر كما عرفتها».

وهي في جميع ما أخرجت من مصنفات اندرجت تحت الأبواب الخمسة السالفة الذكر تعرف أنها كاتبة أنثوية، فتبرز تلك السمات الأنثوية في كل ما تخطّه على الطرس. ففي القصة نراها جادّة في تصوير منازع المرأة وأشواقها في جميع مراحل حياتها. وفي النقد نرى وداداً راصدةً لجميع آثار المرأة، تعالجها بالتقديم والتقويم غير تاركةٍ كاتبةً واحدة دون أن تقول فيها كلمة صادقة لا تخلو من صراحة، وقد تكون صراحة جارحة إذا ما اقتضى المقام ذلك. وفي السيرة نرى وداد سكاكيني معنيّةً بالسير الملهمة للنساء الماجدات أو الرجال الذين كان لهم في مناصرة المرأة فضل مقدور. فليس أحبّ إليها من أن تجلو للناشئة صوراً ناصعة من حياة الرائدات في كل إصلاح، والعاملات عملاً باقياً. وما أقدرها في استصفاء العِبَر واستخلاص الدروس من كل سيرةٍ تسجلها بقلمها الصَّناع.

على أن الأنوثة الكريمة في وداد سكاكيني لم تكن لتنهاها عن خوض المعارك الأدبية بفروسية نادرة، وكان بعض هذه المعارك مع لدات لها من الكاتبات، وكان بعضها الآخر مع فحولٍ من كبار الكتّاب. ولم تكن تحدوها في تلك المعارك رغبة في المخالفة ابتغاء إثارة الغبار واجتذاب الأنظار، وإنّما كان الصدقُ حاديها، والحقُّ العلميُّ رائدها. والسموّ الخلقي عاصمها من العِثَار. فلم تكن معاركها شخصيةً في جوهرها، وإنما كانت تدور على محور قضية عامة من

مؤداها الانتصاف للقيم. ولعلّ أكبر معارك وداد سكاكيني هي معاركها في سبيل إحقاق حقوق المرأة كاملةً، لا لكي تنطلق في رحاب الحريّات بغير حدّ، بل لكي تكتشف المرأة ذاتها، وتضطلع بدورها الأصيل في خدمة الأسرة والجماعة مراعيةً قواعد الاحتشام، حريصةً على أقداس أنوثتها وخصائص جنسها. فإذا دعت إلى مساواة المرأة بالرجل، فإنها ترفض الاسترجال الذي يحوّل المرأة إلى مسيخٍ منبوذ. وإذا طالبت بحق المرأة في أن تشتغل بالحياة العامة، فما ذلك ابتغاء طرد الرجل من مجالي الحياة، بل ابتغاء التعاون معه في جوٍّ من المودّة المتبادلة والكرامة المرعية. وإذا نادت بأن للمرأة أن تجهر بعواطفها وتكشف عن أهواء قلبها، فما ذلك عن تبذلٍ، بل عن رغبة أكيدة في صون أركان البيت ودعم قواعد الأسرة. فالسفور عند وداد سكاكيني هو سفور عاقل يزيل الجفوة بين المرأة والرجل، ولكنه لا يرفع الكلفة بينهما بغير حساب.

ولقد بلغ من غيرة وداد سكاكيني على قضية المرأة أنْ خصتها بكتابٍ برأسه عالجت فيه هذه القضية بواقعية العصر ومنطق العقل، كما تناولت سيرة قاسم أمين ببحثٍ كبير اعترافاً منها بأياديه على حرية المرأة. وإلى هذا وذاك أشادت بكثيرات من الناهضات بالمرأة، وفي طليعتهن هدى شعراوي وروز أنطون حدّاد، فأنصفت فيهما كفاحاً ذائداً عن المرأة وحقوقها وقيمتها في المجتمع، ودفعت عن بنات جنسها جحوداً تلقاء المجاهدات في سبيل التحرّر الكريم للمرأة العربية الشرقية.

ولوداد سكاكيني أسلوب بيانيّ ناصع يتميّز عن جميع أساليب الكتابة التي تجري عليها الكاتبات المعاصرات، ولا أكاد أستثني منهن واحدة. فهو أسلوب يستمدّ رصانته من فحولة الضاد، ويستقي رشاقته من سلاسة البلاغة، ويتدفق على قلمها كأنه ماء نمير عذب، فألفاظها مستقرّة في السياق، لا تتململ ولا تتضجّر، ومعانيها مصوغة في قالبٍ يجمع بين جمال الأداء وبلاغة التعبير، ولها فوق ذلك ذوق بارع في انتقاء أساليب التعبير النافذة إلى صريح المعنى، ولها بَصَرٌ بفنون الكتابة يقيها سوءات اللحن ومزالق الخطأ، ولها قدرة على التصوير بالقلم تبزّ التصوير بالريشة لدى أعلام المصوّرين. وهذه البلاغة الأخّاذة كثيراً ما تصرف قارئ وداد سكاكيني عن متابعة أقاصيصها، لأن فتنة الألفاظ تستهوي العقل فتباعد بين العاطفة وبين الانفعال السريع في معرض القصص المسرودة. ولهذا أراني

إزاء بهرة اللفظ أُعيد قراءة القصة وأستعيدها في تلاوةٍ ثالثة حتى لا تفوتني بادرة من بوادرها أو لفتة من ذكي لفتاتها. فلكأن أقاصيص وداد سكاكيني عرائس سابيات أُلبسنَ ثياباً من غالي الحرير، فالعينُ لا تملك إلّا أن تزيغ بين فتنة الجمال وفتنة الثياب. ولا بدّ إذن من إنعام النظر وإطالة التحديق حتّى يتأتّى للعين أن تلملم أطراف الصورة بكامل بهائها وفائق روائها.

فها هي وداد سكاكيني تصوّر بطلة إحدى أقاصيصها، وتسجّل ما ظهر وما خفي من مشاعرها فتقول: «لقد استبدّت الكهولة بهاجر، والرجل الذي يملأ خيالها ويُلمّ بها في أحلامها بنجوةٍ منها، لم تبعث به الأقدار إليها، إذ كانت تعبثُ بشبابها الريّان وقلبها الظمآن، فظلّت غريزتها حيّيةً مكبوتة لا تسمع نداءها الملحاح، ولا تعبّر عن شعورها المبهم، فتخامرها ذلّة أليمة لا ينقذها منها إلّا صوتُ العقل وأَنفَةُ الطبع، ثم خوف الشماتة من الأهل والأتراب إذا حاولت أن تنفّس عن صدرها هذا الهمّ الدفين الذي يثقل على روحها، وما هَمُّها إلّا الرجل الذي توزَّع على حواسّها جميعاً، فصارت ترى شبحه خافقاً في يقظتها وفي منامها، وتتوهم صوته وهو يداعبها ويُلقي في سمعها أعذب النغمات».

فقد استطاعت وداد سكاكيني في هذه الكَلِم القصار أن تصوّر بعمق واقتدار، بل ببراعة معجزة، انفعالات امرأةٍ تعاني من العنوسة، توزّعت عواطفها بين رغبة ورهبة، بين ذلّة وأنفة، بين واقعٍ وحلم، بين إقبال وإدبار. وقد رسمت هذه الصورة بجمهرةٍ من خيرة الألفاظ أحسنت انتقاءها ببراعة الصائغ النقّاد، فلم تفلت منها لفظة خسيسة المعنى، ولا انفرطت من عقدها المنظوم حبّةٌ نابية ناشزة.

كما تَبْدَهُ القارئ في أسلوب وداد سكاكيني سهولة مأتاه وقرب معانيه، فلا غموض يسربل الألفاظ، ولا رمز يغلّف العبارات، وإنما هو السهل الممتنع عن كثيرين من كرام الكاتبين، وإنْ لم يمتنع عن أستاذية الكاتبة وداد سكاكيني. أضف إلى ذلك أن القلم الشريف الذي تحمله هذه الكاتبة قد جنّبها كل مُبتذلٍ من المعاني والألفاظ، فهي أبداً مترفعة عن السوقيّة، عارفة أنها تستطيع أن تصل إلى كل معنى متوسّلةً إليه بعفة اللفظ وشرف الأداء.

وهذه العفّة في الأسلوب إنّما تمتاح من معين العفّة الخلقية التي نشأت

عليها وداد سكاكيني بتربيتها الدينيّة في بيئةٍ محافظة في جنوب لبنان. ومن ثمّة انطبعت جميع كتاباتها بطابع المحافظة، ولكنها محافظة على غوالي القيم وعوالي المُثُل. ولا غرو أن تجيء جميع السير التي كتبتها وداد سكاكيني دالّةً على مناحي الخير في الإنسانية، منصرفةً عن منازع الشرّ بألوانها وأشكالها. فهي لا تكتب عن شخص إلّا إذا ملأ بالفضائل نفسها، وبرهن على أنه خليق بعناية كاتبة مبرّزة مثلها. ولئن أنست في شخصيةٍ ما قصوراً أو عيباً، تجاوزت عنه بكياسة أو أشارت إليه تلميحاً أو روته تسجيلاً لحقيقةٍ تاريخية، ثم ذهبت تبحث له عن تعليل مقبول أو تفسير يقوم له عذراً.

وإذا استوقفنا بيانُ وداد سكاكيني، فذلك لندرة هذا المستوى الرفيع في يومنا هذا. فقد استبدّت بالكاتبين في عامّتهم رغبةٌ في مزاولة أيسر الأساليب وأبعدها عن لغة البيان حتى تساوت الأساليب جميعاً على أقلام الكتّاب، ولم يعد في وسع المرء أن يميّز بين كاتب وكاتب من حيث الأداء الأدبي. ولكن وداد سكاكيني جعلت من بلاغة التعبير خصيصةً ثابتةً من خصائص شخصيتها الأدبية الناضجة، حتى قال عنها أديب من كبار أدباء لبنان هو المرحوم كرم ملحم كرم: «لا أراني أسخو عليها بالمديح في قولي إنها ذات بيان يكسف بهرجة عددٍ كبير من المنشئين الذاهبُ لهم في دولة القلم صوتٌ بعيد، ففي أسلوبها بلاغة وجمال. ومتى بلغت المرأة هذا المقام الأدبيّ السامق، أضحت من الموهوبين، فجاز لها الطموح، وكانت ذات حقٍ في التفوّق، وقد ضارعت الرجل حيث توهّمَ أنْ ليس للمرأة أن تجاريه».

ولئن قيل إننا نغلو في تقدير وداد سكاكيني، ونجزل لها تقديراً يكاد يجعلها فوق النقد، فلستُ أبرئ نفسي من تهمة الإعجاب بهذه الكاتبة المجيدة التي عرفتها على امتداد سنوات طويلة، وقرأت لها معظم آثارها، ما اندرج منها في الكتب وما انتشر منها على صفحات دوريات الأدب، وصافيتها المودّة هي وزوجها العلامة الدكتور زكي المحاسني الأستاذ الجامعي الجهبذ المكين والعضو المراسل لمجمع اللغة العربية في القاهرة. ولكن تهمة الإعجاب جاءت بِنْتَ حسابٍ دقيق ومراجعة صادقة، فانقلبتْ من تهمة إلى إنصاف تقضي به أصولُ الحق المقرّرة. ولا يَضيرني أنه أجيء معترفاً بأن أسلوب وداد سكاكيني طالعني في فجر حياتي بآيات التحدّي، فاجتهدتُ في أن أحتذيه، وجاهدتُ في أن آخذ

النفس بمثله عسى أن ترتفع أسهمي في أعين القارئين. وإذا كان شيء من عَدْوَى أسلوب وداد سكاكيني قد نالني، فأنعم بهذه العدوى وأكرم، وليتني كنتُ مستطيعاً أن أستزيد منها فوق ما استزدت.

سُئلت وداد سكاكيني مرّةً في حلقة إذاعيّة كنتُ من المشاركين فيها، وكان السائل هو أستاذنا الكبير الدكتور محمد مندور (١٩٠٧ ـ ١٩٦٥): لماذا أنتِ مفتونة بالأساليب البيانية؟ فأجابت: لأنني أعتقد أن الكتابة فن من فنون الجمال المتناهي. وإذا كان الرسّام يتوخّى أشدّ التدقيق في اختيار ألوانه وأصباغه وفرشاته ومناظره وسائر أدواته متأنياً في إبداع ما يُطيف بذهنه من لطيف الصور، فإن الأديب بدوره مجبول على أن يتأنّى ويتأنق في إرسال أفكاره على الورق، حتى وإنْ طاوعته المعاني وانثالت عليه الصور. فالأدب الأصيل يُقاس بنفاسته لا بحجمه، بكيفه لا بكمّه، بعمقه لا بوفرة ثرثرته. ولا ريب في أن الكاتب ذا الأسلوب أعلى مقاماً من الكاتب الذي يطرد في كتاباته على كلامٍ مكرور، وألفاظ مُعادة، ومعانٍ مُزجاة، وصورٍ سبق إليها أدباء تقدّموا عليه. وإذا كان التطريز والوشي يُغليان ثمن الثوب، فإن النصاعة في الديباجة الأدبية تُعلي شأن الأثر المكتوب وترشحه للخلود، إن كان ثمّة خلود.

واستطراداً مع السليقة المحافظة التي فُطرت عليها وداد سكاكيني، كان عليها أن تتجهّم للكثير من مذاهب الكتابة المعاصرة استنكاراً لها ونفوراً منها. ومن ثم رفعت عالي الصوت في مناهضة ألوان العبث التي تسللت إلى الأدب تحت أسماء منها اللامبالاة، وغير المعقول، والتجريد، والواقعية، وعدم الانتماء، والرمزية، والسفور العاطفي الفجّ. وازدادت ثورة وداد سكاكيني عندما تبيّنت أن تلك المذاهب صادفت هوىً في نفوس جلّة من الأديبات العربيات الطالعات، فانتضت قلمها، وشنّت عليهن حرباً عواناً فزعن منها وإنْ لم يرتدعن. وفي هذا قالت وداد: «لقد زعم الرجل بأن المرأة أقدر منه، وهي أديبة، على تصوير نفسها وعالمها، وصدقته المرأة، فاستجابت لدعوته متغزّلةً به تارةً، وتارةً ثائرة عليه باحثة عن حرّيتها التي اغتصبها منها حتى انطلقت في حلقةٍ مفرغة لا تدري كيف تدور فيها على ذاتها، وإذْ بأقلامٍ غثّة فجّة تدوّخها الدوامة الساغانية ـ نسبة إلى فرانسواز ساغان ـ ويستهويها ثناءُ الرجل الذي يطالبها بأن تحيا على خاطرها وتعبّر بقلمها عن خفايا هذه الحياة دون خجل أو تخوّف على ما يُسمَّى

بالتقاليد التي صنعتها المجتمعات المتخلّفة. إنه يريدها أن تعرّي نفسها وحسّها بيدها، وأن تتغزّل به وبمفاتنها، فيسمعه منها ويقرؤه بأدبها، وإذْ بهذا الأدب خرافات وسخافات».

وليس يفوتنا أن نلحظ أن وداداً عزت إلى الرجل تحريض المرأة على ولوج أبواب هذه المذاهب الأدبية الوافدة، ولا نظن الرجل يحمل وحده وزر هذا المسلك.

والذي لا ريب فيه أن وداد سكاكيني قد استطاعت أن تصوّر المرأة أدق تصوير، فصورتها في أمومتها المجاهدة، وعنوستها المستسلمة في مجامع أقاصيصها، وصوّرت حياة الضرّة والحماة والشيخة وليّة الله، والمدرّسة المتعالمة، والساذجة المتعاظمة، والعقيم المحرومة، والولود المنجاب، وصوّرتها في حياة الحريم وفي مقاصير الثراء، وصوّرتها في شبابها المتفتح وفي كهولتها الذابلة وفي شيخوختها الفانية، وصوّرتها في سعادتها وعذابها، في آمالها وفي خيبتها، في إيمانها وفي إذعانها للسحر والشعوذات. وصورتها غيريةً باذلة وأنانيةً ماكرة، وصوّرتها جانيةً ومغلوبة على أمرها، ولم تترك المرأة على حالٍ إلا رصدته بقلمها الرشيق، وإذا القارئ في معرضٍ حيّ من معارض الوجوه والشخوص، يرى من المرأة أطواراً، ويأنس منها صنوفاً وألواناً، وكلهن ملء الحياة والحركة وكأنهنّ انتزعن من خضمّ المجتمع وصرن نماذج بعضها يتكرر وبعضها فريدٌ أو قليل المثيل. فالمرأة هي العالم الذي تعرفه وداد سكاكيني جيد المعرفة، وهي بجبلّتها الأنثوية وقدرتها على الملاحظة وموهبتها الأدبية كفؤ لتقديم هذا العالم إلى القرّاء نابضاً بالحياة عامراً بالحركة جياشاً بالعواطف والأحاسيس مضطرباً بالانفعالات المتباينة. ولما رغبت وداد سكاكيني في الاستشهاد من الحياة الواقعية بسيدات فُضليات مُثليات وقع اختيارها على سيدات كريمات عظيمات مثل هدى شعراوي، ومي زيادة، ونازك العابد، وسهير القلماوي، وليلى دوس، وفدوى طوقان، وماري عجمي، وغيرهن وغيرهن.

ولكن هذا العالم الأثير عند وداد سكاكيني لم يستأثر بكل اهتمامها. إذ وجهت شطراً مقدوراً من عنايتها إلى عالم الرجل، فتناولت كثيرين من أعلام الفكر تناولاً يبعث على الثناء والإطراء. فرسمت صوراً سريعة، وإن تكن عميقة بليغة، لرجالٍ تسنمّوا قمم الحياة الفكرية، وتهيأ لوداد أن تعرفهم في حياتها

الأدبية الزاخرة. ومن أولئك فؤاد صرّوف، ومحبّ الدين الخطيب، ومحيي الدين النصولي، وحبيب جاماتي، ونقولا الحداد، وخليل مطران، وخليل تابت، وسلامة موسى، والمجاهد محمد علي الطاهر، وكرم ملحم كرم، وبشر فارس، وواصف بارودي، ونجيب العقيقي، وعادل الغضبان وغيرهم وغيرهم، فلم يُعيها أن تضع يدها على مكامن العظمة في كل منهم، وأن تحصي لكل واحدٍ منهم خصائص ينماز بها ويتفرّد، فدلّت بذلك على أمرين، أولهما أن لها نظرة بصيرة لا تخيب، وثانيهما أنها أُشربت روح الانصاف فذهبت توزّعه على مَنْ يستحقه بقسطاس أمين. كما أن إنسانيتها ككاتبة ماجدة اتسّعت فاستوعبت الذين تقف معهم على طرف نقيض، فقالت كلمة حقٍ في سلامة موسى وإن خالفته في كثيرٍ من آرائه، وجهرت بتقدير بشر فارس وإنْ ازورّت عن رمزيّته المستغلقة. وهكذا هان عليها أن تفرّق بين هوىً ذاتي وحقٍّ باهر يفرض نفسه على تاريخ الأدب فرضاً.

وعندما فجعت الوداد في شريك عمرها الدكتور زكي المحاسني قضى عليها واجب الوفاء أن تنشر كتاباً تذكارياً عنه بأقلام عارفيه من أعلام عصره وخاطبته بقولها: «أما أنتَ يا فقيد دمشق التي فدّيتها، وحنت عليك في ثراها، فانعم بمحبة الله الذي جعل ذكراك أبقى على الأيام، ولن تغيب بشاشتك عنا، فروحك حوامة علينا. وستبقى رسالتك في عهدنا وقلوبنا نؤديّها بعلم وأمانة في خدمة الضاد والحقيقة والكتاب».

على أن وداداً ذات شخصية مستقلّة تأبى عليها أن تسير في الركاب أو تنساق مع الإجماع. فالمعارضة ديدنها إذا خالف ضميرُها ما استقرّ عليه ناموس الرأي بين سواد الناس. وعندها من الشجاعة الأدبية ما تستعصم به في وقفاتها أمام التيار العَرِم. وما أمجد هذه الكاتبة الأديبة وهي تذود عن الكتاب من غائلة أسباب الترفيه والتسلية والترويح كالمذياع والتلفاز والمجلة المصوّرة وأشرطة السينما. وما أسناها وهي تدفع عن الضاد الشريفة كل ضيم وتردّ كل كيد من القائلين بالعامية الآخذين بالسوقيّة الداعين إلى استبدال الرطانات واللكنات باللغة العربية الفصحى الشريفة. ثم إننا نرى وداداً، في سعيها وراء الإنصاف، تنفض آثار الزمن عن طائفة من الذين أدّوا دورهم في الحياة العامة ثم غمرتهم غمرات النسيان حتى وهم على قيد الحياة. فكتبت عن الأديبة ماري عجمي (١٨٨٨ ـ

١٩٦٥) التي قضت أخريات عمرها بعيدةً عن الأضواء تردّد قول الشاعر محمود أبي الوفا:

وَغَـدَوْتُ فِـي الـدُّنْـيَـا ولا أَدْرِي أَمِنْ أَحْيَائِهَا أَنَا أَمْ مِنَ الأَمْوَاتِ

وكانت وداد ـ كدأبها ـ منصفةً للأحياء والأموات على حدٍ سواء. فألفيناها تكتب عن السيدة كلثوم عودة، وهي فلسطينية ألقت بها المقادير في روسية منذ الحرب العالمية الأولى، فوقفت حياتها على خدمة الحركة الاستشراقية، كما ساعدت في تعليم اللغة العربية في الحواضر الروسية.

وهكذا تنقّب وداد سكاكيني عن القيم الأدبية حيث تكون، فتزيح عنها الستار، وتجلوها للعيان بكل مقوّماتها وآياتها وذخائرها وعبقرياتها.

ولستُ أنسى أن أستاذ الكبير عباس محمود العقاد قال لي ذات يوم: إن وداد سكاكيني أديبة من هامة الرأس إلى أخمص القدم، وهي راسخة الأصل في دنيا الأدب تعنو لها جباهُ النقّاد في تقديرٍ وإعزاز. واستطرد العقاد العظيم فقال إنه كان يتوهم أن وراء وداد رجلاً يكتب لها وينطق باسمها، وأنها هي «شبح كاتب» Ghost Writer، ولكنه تبيّن مدى ما ألحقه بها من ظلم عندما زارته وحادثته في شؤون الأدب والفكر، وناقشته في قضايا اللغة والبلاغة، وحاورته في طرائق الكتابة ومناهجها، فكانت له من أنداد الأفذاذ.

وهذا الذي قاله العقاد صحيح صحيح. ولئن قيل: إن وراء بعض الأديبات المعاصرات رجالاً يصنّفون لهن ما يكتبن من نثرٍ أو شعر ـ وهو قول أرجو أن يكون أَحْمَلَ على التعريض منه على إقرار واقع ـ فإن وداد سكاكيني مستثناة من هذا القول بكل تأكيد. ولقد كان من سعيد حظي أن شاركتُ معها في ندوات علنية مفتوحة، فكانت تتكلم في غير جمجمة أو لعثمة أو عِثَار، تعرف ما تقول، وتقول ما تعرف، والناس من حولها معجبون بشخصيتها الآسرة وعباراتها الآمرة وسلاستها التلقائية الدافقة ومنطقها المقنع البليغ.

ولئن كانت وداد قد عالجت صنوفاً من ألوان الكتابة الأدبية، فإن ميدانها الأوّل هو القصة بشكليْها الطويل والقصير. وهي في أقاصيصها جميعاً، سواء استمدّت خامتها من حياة الواقع أو استلهمتها من خيالٍ لا يحلّق كثيراً فينأى عن الواقع، قادرة على أن تقدّم لنا صوراً نابضة بالحياة تتقرّاها اليدان باللمس،

وتتفرّس فيها الأعين فلا ترى نكراً. فوداد سكاكيني تعرف أن القصة مشهد من مشاهد الحياة مستقلّ بذاته منفصل عن سائر مشاهد الحياة، ولا بدّ للقاص من أن يصبّ عليه كل اهتمامه، فيسلّط عليه كل أضوائه الساطعة، حتى يصوّر خلجات النفس وسكناتها، وحقيقة المشاعر وبواعثها، فلا يزيد في الأقصوصة زيادةً تبتذل، ولا ينقص منها نقصاً يشين. وعلى أساس هذا الفهم الصحيح لفنّ القصة، كتبت وداد مجموعاتٍ من الأقاصيص الفاخرة، فلم يكن بدعاً أن يجيء التوفيق حليفها من حيث إثارة متعة القارئ وحبك أطراف الأقصوصة فلا تتمزق، ومعالجة أمور النفس معالجة بصيرة فطنة، ودفع عجلة الحوادث دفعاً فيه سلاسة منطقية وبُعد عن أسباب التكلف التي لا تخفى عن العين النفاذة النقادة.

والمفاضلة بين أقاصيص وداد سكاكيني عسيرة، لأنها مفاضلة بين جيادٍ حِسَان. ولكن لا حرج في التمثيل على فنّها ومنهاجها وأسلوبها بأقصوصتين، اندرجت الأولى في كتابها «الستار المرفوع»، وجاءت الثانية في كتابها «مرايا الناس».

وأولى هاتين الأقصوصتيْن عنوانها «الذئبة» وفيها روت لنا السيدة وداد قصّة فتاة لعوب انتهى بها الأمر إلى خطف زوج ابنة عمّتها في غير تورّع أو حياء. وقد صيغت هذه الأقصوصة في قالب رسالة كتبتها سيّدة لا نعرف من أمرها شيئاً إلى سيّدة أخرى نكاد نجهل عنها كل شيء، لتروي فيها ما ألمّ بزميلةٍ لهما منذ أيام الدرس. وللأقصوصة من الرسالة شكلها واستطراداتها ومقدّماتها ومقوّماتها، ولكنها لم تبدأ بـ«عزيزتي» أو تنته بـ«المخلصة» كما هو شأن الرسائل في العرف الساري. ولعل وداداً افترضت أن هذه مواضعات شكلية مفروغ من بداهتها، ولا حاجة بها إلى إيرادها في الرسالة المقصوصة التي فقدت بالنشر خصوصيّتها وصارت ملكاً مشاعاً لكل قارئ.

تعرض هذه الأقصوصة طرفاً من أطراف نفسية المرأة عرضاً يستقيم مع ما هو معهود في الحياة ومأنوس في علم النفس التطبيقي. فالفتاة التي اختيرت محوراً للرواية عُرفت منذ طراوة عودها بالخفة والطيش والأثرة، فاستهانت بنواميس الجماعة في مسلكها وملبسها، وآثرت اللهو على الجدّ في المعهد وخارج المعهد، وكانت دائماً الفتاة الطموح التي تؤمن بأن الغاية مسوّغ لكل ما يُتوسّل به إليها من سُبل، حتى وإنْ جافى قواعد الأخلاق وتنكر لمبادئ الإنسانية القويمة.

وقياساً على هذه الفلسفة التي صارت جزءاً من كيانها، استغلّت دهاءها ودلالها وفتنتها وعلمها لكي تقتنص لنفسها زوجاً بأي ثمن، حتى ولو ركلت بقدمها اليد التي أطعمتها والصدر الحنون الذي احتضنها في محنتها والبيت الكريم الذي هيّأ لها المأوى حين افتقدت الأمومة والأبوّة في ريعان العمر. فلم يكن غريباً من بطلة هذه الأقصوصة أن تخطف زوج ابنة عمتها بعدما نسجت من حوله شباكها وأوقعته في حبائلها وحملته على طلاق زوجته بما يشبه الإكراه. فكان شأنها شأن الذئبة، لا يُطمأن إليها في بيت، ولا تؤتمن على حملان وادعة.

وقد جاءت هذه القصة مصداقاً على أن الشخصيّة ليست بنْتَ عشيّة وضحاها، بل هي تعبير متأخر عن عوامل استقرت وتبلورت في سنّ الصبا الباكر. فهذه البطلة الذكية لم تفجأ زميلاتها بما أقدمت عليه من مسلكٍ شائن، بل كان لهذا المسلك مقدّمات وأعراض ظهرت منذ أيام التلمذة، فأومأت إلى ما هي خليقة أن تنتظره في غدها. فقد كانت في حداثتها معوجة العود، فعزَّ عليها أن تصلح من ذات نفسها بعدما أنضجتها الحياة، بل لقد ازدادت انحرافاً تطبيقاً للقاعدة الرياضية المعروفة وهي أن كلّ خطأ يسير في زاوية ما لا بدّ أن ينفرج عن خطأ فاحش غليظ في نهاية الأمر.

وقصة «الذئبة» هي في الواقع قصة عدد يقلّ أو يكثر من الفتيات اللواتي يصررن على أن يسلكن في حياة العاطفة أوعر السبل وأنآها عن الصراط القويم. فهن من ناحية يرتضين ـ عن عمدٍ وتدبير سابق ـ التورّط في مواقف يعرفن سلفاً استحالتها وما يحفّ بها من عقبات، وهن من ناحية أخرى يولعن بالمغامرة وذميم الشهرة، ولا يحاولن محاذرتها. وهن من ناحية ثالثة يقنعن بفوزٍ عابر وسعادة حاضرة، ضاربات كشحاً بكل سعادةٍ مقيمة أو هناءةٍ مستدامة. وهذه الصنوف الباغية من بنات حوّاء معروفة في كل جماعة، ولا بأس من احتمالهن على مضض إذا اعتبر بهنّ الغير. ولكنهن بما يسلّط عليهن من أضواء، يصبحن أمثولة للفتيات الناشئات الغريرات القليلات التجارب، وبئست هذه الأمثولة.

ولهذا لم يكن موضع عجب أن تحرص وداد سكاكيني في هذه القصة وفي غيرها من أخواتها على استهجان مسلك الفتيات الذاهبات العقل، واستنكار أفعالهن، وهو أمر قد تنبو عنه القصة في صميم قواعدها، ولكنه مقبول وليس منه بأس لا سيّما وقد ورد هذا الاستهجان في عنوان الأقصوصة الدامغ وفي سياق

رسالةٍ من صديقةٍ إلى زميلةٍ قديمة لها. فلكأن وداداً كانت في هذه الأقصوصة مربيّة جليلة قبل أن تكون كاتبة قصة تروم تسلية القارئ وإمتاعه.

أمّا الأقصوصة الثانية التي تُذكر في مسرد التمثيل على فنّ وداد سكاكيني فهي القصة الموسومة «ثمن مئة عام»، وبطلتها «أم توفيق» التي تمنّت على الأقدار أن تُرخي لها في العمر حتّى تحطّم قرناً كاملاً من الزمان. وعاشت أم توفيق ترى أبناءها يهرمون وأحفادها يبلغون مبلغ الرجال، ولكنها تزداد بالحياة تشبّثاً وبمتاع الدنيا ولوعاً. فلا ترضى بغير حفلٍ لعيد مولدها يقام بحضور جمهرة من المدعوين، ولا تقنع إلّا بألوان من الطعام تقبل على التهامها غير مشفقةٍ على صحّتها الكليلة. ثم هي تتسلل إلى المرآة ترى فيها وجهها وترتدّ بخيالها إلى زمان الشباب، فتطيل التحديق إلى صورتها وكأنها صبية بنت عشرين حولاً. وهي إذ تعيش مع أبنائها المتزوجين في بيت واحد، تبذل نصائحها على مدار اليوم للزوجات والصغار، تنهر هذا وتأمر ذاك وكأنها المكلفة بحفظ النظام في البيت. فإذا جاء الأبناء من أماكن عملهم، قدمت إليهم تقريراً يومياً ضافياً عمّا حدث في غيابهم، وسيّان عندها أن ترضى الزوجات عن هذا التقرير أو أن يسخطن. فهي صاحبة الكلمة العليا، ومَنْ يجترئ على مناوأتها؟

بيد أن عناد «أم توفيق» تلقاء عوادي الزمن لم يحفظ لها شبابها الموهوم أو فتنتها المزعومة، فقد وَهَتْ منها الذاكرة وأورثتها اختلاطاً في العقل، وذوى عودها وودّعت أسنانها وكلّ بصرها، ولكنها وجدت جليساً مؤنساً لا تفارقه هو شجرة برتقال عجوز قامت في حديقة المنزل من سنوات مديدة، فكانت «أم توفيق» تستظلّ بظلها كلّ يوم وتشمّ زهرها وعطرها، وتركن إليها في كل آن.

وكان حتماً مقضياً أن تنتهي حياة «أم توفيق» بعدما بلغت مُناها من طول العمر وامتداده، فآلم فراقها الكبار وأوحش الصغار. واتفق في عين هذا الوقت أن دبّ دبيب الفناء في شجرة البرتقال المسّنة، فقال الأهل إنها حزينة على فراق صديقتها «أم توفيق».

وجاء موسم البرتقال، ولكن الشجرة لم تثمر، فهمَّ بها مَنْ يريد قطعها، ولكن أهل البيت أبوا اجتثات جذورها، وتركوها نفحة ذكرى في حديقة الدار. وكلما التف أهل الدار حول مائدة الطعام، وجاءت صحاف الفاكهة، وتلذذوا

بطازج من البرتقال، خامرتهم غُصّة، وترحموا على الجدة العجوز التي عمّرت قرناً من الزمان، وماتت وهي تحسب نفسها في إهاب الشباب.

وهذه بدورها قصة إنسانية تجلّت فيها روعة المفارقة بين الأجيال المتعاقبة، وتبدّت فيها طرافة المقابلة بين المرأة العجوز والشجرة المعمّرة. ولم تخل القصة من مواقف تثير السخرية عند البعض، والرثاء عند البعض الآخر، وهي في جملتها مظاهرُ نعرفها في الحياة الدارجة على تفاوتٍ في المقدار. أمّا حُبّ الحياة فهو طبيعة بشرية غريزية، تتخذ في الإعراب عنها أساليب شتّى، وما أمّ توفيق باستثناءٍ من هذه الطبيعة الغريزية المشهودة.

ولن يُعيينا أن نلتمس في أقاصيص وداد سكاكيني دلائل على الصدق الفعلي والفنّي، ولن نعدم الاهتداء في الحياة إلى شخوصٍ يذكروننا بالشخوص الذين ابتدعتهم هذه الأديبة البارعة. ولا ريب في أن القلم البليغ الذي ينصاع انصياعاً ليّناً في يد وداد سكاكيني يُسبغ على أقاصيصها جوّاً من البيان المحلّق لا يتهيّأ لكل حامل قلم. فهي بموهبتها الفطرية، وبصيرتها الذكيّة، وقدرتها التعبيرية، ودرايتها الفنية، أديبة مكينة تعرف كيف تكتب، وكيف تكسب الإعجاب، وتؤدّي للأدب وللبيان فوق حقوقهما.

وإذا شئنا أن نتحرّى صورة وداد نفسها من خلال ما كتبته، لوجدنا ملامح ناطقة عنها في أقصوصتها المسمّاة «شقيقة نفسي»، وهي من جملة الأقاصيص الواردة في كتاب «مرايا الناس».

فهي في هذه الأقصوصة تتحدث عن فتاة تدعى «وئام» ـ على وزن وداد ـ ولدت في مدينة صيداء اللبنانية ـ كما ولدت الكاتبة ـ ونشأت في جيلٍ شبّ على الوعي المبكّر، واتسع عقله لتأويل أحداث الجماعة، فازدحمت روحها بالمطامح، وتفتح عقلها عن نباهةٍ تفتّح الأكمام عن الأزهار.

ويبدو من سياق هذه القصة أن بطلتها وئام عانت الخصاصة في صباها بعدما تبددت ثروة أبيها، وعانت الأشجان النوازل بعد موت شقيقتها، فاصطلحت عليها وعلى أهلها الأحزان، والتمسوا العزاء آناً في العزلة، وآناً في النُقلة، فما أجدتا عليهم بشيء، حتى تمرّسوا بهمومهم وخلطوها بحياتهم، وأخذوا النفس بالمصابرة والتجلّد دون أن يتسخّطوا أو تفلت منهم بادرة شكوى.

ولكن وئاماً وجدت منجاةً لها في الدرس فحصّلته في البيت، ورنت نفسُها الطموح إلى مزيدٍ منه فوجدته في لُجّة الحياة. وهنا رأت الحياة على حقيقتها، فيها الحمامة الوديعة، والحية الرقطاء. فلمّا فتحت كتاب الناس، راعها أن تجد في تضاعيفه ما لم تجد مثله في بطون الكتب وصحائف الدرس، فندمت على شبابٍ نسجته بالمثل العليا، وأخذت تتمرّس بآفات المجتمع غير منطويةٍ على يأس، ولا جاريةٍ على مُصانعة.

واستطاعت وئام أن تشقّ طريقها بكفايةٍ ودراية، وأن تتلمذ عليها كثرةٌ من زميلات ورفيقات صباها، وفي الليل كانت تأوي إلى كتبها، فتسامر العباقرة الكاتبين الذين سكبوا على أدبهم المسطور روحَ المعالي وآيات الخلود.

فإذا خلت إلى نفسها في العشايا، أطلقت للفكر العنان، وأخذت تخطّ لنفسها منهاجاً في الحياة فيه طموح إلى المجد، وفيه قناعة بما تقسم الحظوظ، وفيه رضا عمّا أحرزته في أيامها.

وتصف الكاتبة وئاماً في شبابها فتقول إنها ـ وقد استيقظت طفولتها على أمواج البحر باتت جيّاشة العاطفة، صامدة كالجبل، وديعة كالتعاشيب. وعلى الرغم من غِلاب عقلها وعزوفها عن عبث الحداثة ولهوها. كان شعورها الرقيق يفيض بالرحمة والحنان. فكم دعاها قلبها إلى التفدية والإحسان، فما جَنَتْ غير المساءة والجحود، وكم ساق إليها صُرَاحَ القول من عَنَتٍ وعداء، فما حفلت إلّا بالحقيقة تَجْبَهُ بها الناس. وربّما كانت هذه الخصلة فيها، وإطلاقُها النفسَ على سجّيتها، ممّا أقصاها عن الناس وكأنها غريبة بينهم. على أنها وجدتهم في زحمةٍ صاخبةٍ ضاغطةٍ من الدنيا، فتغلغلت في غمار الخلائق. وكشفت عن الطبائع، فراعها في صفقةِ الحياة رواجُ الرياء والزلفى، وبوارُ المواهب الصادقة. فسخطت على جَوْرِ المقاييس وغَلَبَةِ الضلال، حتى خُيِّل لمن كان يراها أن شعلة الشباب فيها آخذة بالخمود، وهي ما زالت في ميعة العمر وهَبَّةِ الحياة. على أن وئاماً بقيت ـ على الرغم من كل ما اجتوته ـ أنوفاً زاخرةً بالمطامح، عاقلة القلب، وكأن وعيها الباكر وعُنْفَ ما هزَّها من أحداث قد زادها رجاحة فكر وبُعْدَ نظر، فكانت مِشْكاةُ الرجاء مرفوعةً أمام عينيها الحالمتيْن، تضيء طريقها البعيد، ويرفرف عليها أملٌ وثّاب يلوح من وراء حجاب.

ويُسدل الستار على مرحلة الأحلام والأماني في حياة وئام، وتستقبل مرحلة الدنيا التي خُلقت من أجلها إناثُ الأرض، فيمتلئ فراغُ حياتها بحنان الأمومة، وتُنسى فيه ذكرياتُ الطفولة الشقيّة والشباب المترجّح بين اليقظة والرؤى.

وكأنما جاءت الأمومة على وئام نعمةً كبرى، فانطلقت تسن براعتها المطواعة وتغمس قلمها في مداد الحياة متناولةً صور الناس وسِيَرَهم، كاتبةً قصصاً في تحليل الطبائع والنفوس، منقبة عن زيوف الطوايا. وطالما لقيت وئام جزاء صراحتها لخير الجماعة جفاءً وعداءً، فما استخذت ولا تراجعت، وكيف يهون عليها أن تنسلخ عن إهاب الحقيقة وقد نبضت بها عروقُها واستحبّتْ في سبيلها العَدَاء على الصفاء؟

وتقول كاتبة القصة: إن وئاماً شقيقة روحي، وهي مني كنفسي، أحدّثها حديثَ الشكّ واليقين، وأشكو إليها بثي وهمومي، فأستمع إلى شقيقة نفسي ترفه عني وتواسيني... كان طيفها الساذج يلازمني ملازمة الظلّ حتى انسرب في كل كياني. ومع أن روحيْنا تآلفتا، فقد كنتُ أتبرّم بها في الحين بعد الحين، وأتحامل عليها، وأكلّفها ضد طباعها. فإذا عدتُ إلى الصواب أحسست أن جزءاً مني كان بعيداً ثم آب. وإذا جالستُها قيل: توأمان يتجاليان، وصنوان يتمازجان. وإنْ ضحكتُ افترَّ مبسمي في محيّاها. وإنْ بكيتُ، هَمَى دمعي على خدّيْها. لقد تساوينا في مولدنا ومحتدنا، واشتملت علينا أحشاءٌ واحدة قبل أن نرى النور ونبرز في الوجود.

وتختم الكاتبة هذه الصورة القصصية بقولها: أليس من الولاء والوفاء أن نبقى معاً حتى يضمّنا الثرى ويطوينا الفناء؟ فإذا أُنسيت يوماً وئاماً، وما يُنسيني إيّاها إلّا الأمومة الغالية الغالبة التي جعلتْ نفسي تتناسخ وتتقمّص بفلذات كبدي، فتلك مصائرُ الأمهّات.

ولا يخامرني أدنى شكّ في أن وئاماً هي وداد بعينها. ولكأنها أرادت في هذه الأقصوصة أن تقول إنها تُعلي الأمومة على الذات، وتغلي البنين على كل مغنم شخصي، وهذه شيمة الأمهات الباذلات المضحيّات منذ ما عُرفت الأمومة. وأولادها ذكوان وذكاء وسماء مغبوطون بهذه الأم النبيلة العظيمة.

وإن احتفالي بأدب وداد سكاكيني ليس بصارفي عن التحدّث عن عرفاني لها

ولزوجها الكبير الدكتور زكي المحاسني بما أسبغاه عليّ من مودّات صافية منذ الأربعينيات عندما كان المحاسنيّ يتأهب لنيل درجتي الماجستير والدكتوراة من جامعة القاهرة، وكان هو وزوجته قاسماً مشتركاً في جميع الأنشطة الثقافية في مصر. وقد اصطفياني من جملة أصدقائهما. وكنت «دليلهما السياحيّ الأدبي» في زيارة أعلام مصر في ذلك العهد. فزرت معهما طه حسين، وخليل مطران، والعقاد، وفؤاد صروف، وسلامة موسى، وأمير بقطر، وعادل الغضبان، والشاعر حسن كامل الصيرفي، والدكتور أحمد فؤاد الأهواني، والزيات، وعادل الغضبان، وحبيب جاماتي، ونقولا الحداد وزوجته روز أنطون حداد (شقيقة فرح أنطون) وعلي أدهم، وإسماعيل مظهر، وإبراهيم ناجي...

ثم سعدنا في مصر باختيار الدكتور المحاسني مستشاراً ثقافياً في السفارة السورية، وكان السفير وقتئذ هو العلامة الكبير الأمير مصطفى الشهابي، فتحولت السفارة في عهدهما الرخيّ إلى قِبْلة لكل أعلام مصر ومفكريها حتى قال لي صديقي العظيم الأمير الشهابي: إن الأدب والعلم عنده يتقدّمان على أعباء الدبلوماسية وتكاليف الوظائف. وما أبرك العشايا التي قضيناها مع المحاسني ووداد في منتديات الأدب ومجالس العلم ممّا يعزّ على الحصر. ففي المجمع اللغوي، وفي جمعية الشبان المسلمين، وفي رابطة الأدباء، وفي نادي سيدات القاهرة، وفي ندوة مجلة الرسالة، وفي ندوة مجلة الثقافة، وفي ندوة العقاد، وفي رابطة الأدب الحديث، وفي نقابة الصحفيين، وفي ندوة نجيب محفوظ، وفي اجتماعات لجنة النشر للجامعيين، وفي ندوة المقتطف... في هذه الملتقيات الأدبية كان الناس يرون ثلاثتنا وكأنني للمحاسني ووداد شقيق، وإن كنتُ منهما في مقام التلميذ.

بل إن المحاسني ووداداً كانا يختاران حيّ الروضة/ المنيل للسكنى فيه في كل مرّة يأتيان فيها إلى القاهرة. ففي هذا الحيّ المختار كان صفوة من كبار الأدباء يقيمون، وكان المحاسني وزوجته يتبادلان معهم الزيارات مثل: أحمد حسن الزيات، وخير الدين الزركلي، ومحبّ الدين الخطيب، والدكتور محمد مندور، وزوجته الشاعرة ملك عبد العزيز، والدكتور شوقي ضيف، وأحمد الشايب، والشاعر عبد الرحمن صدقي، وعلي أحمد باكثير، ودريني خشبة، والدكتور محمد كامل حسين أستاذ الأدب الفاطمي وهو غير سميه الدكتور محمد

كامل حسين صاحب رواية «قرية ظالمة» وقد تناولته وداد في كتاباتها.

وبعد، فقد حاولتُ في هذا الكلام المرسل أن أرسم صورةً ذهنية وشخصية للأديبة العربية الكبيرة وداد سكاكيني، وهي محاولة يعيبُها القِصَر والإقلال، فحتمٌ عليّ أن أعتذر عنهما في هذا المقام، لأن وداداً تستحق دراسات أكاديمية كبرى. ومن حسن الاتفاق أن جامعة الأزهر عندنا أجازت أطروحة ماجستير عن وداد سكاكيني وأشادت بهذه الأديبة الأصيلة وبكاتب الأطروحة الأستاذ عبد الفتاح شعيّب.

❁ ❁ ❁

وديع رشيد الخوري

من الأدباء والشعراء مَنْ انحسرت عنهم الشهرة على رغم من موهبتهم التي تشهد بها آثارهم. ويبدو أن الشاعر أو الأديب يحتاج إلى شيء من فنون العلاقات العامة، سواء لإبراز موهبته أو للتغطية على قصوره، وهو ما نشاهده اليوم في السهرات الشعرية التي تقام عندنا في مصر في دار الأوبرا أو في فنادق النجوم الخمسة حيث يتبارى المنشدون والمنشدات في التغني بشعر الشاعر بين أضواء الليزر وعدسات الفيديو، ودع عنك المآدب التي تمتد بعد هذه السهرات. ومع هذا، فليت الشعر الذي يتغنون به يستحق عناء الإصغاء إليه، حتى وإن كان إنشاده بألسنة المذيعات والفنانات وممثلات الإعلانات!

ومن هؤلاء المظلومين الذين لم تدركهم فنون العلاقات العامة، الشاعر الأديب المهجري وديع رشيد الخوري صاحب ديوان «نداء الغاب» وكتاب «ظهور وتطور الأدب العربي في المهجر الأميركي» حيث أغفله جميع الذين أرخوا للأدب المهجري في أميركا الشمالية، فلا جورج صيدح (١٨٩٣ ـ ١٩٧٨) عني بأمره في موسوعة «أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية» بطبعاتها الأربع، ولا محمد عبد الغني حسن (١٩٠٧ ـ ١٩٨٥) سجّل سيرته في كتابه «الشعر العربي في المهجر» ولا عيسى الناعوري (١٩١٨ ـ ١٩٨٥) ذكره في كتابه «أدب المهجر» بطبعاته الثلاث، ولا أشار إليه البيبليوغرافي يوسف أسعد داغر (١٨٩٩ ـ ١٩٨١) في كتابه «مصادر الدراسة الأدبية» بأجزائه الأربعة، ولا تناول نثره الدكتور عبد الكريم الأشتر، أطال الله بقاءه، في دراسته الموسومة «النثر المهجري» بجزءيها، ولا أدرجه الدكتور روبرت كامبل، أطال الله عمره، في موسوعته «أعلام الأدب العربي المعاصر» بجزءيها، والوحيد الذي أشار إلى آثاره من دون أن يتعرض لسيرته هو نجيب العقيقي (١٩١٦ ـ ١٩٨١) في الجزء الثاني من كتابه «من الأدب المقارن».

ومع أن وديع رشيد الخوري كان يكاتبني في السنوات الأخيرة من عمره قبل وفاته في ١٧ تموز (يوليو) ١٩٧٧، فلم يُزيّن لي الفضول الأدبي أن أسأله عن تاريخ مولده، ونشأته وظروف هجرته وحياته في المهجر الشمالي، وهكذا تبقى سيرة حياة هذا الشاعر الأديب علامة استفهام، عسى أن تتجلى ذات يوم على يد واحد من الباحثين الثقات.

وواضح من المقدمة التي كتبها الشاعر إيليا أبو ماضي (١٨٨٩ ـ ١٩٥٧) لديوان «نداء الغاب» ـ وهو يضم شعراً ونثراً ـ أن الشاعر ولد في لبنان، وجاءت هجرته بعد ذلك إلى الولايات المتحدة، واختار أن يقيم فيها في مدينة بنغهامتن بولاية نيويورك بعيداً عن «الصخب المهجري» إن صح أن يطلق هذا الوصف على أنشطة الشعراء الكبار في نيويورك وهم مخائيل نعيمة (١٨٨٩ ـ ١٩٨٨) وجبران خليل جبران (١٨٨٣ ـ ١٩٣١) وأمين الريحاني (١٨٧٦ ـ ١٩٤٠) وندرة حداد (١٨٨١ ـ ١٩٥٠) ونسيب عريضة (١٨٨٧ ـ ١٩٤٦) وطبعاً إيليا أبو ماضي، ودع عنك الصحافيين عبد المسيح حداد (١٨٩٠ ـ ١٩٦٣) ونعوم مكرزل (١٨٦٤ ـ ١٩٣٢) وسلوم مكرزل (١٨٧٩ ـ ١٩٥٢) وغيرهم وغيرهم، فقد كانت نيويورك تعج بالصحف العربية كـ«السائح» و«الهدى» و«البيان» و«السمير» و«مرآة الغرب» و«الإصلاح» ومجلة «الفنون» و«مجموعة الرابطة القلمية» وقد توقفت كلها عن الصدور بعدما تقلص إلى حد العدم قراء الصحف العربية.

وقد علل الشاعر أبو ماضي انحسار الشهرة عن وديع رشيد الخوري بقوله في تقديمه لديوان «نداء الغاب»: «إذا كان هذا الشاعر لم يرزق شهرة من قبل، ولم تطنطن به الجرائد، فلأنه لم يروج دعاية لنفسه كما يفعل غيره ممن هم دونه، فهو شاعر في الحياة التي يحياها، كما هو شاعر في القصائد التي تصدر عن حسّه، ولا شك في أنه من خيرة الشعراء في هذا المهجر، وهذا ديوانه يعزز هذه الشهادة ويؤكدها».

أما أثر لبنان في شعر وديع رشيد الخوري، فقد رصده أبو ماضي بقوله: «لو طالعت هذه المجموعة من الشعر والنثر، وكنت أجهل أين نشأ مؤلفها، وسئلت عن موطنه، لقلت إنه ولد في لبنان، فإن السنديانة القديمة، وخيالات المغيب الواقفة وراء الأشجار، وأنوار الشموع، ورائحة البخور، والظلال التي تمتد وتتقلّص في الساقية، والأشعة التي تترامى على الأغصان، وما شاكل ذلك

من الصور التي ترصع كلام هذا الشاعر في نظمه ونثره لا يستطيع أن يجيء بها في هذا الأسلوب المرن الطليّ إلا شاعر ولد في لبنان... وإذا كان هذا الشاعر ولد في لبنان، فإن لبنان يُولد في شعره ولادةً جديدة، لأن كل ما انطبع في ذهنه من الصور الرائعة الخلابة هناك قد ظهر في شعره هنا وعلى شكل سني وجميل يحمل لبنان على الفخر والزهو».

ولعل الشاعر أبا ماضي أراد بتأكيد لبنانية الشاعر وديع رشيد الخوري أن يقول: إن الهجرة إلى الولايات المتحدة لم تتراء في شعره لأن «الطغراء» اللبنانية لم تفارقه، وبقي أميناً عليها في شعره ونثره.

وهناك معركة طريفة بدأت في لبنان وانتقلت إلى المهجر وإن تكن تفاصيلها مجهولة لأني لم أقع على إشارة إليها عند دراسي الأدب. ذلك أن الأديب القاص اللبناني الشيخ خليل تقي الدين (١٩٠٦ ـ ١٩٨٧) الذي لم يعرف عنه أنه شاعر، شاء أن يجرب حظه في الشعر، فنظم أبياتاً نشرها في مجلة «الصياد» اللبنانية في عام ١٩٥٢ ثم ذاعت وعمت عندما قام المطرب محمد سلمان بتلحينها وغنائها من محطة الإذاعة اللبنانية. يقول خليل تقي الدين في قصيدته اليتيمة:

إِلَى الَّتِي كَتَبَتْ لِي ... وَوَقَّعَتْ شَفَتَاهَا
بِأَحْمَرَ مِنْ لَمَاهَا ... عَبَدْتُ تِلْكَ الشِّفَاهَا
قَالَتْ: وهَبْتُكَ ثَغْرِي ... فَافْعَلْ بِهِ مَا تَشَاءْ
يَا قَاسِيَ القَلْبِ قُلْ لِي ... مَتَى يَكُوْنُ لِقَاءْ؟
أَسْرَفْتُ فِي البُعْدِ حَتَّى ... بَكَتْ عَلَيَّ السَّمَاءْ
تَقُولُ: كَيفَ الصَّبَايَا ... هُنَاكَ كَيْفَ النِّسَاءْ
هَلْ بَيْنَهُنَّ سُلَيْمَى ... أَوْ دَعْدُ أَوْ أَسْمَاءْ؟
لا تَسْأَلِيْنِي، فَكُلُّ ... الحِسَانِ عِنْدِي سَوَاءْ
سَيَّانُ فِي الحُبِّ عِنْدِي ... سَمْرَاءُ أَو شَقْرَاءْ
إِلَى الَّتِي كَتَبَتْ لِي ... تَقُوْلُ: أَنِّي أُحِبُّكْ
قَلْبِي عَلَى العَهْدِ بَاقٍ ... فَهَلْ تَغَيَّرَ قَلْبُكْ؟

وبمجرد نشر هذه القصيدة، بعث الشاعر بشارة الخوري المكنّى بالأخطل

الصغير (١٨٨٥ ـ ١٩٦٨) برسالة إلى صديقه الشيخ خليل تقي الدين قال فيها بعدما بثه قبلات ممزوجة بالحنين إلى رؤيته: إنه طالع أبياته الشيقة «فما أكبرتُها على إبداعك وروحك. غير أني رأيت أن القافية المضمومة في الأبيات الثلاثة الأخيرة تكون في غاية القبح إذا لُحنت. رأيت أن تكون مفتوحة، فهي ألطف وقعاً، كذلك لم أستأنس بالبيت الثاني، لا سيما تكرار الشفاه في هذا... لك الخيار».

وأعادت مجلة «السمير» التي كان يصدرها في نيويورك الشاعر أبو ماضي نشر هذه القصيدة وكذلك تعليق الأخطل الصغير عليها. فارتأى الشاعر وديع رشيد الخوري أن له ملاحظات شاء أن يبديها، ولا سيما لأن «الصيّاد» قالت: «إن الغاية من نشر القصيدة ونشر الملاحظة معها هي إثارة المناقشة حولها لبعث الحركة الأدبية من جوّ الجمود الذي يعيش فيه الشعر العربي في هذه الأيام».

وممّا قاله وديع الخوري في اقتناص أوجه القصور في قصيدة تقي الدين «إن المحب المتيم لا يُهدي ثغره إلى المحبوب، بل قلبه، لأن القلب هو مصدر العواطف والإحساس والشعور. ولم أسمع عن محب وهب ثغره لحبيبه سوى عروس الشعر في هذه القصيدة. والغريب أنها وهبته ثغرها وهو بعيد عنها، وَقد أسرف في البعد حتى بكت السماء! واستعارة بكاء السماء، أي انهطال المطر، للتعبير عن ذرف الدموع على عاشقين فرقهما البعاد تعبير سمج لا يحرك العواطف في القارئ، ولا يصوّر له اللوعة والحرقة التي تنال من قلوب المحبين عند الفراق. غير أن الحبيبة بعد أن بكت عليها السماء، استطردت إلى سؤال الشاعر عن النساء هناك، وهل بينهن مثل سُليمى ودعد وأسماء؟ وهذا السؤال البارد لا يتفق قط مع حرقة المحب ولوعة المشتاق، لأن العاشقة الوالهة تنسى كل ما في الوجود عندما تناجي من تحبّ. وهي بطبيعتها تتجنب أن تسأله سؤالاً يحول أفكاره إلى سليمى ودعد وأسماء».

واستطرد وديع الخوري مدللاً على تشويش المعاني عند الشيخ خليل تقي الدين فقال: «والذي يدل على أن الشاعر تائه في مهامه التشويش إقراره أولاً أنه يهيم بحبيبته ويعبد شفاهها، وبعدئذ يقول لها: إن كل الحسان عنده سواء ولا فرق عنده بين سمراء وشقراء، وهذا لعمري منتهى الاستهتار والإباحة في الحب».

وقال كذلك، وعدا ما في القصيدة من التشويه المعنوي واللفظي، فإن وضعها شاذ، لأن من الثابت المقرر أن الحب يستخف الرجل أكثر مما يستخف المرأة. فهو الذي يتغزل بها، ويصف جمالها، ويصور ما يلاقي من جور صدها وبعادها، ويبثها شوقه وهيامه. فعنترة العبسي ذُلّ لعبلة وتغنى بحبها، وأنطونيوس طرح نفسه على قدمي كليوباطرة، وقيس جُنّ بليلى، ودانتي هام ببياتريس، وسليمان تيمته السوداء الجميلة وخلبت لبه. ولم يشذ عن هذه القاعدة في الحب غير اثنين: وهما الشيخ خليل تقي الدين وعمر بن أبي ربيعة، فهما اللذان خلبا عقل المرأة وتيماها وحرقا قلبها!».

وعاب الشاعر وديع رشيد الخوري على الشاعر الأخطل الصغير مبالغاته في قوله «إنه لم يكبر هذه الأبيات الشائقة على إبداع الشاعر وروحه» وقال: «إن هذا حقاً هو ما تقتضيه اللياقة والمجاملات الشرقية... ولعل سبب هذا الكرم الخلقي في منح الألقاب، هو أن مقاييسنا في الكبر والإبداع والعبقرية ليست في مستوى مقاييس غيرنا من الأمم والشعوب الراقية».

وهنا أبدى كاتب آثر أن يوقع تعليقه بإمضاء «متسائل» ـ والأرجح أنه أبو ماضي نفسه ـ فاعترض على وصف قصيدة خليل تقي الدين بـ«الدونية» على رغم أنها ليست من غرر الشعر. وقال: إن العرب والعجم استعاروا بكاء السماء ليعبروا عما يخالجهم من أفكار. كما اعترض على القول أن الرجل هو الذي يهيم بالمرأة ويتوله في حبها، ولا كذلك النساء، فقال إن الحب تبادل وتشارك بين الطرفين، وهو ما فعله عنترة وقيس وأنطونيوس.

وعاد وديع رشيد الخوري يرد على «المتسائل» فقال: إنه لم يمعن النظر في قصيدة الشيخ خليل تقي الدين قبل أن يبدي رأيه فيها وفي التعليقات من حولها.

وقال: «أما فلسفة عبادة الشفاه مع عدم المبالاة بالقلب، فهي ما لا أستطيع حله، ولا أقدر على أن أتصور امرأة تهب الرجل ثغرها ليفعل به ما يشاء، وهي تعلم أنه لا يبالي بقلبها. أم أي رجل يستميله جمال شفتي المرأة إلى حد العبادة، ولا يخفق قلبه بحبها شاملاً بما فيه قلبها أيضاً؟... وبهذه المناسبة أودّ أن أسأل الأديب (المتسائل) وهو العليم برموز اللغة وأسرارها أن يشرح لنا هذا البيت (إني وهبتك ثغري، فافعل به ما تشاء). فماذا يعني الشاعر بقوله: (فافعل به ما تشاء)؟

ومن أي نوع من الشعر هو؟ أهو من الشعر الرمزي النزيه، أم هو من شعر التصوف؟ أم من شعر الحب العذري؟»

ثم استشهد وديع رشيد الخوري بقصيدة لإلياس أبي شبكة (١٩٠٣ ـ ١٩٤٧) ألقاها في اليوبيل الفضي لجريدة «زحلة الفتاة» في عام ١٩٣٧ وبمقطوعة نثرية للشاعر سعيد عقل، أطال الله بقاءه، عنوانها «حلوة الحلوات، أميرة الأخيلة» نشرها في العدد الممتاز من جريدة «النهار» في أوائل عام ١٩٥١ ليبرهن «للمتسائل» كيف «انتقلت عدوى التشويش والإشكال من أديب إلى أديب ومن قطر إلى آخر، وكيف تحل الرطانة محل الفصاحة، والهذر محل الشعور الفياض».

وختم وديع رشيد الخوري رده بقوله: «وكل من راقب سير الأدب في الآونة الأخيرة، يعلم أنه بعد أن وافت المنيّة حافظ وشوقي ومي ومطران في مصر، ومضى الموت بجبران ورفاقه ومن جرى مجراهم من الأدباء في المهجر، انفرط عقد الأدباء الآخرين، وانصرفوا إلى معالجة شؤون الحياة وضروراتها. فتسلم زمام الأدب طغمة لا تقيم للضبط والتنسيق وزناً فانتشرت الفوضى في التعبير، وعمّ الإشكال والغموض. ولو كان هؤلاء من زغاليل الأدب لهان الأمر، وكان من الواجب مدّ يد المساعدة إليهم حتى تشتد أجنحتهم ليطيروا، ولكنهم من (الكبار المحلّقين)!».

وعاد «المتسائل» يناقش وديع رشيد الخوري في أطروحاته، فقال إن «الشيخ خليل تقي الدين حسن النثر قليل الشعر، وليس في شعره ما يضعه في منزلة الشعراء. ولست ترى في القصيدة التي نحن بصددها شيئاً من السمو الشعري أو الجلال أو البلاغة الرائعة أو الألحان الساحرة... والأديب وديع الخوري يحاول أن يستجري تقي الدين في الحب بحسب هواه ووفقاً لما جرت عليه طائفة من الشعراء المجلين المعروفين بشديد غرامهم ولاهب وجدهم في الحب والوصال. والذين ذكرهم في مقاله كانوا من الحب في جنون ومرض، وليس على كل من يقترب من الميل للجنس اللطيف أن ينحو نحوهم، فالخيال وثاب، والنزعات كثيرة، والأذواق شتى، ومجال الفن رحب».

وفي ختام هذه المساجلة الأدبية كتب وديع رشيد الخوري يقول إن احترامه لخليل تقي الدين لا يمنعه من أن يبدي رأيه في قصيدته. وخليل تقي الدين من

طبقة فوق طبقة أولئك الذين يهذون. وهو حسن النثر، ولعلّه نظم قصيدته هذه لتلقى في دائرة ضيقة فانتقلت إلى دائرة أوسع، وكان ما كان.

وبعد، لعلي أطلت في عرض هذه المساجلة الأدبية التي انتقلت من لبنان إلى المهجر الشمالي لأدلل بذلك على أن المهجريين، ومنهم وديع رشيد الخوري، لم ينفصلوا أبداً عن الوطن، ولا تخلفوا عن المشاركة في جميع القضايا التي أثارها الأدباء المقيمون في بلادهم المختلفة. ولو استقصى الباحثون أصداء الأحداث الوطنية في المهاجر الأميركية، لهالهم مدى الاهتمام الدؤوب بكل ما يُثار في الوطن من قضايا، سواء أكانت قضايا سياسية أم أدبية. ولئن حالت الأوضاع المحلية في ظل الاستعمار الغابر دون الجأر بالشكوى من الحكم الأجنبي في الوطن، فلقد اشتد زئير الأحرار المقيمين في المهاجر، ولهم من الحريات العريضة ما لا يعرف المصادرة أو الرقابة أو «الشفاه المخصيّة» بتعبير الشاعر نزار قباني (١٩٢٣ ـ ١٩٩٨).

❁ ❁ ❁

يعقوب العودات (البدوي الملثم)

للأسماء المستعارة حكمة لدى أصحابها، إذ يبتغون التخفيّ وراءها تحقيقاً لمأربٍ ما، وقد يكون هذا المأرب وقتياً، فإن زالت أسبابه عادوا إلى المجاهرة بأسمائهم الصريحة، وإن بقيت، ألفوا استخدام هذه الأسماء المستعارة على مدى العمر كبدوي الجبل مثلاً، وهو شاعر سورية العظيم (١٩٠٤ ـ ١٩٨١). وجملة من أصحاب هذه الأسماء يستخدمونها كصفةٍ أو لازمة لأسمائهم الصريحة مثل «أبو خلدون ساطع الحصري» (١٨٨٠ ـ ١٩٦٨) «وأبو الوفا محمود رمزي نظيم» (١٨٨٧ ـ ١٩٥٨) و«أبو نغم محمود شاور ربيع» وهو شاعر مصري معاصر. ومن الأدباء مَنْ تعدّدت أسماؤه المستعارة حتى إن العلّامة العراقي كوركيس عوّاد (١٩٠٨ ـ ١٩٩٢) أحصى للأب أنستاس ماري الكرملي (١٨٦٦ ـ ١٩٤٧) تسعة وثلاثين اسماً مستعاراً، وهو رقم قياسي، ربّما على الصعيد العالمي كلّه. وكشفاً لغوامض هذه الأسماء المستعارة، أصدر العلّامة الببليوغرافي اللبناني يوسف أسعد داغر (١٨٩٩ ـ ١٩٨١) «معجم الأسماء المستعارة»، ولعلّه أوفى مرجع في موضوعه.

والأديب الأردني يعقوب العودات تخفّي بدوره وراء أسماء مستعارة متعددة في فترات مختلفة من عمره مثل «نواف البدوي» و«أبو نظارات» و«فتى مؤاب» و«غريب من أورشليم» حتى استقر على اسم «البدوي الملثم» الذي ثابر على استخدامه حتى وفاته المفاجئة في الثالث والعشرين من أيلول (سبتمبر) ١٩٧١.

وكنتُ قبل أن ينعقد الودّ بيني وبين يعقوب العودات أتخيّله متدثّراً بعباءات البداوة الفضفاضة، يتوكأ على عصا غليظة، ويعلو وجهه شارب كثيف بين متهدّل أو مبروم، ويضع على وجهه لثاماً أسود كثيفاً يخفي عن الناس ملامحه ويورثهم الفزع، ولا سيّما لأن بدوياً هذا شأنه لا بدّ أن يكون مسلحاً بأسلحة بيضاء أو آلية هي من مستلزمات الحياة البدوية الفطرية! فلمّا رأيت صوره منشورة في المجلات، لم أكتم دهشتي التي استحالت إلى مداعبات، فكنت أتندّر على هذا

الاسم في رسائلي المنهمرة على يعقوب العودات رداً على الطوفان الكاسح من رسائله، فلم تكن في حياته بدواة ولا خشونة الصحراء، بل كان حضرياً متفرنجاً في أساليب حياته، ناهيك عن أن اللثام المزعوم قد فقد جدواه بالنشر المتتابع لصورة الكاتب مكشوف الوجه، بادي السحنة، حاسر العينين إلّا من عوينات تغالظت مع مرور الأيام، ومَنْ كانت هذه هي حقيقة أمره، فقد ازوّر عن البداوة وانخلع لثامه وصار لقبه اسماً على غير مسمى!

وكان تعليله للتستر وراء هذه الأسماء المستعارة أنه قضى معظم عمره في الوظائف، وعمل بالتدريس، ثم بالدواوين الحكومية، وبأمانة المجالس التشريعية، وبوزارة المالية وديوان المحاسبة، وهي وظائف كانت تحظر عليه الكتابة في الصحف. ولهذا استقال من عمله الحكومي في عام ١٩٦٨ قبل أن يبلغ سن التقاعد بسنة لكي يتفرّغ لهوايته في التأليف والترجمة والتصنيف والكتابة الأدبية.

ولد يعقوب العودات في شهر تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٠٩ في مدينة الكرك في جنوب الأردن، وقنع من الدراسة بالمرحلة الثانوية التي أهّلته بعدها للوظائف المختلفة التي شغلها، وأمدّته عصاميّته بالزاد الذي شق به طريقه الوعرة في ميادين القلم حتى استوى على مرتبةٍ كريمة من أريكة الأدب، ولهذا لم تر الجامعة الأردنية حرجاً في أن يقام حفل تأبينه في أكبر مدرجاتها في ٢٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧١ برعاية حشدٍ ضخم من رجال السياسة والأدب والاجتماع في الأردن.

كان كتابه الأول عن «إسلام نابليون»، وقد صدر عام ١٩٣٧، ثم تتابعت مؤلفاته التي توخّى فيها إنصاف الراحلين والمعاصرين من الأعلام، وفاءً منه لسدنة الضاد في جميع الميادين.

ومن كتبه المبكرة ترجمته لكتابٍ لعلّه أول ما كتب عن المهجريين في أمريكة الشمالية، عنوانه «الناطقون بالضاد في أمريكة» وقد وضعه بالإنكليزية حبيب إبراهيم كاتبة ـ وكان إذ ذاك مراسلاً لجريدة «الأهرام» في نيويورك بعنوان Arab - Speaking Americans، وقد صدرت الطبعة الإنكليزية بإشراف معهد الشؤون العربية الأمريكية. وقدّم للطبعة العربية التي صدرت عام ١٩٤٦ قدري حافظ طوقان (١٩١٠ ـ ١٩٧١). وقد طاف مؤلفّه كاتبة بمعظم الولايات الأمريكية لجمع مادة كتابه توخّياً للدقّة في بياناته. وفي مجموعة الكتب التي وقفها العودات على

الأعلام صدر كتاب عن الشاعر المهجري فوزي المعلوف (١٨٩٩ ـ ١٩٣٠) وكتاب عن ديك الجن الحمصي (عبد السلام بن رغبان ٧٧٨ ـ ٨٥٠)، وكتاب عن سليمان البستاني مترجم إلياذة هوميروس (١٨٥٦ ـ ١٩٢٥) وأصدر كتابين عن الشاعر إبراهيم طوقان (١٩٠٥ ـ ١٩٤١) أحدهما عن الغواني في شعره والثاني عن الوطن في شعره، ونشر كتاباً عن عيسى إسكندر المعلوف (١٨٦٩ ـ ١٩٥٦) وهو شيخ المعالفة، ووالد الشعراء شفيق وفوزي ورياض المعلوف، وعن شكري شعشاعة (١٨٩٠ ـ ١٩٦٣) وعن الوزير السوري الأديب فتح الله الصقّال (١٨٩٣ ـ ١٩٧٠) وعن مؤرخ الكويت عبد العزيز الرشيد، فضلاً عن إخراجه كتاباً ضخماً من جزءين يقع في ٨٠٠ صفحة عن «الناطقين بالضاد في أمريكة الجنوبية» وقد اقتضاه تأليفه الطواف بالقارة الأميركية اللاتينية طولاً وعرضاً والاتصال بأكبر عدد من المهاجرين، حتى أرباب الصناعات والتجارة منهم، وقضى ثماني سنين في إعداد هذا الكتاب المرجع وهو يتضمن كذلك إحصاءً دقيقاً بالصحف العربية التي صدرت في هذه الأمصار. ونشر في سلسلة «اقرأ» لدار المعارف كتابين أولهما عنوانه «عرس ومأتم» وهو قصة والثاني عنوانه «رسائل إلى ولدي خالد»، وهي رسائل أبوية أزجاها إلى ابنه الذي اختار الصيدلة مجالاً لتخصّصه تفيض بعبارات النصح والتوجيه التي تصلح ـ على خصوصيتها ـ للنفع العام. ولم ير كتابه الموسوعي «من أعلام الفكر والأدب في فلسطين» النور إلّا بعد وفاته، وقد ترجم فيه لأعلام بلغ عددهم ٣٠٢، والغريب أن كتابه خلا من الترجمة لأي أديبة مع وجود فدوى طوقان التي تحتل القمم وثريا ملحس التي تؤهلها بحوثها الجامعية للعضويات الأكاديمية.

وكان العودات ينشر فصول هذا الكتاب تباعاً في مجلة «الأديب» اللبنانية على أمل ظهورها في خمسة أجزاء على الأقل، ومن هنا سار على منهاجه المألوف في التقديم لكتبه بقلم أديب معروف ـ وهو منهاج سار عليه في كل مؤلفاته ـ فاستكتب خمسة من أصدقائه مقدمات للأجزاء الخمسة الموعودة، وهم الدكتور الشيخ أحمد الشرباصي، ومحمد عبد الغني حسن، وسامي الكيالي، والأديب المهجري فارس الدبغي، وكاتب هذه السطور. ولكن اللجنة التي ألفت بعد وفاة العودات للإشراف على إخراج هذه الموسوعة ـ وكان قوامها أنطون عطا الله، وخلوصي الخيري، وفريد السعيد، ومحمد أديب العامري، ويعقوب

الرشيد، وعبد الحميد ياسين، وروحي الخطيب، ومحمود العابدي - تبيّنت استحالة إخراج الموسوعة في أجزاء، واستصوبت الاقتصار على مجلد واحد (وقع في نحو ٨٠٠ صفحة) وقامت بالتالي باستخراج مقدمة جامعة من المقدمات الخمس التي كتبها أصحابها، وظهرت بتوقيع اللجنة. ولأن مشروع الموسوعة لم يكن قد اكتمل بسبب الوفاة المفاجئة للعودات، فقد آثرت اللجنة إضافة لفظة «من» إلى العنوان، إشارة إلى أن المجلد يضمّ سير البعض لا الكل.

وفي اعتقادي أن هذا الكتاب هو وكتاب عجاج نويهض الموسوم «رجال من فلسطين» هما أشمل ما ظهر حتى الآن من كتب التأريخ لأعلام فلسطين. وقد تميز كتاب العودات بالصور الفوتوغرافية الخاصة بجميع المترجم لهم، وإنْ حدث سهواً أن نشرت صورة الشاعر عادل الغضبان محل صورة عبد الحميد الأنشاصي، وصورة الشاعر المهجري جورج صيدح محل صورة درويش المقدادي. ويزيد من قيمة كتابي العودات ونويهض أن المؤلفين كانت لهما بالمترجم لهم صلة شخصية أو علاقات معاصرة أو في القليل علاقات بأفراد عائلاتهم، فجاءت بياناتهم التاريخية منضبطة لا تحتمل الخطأ.

وكان من مطامح العودات الأدبية أن يصدر كتابين آخرين يتناول أولهما سير العرب الذين نزحوا إلى أوربة أو إفريقية أو الشرق الأقصى، ومنهم منْ لم يهاجروا وإنّما رمتهم أقدار أعمالهم الدبلوماسية في تلك الديار، كالسفراء عمر أبي ريشة، وخليل تقي الدين، وعبد الله النجار، وهؤلاء قد ارتأى أن يخصهم بفصل مستقل يضمّ فيه آثارهم التي أفرزتها الدبلوماسية في أوطان الغربة. وكان عليه في تلك الحال أن يضم إليهم الشاعر نزار قباني، والأديبة سلمى الحفّار الكزبري زوجة السفير الدكتور نادر الكزبري، وعبد الحق فاضل، لأن الغربة الدبلوماسية ألهمتهم جميعاً آثاراً جميلة. وقد قطع العودات شوطاً بعيداً في إعداد هذا الكتاب، ولكن وفاته المباغتة وأدت هذا المشروع.

أما الكتاب الثاني الذي كان يعد لإصداره، وقد نشر فصوله متتابعة في مجلة «البيان» الكويتية، فهو عن عشرة من أدباء العالم العربي عرفهم العودات عن قرب واستحال عليه أن ينصفهم في كتب يخصّها لكل منهم، وقد أعلن ابنه الدكتور خالد في فصل نشره مؤخراً في مجلة «الضاد» الحلبية أنه عاكف على نشر هذا الكتاب الذي صدر فعلاً بعناية كايد هاشم.

كان يعقوب العودات على شيءٍ من البدانة، ذا وجه ممتلئ لم يزحف الشيب إلى رأسه إلّا قليلاً، ولا عرف ما عرفناه من بدايات الصلع أو نهاياته! وكان يقبع أغلب الوقت في غرفة مكتبه عاكفاً على الكتابة من صباح يومه إلى سواد ليله، ولكن تنسّكه في هذه الحياة لم يكن ليعزله عن الدنيا العربية المفكرة، إذ كانت له أيادٍ طوال في متابعة أخبار الأدب والأدباء بالرسائل الشخصية والهواتف التي لا تنقطع وبالمطالعات الدؤوبة في مجلات الأدب، ناهيك عن قلمه المدّاد الذي لم يكن يكفّ عن إتحاف المجلات الأدبية بآثاره هنا وهناك. وما كنت أتناول مجلة أدبية صادرة في أي قطر عربي إلّا ألفيت العودات متصّدراً كتّابها، مفترشاً بآثاره صفحاتها. وكنت أداعبه بقولي: إنك مثل ثعلبة الذي له في كل وادٍ أثر!

ومع أنه بات يشكو في رسائله الأخيرة من آلام في يده اليمنى بسبب الإمساك بالقلم فقد بقي مثابراً على الكتابة محتملاً هذه الآلام باعتبارها ضريبةً ليس منها مفرّ. وكان يقول: إن حياتي كلها وقفٌ على الكتابة، فكيف أضحّي بها لمجرّد أن آلاماً تنتابني، ولا بدّ مهما اشتدّت من احتمالها.

وكانت ليعقوب العودات قدرة فذّة على تسخير الناس ـ مهما بلغت منزلتهم في الجماعة ـ لخدمة مآربه الأدبية. طلب مني الشاعر حسن كامل الصيرفي ـ الذي انصرف في أخريات عمره إلى تحقيق جملة من كتب التراث منها ديوان البحتري، وطوق الحمامة لابن حزم، وديوان المثقب العبدي، وديوان عمرو بن قميئة، وديوان المتلمّس الضبعي ـ أن أرجو يعقوب العودات موافاته بصورة مخطوطة مودعة في إحدى المكتبات الأردنية لحاجته إليها في تحقيقاته. فنقلت هذه الرغبة إلى العودات الذي بادر بأريحيّته المعهودة بتصويرها ثم بعث بها إليّ مع وزير كان قادماً إلى القاهرة في مهمة رسمية! ولما عاتبت العودات على تكليف وزير عامل بمثل هذه المهمة. كان ردّه إن الوزراء يجب أن يكونوا في خدمة الأدب، ثم إن هذا الوزير صديق لي ولن يرفض لي طلباً، وهو بهذه الخدمة يبرهن على أنه في خدمة الشعب. كما أنني أردت أن أقيم تعارف بينه وبينك. وهذه يا صاحبي هي أخلاق البدو. ورجاني بعد ذلك أن أسحب عتابي لأنه بات غير ذي موضوع!

كان مكتبه شبه محطة إذاعة أدبية عالمية، فيه تنصبُّ جميع أخبار الأدباء المتناثرين في أنحاء الدنيا، ومنه تخرج هذه الأخبار إلى أصدقائه الذين يشافههم أو يكاتبهم، وما أكثرهم، فضلاً عن قيامه بأعمال السفارة الأدبية في تعريف

الأدباء بعضهم ببعض، وفي عقد الصلات بين المشتغلين بالأدب. وبفضله تضخم بريدي الأدبي بالرسائل والكتب والمجلات التي كان يوعز بتوجيهها إليّ وإلى سواي. وكنّا من ناحيتنا نعامله بالمثل ـ على تواضع وسائلنا بالنسبة لوسائله ـ فنسلّط عليه مَنْ نعرف من أدبائنا، ونفتح عليه ميازيب المجلّات والدوريّات الأدبيّة والكتب ـ كان هذا طبعاً قبل أن يتنكر البريد لكل المطبوعات.

كان العودات يمثّل ظاهرةً فريدة في حياتنا الأدبية، إذ حمل على كتفيه مهمّة إنصاف أجيال كاملة من رجال الفكرة والأدب، غير ضنين في ذلك بجهدٍ أو مال. صحيح أن هناك رجالاً طافوا بأمريكة اللاتينية بأنفسهم وسجّلوا ما رأوه من أنشطة الأدباء والجاليات العربية هناك، مثل أكرم زعيتر الذي كان موفداً في مهمة رسمية روى أخبارها في كتابه «مهمّة في قارة» ومثل محمد علي الحوماني الذي قام برحلة مماثلة أصدر بعدها كتابه «مع الناس»، إلّا أن العودات عايش المهجريين معايشةً يومية ولفترات طويلة معتمداً لا على صندوق تمويل بل على جيبه الخاص. لقد رغب في أن يرى صورة المهجريين بنفسه وعلى حقيقتها وفي بيوتهم ومجتمعاتهم ومجال أنشطتهم، وأن يتحرّى الأسماء والتواريخ والوقائع بكل تدقيق، فوفّر بذلك على كثيرين من مؤرخي الأدب المهجري ما يعانون من مشقّة في سبيل تحرّي أخبار حتى الأعلام من أدباء هذا المهجر السحيق. على أن ممّا ينبغي تسجيله هنا أن الأديب السوري الدكتور عبد اللطيف اليونس قد أقدم بدوره على خطوة مماثلة إذ نزح إلى أمريكة الجنوبية واستوطنها وأصدر هناك صحفاً عربية ووضع كتابين كبيرين عن الشاعرين شفيق معلوف (١٩٠٦ ـ ١٩٧٦) وزكي قنصل (١٩١٦ ـ ١٩٩٤) كما نشر كتاباً كبيراً عنوانه «المغتربون» صدر كعددٍ خاص من مجلة «العرفان» في صيدا.

وأخشى ما أخشاه أن يكون الدور الذي اضطلع به يعقوب العودات قد نُسي أو عدت عليه عوادي الإهمال. صحيح أن كل وجهاء الأردن، بما فيهم رؤساء وزارات ووزراء سابقون، احتشدوا لتأبينه بعيد وفاته، ولكن تخليد ذكراه، بما في ذلك إعادة طبع كتبه ـ وكلها نافدة ـ يحتاج إلى همّةٍ جديدة، ولا سيّما لأن أعضاء اللجنة التي ألّفت للاهتمام بآثاره قد لحقوا بالعودات في الملأ الأعلى. لقد قضى العودات عمره مَعْنيّاً بالآخرين، ووجب أن ينبري من أبناء هذا اليوم مَنْ يُعنى بالعودات ويضعه في الإطار الأدبي الذي هو حقيق به.

يوسف أسعد داغر

لعلّ أكثر المشكلات استعصاءً أمام الباحث حين يتصدى لعملٍ من أعماله هي مشكلة حصر المراجع التي لا معدى له عن الاسترشاد بها في عمله قبل أن يخطو فيه خطوة واحدة. وتتمثّل المراجع في الكتب والدوريّات والأطروحات الجامعية غير المنشورة، وهي لا تجتمع أبداً في مكانٍ بعينه، بل لابدّ لمن ينشدها من أن يبذل جهداً جاداً في سبيل رصدها وإمكان الوصول إليها والانتفاع بمادّتها، وهي مشكلة تفاقمت بعدما اتسّعت رقعةُ النشر في العالم العربي، مع تقطع أسباب التواصل الفكري بسبب الحواجز التي ما برحت تعترض سيولة انتقال الكتاب من قطر عربي إلى قطر آخر.

وَعَى يوسف أسعد داغر هذه المشكلة منذ الأربعينيات من هذا القرن، وقبل التحدّي الصارخ الذي تمثله، فانبرى يعمل على تذليلها بإصدار سلسلة من الكتب الببليوغرافية الموثقة التي تناولت حركة الفكر العربي من أقدم العصور وإلى عام ١٩٨٠ الذي كان آخر يوم منه آخر يوم له في هذه الدنيا، إذ فاضت روحه في اليوم الأول من كانون الثاني (يناير) ١٩٨١.

والذي هَوَّن على يوسف أسعد داغر إعداد هذه الكتب هو أنه أثناء اشتغاله بوظائف أمانة المكتبات في لبنان، قد عكف على إعداد «فيشات» وافية بأسماء الكتّاب وعناوين الكتب وموضوعاتها حتّى أَرْبَى عدد هذه الفيشات على ٦٠٠ ألف فيشة ـ أو مدخل، وقام بترتيبها وفقاً للأصول المنهجية التي درسها في معاهد المكتبات في باريس، والتي وقف عليها في زياراته لأضخم دور الكتب الوطنية في العالم، ولا سيما مكتبة الكنغرس الأميركي.

عرفتُ يوسف أسعد داغر من خلال محاولةٍ لامتحانه بعدما وقعتُ وأنا أزور لبنان عام ١٩٥٥ على الجز الثاني من كتابه «مصادر الدراسة الأدبية». وقلت لنفسي وأنا أتأمل هذا العمل الباذخ: هل يُعقل أن يقوم دارسٌ لبناني بحصر شامل

للمراجع المتعلقة بجميع الأسماء الواردة في هذا الكتاب وهي حوالي ٣٥٠ اسماً؟ فاخترتُ عيّنات من هذه الأسماء عرفتُ أصحابها معرفةً وثيقة ولم تغب عني آثارهم والدراسات التي عُقدت عليهم في الكتب والمجلات. وشملت هذه العيّنة الشاعر خليل مطران (١٨٧٢ ـ ١٩٤٩) والشاعر الدكتور إبراهيم ناجي (١٨٩٨ ـ ١٩٥٣) ومترجم نظرية النسبية نقولا الحداد (١٨٧٢ ـ ١٩٥٤) والدكتور أحمد زكي أبا شادي (١٨٩٢ ـ ١٩٥٥) وأدهشني أن أكتشف أن يوسف أسعد داغر لم يفلت منه أي مرجع أعرفه، بل أضاف مراجع كثيرة أجهلها. فاطمأننتُ إلى سلامة العمل كله، ووثقت في جهده ثقةً مطلقة أغرتني بأن أكتب إليه مُبدياً إعجابي بهذا العمل الباذخ، الذي توهّمتُ أنه يمثل قُصارى جهده، ولا حاجة له بعد ذلك إلى مزيد من المؤلفات. ولم أكن أتوقع منه أي ردٍ على رسالتي، ولا سيما لأنني تعمدّت حجب عنواني عنه حتى لا يكلّف نفسه مؤونة الردّ. ولكنه فاجأني بأن ظفر بعنواني من صديق الطرفين ألبير أديب (١٩٠٨ ـ ١٩٨٥) صاحب مجلة «الأديب»، وبعث إليّ برسالةٍ أطلعني فيها على المشروعات التي يضطلع بها بمفرده وبغير مساعدةٍ من أحد، وكلّها تتعلّق بالمكتبات والببليوغرافية مثل «دليل الأعارب إلى علم المكتبات وفنّ المكاتب» و«فهارس المكتبة العربية في الخافقين»، وقال إنه أعد فهارس لتاريخ ابن خلدون في ١٢٠٠ صفحة، وفهرساً لكتاب «مروج الذهب» للمسعودي ومعجماً فرنسياً/ عربياً عدا طائفة من الكتب المترجمة. ورجاني في رسالته أن أزوّده بما أقع عليه في مطالعاتي من مواد تخدم أهدافه في حصر الأدباء والمفكرين على الصعيد العربي لكي يترجم لهم ويحيط بآثارهم. فلم أضنّ عليه بما أصادفه، ولا ضاق بي عندما كنت أعود إليه صفر اليدين لعجزي عن إسعافه بما طلبه من بيانات عن هذا الأديب أو ذاك الشاعر أو المؤرخ. وعلى ضآلة مساعدتي له في أعماله، فقد كان يسوق في مقدمات كتبه عباراتٍ سخية في شكري جرياً على الأمانة العلمية المعهودة في الخارج، وإن كان يبالغ في تقدير جهد المقلّ، وما كانت معاونتي له لتستحقّ حتى الإشارة العارضة إليها.

وتواصل بيننا البريد حتى التقينا للمرة الأولى والأخيرة عندما جاء إلى القاهرة لحضور مؤتمر يتعلّق بموضوعات تخصصه في أوائل الستينات، ونزل في فندق قريب من منزلي، فتعددت لقاءاتنا، وهالني أن أراه ـ وهو بعيدٌ عن فيشاته ـ

ومداخله ـ محيطاً بدقائق الحياة الأدبية وأعلامها في مصر، لا يكاد يغيب عن التفاته أديبٌ ذو وزن من أدباء الكنانة، حتى وإن احتجب عن الأضواء.

كان يوسف أسعد داغر على شيء من البدانة ـ وعلى استدارة في الوجه. زحف الصلع إلى رأسه، وتأخر ظهور الشيب في شعره. ولم يكن إذ ذاك يستعين بالعوينات في أعماله التوثيقية. وكان أميل إلى الجدّ منه إلى المرح، ومع ذلك لم يخل حديثه من روح الفكاهة تصدر عنه عفواً في مواضعها. وعندما قلت له إنني أخضعته لامتحانٍ قبل أن يحدث التعارف بيننا، انفجر ضاحكاً وقال: «لعلك أنجحتني بمراعاة الرأفة معي، لأن أعمالي كلها دون مطامحي، ولست أزعم لنفسي الكمال» تَبْدَهُك منه هذه الروح الإنسانية المُشعَّة التي يعبر عنها بكثير من عبارات المجاملة في أحاديثه، وبلفتاتٍ حلوة تندّ عنه كقوله: يا أخا الروح، ويا حبيب القلب، ويا زين النفوس، وهلم جرا من عذب العبارات التي تشدّك إليه شدّا.

ولد يوسف أسعد داغر في مجدلونا بإقليم الشوف بلبنان في شهر تموز (يوليو) ١٨٩٩، ودرس في «سيمنار القديسة آن» في القدس حيث نهل من الإنسانيات واللغات الحديثة والفلسفة والآداب الكلاسيكية. وفي عام ١٩٢٩ أوفدته الحكومة اللبنانية إلى باريس لدراسة علم المكتبات والأرشيف. وبعودته في أواخر عام ١٩٣١ عُيِّن أميناً مساعداً لدار الكتب الوطنية اللبنانية حيث بدأ اهتمامه الجادّ بالببليوغرافية، وعكف على إعداد آلافٍ من الفيشات والمداخل للأعلام والكتب والموضوعات المتخصصة مثل موضوع «الديمقراطية» و«الهجرة» و«المسرحية» و«أبي العلاء» و«السودان» وغير ذلك من الموضوعات التي انتظمتها كتبٌ ببليوغرافية مستقلة صدرت فيما بعد.

وعمل بين عامي ١٩٣١ و١٩٥٠ أميناً لدار الكتب اللبنانية، وانتقل عام ١٩٥١ إلى مكتبة الجامعة اللبنانية أميناً لها حتى عام ١٩٥٣. وتواصل مع هيئة اليونسكو ومع جمعية عالم المكتبات، وزار أهمّ المكتبات في العالم. وفي عام ١٩٥٢ اختير مستشاراً لقسم شؤون الشرق الأدنى في مكتبة الكنغرس الأميركية.

كان يوسف أسعد داغر يُجيد اللغة الفرنسية، ويلمّ باللغات اللاتينية واليونانية والإسبانية والإيطالية والإنكليزية. وانتهز فرصة إقامته سنة في الولايات المتحدة للعكوف على إتقان اللغة الإنكليزية. وفي رسالة منه مُرسلة من بلطيمور

يقول: «أنا أعمل وأدرس في البيت وأحاول أن أجيد الإنكليزية كتابةً وفهماً، وأن أُغني محصولي من مفرداتها، وأن أطّلع على دقائق اللغة من صرف ونحوٍ وبيان. وقد قطعت شوطاً كبيراً في هذا المجال. وتنويعاً للمعجمية عندي، فأنا أطالع كتباً في موضوعات شتّى: في العلم والاجتماع والفضاء والفلك لاختزان أكبر عددٍ من المفردات والاصطلاحات العلمية».

أما الدرجات العلمية التي يحملها فهي ليسانس في التاريخ مع التخصص في تاريخ الشرق الأوسط، وشهادة في المكتبات من L'Ecole Nationale des Chartes في باريس، ودبلوم في المكتبات من مدرسة باريس لأعمال المكتبات ـ وشغل عضويات كثيرة كعضويته في الشعبة الوطنية اللبنانية لليونسكو، واتحادات المكتبات الأميركية والبريطانية والفرنسية، والجمعية الشرقية الأميركية في نيوهافن، والمجلس التنفيذي لفرع نادي القلم اللبناني.

وفي أثناء الأحداث الجهنمية التي اجتاحت لبنان، اقتحم داره في حي رأس بيروت مسلّحون بالمدى بقصد السرقة، ولم يشفقوا على شيخوخته، فانهالوا عليه وعلى زوجته بالمدىّ قاصدين اغتيالهما، ولكن أمكن إنقاذهما بعد قضاء عشرة أيام في المستشفى. وإزاء إلحاح ولديه الطبيب الأميركي فؤاد داغر والمهندس الزراعي الدكتور نهاد داغر عميد كلية الزراعة في جامعة بيروت الأميركية، سافر إلى الولايات المتحدة حيث أمضى سنة كاملة (١٩٧٩ ـ ١٩٨٠). وعوضاً عن أن يجنح إلى الراحة والاستجمام، عكف على استكمال مادة الجزء الرابع من كتاب «مصادر الدراسة الأدبية» (الذي نشر بعد وفاته) وأعدّ للنشر كتاباً جديداً عنوانه «أصول الثقافة المكتبية» وهو يتناول جميع شؤون المكتبات حتى مطلع القرن التاسع عشر. وعن هذا الكتاب قال في إحدى رسائله: «أردت أن أُنهي نشاطي في حقل التأليف بكتاب حول المهنة، مهنة المكتبيين التي مارستها عشرات السنوات، وتركت عليها طابعي وعملي كببليوغرافي وموّثق كان رائداً في حقل المكتبات في العالم العربي. أقول هذا أمامك يا أخي بكل تواضع وبفخرٍ كذلك ـ وليس بين الوصفين تعارض أو تصارخ ـ دهنك في المعجن ـ كما قيل ـ بعض العجين، قد يختمر ويطلع هذا خبزاً سائغاً إذا سمح ربك وأنسأ في الأجل». كما قطع شوطاً كبيراً في كتاب باللغة الإنكليزية عنوانه Who's Who in Modern Arabic - Literature وهو يضم ٣٠٠٠ مدخل أنجز منها نصفها. كما أعد مخطوطة كتاب عنوانه «المذكرات التاريخية وأصحابها

في الأدب العربي الحديث». وصنّف معجماً ضخماً باللغتين الفرنسية والعربية. كل هذا أنجزه في رحلته الأميركية التي دامت سنة واحدة.

أما المخطوطات التي سبق له إنجازها فمنها سلسلة من الكتب عن المؤلفين اللبنانيين في اللغات المختلفة، في الفرنسية وتضم ٣٠٠٠ مدخل، وفي العربية وهي في عشرة أجزاء، وفي الإنكليزية واليونانية واللاتينية. كما أنجز ببليوغرافية شاملة حول المرأة العربية عموماً والمرأة اللبنانية خصوصاً من عام ١٨٥٠ وإلى الوقت الحاضر، وتضم ٤٠٠٠ مدخل بين كتاب ومقال وتقع في ٢٠٠٠ صفحة وهي لحساب معهد الدراسات النسائية في كلية بيروت الجامعية.

أما كتبه المنشورة فأهمها «مصادر الدراسة الأدبية» الذي ظهرت منه أربعة أجزاء، و«قاموس الصحافة اللبنانية» و«معجم المسرحيات العربية والمعربة ١٩٤٨ ـ ١٩٧٥» و«معجم الأسماء المستعارة وأصحابها» و«الأصول العربية للدراسات السودانية» و«٣٥٠ مصدراً في دراسة أبي العلاء المعري» و«الديمقراطية في المكتبة العربية» وغيرها.

وكان يوسف أسعد داغر قد أجرى جراحات في عينيه أوهنت قدرته على متابعة أعماله في الرصد والتسجيل والضبط. ولهذا أَسَرَّ إليّ في إحدى رسائله من بلطيمور قائلاً: «من الأمور التي نَغَّصتني قبل مغادرتي بيروت تخليَّ عن مكتبتي الخاصة التي بعتُها إلى إحدى المؤسسات الرسمية التابعة للحكومة اللبنانية، وكانت تضم ٧٠٠٠ مجلد غزيرة بمفرداتها ومجموعاتها، وغنية جداً بأصول علم المكتبات وعلم الفهارس وأنواع الفهارس والببليوغرافية والتاريخ والتربية. بعتها لأنني لا أرضى أن تذهب بدداً وأنا في أميركة، وقد يطول غيابي عنها سنوات. فأخذتُ هذا التدبير على مضض، وهو على ظني تدبير حكيم. فاتجاه البنين العلمي غير اتجاهي الأدبي. فإذا خرج من الأحفاد مَنْ عاد إلى الجذور، بَنَى هو لنفسه مكتبته وأدوات مراجعه».

وبعد عودته من أمريكة في عام ١٩٨٠ تسارعت أيام عمره الباقية إلى آخر هذا العام، وفاضت روحه في اليوم الأول من كانون الثاني ١٩٨١ عن اثنين وثمانين عاماً، كما قدمنا.

وما أكثر ما رجعت إلى كتب يوسف أسعد داغر الثمينة كلّما أعوزني أن أتحقق من سيرة أديب، أو أن أدلّ الباحثين إلى المراجع الموثقة التي سجلها داغر بقدرة إعجازية في عشراتٍ من مصنفاته. وعندما أصدر إلياس أنطون إلياس

(١٩٧٢ ـ ١٩٥٢) الطبعة الرابعة من قاموسه العصري عام ١٩٤٣ وصفه العلامة العراقي الأب أنستاس ماري الكرملي (١٨٦٦ ـ ١٩٤٧) بقوله «إنه معجم حي لا معجم ميّت» لأنه يضيف في كل طبعة جديدة المصطلحات والعبارات التي دخلت في التداول العام ولم تكن معروفة من قبل. وكم أتمنى أن يُقال عن كتب يوسف أسعد داغر إنها مصادر حيّة، ذلك لأن تقادم العهد بصدورها قد جعلها محصورةً بالضرورة في فترة زمنية محدودة سابقة، في حين أن مواكب الضاد يتواصل سيرها وتتسع دائرتها. ولهذا صارت هناك حاجة ملحّة إلى استيفاء مواد هذه الكتب ـ وأغلبها نافد ـ كيما تشمل كل المداخل التي جدّت منذ صدور الطبعة الأولى وحتى صدور الطبعة الجديدة، وهو عمل لن يتأتّى إنجازه إلّا على أيدي فريق متخصص من الباحثين يُستعان فيه بقدرة أجهزة الكمبيوتر على الاستيعاب والشمول، بمعنى ألّا تجيء أي طبعة ثانية إلّا وقد استوفت مادتها تماماً إلى آخر يوم، ولا سيما لأنه لم تصدر في حياة المؤلف أي طبعة ثانية لأي كتاب من كتبه. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإنني أضم صوتي إلى أصوات الغَيارَى من الأدباء، وفي طليعتهم الدكتور ميشال جحا، الذين دعوا إلى ضرورة الإسراع بطبع جميع الكتب المخطوطة التي توفي عنها يوسف أسعد داغر دون أن ترى النور، وذلك خدمةً للباحثين من جامعيين وسواهم. وفي هذا يقول الدكتور ميشال جحا (في «الحياة» عدد ١٥ شباط (فبراير) ١٩٩٥) إنه «ينتظر أن تتصدّى مؤسسة أو هيئة علمية لإكمال العمل الضخم الذي نهض له ووقف حياته في سبيل تحقيقه». وعسى ألّا يطول هذا الانتظار. ففي الغرب تخضع كتب المصادر لمراجعات وإضافات واسعة، حتى إن الطبعة الجديدة تكاد تخرج في مثلي حجم الطبعة السابقة وربما في ثلاثة أمثال حجمها.

وإذا كان تاريخ يوسف أسعد داغر قد خلا من أوسمة التشريف أو جوائز التقدير المادّي أو المهرجانات الاحتفالية، فإن أعظم تقدير لعمله هو إخراج هذه النفائس في طبعات جديدة مزيدة منقحة مضبوطة استكمالاً للرسالة التي توخّاها يوسف أسعد داغر في عمره الحافل بجلائل الأعمال المنهجية الموسوعية الدؤوبة[١].

---

(١) علمت مؤخراً أن سلسلة «مصادر الدراسة الأدبية» أعيدت طباعتها بنصها الأصلي في مجلد واحد.

يوسف جوهر

أديب كبير تواضع حظه من عناية النقّاد والدارسين

إذا كان لكل فنٍ آباء، فإن يوسف جوهر من آباء الفن الروائي العربي الذين اضطلعوا فيه بدور الريادة والسبق، وكانت لهم فيه آيادٍ بيض على مدى يقرب من ستين عاماً.

بدأ يوسف جوهر مسيرته في هذا الدرب منذ الثلاثينات من هذا القرن، حين شرع ينشر أقاصيصه في «مجلتي» لصاحبها أحمد الصاوي محمد. وذهب في إخلاصه لهذا الفن إلى حدّ هجرة المحاماة التي مارسها حيناً من الزمن ثم فزع منها إلى فنون الرواية بعدما تأهب لها بكل أدواته: فبيانه عربي ناصع مطواع، وحبكته الروائية شديدة الإتقان، وقدرته على سبك الوقائع الروائية التي يستقيها من أحداث الحياة الجارية قدرة أستاذية، وموهبته في إثارة أسباب التشويق لدى القارئ موهبة فطرية، هذا إلى قدرة على التنويع في الشخوص بحيث لا تتكرر في أعماله الروائية المختلفة، كل هذا مع استعداد طيّب للسخرية ولإبراز المفارقات، فضلاً عن استخلاص العبرة من تجارب الحياة بتلقائية تفرض نفسها، وليس بإلقاء المحاضرات وتلقين المواعظ، مع حرصٍ شديد على الابتعاد عن الإسفاف أو الخوض في المباذل ـ وهي التي تُغري بعض كتاب القصّة بتجسيمها بل بإدارة موضوع القصة كلّه حولها باعتبارها محورها الرئيسي.

قرأت ليوسف جوهر للمرة الأولى وأنا طالب جامعي (بين عامي ١٩٣٩ و١٩٤٢) فاستهواني أسلوباً وموضوعاً حتى إذا ما طلب مني أستاذ الدرامة الإنكليزية اختيار أقصوصة عربية ونقلها إلى اللغة الإنكليزية وقع اختياري على أقصوصة أعجبتني ليوسف جوهر منشورة في مجلة «الاثنين» التي كانت تصدر وقتها عن دار الهلال. وقمت بترجمة هذه الأقصوصة فنالت إعجاب الأستاذ الأمريكي الذي قال لي: إن هذا النمط الرفيع من الكتابة يؤهّل صاحبها للعالمية.

ولم أكن وقتها أعرف يوسف جوهر إلّا بالاسم، ولكن اتفق بعيد ذلك أن دعاني بعض الشبيبة إلى حضور محاضرة ليوسف جوهر في ناديهم، فرحبت بدعوتهم ونعمت مع الحاضرين بحديثه العذب الذي صاغه في قالب روائي، ثم خَلَوْنَا إليه بعد المحاضرة في لقاءٍ أدبي حميم، ومنذ ذلك الحين انعقدت بيني وبينه صداقة لم تنفصم عراها حتى غادر الدنيا في ١١ سبتمبر (أيلول) ٢٠٠١، سداها الإعجاب بخلقه السامي، ولحمتها الإعجاب بأدبه الرفيع.

وهذا الإعجاب بأدبه الرفيع هو ثمرة متابعةٍ حثيثة لمسيرة هذا القاص المبدع الذي امتلك ناصية التقنية الروائية، سواء وهو يكتب أقصوصة أو رواية أو نصاً سينمائياً ممّا يسمونه «بالسيناريو». فهو أمين على أداء رسالته، لا تستهويه الاعتبارات التجارية، ولا ينساق وراء الشهرة العارضة التي تُقتنص من أي سبيل.

وقد هالني ـ وهو من المفارقات الغليظة ـ أن يكون حظّه من عناية الدارسين والنقّاد حظاً شديد التواضع، إن لم يكن محاولةً منهم لإهماله وجحد فضله. وكنت أعزو هذا إلى افتقاره إلى أسلحة العلاقات العامة وترفعه عن مطاردة النقاد والمشرفين على الصفحات الأدبية لكي يقوموا «بتلميع» اسمه وتسليط الأضواء عليه، هذا في الوقت الذي كان فيه الدكتور طه حسين يصرّ على ألّا يكتب سيناريو رواياته التي حُوّلت إلى أفلام سينمائية إلّا يوسف جوهر وحده، اطمئناناً من عميد الأدب العربي إلى تفرّد يوسف جوهر بالقدرة التامة على نقل النصّ المكتوب إلى عملٍ سينمائي خلوٍ من التشويه، مع استخدام لغةٍ للحوار يرتاح إليها طه حسين.

بل إن فوز يوسف جوهر بجائزة الدولة التقديرية لم ينبّه الدارسين إلى تقصيرهم في حق هذا الأديب الكبير، فبقي حيث هو منكور الفضل مبخوس الحقوق.

والحقيقة أن هناك كثيرين من الأدباء والشعراء الذين عاشوا وملأوا الدنيا ثم غفلت عنهم عيون الدارسين وباتوا من مظاليم الأدب. ومن قبيل التمثيل أذكر بعضاً ممن عرفت مثل محمد سعيد العريان، وعادل الغضبان، ومحمد عبد الغني حسن، ومحمد الأسمر، والعوضي الوكيل، ونقولا يوسف، وعبد الرحمن صدقي، ومحمد مصطفى الماحي، ومحمود غنيم... والقائمة طويلة.

ومن فترةٍ قريبة تلقيت محادثةً هاتفية من طالبة جامعية في قنا ـ اسمها إيمان محمد إلياس ـ قالت فيها: إنها تعدّ أطروحةً جامعية عن يوسف جوهر، وإنها لم تجد مشقة في الوقوف على آثاره بعدما طُبعت ثمانية أجزاء من مجموعة هذه الآثار الكاملة بالإضافة إلى مجموعة أخرى نشرها مركز الأهرام للترجمة والنشر بعنوان «شخلول وشركاه»، ولكن أعياها أن تعثر على كلام ذي شأن لنقّاد الأدب يمكن الاعتداد به في دراسةٍ جامعية منهجية كدراستها. وقالت إنها راجعت نسبةً كبيرة من المؤلفات التي وُضعت حول الأدب الروائي ونقده، ففجعتها ظاهرة الإهمال شبه الكامل ليوسف جوهر، ممّا اضطرها إلى الاتصال الشخصيّ بالنقاد عساها تظفر من كل منهم برأي مكتوب تستعين به في إعداد أطروحتها في الإطار العلمي السليم. فجاء اكتشافُها المتأخّر لهذه الحقيقة معزّزاً لاكتشافي المبكّر لها. فكيف غاب النقد الأدبي تماماً عن عالم يوسف جوهر (وأيضاً عن عالم الروائي الكبير أمين يوسف غراب؟) وكيف سكت أرباب الأقلام من الدارسين عن العناية بهذا الركن الركين من أدب الرواية والأقصوصة؟ وهو ما يفجّر قضية صارخةً في أدبنا المعاصر، وهي أن الآثار الأدبية إنما تُعامل من جانب النقّاد بكيليْن: إسرافٌ هنا وتقتير هناك، وأضواء ساطعة هنا وتعتيم هناك، مع أن مهمة النقد الأساسية هي وضع كل كاتب في موضعه الصحيح استناداً إلى عمله وليس إلى علاقاته أو نفوذه أو منزلته في «سيرك» المجتمع، واكتشاف الأدباء حتى وإنْ كانت لهم شهرة خاملة.

وإن استحال التمثيل على أدب يوسف جوهر من مجمل آثاره، فقد اخترتُ نموذجاً من أعماله هو رواية «أمهات في المنفى» لأقول فيها كلمة إنصاف يرضى عنها ضميري، ولأحاول بذلك تدارك ما اجترحته من تقصير متطاول في حق يوسف جوهر، وإن كان عذري أنني لست ناقداً محترفاً، كما أن أسباب النشر كثيراً ما تدير ظهرها لي.

«أمهات في المنفى» رواية استمدّت وقائعها من البيئة المصرية الصميمة بعدما انجرفت في تيّار المادة الطاغي، فضاعت القيم الأصيلة الراسخة من تراحم وودّ وعطف ومشاركة إنسانية ووجدانية، وتضحيةٍ تصل إلى حدّ البذل والفداء، وشهامة أريحية تلقائية، وأصبحت المادة هي القيمة العليا في الحياة، يطلبها الناس اطلاباً، متوسّلين إلى ذلك بالمشروع من الوسائل وغير المشروع منها ـ وهو الأرجح الأعمّ.

كانت الأسرة المصرية التي أدار يوسف جوهر حولها وقائع هذه الرواية - والأسرة كلّها هي «البطل» في هذا العمل الفنّي - تعيش مستورةً في بيتٍ متماسك بفضل القيم الروحية والدينية المتأصّلة في الأب - وهو رجل قانون يعرف الحدود والحقوق ويرعاها - وزوجته التي لا تكفّ عن الصلاة والصوم والدعاء، وابن لهما يدرس الطب، وإن اخترمه المنون قبل الأوان، وثلاث بنات ليس في سمعتهن ما يَشين.

وبوفاة الأب والابن وزواج البنات انفرطت حبّات العقد التي كانت تجمع الأسرة تحت سقف واحد، وبقيت الأم وحيدة تجترّ الذكريات في بيتٍ يضم تسع غرف، مستأجر من سنوات طويلة بإيجار زهيد. وفي حين هاجرت واحدة من البنات إلى أمريكة، عاشت الثانية في حي شبرا الشعبي مع زوج يعمل كاتباً بسيطاً في المحكمة، وأقامت الثالثة في الثغر السكندري إذ كان زوجها يعمل موظفاً في الجمرك.

وعندما تعرّض المجتمع للهجمة المادية الشرسة التي عصفت بكل متعارف عليه من أصائل القيم، ومُتوارث الفضائل، رأت البنتان أن البيت الذي يؤوي أمهما في شارع رئيسي من شوارع القاهرة يمثل ثروةً مُهدرةً تنقلهما - إنْ ظفرتا بها - من مستوى الطبقة المتوسطة إلى مستوى الطبقة اللاعبة بالأموال. فقامتا ببيع البيت دون استشارة الأم، وعلى الرغم من معارضتها الشديدة، لأن البيت هو بيت الذكريات الجميلة التي لا يصحّ التفريط فيها. ولكن الأمر كان قد تقرّر فعلاً، فبيع البيت، وتحوّلت مقتنياته من الأثاث إلى «كراكيب» جرى التخلّص منها لدى باعة «الروبابيكيا» - أو سَقَط المتاع - وصارت الأم «مَلْطَشَةً» تنتقل كالضيف الثقيل من بيت الابنة في شبرا إلى بيت الأخرى في الإسكندرية، تراقب عن كثب وفي غيظ مكتوم كيف أطاحت الثروة المفاجئة بصواب الابنتين، ففتحت السكندرية بيتها للمقامرين والمرتشين والمهرّبين وعشاق الترخُص الأخلاقي، وتحول زوج الثانية إلى مزوّرٍ ومعاقر للمخدرات في حين تورطت زوجته في علاقة آثمة مع شاب إيطالي تخلصت من آثارها بالإجهاض أولاً ثم بالانتحار في آخر الأمر.

ولمّا ازداد النهم إلى المال، انفضح أمر المقامرين والمهربين فاستقرّوا في غياهب السجون ولقيت الابنة الباقية من شقيقتها المهاجرة ترحيباً بالانضمام إليها.

أمّا الأمّ، فقد أودعت بيتاً للمسنّات تقضي فيه بقية عمرها منبوذة من ذوي الأرحام، نادبة حظوظها في الحياة.

وعبرةُ الرواية هي أن المال لم يكن نعمة لأصحابه بل كان نقمة عليهم، وأنه لم يجلب السعادة بل جلب معه التعاسة، وأن مُتع الدنيا استحالت إلى عذاب مقيم.

هذا ـ بإيجاز مخلّ ـ هو موضوع رواية «أمهات في المنفى» التي نسج خيوطها يوسف جوهر باقتدارٍ أستاذي وبأسلوب هو من أنصع الأساليب وأنقاها في الأدب الروائي العربي عامةً. وإذا بحثتَ في الرواية عن مواقف افتعلها المؤلف وتعارضت مع المنطق، أعياك البحث. وإذا تربّصت للمؤلف عساك تعثر على مصادفات لفّقها لكي يتخلّص من مأزقٍ في سلسال الرواية، لم تعثر على شيء. وإذا نقّبت عن عبارةٍ نابية انزلق إليها قلم الكاتب، فلن تقع على شيء من هذا القبيل. فالرواية متماسكة تطّرد مع أحداثها اطراداً منطقياً سلساً، وتترابط وقائعها ترابطاً محكماً، وليس فيها شخوص أُقحموا دون مسوّغ فنّي على أحداث الرواية.

وليس يخلو أسلوب يوسف جوهر من سخريةٍ واضحة تنساب في سياق السرد الروائي وهي تمثل في حقيقتها «موقفاً أخلاقياً» من جانب المؤلف إزاء واقعةٍ معيّنة عرضت له. ومن سخرياته أنه كثيراً ما يستخدم تعبيرات الصحف الدارجة إحكاماً لمقاصده، فيقول مثلاً إن المدين «لم يجدول» ديونه، وإن هناك «استراتيجية» لا تخفى حكمتها على اللبيب، وإن الممثلة الناشئة «لم تقدّم تنازلات»، وإن «وراء كل مرتشٍ عظيم امرأة» وإن الدكتور «أعطى لشرف المهنة إجازة»، وهلم جرّا.

وقد يسأل القارئ: إلى أي مذهب من المذاهب تنتسب رواية «أمهات في المنفى»؟ والجواب الأكيد هو أنها رواية واقعية، بل صارخة في واقعيتها، لأن جميع أحداثها قريبة المنال. وليس لعنصر الخيال دورٌ فيها أو في اختلاقها. ويكاد المرء يصادف في معاملاته اليومية شخوصاً كشخوص يوسف جوهر بجميع الخصائص التي صوّرها لهم دون مبالغة. وإذا كان جميع شخوص هذه الرواية يمثلون الانحراف بدرجاته المختلفة، فإن الأمّ المؤمنة هي وحدها التي بقيت

مستمسكة بعرى الأخلاق - على غيظٍ كامن واستسلام لا معدى عنه - ومع ذلك فوجئت بالصحف تنشر فضيحة اكتشاف أرملة محام - وهي الأم - تدير بيتها مع ابنتها لممارسة القمار! ذلك أن ابنتها وزوجها حرّرا عقد الشقة باسم الأم تفادياً للتبعات القانونية. وهكذا لوّث اسم الأم دون جريرة، ودفعت ثمن صلابتها الأخلاقية حين تُخلي عنها في منفى يسمونه «بيت المسنات». وإذا كانت الابنة التي هاجرت إلى أمريكة سلمت بدورها من هذا العفن الخلقي، فهي سرعان ما تطبعت بطبائع الحياة في المهجر، وتخلّت عن أمها في أيام عمرها الأخيرة.

كما أن في الرواية مفارقات مضحكة ساقها المؤلف من قبيل التدليل على أن هناك خللاً جذرياً أصاب المجتمع وتجلّى في العمل الروائي. فالخادمة قد تحوّلت إلى سكرتيرة يتبارى المقامرون في خطب ودّها. وخادمة أخرى تحوّلت إلى زوجة لرب البيت لترعى أولاده بعد انتحار زوجته حتى لا تكون سيرتُها مُضغةً في الأفواه إذا ما عملت في بيت رجل أعزب. وكاتب المحكمة فتح مكتباً للمحاماة، واستخدم فيه محامياً ناشئاً يدفع له خمسين جنيهاً شهرياً، فيقوم الكاتب بإعداد المذكرات والإعلانات بخبرته التي حصّلها من العمل كاتباً في المحكمة، في حين يقوم المحامي بالتوقيع على هذه الأوراق لإكسابها الشكل القانوني. فإذا استقلّ المحامي بعد ذلك بمكتب خاص به، استخدم نفس هذا الكاتب عنده بأجر شهري قدره عشرون جنيهاً!

هذه المفارقات هي «توابل» في رواية «أمهات في المنفى» وإنْ كانت تشكّل جزءاً من التصميم الروائي الذي تكتمل به صورة التفسخ الفاجع الذي عرا هذه الأسرة التي لها أشباه كثيرة في الواقع. فالمؤلف لم يبتكر هذه المفارقات من خياله المنسرح، وإنّما سجل صورتها الناطقة من منظورٍ كاشف وليس من منظور «عين الرضا» التي تكل عن وصف كل عيب، وتتستر على كل عمل مذموم تضجّ منه نواميس الأسوياء من البشر.

ورواية «أمهات في المنفى» مَعْرضٌ لصنوفٍ من البشر يختلفون في منابتهم ولكنهم يتفقون في مشاربهم. فهناك ثري الحرب الأميّ، والطبيب المنحرف، والزوجة الصورية لتسهيل عقد الصفقات، وهناك كاتب المحكمة الذي يعامل الناس بمقدار ما يدسّونه له من رشاوى في درج مكتبه المفتوح، وهناك البلطجي «قُفَّة» الذي يترفق بضحيته مقابل الفلوس، وهناك النصّاب الذي يستولي على

مدخرات البسطاء ويهرب إلى الخارج، وهناك رجل الدين البسيط الحال الذي يشكو قلّة الأجر وكثرة العيال الذين يفتكون بحلّة العدس وهي تغلي، ثم يسأل: «هل نضع للحلّة قفلاً أو نضعها في حراسة الجيران؟». وهي شخصيات متفرّدة قلّ أن يجتمع مثلها في عمل روائي واحد، وإنْ حفل المجتمع بصنوفٍ كثيرة منها. ولا يشذّ عن هذه الشخصيات إلّا الأم المسكينة «صفية» التي لم يبق لها في منفاها في بيت المسنات إلّا صورة ابنها الطبيب الراحل تتأملها وتضمها إلى صدرها وتنهمر من عينيها الدموع السخينات.

إن يوسف جوهر وهو من مواليد ١٩١٢ قد أتقن في هذه الرواية الفن الروائي حبكة وحواراً ووصفاً وتصويراً بحيث اطّردت الأحداث في تسلسل منطقي فيه كثير من الصنعة الأستاذية، وليس الاصطناع الناشئ عن العجز. وهو يمسك في يديه القادرتيْن بجميع خيوط الأشخاص والأحداث ليؤكّد الترابط والتماسك اللذين يحققان للعمل الروائي كل آيات الصدق. ولن تصادف في الرواية حشواً أو تزيّداً، لأن كل عنصر من عناصرها يخدم المعمار الشامل للرواية ببراعة واقتدار.

فإذا جئنا إلى عنوان الرواية وهو «أمهات في المنفى» عَنَّ لنا أن نسأل: مَنْ هنِ أولئك الأمهات؟ هل هن اللائي هاجرن إلى الخارج إيثاراً منهن لمنفى اختياري؟ أو أنهن نزيلات بيت المسنات، ومن جملتهن الأم التي غدرت بها بناتها؟ الأرجح أن المؤلف أراد بالمنفيات نزيلات بيت المسنين، وإن كنا لا نعرف شيئاً عن ظروف نفيهن. وسواء تشابهت ظروف نفيهن مع ظروف الأم «صفية» أم لا، فالمؤكّد أن بيوت المسنات، مهما توافرت فيها أسباب الراحة والعناية، هي المنفى الأرضيّ الذي يُفضي لا محالة إلى النفي بين القبور واللحود بعد وقتٍ يقصر أو يطول.

وصفوة ما يقال إن رواية «أمهات في المنفى» هي رواية تشدّ القارئ وتستهويه لقدرة يوسف جوهر على إضافة عنصر التشويق في كل فصل من فصولها، ولصدق الكاميرا الروائية التي يلتقط بها مناظره، ولامتلاكه لناصية البيان، يوظفه في خدمة الحوار والسرد أجمل توظيف وأبلغه.

فهرس المجلد الثاني

الموضوع	الصفحة
عبد الله كنّون	٥
عبد الله يوركي حلّاق	١١
الذائد عن حُرمَاتِ الضاد	١٨
عبد المسيح حدّاد	٢٣
كلمة في رثاء عبد المسيح حدّاد	٢٩
عثمان أمين	٣٥
عجاج نويهض	٤١
عدنان الخطيب	٤٨
عزيز أباظة	٥٥
علي أحمد باكثير	٦١
علي أدهم	٦٧
علي الغاياتي	٧٣
علي هاشم رشيد	٨٠
عيسى الناعوري	٨٦
فارس نمر	٩٢
الشاعرة فدوى طوقان ورحلاتها الجبلية الثلاث: الصعبة والأصعب والمنسية	١٠١
فؤاد بليبل	١١١
فؤاد صرّوف	١١٧
فيليب حتّي	١٢٧
قدري حافظ طوقان	١٣٣
قرياقص ميخائيل عمدة في لندن من صعيد مصر	١٣٩
كامل السوافيري	١٤٦
كريم تابت	١٥٣
محمد جميل بيهم	١٦٠

الموضوع	الصفحة

الدكتور محمد صبري السوربوني ١٦٥
عبد الغني حسن ١٧٢
محمد علي الطاهر ١٧٩
محمد لطفي جمعة ١٩٠
الناقد محمد مندور ١٩٦
محمود أبو الوفا ٢٠٣
محمود تيمور ٢١٤
محمود حسن إسماعيل ٢٢٠
مصطفى الشهابي ٢٢٦
الآنسة مي ٢٣٦
صالون مي وشهادات روّاده ٢٤٤
ميخائيل نعيمة ٢٦٠
نجيب العقيقي ٢٧٠
نجيب محفوظ عبد العزيز في بداياته ٢٧٧
نظير زيتون ٢٨٦
نقولا الحداد ٢٩٢
نقولا يوسف ٢٩٩
وداد سكاكيني ٣٠٦
وديع رشيد الخوري ٣٢٤
يعقوب العودات (البدوي الملثم) ٣٣١
يوسف أسعد داغر ٣٣٧
يوسف جوهر (أديب كبير تواضع حظه من عناية النقّاد والدارسين) ٣٤٣
* **فهرس المجلد الثاني** ٣٥١

عبدالله لنون عبدالله يوركي حلاق
عبدالمسيح حدّار رثاء عبدالمسيح حدّار
عدنان الخطيب عزيز أباظة علي أحمد
علي هاشم رشيد عيسى الناعوري
الشاعرة فدوى طوقان ورحلاتها الجبلية

ما ينعى على أبناء هذا الجيل
افتقارهم إلى التواصل مع الأجيال السابقة،
وهو ما أجتهد في تداركه في هذه الأحاديث
بحكم خضرمتي في الحياة الأدبية،
وإن كنت بقيت على الدوام على هامشها.

وديع فلسطين

- ولد في سوهاج في صعيد مصر عام ١٩٢٣م.
- التحق بالجامعة الأمريكية قسم الصحافة وكان متميزاً في دراسته، تخرج عام ١٩٤٢م بدرجة بكالوريوس في الصحافة والأدب.
- عمل في الصحافة في مختلف فروعها وشارك في تحرير أمهات المجلات العربية كـ (المقتطف) والمقطم.
- ساهم في الكتابة في معظم الصحف والمجلات العربية في الوطن العربي والمهجر.
- إشتغل مدرساً لعلوم الصحافة في الجامعة الأمريكية على مدى عشر سنوات.
- عمل في التأليف والترجمة، صدر له أكثر من أربعين كتاباً بعضها يحمل اسمه وبعضها الآخر لا يحمل اسمه منها (قضايا الفكر في الأدب المعاصر ومختارات في الشعر المعاصر وكلام في الشعر) وثلاثة كتب في فنون الصحافة.
- ساهم في إعداد بعض الموسوعات العربية المعاصرة.
- فاز بجائزة فاروق الأول للصحافة الشرقية عام ١٩٤٩م.
- انتخب عضواً في مجمعي اللغة العربية بدمشق وعمان.
- كرم مؤخراً في ندوة الاثنينية في جدة التي يعقدها الوجيه الشيخ عبد المقصود خوجة.

0601061